تمهيد

مع الكتب ـ ٢ ـ

« خمسون قارئا لكتاب رصين وخمسمائة قارىء لكتاب طريف »

(فولتير)

شغل أوجست فروجيه August Fruge منصب مدير النشر بجامعة كاليفورنيا لمدة تزيد على ربع قرن الى أن تقاعد عام ١٩٧٦ . ويعتبر ذلك المنصب من أهم مناصب الجامعات في الخارج ، ولذا يشغله في العادة واحد من العلماء الذين يجمعون بين التعمق في موضوع تخصصهم والساع الأفق وتنوع الثقافة ، وكثيرا ما يكون مدير النشر في الجامعة عضوا بمجلس الجامعة ، حيث يشترك في رسم سياسة النشر الاكاديمي الذي تتولاه جامعته والذي يتحتم أن يكون على درجة عالية جدا من التخصص والعمق والدقة ، نظرا لأن الكتب التي تنشرها الجامعة تعتبر دليلا على ارتفاع مستواها ، ومؤشرا على مكانتها العلمية . وبطبيعة الحال فان المطبوعات العلمية التي تنشرها الجامعات تكون موجهة الى صفوة المتخصصين ، وبذلك يكون انتشارها محدودا للغاية في أغلب الاحيان ، حتى في الحالات التي تتناول فيها هذه الكتب موضوعات ذات طابع عام فانها تعالج هذه الموضوعات بدرجة غير عادية من الدقة والتعمق والاحاطة . وهذا كله خليق بأن يخرج بهذه الكتب ـ الا فيما ندر ـ من فئة الكتب الواسعة الرواج ، وبذلك يظل توزيعها ، مهما عظم ، محدودا اذا نحن قارناه بالكتب التي تنشرها دور النشر التجارية . بما في ذلك دور النشر التي تعطي اهتماما خاصا للكتب (الرصينة) العميقة . وفي أواخر حياته أوصى فروجيه بانشاء هيئة لترويج الكتاب الجاد الذي لا يجد إقبالا شديدا من القراء ، واقترح أن تسمى تلك الهيئة أو الجماعة باسم « نادي الكتاب غير الرائج » أو « نادي الكتاب غير المحبوب» Unpopular Book Club أسوة بنوادي الكتب التي تتنافس على تقديم الكتب العامة المشوقة وغير المتخصصة التي تعمل على نشر الكتب غير المتخصصة لأعضائها بأثمان مخفضة أو حتى رمزية . وأوصى فروجيه كذلك أن تفتح عضوية ذلك النادي لكل من يريد الالتحاق به ، وان يقدم لكل عضو جديد ينضم اليه هدية

مجانية هي كتاب « براغيث شواطىء المحيط الهادىء » . وهذا الاقتراح الذي لا يخلو من طرافة يحمل في الوقت نفسه قدرا كبيرا من السخرية التي تكشف عن حقيقة الوضع وواقع النظرة الى الكتاب العلمي الاكاديمي الجاد الذي لايجد الا عددا قليلا نسبيا من القراء .

ويتم اختيار الكتب التي تنشر ضمن مطبوعات الجامعات في الخارج حسب محكات ومعايير دقيقة وصارمة . والأغلب أن يرسل أصل الكتاب الى اثنين من كبار العلماء المتخصصين في الموضوع لفحصه وابداء الرأي فيه ، فاذا اختلفت أراؤهما فقد يرسل الكتاب الى عالم ثالث لترجيح أحد الرأيين ، وذلك ان لم يرفض الكتاب أصلا . وكثيرا ما تحدث مفارقات طريفة نتيجة لاختلاف الرأي . من ذلك مثلا أن مطبعة احدى الجامعات الامريكية أرسلت مخطوطة كتاب الى عالم الاجتماع الامريكي الشهير ادوارد شيلز (وكان ذلك في الخمسينات حين كان شيلز أستاذا للاجتماع بجامعة شيكاغو) فأوصى بطبع الكتاب ونشره ، ولكن بعد أن كتب في تقريره انه يعتقد أن وجهة نظر المؤلف خاطئة من بدايتها الى نهايتها . ولكن العالم الآخر الذي اشترك في فحص الكتاب كان أقسى في حكمه ، وأعنف وأكثر صراحة ، وأوصى بضرورة رفض الكتاب لأنه « ليس علميا » بدرجة تبرر نشره في مطبعة جامعية . وأخذت الجامعة بهذا الرأي الثاني ورفض الكتاب ، ونشره صاحبه في دار نشر تجارية . والطريف في الأمر هو أن هذا الكتاب كان كتاب Eros And Civilization للفيلسوف الامريكي الشهير هربرت ماركوزه . فالجامعات تأخذ أول ما تأخذ في الاعتبار ان يكون الكتاب « أكاديميا » بالمعنى الدقيق للكلمة ، بحيث يكشف عن أرقى المستويات العلمية ، ويراعي في تأليفه كل القواعد والتقاليد الاكاديمية من الاحاطة بوجهات النظر المختلفة حول الموضوع ، مع ذكر الأسانيد والمراجع وما الى ذلك . أي أنه لا يكفي في العادة أن يكون ذلك الكتاب معبرا عن وجهة نظر معينة خاصة حتى وان كانت أصيلة كما هو الحال في كتاب ماركوزه الذي سبقت الاشارة اليه . والعادة أيضا ان يتولى فحص الكتاب علماء من غير الجامعة التي يعمل فيها المؤلف . وهذه مسألة تختلف كل الاختلاف عما يحدث في جامعاتنا العربية التي تأخذ « بمبدأ التحكيم » اذ كثيرا ما ترسل هذه الاعمال الى أساتذة يعملون في نفس الجامعة التي ينتمي اليها صاحب الكتاب ، بل وفي نفس القسم الذي ينتسب اليه ، مما يلقي كثيرا من الشبهات على الاحكام التي تصدر عن هؤلاء « الفاحصين » أو « المحكمين » . كذلك يراعى في الخارج أن تتم عملية الفحص أو التحكيم في سرية تامة ، بحيث لا يعرف المؤلف أسماء العلماء الذين يتولون فحص كتابه والحكم عليه . وهذا شرط قلما يراعى في جامعاتنا العربية التي تأخذ بنظام الفحص والتحكيم .

وعلى أية حال فان الآراء التي يبديها هؤلاء الأساتذة أو الفاحصون تعرض على مجلس للتحكيم يتألف من عدد من العلماء في مختلف فروع التخصص . وقد يصل أعضاء هذا المجلس في بعض الجامعات في الخارج الى أكثر من عشرة من العلماء البارزين ، الذين يوصون بنشر الكتاب أو رفضه استنادا الى التقارير الواردة . ولكن رغم هذا كله فان القرار الأخير في تنفيذ التوصية بالنشر يكون بيد مدير النشر أو مدير المطبوعات في الجامعة . وهو يأخذ في الاعتبار ليس فقط المستوى العلمي الذي حققه الكتاب ، بل وأيضا امكان توزيع الكتاب واحتمالات انتشاره ، ومدى اقبال القراء المتخصصين عليه . فعلى الرغم من أن انتشار هذا النوع من الكتب المتخصصة الدقيقة محدود بالضرورة ، ومع أن مطبعة الجامعة ليست مؤسسة تجارية فان مدير النشر يحرص على حصر الخسائر في أضيق نطاق ممكن . وقد تقوم بعض الجامعات بنشر الاعمال « غير الاكاديمية » أي الاعمال التي

تعتمد على الخلق والابتكار، مثل دواوين الشعر أو مجموعات القصص أو الروايات . ولكن هذه حالات استثنائية . ومع ذلك فان هذه الاعمال الادبية تعرض على عدد كبير من الأدباء أو الشعراء والنقاد لتقويمها قبل نشرها .

وواضح أن كل هذه الاجراءات التي تتبع في اختيار الكتب التي تنشرها الجامعات تؤدي في آخر الأمر الى عدم انتشار الكتاب الا في حدود ضيقة . وما يصدق على الكتب التي تطبعها الجامعات يصدق ايضا على الكتب العلمية أو الكتب الرصينة الجادة المتعمقة التي تصدر عن دور النشر التجارية وان كانت بدرجة أقل . ولكن هذه الكتب الرصينة العميقة تؤلف على أية حال نسبة ضئيلة جدا من مجموع ما تخرجه المطابع وما تصدره دور النشر كل عام ، وهي كتب تلقى الكثير من الرواج في معظم الاحوال . وليس من شك في أن العصر الذي نعيش فيه هو بحق عصر الكتاب ، وأن « صناعة » الكتب تعد من أكثر الصناعات رواجا وتقدما ، على الرغم من كل الصعوبات والمتاعب التي تمر بها في الوقت الحالي . بل ان صناعة الكتاب تمر في رأي بعض المفكرين بما يشبه الثورة ، لدرجة أن الكثيرين يستخدمون الآن بالفعل تعبير « ثورة الكتاب » للاشارة الى الاوضاع العامة التي تلابس تأليف الكتاب وطباعته ونشره وتوزيعه وشدة الاقبال عليه ، وهو وضع يختلف تماما عما كان سائدا حتى عهد قريب .

والمظهر الرئيسي لهذه « الثورة » هو ازدياد الاقبال على القراءة وعلى اقتناء الكتب ، والتسهيلات الكثيرة التي تلقاها صناعة الكتاب ، والتي تتمثل في تقدم أساليب الطباعة بشكل يتمشى مع ازدياد الاقبال على اقتناء هذه الكتب . ولقد كان للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على الحياة في القرنين التاسع عشر والعشرين دخل كبير في هذه « الثورة » . فالزيادة الهائلة في عدد السكان في العالم ، مع انتشار التعليم وتنفيذ مشروعات محو الأمية في المجتمعات المختلفة ، واتساع آفاق الثقافة وتنوعها ، أدت كلها الى ازدياد الاقبال على الكتب ، وبالتالي الرغبة في تيسير الحصول على تلك الكتب التي تحتاجها تلك الأعداد الكبيرة المتزايدة من السكان . وكما يقول روبير اسكاربيت Robert Escarpitt في كتاب مشهور عن « ثورة الكتاب » نشرته له اليونسكو في الستينات : « ان الكتاب هو انتشاره » ولن يحقق الكتاب وظيفته الا عن طريق ذلك الانتشار . فالكتاب لا يصبح كتابا الا حين يجد من يقرأه ، والا فانه يكون مجرد كلمات وألفاظ وحروف مطبوعة . وتاريخ الكتاب نفسه وما طرأ عليه من تغيرات وتحولات خير مصداق لهذا الكلام ، بمعنى ان هذه التغيرات والتحوّلات كانت تصدر دائما عن رغبة الانسان في كل العصور في العمل على نشر « الكتاب » بصرف النظر عن نوع « الكتاب » وشكله والمادة التي يصنع منها ، والأداة التي تستعمل في الكتابة والوسيلة التي تستخدم في نشره ، ابتداء من النقش على الجدران والصخور ، الى الكتابة على العظام ولفائف البردي والرق حتى استخدام الورق ، وكذلك ابتداء من استعمال أدوات الحفر الحجرية أو الحديدية ، الى الكتابة باليد ، الى الطباعة بأشكالها ومراحلها المختلفة ، حتى استخدام التصوير الضوئي وغيرها من الاساليب التكنولوجية الحديثة التي تهدف الى تسهيل وتيسير طبع الاعداد الكبيرة من النسخ وتيسير تداولها بين أكبر عدد ممكن من القراء . وكذلك ابتداء من قصر اقتناء الكتب على الطبقات الموسرة الغنية التي كانت تشجع الثقافة ومن يحيط بها من المثقفين القلائل المحظوظين ، حتى القارىء العادي الذي يتخذ الآن من القراءة وسيلة لتوسيع أفقه أو لتمضية أوقات فراغه . ولقد أصبحت القراءة « هواية » في الوقت الحالي لدى الكثيرين ، وأصبحت هذه الهواية « ظاهرة » من أهم ظواهر العصر الحديث في العالم الغربي على الأقل .

ويعتبر ظهور « سلاسل » أو « مجموعات » الكتب التي تباع بأسعار زهيدة نسبيا من أهم عوامل انتشار الكتاب ، وبخاصة الكتب العلمية التي كانت تباع عادة بأسعار مرتفعة جدا لا يقدر عليها ، وبخاصة في الوقت الحالي ، سوى فئات معينة من الناس . ومن الخطأ الاعتقاد بأن هذه « السلاسل » أو الطبقات « الشعبية » لا تنشر سوى الكتب الخفيفة أو الطريفة ، فكثير من هذه « السلاسل » تنشر كتبا رصينة لها قيمتها وعمقها ومكانتها في تاريخ الثقافة والعلم ، ولكن الانتاج الواسع الكبير ، وطبع هذه الكتب على ورق عادي رخيص ، وتغليفها بغلاف من الورق العادي بدلا من التجليد القاشر كل هذا يؤدي الى انخفاض الثمن وبالتالي الى سعة الانتشار والتداول . ومع أن هذه السلاسل انتشرت وتعددت وذاعت في العالم الذي بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص فان بداية ظهورها كانت أقدم من ذلك بكثير ، اذ ظهرت الفكرة ذاتها في أواخر القرن التاسع عشر حين كانت بعض دور النشر تصدر طبعات رخيصة لمجموعات من الشعر أو الكتب المشهورة ، وكانت النسخة الواحدة تباع في ذلك الوقت ببنس واحد في كثير من الاحيان . وقبل الحرب العالمية الثانية ذاعت المجموعة او السلسلة الشهيرة باسم Thinker's Library والتي كان يظهر على غلافها المقوى صورة لتمثال « المفكر » النحات الفرنسي الشهير رودان Rodin وكانت النسخة الواحدة تباع بشلن واحد رغم أن هذه السلسلة كانت تضم ضمن قائمة مطبوعاتها عددا من أفضل الكتب التي اكتسب بعضها شهرة كلاسيكية راسخة . كذلك الحال بالنسبة لسلسلة كتب بنجوين Penguin المشهورة التي كانت النسخة الواحدة منها تباع بستة بنسات أي بنصف شلن . وهكذا ، فكأن تاريخ الكتاب كان هو في الحقيقة تاريخ انتشاره وتيسير الحصول عليه وتداوله .

والملاحظ أنه على الرغم من ظهور وسائل جديدة كثيرة ومتنوعة ومشوقة لتوصيل المعلومات والثقافة ، مثل التلفزيون والراديو ، فان حركة طبع الكتب ونشرها وبيعها ظلت تتقدم باطراد وبخاصة في المجتمع الغربي الذي يشجع أعضاءه على القراءة منذ الصغر ، أي أن تعويد الطفل على القراءة وعلى الاطلاع وبالتالي اقتناء الكتب ينظر اليه في المجتمع الغربي كجزء من التنشئة الاجتماعية . ولكن كان يتعين على صناعة الكتب أن تطور نفسها ازاء هذه المزاحمة الخطيرة من وسائل الاعلام والثقافة الجماهيرية ، وبذلك دخلت تجديدات كثيرة على شكل الكتاب التقليدي مثل طريقة اخراج الكتاب ، وبخاصة الغلاف الخارجي الذي أصبح يعتبر الآن عملا فنيا رائعا في كثير من الأحيان . ولا يقتصر ذلك الاخراج الفني الجيد على كتب الثقافة العامة ، بل انه يمتد الى كثير من الكتب العلمية الجادة ؛ بل وأيضا الى الكتب المدرسية في بعض الدول الغربية كوسيلة لترغيب التلاميذ الصغار في القراءة وتكوين هذه العادة لديهم . وهذا يختلف كل الاختلاف عما يحدث في العالم العربي حيث لا يكاد الكتاب المدرسي يلقى أي عناية ، وانما يطبع على ورق رديء وبحروف رديئة ، ويتم اخراجه في شكل رديء كذلك ، مما ينفر التلميذ منه ومن القراءة بشكل عام . وربما كان ذلك أحد الاسباب التي تجعل القراءة لا تؤلف عنصرا في حياتنا اليومية كما هو الحال في المجتمعات الاكثر تقدما وتطورا .

بيد أن هذا لا يعني أن صناعة الكتاب لا تصادفها في الوقت الحالي أية صعوبات . اذ على الرغم من ازدهار هذه الصناعة والأعداد الكبيرة من الكتب التي تطبع كل عام في مختلف فروع المعرفة ، وعلى الرغم أيضا من انتشار الكتاب في كل أنحاء العالم ، حتى في العالم الثالث ، فان الكتاب يمر في الوقت الحالي بأزمة عارمة . والغريب في الأمر هو أن بعض العوامل التي تساعد على انتشار الكتاب وسهولة تداوله هي التي تسبب هذه الازمة وتحمل بين ثناياها عوامل الخطر الذي يهدد هذه الصناعة . فالتقدم التكنولوجي الذي أدى الى سهولة تصوير النصوص يؤدي في الوقت ذاته الى قلة رواج الكتاب ما دام القارىء يستطيع

تعتمد على الخلق والابتكار ، مثل دواوين الشعر أو مجموعات القصص أو الروايات ، ولكن هذه حالات استثنائية ، ومع ذلك فان هذه الاعمال الادبية تعرض على عدد كبير من الأدباء أو الشعراء والنقاد لتقويمها قبل نشرها .

وواضح أن كل هذه الاجراءات التي تتبع في اختيار الكتب التي تنشرها الجامعات تؤدي في آخر الأمر الى عدم انتشار الكتاب الا في حدود ضيقة . وما يصدق على الكتب التي تطبعها الجامعات يصدق ايضا على الكتب العلمية أو الكتب الرصينة الجادة المتعمقة التي تصدر عن دور النشر التجارية وان كانت بدرجة أقل . ولكن هذه الكتب الرصينة العميقة تؤلف على أية حال نسبة ضئيلة جدا من مجموع ما تخرجه المطابع وما تصدره دور النشر كل عام ، وهي كتب تلقى الكثير من الرواج في معظم الاحوال . وليس من شك في أن العصر الذي نعيش فيه هو بحق عصر الكتاب ، وأن « صناعة » الكتب تعد من أكثر الصناعات رواجا وتقدما ، على الرغم من كل الصعوبات والمتاعب التي تمر بها في الوقت الحالي . بل ان صناعة الكتاب تمر في رأي بعض المفكرين بما يشبه الثورة ، لدرجة أن الكثيرين يستخدمون الآن بالفعل تعبير « ثورة الكتاب » للاشارة الى الاوضاع العامة التي تلابس تأليف الكتاب وطباعته ونشره وتوزيعه وشدة الاقبال عليه ، وهو وضع يختلف تماما عما كان سائدا حتى عهد قريب .

والمظهر الرئيسي لهذه « الثورة » هو ازدياد الاقبال على القراءة وعلى اقتناء الكتب ، والتسهيلات الكثيرة التي تلقاها صناعة الكتاب ، والتي تتمثل في تقدم أساليب الطباعة بشكل يتمشى مع ازدياد الاقبال على اقتناء هذه الكتب . ولقد كان للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على الحياة في القرنين التاسع عشر والعشرين دخل كبير في هذه « الثورة » . فالزيادة الهائلة في عدد السكان في العالم ، مع انتشار التعليم وتنفيذ مشروعات محو الأمية في المجتمعات المختلفة ، واتساع آفاق الثقافة وتنوعها ، أدت كلها الى ازدياد الاقبال على الكتب ، وبالتالي الرغبة في تيسير الحصول على تلك الكتب التي تحتاجها تلك الأعداد الكبيرة المتزايدة من السكان ، وكما يقول روبير اسكاربيت **Robert Escarpitt** في كتاب مشهور عن « ثورة الكتاب » نشرته له اليونسكو في الستينات : « ان الكتاب هو انتشاره » ولن يحقق الكتاب وظيفته الا عن طريق ذلك الانتشار . فالكتاب لا يصبح كتابا الا حين يجد من يقرأه ، والا فانه يكون مجرد كلمات وألفاظ وحروف مطبوعة . وتاريخ الكتاب نفسه وما طرأ عليه من تغيرات وتحولات خير مصداق لهذا الكلام ، بمعنى ان هذه التغيرات والتحولات كانت تصدر دائما عن رغبة الانسان في كل العصور في العمل على نشر « الكتاب » بصرف النظر عن نوع « الكتاب » وشكله والمادة التي يصنع منها ، والأداة التي تستعمل في الكتابة والوسيلة التي تستخدم في نشره ، ابتداء من النقش على الجدران والصخور ، الى الكتابة على العظام ولفائف البردي والرق حتى استخدام الورق ، وكذلك ابتداء من استعمال أدوات الحفر الحجرية أو الحديدية ، الى الكتابة باليد ، الى الطباعة بأشكالها ومراحلها المختلفة ، حتى استخدام التصوير الضوئي وغيرها من الاساليب التكنولوجية الحديثة التي تهدف الى تسهيل وتيسير طبع الاعداد الكبيرة من النسخ وتيسير تداولها بين أكبر عدد ممكن من القراء ، وكذلك ابتداء من قصر اقتناء الكتب على الطبقات الموسرة الغنية التي كانت تشجع الثقافة ومن يحيط بها من المثقفين القلائل المحظوظين ، حتى القارىء العادي الذي يتخذ الآن من القراءة وسيلة لتوسيع أفقه أو لتمضية أوقات فراغه . ولقد أصبحت القراءة « هواية » في الوقت الحالي لدى الكثيرين ، وأصبحت هذه الهواية « ظاهرة » من أهم ظواهر العصر الحديث في العالم الغربي على الأقل .

وعلى أي حال فان هذه « الروائع » التي يصفها البعض بأنها « كتب رومانتيكية » وكذلك الكتب التي تتفنن بعض دور النشر الآن في طبعها واخراجها تقتنى في العادة لذاتها وليس لأي هدف آخر ، بمعنى أنها تقتنى بقصد المتعة اللحظية - أو حتى المتعة الحسية - التي يحصل عليها القارىء من شرائها وقراءتها بصرف النظر عما اذا كانت تفيده في حياته العملية أم لا . أي أنها تخرج بذلك من فئة « الكتب الوظيفية » التي سبقت الاشارة اليها والتي لا تخدم في العادة أي غاية جمالية أو فنية ، على الاقل بطريق مباشر .

ومع ذلك فقد يكون من التعسف التمييز القاطع بين هذين النوعين من الكتب : « الكتاب الوظيفي » والكتاب الذي يسمى أحيانا باسم « الكتاب الزينة » أو « الكتاب الشيء » حسب التعبير الفرنسي ، خاصة وأن تقدم فنون الرسم والتصوير والطباعة والاخراج كثيرا ما يضفي مسحة من الجمال والرونق على الكتاب الوظيفي ، بل وحتى على الكتاب ذي الغلاف الورقي ، بحيث يمكن استخدام هذا الكتاب في تزيين البيوت على الأقل حين توجد مكتبة في البيت . ولكن لابد من الاعتراف بأن التغيرات الجذرية التي طرأت على الحياة عموما كان لها تأثير قوي ومباشر على الكتاب الزينة او الكتاب الشيء ، اذ لم يعد هناك متسع لمثل هذا الكتاب ، لأن البيت الحديث الذي أصبح هو نفسه بيتا وظيفيا الى حد كبير لم يعد فيه مكان للكتب ، بمعنى انه لم يعد يسمح بانشاء مكتبة خاصة ضخمة كما كان عليه الحال من قبل ، وذلك اذا استثنينا بعض فئات قليلة من الأساتذة والمفكرين والكتاب . اما الرجل العادي أو المثقف العادي والقارىء العادي فانه لم يعد يقتني الكتاب لذاته ، ولم يعد يحتفظ به طويلا ، ولكنه يشتريه لكي يقرأه ثم يتخلص منه بشكل أو بآخر . وقد ساعد على ذلك كما ذكرنا من قبل - ظهور الطبعات الرخيصة ، او ربما كان الاتجاه لنشره واخراج مثل هذه الطبعات الرخيصة هو استجابة الى حد ما على الاقل لهذا الوضع الجديد .

ويضم هذا العدد من المجلة عددا من الدراسات التحليلية أو « العروض » لبعض الكتب التي ظهرت حديثا في الخارج . وشجعنا على اصدار هذا العدد ، الاستحسان والنجاح اللذان قوبل بهما عدد سابق مماثل . ونرجو أن نخصص من حين لآخر بعض أعداد المجلة لتقديم بعض مما تخرجه لنا المطابع في الخارج حتى نربط القارىء العربي بأحدث ما ينتجه الفكر الانساني في مختلف مجالات المعرفة .

***

نظرية المهملات والنفايات

« اني أحب التاريخ لأنه ... قديم »
(سائحة أمريكية)

أحمد أبوزيد

بدأت الانثربولوجيا في القرن التاسع عشر علما متخصصا في دراسة الانسان (البدائي) ونظمه الاجتماعية وثقافاته البسيطة ، وارتبط ذلك المفهوم بالعلم حتى منتصف هذا القرن أو ربما قبله بقليل ، حين أخذ الانثربولوجيون يوسعون من دائرة اهتماماتهم بحيث تناولوا في بحوثهم الثقافات المتقدمة والشعوب ذات الحضارات القديمة العريقة ، بل وأيضا النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات الصناعية المعقدة الحديثة . وكان اهتمام الانثربولوجيين الاوائل بدراسة الانسان البدائي نتيجة طبيعية للظروف التي كانت تسود في القرن التاسع عشر ، والتي تتمثل بوجه خاص في ازدياد حركة الكشف الجغرافي والاستعمار وبعثات التبشير التي أدت كلها الى ارتياد مناطق جديدة تماما ، والتعرف على شعوب وثقافات تختلف كل الاختلاف عن المألوف في الغرب ، مما دعا العلماء الى الاهتمام بدراستها . فلما تغيرت هذه الظروف والاوضاع نتيجة لاستقلال الشعوب (البدائية) من ناحية وازدياد الاحتكاك الثقافي بين هذه الشعوب والحضارة الغربية من ناحية أخرى ، وما تلا ذلك من تنفيذ الكثير من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وظهور عدد من الانثربولوجيين الوطنيين في افريقيا وغيرها من المناطق التي كانت تخضع للاستعمار . واهتمام هؤلاء الانثربولوجيين بدراسة مجتمعاتهم وثقافاتهم من زاوية جديدة وبهدف جديد هو التخطيط لتنميتها وتحقيق التقدم . كان لابد للانثربولوجيين الغربيين أن يوجهوا جانبا كبيرا من نشاطهم واهتمامهم الى المجتمع الغربي ذاته لدراسة ثقافاته ونظمه مستخدمين في ذلك أساليب وطرائق ومناهج البحث الانثربولوجي .

وليس معنى هذا أن علماء الانثربولوجيا المحدثين تنكروا للمبادىء الأساسية التي وضعها الرواد الاوائل ، وبخاصة فيما يتعلق بالبحوث الحقلية أو الميدانية . فلا يزال هؤلاء العلماء يفضلون دراسة الوحدات الاجتماعية الصغيرة وأشكال الحياة الاكثر بساطة ، ولا يزالون يعتمدون في جمع المعلومات الاثنوجرافية على الطرق والاساليب التقليدية ، وبخاصة الملاحظة بأنواعها

والمقابلات الحرة المفتوحة . ولكن طرأت مع هذا كله بعض تغيرات هامة ، سواء على موقف العلماء من دراسة هذه الاشكال البسيطة من الحياة الاجتماعية والنظم والثقافات ، أو على مناهج البحث التي يتبعونها في دراساتهم الحقلية . فقد بدأوا ينظرون الى دراسة الجماعات البسيطة على أنها الخطوة الأولى الضرورية لفهم المجتمع الانساني في عمومه ، وأنها مقدمة لتفسير وفهم الكثير من أنماط السلوك السائدة في المجتمع الغربي نفسه . واذا كان كبلنج Kipling يقول « ان ما نتعلمه من الرجل الأصفر أو الأسود سوف يساعدنا كثيرا في فهم الرجل الأبيض » فان أستاذا مثل ايفانز بريتشارد Evans-Pritchard يقول في كتابه « الانثروبولوجيا الاجتماعية » الذي لا يزال يعتبر من أفضل المداخل الى هذا العلم ان لم يكن أفضلها جميعا « ان ما نعرفه عن مجتمع معين بالذات قد يفيد في التعرف على مجتمع آخر ، وبالتالي على كل المجتمعات الأخرى ، سواء في ذلك المجتمعات التاريخية أو المجتمعات المعاصرة » (انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب . الطبعة الاولى ١٩٥٨ منشأة المعارف بالاسكندرية ص ١٨٢) ثم يضيف بعد ذلك : « ان الانثروبولوجيا تتيح لنا أن نرى الجنس البشري ككل . ذلك أننا حين نعتاد على الطريقة التي ننظر بها الى الثقافات والمجتمعات الانسانية نستطيع ان ننتقل بسهولة من الجزيء الى العام ثم بالعكس . فحين نتكلم عن العائلة مثلا فاننا لا نقصد فقط العائلة بالمعنى المألوف في أوربا الآن ، وانما نقصد النظام الكلي الذي تعتبر العائلة الأوربية مجرد شكل خاص منه ، له خصائصه ومميزاته .... فعن طريق فهم الثقافات والمجتمعات الأخرى يستطيع المرء ان يرى ثقافته ومجتمعه من كل الزوايا والنواحي ، وأن يفهمهما فهما أفضل في ضوء كل التجربة والجهود البشريين ... فالدكتورة مارجريت اكتسبت بعض الفهم للمشكلات المتعلقة بالمراهقة في أمريكا ، ومالينوفسكي سلط بعض الأضواء على مشكلة البواعث في الصناعة البريطانية بدراسته لنظام تبادل الأشياء التذكارية عند التروبرياند . كما أعتقد أنني اكتسبت شيئا من الفهم عن روسيا الشيوعية بدراسة العين الشريرة والسحر عند الازاندي . والخلاصة من كل ذلك هي ان الانثروبولوجيا الاجتماعية تساعدنا على الوصول الى فهم أفضل وأعمق لذلك الكائن العجيب الرائع الذي نسميه بالانسان في كل مكان وزمان (صفحة ٨٤) .

ونتيجة لذلك اتجه كثير من العلماء المحدثين الى دراسة المجتمعات المتقدمة ذات الحضارات القديمة في ضوء النظريات التي وضعها الأساتذة الكبار الذين درسوا في معظم الأحيان تلك المجتمعات (البدائية) . وكان الغرض من هذا الاتجاه هو اختبار مدى صدق هذه النظريات ومحاولة الوصول الى قوانين عامة كلية تصدق على المجتمع الانساني بأسره . ومن هنا ظهرت ـ على سبيل المثال ـ دراسات ميدانية عن نظم التبادل والتهادي مسترشدة بدراسة مالينوفسكي Malinowski لنظام الكولا التي ضمنها كتابه الهام عن سكان جزيرة التروبرياند (أرجونوتس غربي المحيط الهادي Argonaits of the western Pacific) ، وبدراسة مارسيل موس Marcel Mouss النظرية الشهيرة عن الهدية (مقال عن الهدية Essai Sur Le Don) . بل ان هذه النظرية ذاتها استخدمت لفهم وتفسير ظاهرة (النقوط) التي تمارس في الأفراح والاحتفالات في كثير من البلاد العربية وبخاصة في مصر . كذلك استخدمت نظرية فان جنب Van Gennep الشهيرة عن شعائر المرور او شعائر الانتقال Les Rites de Passage والتي وضعها في ضوء المعلومات الاثنوجرافية المتاحة له عن قبائل استراليا الأصليين وغيرهم من الشعوب البدائية ، لتفسير الممارسات والطقوس التي تمارس في عدد من المجتمعات

الاكثر تقدما أثناء الاحتفالات بالولادة أو الختان او الزواج أو الوفاة . وقد استعنت أنا نفسي بهذه النظرية في دراسة ميدانية قمت بها منذ سنوات تحت اشراف الاستاذ راد كليف براون عن (الشعائر الجنائزية عن المسلمين في مصر) . والطريف ان فان جنب نفسه طبق النظرية ذاتها على الطقوس والشعائر التي يمارسها سكان المناطق الريفية في فرنسا في مثل هذه الاحتفالات . وظهرت نتائج هذه الدراسة في مجلدين تحت عنوان (من المهد الى اللحد) De Bercau a La Tombe) ولقد كان من الطبيعي أن تظهر نتيجة لذلك عدد من النظريات الجديدة تماما في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية التي تحاول تفسير بعض أنماط الحياة بطريقة لم تخطر للانثربولوجيين الأوائل على بال . كما هو الحال مثلا في نظرية ثقافة الفقر التي ارتبطت ارتباطا وثيقا باسم « أوسكار لويس » الذي كرس الجزء الاكبر من بحوثه بدراسته لابراز حياة الفقراء وبخاصة في المكسيك . وكيف أن هؤلاء الفقراء أنماطا معينة من الثقافة والقيم وأساليب السلوك . وهذه نظرية لم تلبث أن اعتنقها كثير من العلماء والباحثين . وحاولوا تطبيقها على مجتمعات أخرى غير تلك التي درسها « أوسكار لويس » .

بل إنه ظهرت علاوة على ذلك بعض اتجاهات منهجية جديدة تعتمد على الاستعانة بمناهج العلوم الاخرى ونظرياتها في دراسة أنماط الحياة الاجتماعية المتخلفة والبسيطة والتقليدية التي لا يزال الكثير من الانثربولوجيين يولونها كثيرا من الاهتمام . وربما كان أفضل مثل لذلك هو تطبيق « نظرية المباريات » في دراسة الحياة الاقتصادية وبخاصة نظام « المبادلات » بحيث اصبحت نظرية المباريات تعتبر في الوقت الحالي أحد الملامح الرئيسية في الانثربولوجيا الاقتصادية . وهذا بطبيعة الحال الى جانب الجهود التي بذلها الكثير من العلماء (الشبان) لتطوير النظريات الانثربولوجية التقليدية . وقد بلغ الأمر في ذلك أن فقدت بعض تلك النظريات (الراسخة) معالمها الأصلية . وظهرت على أعقابها نظريات أخرى قد تحمل اسمها أو اسما آخر مشتقا منها . ولكنها تعالج الظواهر الاجتماعية والثقافية بأسلوب جديد في الوصف والتحليل . وعلى مستوى عال جدا من التجريد . وقد حدث ذلك لنظرية البناء الاجتماعي التي تعتبر النظرية الرئيسية في الانثربولوجيا الاجتماعية . والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا باسم راد كليف براون ومدرسته . فقد تعرضت هذه النظرية لكثير من التغيرات الجذرية على أيدي العلماء الفلاسفة الفرنسيين وعلى رأسهم الاستاذ كلود ليفي ستروس الذي أرسى هو ومدرسته وتلاميذه قواعد (البنيوية) أو البنائية Structuralisme وأفلحوا في تطبيقها في مجالات أخرى كثيرة ومتنوعة لم يطرقها أصحاب نظرية البناء الاجتماعي .

بل إن العلماء الشبان في الوقت الحالي يثيرون كثيرا من التساؤلات حول هذه النظريات الجديدة ذاتها ويضعونها موضع الاختبار والنقاش والنقد . فاذا كان « أوسكار لويس » يتكلم عن ثقافة الفقر فلماذا لا تدرس ثقافة « الغنى » أو « الثراء » على اعتبار ان الاغنياء في كل المجتمعات وفي كل الثقافات يتميزون بأنماط معينة من السلوك والقيم والمواقف والاتجاهات والنظرة الى الحياة والى العالم . تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تسود بين بقية فئات ذلك المجتمع . وهذا معناه ان الاغنياء لهم ثقافة فرعية داخل المجتمع القومي الكبير مثل ما للفقراء ثقافتهم الفرعية المميزة .

واذا كان معظم العلماء يتكلمون عن القيمة الاجتماعية للأشياء من حيث أنها تعطي لصاحبها مكانة اجتماعية مرموقة كما هو الحال مثلا بالنسبة لقيمة الأبقار في المجتمعات الافريقية التي تعرف باسم مجتمعات « مركب الماشية » . واذا كان المجتمع يحافظ على تلك الأشياء الثمينة القيمة ويعتبرها جزءا من تراثه فلماذا لا يدرس الانثربولوجيون الأشياء التي تهدر قيمتها بعد أن تستنفد أغراضها فتلقى وتهمل وتعتبر من « النفايات » بعد أن كانت تؤلف عنصرا من عناصر الثروة لها قيمة اجتماعية عالية ؟ ومن هنا كانت في حقيقة الأمر نقطة الانطلاق التي بدأ منها « طومسون » نظريته الجديدة والتي يسميها « نظرية المهملات » أو « نظرية النفايات » أو حتى « نظرية القمامة The Rubbish Theory » .

تقوم نظرية المهملات أو النفايات على ملاحظة بسيطة صائبة تقول : انه لكي تفهم شيئا ما فهما حقيقيا عميقا فيجب أن تعرف ضد ذلك الشيء . ولكي تفهم « الفقر » لابد أن تدرس « الغنى » وبالمثل لكي تفهم « القيمة » لابد أن تدرس « انعدام القيمة » عن طريق تتبع الأشياء التي كانت لها قيمة في وقت ما ثم فقدت قيمتها بمرور الزمن بحيث نبذها الناس وأهملوها وطرحوها جانبا . وهذا كله على اعتبار ان كلا من الطرفين هو الجانب أو الوجه المظلم للآخر . مما يتعين معه ضرورة دراسة « الوجهين » معا لكي نفهم أيا من هذين الوجهين على حقيقته فهما علميا دقيقا وعميقا وصائبا . وعلى الرغم من التسليم بصحة هذه القضايا ، فالملاحظ ان علماء الاجتماع والانثربولوجيا يعطون معظم اهتمامهم للنواحي الظاهرة في حياة المجتمع ، وهي الظواهر التي تفرض نفسها على الباحث ، بينما يهملون الجوانب الخفية التي لا تكاد العين تلحظها .

فالفقر يؤلف سمة أساسية في المجتمعات المتخلفة والمجتمعات النامية والتقليدية التي يعنى الانثربولوجيون بدراستها ، وحين تحول بعض هؤلاء العلماء الى دراسة المجتمعات الاكثر تقدما والاكثر رقيا فانهم ظلوا متمسكين بدراسة هذه الظاهرة ذاتها التي تعتبر سمة ثقافية ايضا في المناطق المتخلفة من تلك المجتمعات وأهملوا بذلك دراسة « الغنى » و « الثراء » و « حياة الرفاهية » .. وهذا نفسه يصدق على دراسة « القيمة » . فقد عكفوا على دراسة كل ما له قيمة في الحياة الاجتماعية واهملوا الأشياء العديمة القيمة او التي لا قيمة لها . بل ان هذا ينطبق تماما حتى على دراسة (القيم) الاجتماعية والاخلاقية . فقد ظهرت دراسات كثيرة مثلا عن (الشرف) كقيمة في عدد من المجتمعات ومنها المجتمعات الاسلامية والعربية . ولكن لم تظهر دراسة واحدة متكاملة عن « العار » او عن « الكذب » أو عن « عدم الأمانة » وما اليها من الظواهر التي يعتبرها الكثيرون ظواهر « سلبية » مع أنها تؤلف جزءا هاما من أنماط السلوك ومن الثقافة السائدة في أي مجتمع من المجتمعات . أو ليس من الغريب أن تجد ان سوسيولوجيا المعرفة قد ازدهرت وتقدمت وظهرت فيها نظريات كثيرة ودراسات متنوعة دون ان يظهر ما يمكن تسميته بسوسيولوجيا الجهل ؟

لـ . كانت هذه الملاحظات والتساؤلات وأمثالها اذن هي التي دفعت « ميكائيل طومبسون » Michael Thompson الى الاهتمام بدراسة الأشياء التي فقدت قيمتها وأصبحت تدخل في مقولة المهملات أو النفايات . بل ان من الخطأ الاكتفاء بالنظر

الى الفقر على أنه مجرد الوجه المظلم للغنى ، واعتبار انعدام القيمة هو الوجه المظلم للقيمة . فالناحيتان تؤلفان كلا واحدا متماسكا ومتكاملا . أو هما طرفان في عملية واحدة متصلة . فالثراء أو الغنى كثيرا ما يتحول الى فقر ، والفقر يتحول الى غنى . كما ان القيمة قد تؤدي الى (انعدام القيمة) او الى (لاقيمة) والعكس . وقد تكون لبعض المقتنيات قيمة اقتصادية ، بل وأحيانا قيمة اجتماعية عالية ولكنها لا تلبث بتقادم العهد ان يملها الانسان فيطرحها جانبا ، وبذلك تهدر تلك القيمة وتضيع ، وقد تمر على ذلك سنين طويلة ، بل وأجيال كثيرة الى أن يظهر جيل له ثقافة مختلفة ونظرة أخرى جديدة فيهتم بتلك المقتنيات من جديد وبذلك تسترد قيمتها الأولى ، أو حتى تكتسب من قدمها قيمة أخرى جديدة أعلى وأسمى ، وهكذا ...

وهذا معناه في آخر الأمر أن نظرية المهملات كما وضعها « ميكائيل طومسون » في مقال له نشر في عدد يونيو ١٩٧٩ من مجلة Encounter وكما عرضها بعد ذلك في كتاب ظهر تحت هذا العنوان نفسه في وقت متأخر من العام نفسه ١٩٧٩ ليست مجرد دراسة في انعدام القيمة أو في الجانب المظلم للقيمة ، وانما هي حسب قوله دراسة في خلق القيمة واهدار تلك القيمة ذاتها ، على اعتبار ان تكوين القيمة وخلقها ثم اهدارها لكي تبدأ دورة جديدة من خلق القيمة انما هي عملية واحدة متصلة ومتكاملة . فالجانب المظلم والجانب المضيء للشيء ، ان صحت هذه التسمية ، انما يتعقبان أحدهما على الآخر بمعنى ان الشيء الذي تكون له قيمة في وقت من الأوقات قد ينبذ ويطرح جانبا في وقت آخر ، بينما الشيء الذي لم تكن له قيمة او عديم القيمة يصبح ذا قيمة عالية نتيجة لظروف معينة ، ومن هنا فان دراسة النفايات او المهملات تتيح للانسان الفرصة ، ليس فقط لكي يفهم القيمة ، بل وأيضا لكي يفهم العملية التي عن طريقها تمر القيمة باستمرار بعملية التكوين والخلق وعملية الاهدار والتحطيم والنبذ . فالميل العام السائد في المجتمع البريطاني الآن نحو اقتناء بعض المصنوعات الصغيرة التي ترجع الى العصر الفيكتوري ، والتي كانت تعتبر الى عهد قريب عديمة القيمة ولا تجذب اليها اهتمام الناس ، واعتبار هذه المصنوعات تحفا يتنافس الأثرياء على شرائها واقتنائها وجمعها ، ويفخرون بما يملكونه منها هو أمر يصعب فهمه وتفسيره الا اذا أخذنا في الاعتبار تلك العملية المتكاملة التي يقدمها لنا طومسون في مقاله وكتابه اللذين سبقت الاشارة اليها .

ولقد وضع طومسون القاريء أمام المشكلة من السطر الاول في الكتاب . وتدور المشكلة أصلا حول عدد من التساؤلات عن الأوضاع التي تبدو غريبة للوهلة الأولى ، والتي تتمثل في تمتع بعض الأشياء بقيمة عالية في وقت من الأوقات ثم فقدها لكي تستردها مرة أخرى بعد فترة من الزمن على ما ذكرنا ، وفي اختلاف نظرة الناس وتقويمهم للشيء الواحد في المجتمع الواحد من فترة زمنية لأخرى ، او اختلاف تقويمهم له في المجتمعات المختلفة في نفس الفترة الزمنية .
الاجتماعية المختلفة في المجتمع الواحد لتقدير نفس الشيء في نفس الفترة الزمنية . ويعرض طومسون
بطريقة غريبة وغير تقليدية . اذ يبدأ بطرح لغز أو « فزورة » كان الاطفال في انجلترا يتسلون بها .
هو الشيء الذي يحرص الرجل الفقير على ان يحتفظ به في جيبه بينما يلقي به الى الشارع
« المخاط » . وذلك على اعتبار ان الرجل الغني المهذب يتمخط في منديله ويضم ذلك المخاط

لا يملك منديلا يلقي بمحتويات أنفه الى الشارع باعتبارها نوعا من القاذورات . واذا كان الاطفال ، كما يقول طومسون ، يستمتعون بمثل هذه الالغاز أو الفوازير ويتخذونها وسيلة للتسلية والضحك ، فان الرجل البالغ العادي يعتبرها بعيدة عن الذوق وخارجة عن العرف والتقاليد ، وخالية تماما من التسلية والمتعة ، وأنها بالتالي غير خليقة بالاهتمام . ولكن في هذا الوقت بالذات تبرز « نظرية المهملات » او « النفايات » فهي نظرية تعطي أهمية بالغة لهذا اللغز اوهذه النكتة « او الفزورة التي يستهين بها الرجل العادي البالغ الجاد الذي يعيش في الثقافة الغربية والذي يستخف بهذا « الهراء الصبياني » ويعتبرها غير جديرة بالاهتمام .

وموقف الرجل البالغ هنا لا يخلو في رأي طومسون من تناقض . فالرجل يعتبر (جادا) و (عاقلا) لأنه يستهين بذلك « الهراء » كما يستخف بكل ما ليس له قيمة . ومع ذلك فانه يدرك في الوقت ذاته أن هذا اللغز أو الفزورة هو مجرد هراء صبياني ، ولكنه بدلا من أن يعاملها على هذا الأساس فانه ينظر اليها بعين الجد وبذلك يطرحها جانبا ويهملها ، لأنه هو نفسه رجل جاد ، وفي هذا الموقف المتناقض تكمن كل أهمية ومغزى ، بل وجوهر نظرية المهملات أو نظرية النفايات .

وعلى الرغم من أن هذا اللغز أو الفزورة يتضمن باعتراف طومسون نفسه ، قدرا غير قليل من الخروج على الذوق السليم الا أنه « لغز مناسب » لأنه يبين المجال الرئيسي للنظرية ، فهو يحدد بشكل واضح العلاقة بين المنزلة أو المكانة Status وملكية الأشياء أو اقتنائها من ناحية ، والقدرة على التخلص من تلك الاشياء ونبذها وطرحها جانبا ، من الناحية الاخرى . فالمشكلة ـ كما يتضمنها اللغز ـ تتلخص في أن هناك فارقا في المنزلة بين الغنى والفقر ، وأن الرجل الغني يتمتع بمكانة أعلى من الرجل الفقير . وأحد المحكات التي تستخدم في تحديد حالة الغنى أو الفقر هو مقدار أو عدد المقتنيات التي يملكها المرء . ولكن كيف يمكن لنا ان نحكم على شخص ما بأنه غني أو فقير من مجرد النظرة اليه ؟ . قد يكون هذا صعبا لأننا لو استثنينا الأفاقين والشحاذين ومن اليهم فان معظم الناس لا يحملون بطبيعة الحال معهم كل مقتنياتهم ويتنقلون بها من مكان لآخر . بل انه يستحيل من الناحية العملية البحتة أن يحمل الرجل الغني معه كل مقتنياته ، حتى ولو أراد هو نفسه ذلك ، وحتى لو أنه كان آمنا ومطمئنا الى أنها لن تتعرض للضياع أو السرقة أو الاعتداء عليها . الا أن هناك رغم ذلك مؤشرا واضحا يمكن الاستدلال منه بسهولة على المكانة ونعني به المقتنيات التي يستطيع الشخص أن ينبذها ويتخلص منها ويطرحها بعيدا عنه . فالرجل الفقير لا يستطيع بحكم فقره وعدم امتلاكه سوى قدر ضئيل من المقتنيات والمتاع أن يلقي بعيدا عنه الا أشياء قليلة جدا ، وذلك بعكس الرجل الغني الذي يمكنه نبذ واهمال أشياء كثيرة تفوق قدرة الرجل الفقير بكثير .

وعلى ذلك فالمشكلة كما يعرضها ذلك اللغز أو تلك الفزورة تقوم على أساس التلاعب بالألفاظ ، ولكنها تكشف عن وضع قائم بالفعل في المجتمع (الغربي على الاقل) لأنها تفترض وجود موقف معين يبدو أنه يعارض كل التعارض ، الأساس الذي

يقوم عليه كل النظام الاجتماعي في ذلك المجتمع ألا وهو أن الرجل الفقير يطرح ويهمل أكثر مما يفعل الرجل الغني . ولذا فحين يأتي الجواب على هذا اللغز متمثلا في كلمة « مخاط » فاننا نشعر بحدة المفارقة لأننا لم نكن نتوقع مثل هذا الجواب نظرا لأننا كنا نفترض منذ البداية أن التساؤل يدور حول الأشياء التي لها قيمة . وعلى ذلك فاذا كان الرجل الفقير يطرح جانبا ، من الاشياء التي لا قيمة لها ، أكثر مما يفعل الرجل الغني فان ذلك السلوك لن يترتب عليه بأي حال من الاحوال أي تهديد للنظام الاجتماعي المتعارف عليه .

والواقع أنه لكي يستمر النظام الاجتماعي في الوجود فلا بد من أن يكون هناك دائما قدر ما من الاتفاق على ما له قيمة أو ما يعتبر ذا قيمة في المجتمع . صحيح أن الناس في مختلف الثقافات يختلفون في تحديد الأشياء التي تعتبر ذات قيمة في نظرهم ، بل انهم قد ينظرون لنفس الشيء نظرات مختلفة من حيث القيمة التي يعطونها لها ، ولكن هناك دائما وفي مختلف الثقافات معايير ومحكات محددة يمكن في ضوئها التمييز والتفرقة بين الاشياء ذات القيمة والأشياء عديمة القيمة.ويؤكد طومسون على أننا حين نستخدم هذا اللغز لنفهم مشكلة القيمة فاننا نأخذ في الاعتبار النسق السائد في المجتمع الحديث عن القيمة وتقسيماتها ، والالفاظ الثقافية التي تتعلق بها . ويقول آخر أوضح فاننا حين نتكلم عن الغنى وعن الممتلكات والمقتنيات فان الذي نأخذه في الاعتبار هو بغير شك المقتنيات ذات القيمة ، وذلك لأن فئة ما يمكن تسميته بالأشياء العديمة القيمة ، او التي ليس لها قيمة إنما هي فئة « غير مرئية » أو « غير ملموسة » أو « غير محسوسة » ، بحيث أننا لا نشعر بوجودها أو بأهميتها الا حين يقوم موقف يستدعي توجيه النظر اليها كما هو الحال في هذا اللغز أو هذه الفزورة .

ولكن الواقع أن هذا اللغز يحوي اكثر من هذا العنصر لأنه اذا كانت الأجابة على اللغز هي ببساطة « الشيء الذي ليس له قيمة » مثل الحصى أو الاوراق التي تلف بها الحلوى حسب تعبير طومسون نفسه فان هذه الاجابة لن تثير الضحك أو الاستغراب . انما الذي يجعل هذه الاجابة مضحكة وغريبة ومدعاة للدهشة هو أن الاجابة تعتبر المخاط « شيئا » له قيمة سلبية ، أي « شيئا » يمكن أن نلقيه جانبا وأن ننبذه ونستغني عنه . وعلى ذلك فانه يمكن التمييز بين ثلاث فئات من الأشياء التي يمكن امتلاكها واقتناؤها وهي : الأشياء ذات القيمة Valuable والأشياء عديمة القيمة Valueless والأشياء التي لها قيمة سلبية أو التي تقيمها بطريقة سلبية أو حسب تعبيره Negatively Valued . فالرجل الغني والرجل الفقير على السواء يتحتم عليهما معا بحكم المعايير الثقافية السائدة في المجتمع أن يتخلصا من المخاط . ولكن الرجل الغني لا يفعل ذلك ـ بمعنى ما ـ لأنه يحتفظ بذلك المخاط في منديله ويحتفظ بالمنديل في جيبه . وحين تشير هذه الفزورة أو ذلك اللغز الى هذه الحقيقة فان هذا يتضمن بالضرورة خروجا على الوضع الاجتماعي أو النظام الاجتماعي ، وهذا هو الذي يشكل عنصر المفارقة في الوضع الاجتماعي الذي يهدف ذلك اللغز الى ابرازه وتوكيده .

والمفارقة هنا مفارقة حقيقية وصارخة ، وهي تتمثل في سلوك الشخص الغني نفسه . فهذا السيد الغني المتعلم المثقف

المهذب في سلوكه الذي يحرص أشد الحرص على أن يحلق لحيته يوميا ، وأن يستحم كل صباح ، وأن يغير كل يوم جواربه وملابسه الداخلية ، كما يحرص على تصفيف شعره وعلى تلميع أظافره ، وعلى أن يتخلص من كل الشوائب التي قد تشوب جسمه وملابسه هو نفس الرجل الذي يخلص من ذلك السائل المخاطي القذر الذي يملأ أنفه بأن يلقي به في منديل من القماش الناعم الرقيق ، ولكنه بدلا من أن يتخلص من المنديل ويطرحه بعيدا عنه فانه يطويه في غير عناية كبيرة في معظم الأحيان ويضعه في جيبه فوق النقود التي يستخدمها في شراء حاجاته ، أو فوق الولاعة التي يستخدمها في اشعال سيجارته ، دون أن ينتبه لما تحتويه ذلك السائل المخاطي والمنديل من الجراثيم فضلا عما قد يصيب النقود والولاعة التي يلمسها بيده من قذارة . ولكن من الانصاف أن نعترف بأن ذلك الشخص لا ينظر الى المسألة بتلك النظرة التي ذكرناها نحن هنا . ومع ذلك فانه يمكن القول بأنه حين تخلص من مخاطه في المنديل ثم طوى ذلك المنديل وألقى به في جيبه فانه يكون قد حول ذلك المخاط بهذه الطريقة من فئة الأشياء ذات القيمة السالبة ، أو التي تقوم بطريقة سلبية ، الى فئة الأشياء المحايدة القيمة . والمقصود بذلك هو أنه في الوقت الذي يشعر فيه المرء بالرغبة في التخلص من المخاط من أنفه فانه لا يشعر بالرغبة في أن يتخلص منه من جيبه . الا أنه لا يحاول من الناحية الاخرى حين يذهب الى البيت أن يحتفظ بذلك المنديل في خزانة النقود أو المجوهرات ، أو في درج مكتبه . وهذا معناه ان المخاط حين وضع في المنديل فانه يكون قد خرج في الوقت ذاته عن فئة الأشياء ذات القيمة السالبة ، كما أنه لم يدخل الى فئة الأشياء والمقتنيات ذات القيمة الموجبة ، فهو بذلك لا ينتمي الى أي من هاتين الفئتين . ويختلف هذا عن سلوك الفلاح أو الرجل البدوي الذي يتخلص بكل سهولة من افرازات أنفه بأن يلقيها على الأرض بعيدا عن جسمه وبذلك ينبذها ويطرحها جانبا تماما دون أن يلجأ الى ما يسميه طومسون بالحركات الفكرية البهلوانية .

ومن الطبيعي ألا يخطر مثل هذا التحليل على بال الرجل العادي في أي ثقافة من الثقافات ، وانما هو نوع من التحليل الذي يقوم به الباحث الانثروبولوجي حين يدرس ثقافة غريبة عن ثقافته ، لأنه في هذه الحالة ينظر الى ملف الثقافة الغريبة عليه نظرة فاحصة ناقدة ومدققة . وثمة ميل في كل الثقافات والمجتمعات الى ما يسميه طومسون بظاهرة « العمى الجماعي » أو حتى « مؤامرة العمى الجماعي » والمقصود بهذا الاصطلاح هو أن أفراد أي ثقافة أو مجتمع يميلون ، ربما دون وعي أو ادراك ، الى التغاضي أو حتى التعامي عن وجود بعض مظاهر السلوك التي قد تسيء الى الذوق الرفيع أو التي تخدش الحياء ، أو التي تتعارض بشكل من الأشكال مع ما يجب أن يكون عليه « السلوك القديم » .

يوم Kuhu في جبال الهملايا مثلا يؤمنون بأن تلك المنطقة كانت خالية تماما من الذباب وتتمتع بدرجة عالية الى أن جاء اللاجئون من هضبة التبت فجلبوا معهم الذباب وحولوا الغابات الى نوع من المراحيض العامة . المنطقة عدة مرات قبل مجيء اللاجئين والمهاجرين اليها ، وأنها كانت دائما نوع يمكن هذه الأنماط من السلوك المتميز بالقذارة والخروج .

على قواعد اللياقة لم تكن واضحة أمام أعين الهنود نتيجة لتلك المؤامرة « مؤامرة العمى الجماعي » وانما تفتحت أعينهم على سلوك المهاجرين من هضبة التبت فنسبوا اليهم كل المظاهر السيئة في حياتهم .

وكما سبق أن ذكرنا فانه ليس من السهل أو حتى من المتوقع أن يلاحظ الرجل العادي سلوكه وأن يفسر ذلك السلوك ، وخصوصا اذا كان ذلك السلوك يخرج عن قواعد اللياقة ويخدش الحياء والذوق العام . ذلك أن ملاحظة مثل هذا السلوك أو التصرفات تتطلب قدرا من الموضوعية لا تتوفر الا للباحث الجاد الذي يستطيع أن يعزل نفسه عن الممارسات التي يشترك هو نفسه في ادائها أو ممارستها . أضف الى ذلك أن دراسة مثل هذا الموضوع تتطلب من الباحث (الانثربولوجي في هذه الحالة) أن يستعين بأساليب غير مألوفة في البحوث الانثربولوجية التقليدية لكي يظهر ما في الحياة والسلوك الانساني من تناقضات دون أن يترفع عن ذكر ما قد يصدم الذوق العام ، مع الالتجاء في كثير من الأحيان الى الاسلوب الصحفي في الكتابة والاستعانة بالنكتة و (الفوازير) وما اليها حين يتطلب الامر ذلك . وكلها أمور يترفع عنها علماء الانثربولوجيا التقليديون الذين يضعون لأنفسهم محكات ومعايير قاسية في الملاحظة والتفكير والتحليل والكتابة . وهذا لا يعني أبدا أن الاهتمام بمثل هذه الموضوعات فيه امتهان لقدر الانثربولوجيا أو هبوط بمستوى الابحاث الانثربولوجية ، ولكنه لا يعني بالأحرى ضرورة الاهتمام في هذه الأبحاث بالامور العادية المألوفة في حياة الانسان والمجتمع والثقافة ، وهي الامور التي كثيرا ما كان يغفلها الانثربولوجيون التقليديون . كما أنه يعني من الناحية الثانية اتباع أساليب أقرب الى أساليب التفكير اليومي واستخدام لغة أقرب أيضا الى لغة الحديث العادية بدلا من الالتجاء الى القوالب الفكرية المتزمتة التي كثيرا ما يصوغ علماء الانثربولوجيا والاجتماع التقليديون أفكارهم فيها لكي يضفوا على دراساتهم طابعا من العلمية المزيفة حسب تعبيره . وبقول آخر فان نظرية المهملات أو نظرية النفايات هي مثال واضح ونموذجي للاتجاه الجديد الذي يميز الدراسات الانثروبولجية التي يضطلع بها علماء الانثربولوجيا الشبان ، والتي تربط العلم بأحداث الحياة اليومية وبالواقع الذي يعيش فيه الرجل العادي .

●●●

وربما كانت حياة طومسون نفسه عاملا مساعدا في توجهه الى هذا النوع من الدراسة والبحث والى هذا النمط من التفكير والتحليل والى مثل هذه النظرية . ففي أواخر الستينات وأوائل السبعينات حين كان يدرس للدكتوراه في الانثربولوجيا في جامعة لندن كان طومسون يعمل كما يقول « نجارا » في أحد مصانع الأثاث ، وهو مصنع صغير لم يلبث أن أعلن افلاسه . وكان يعكف في أثناء ما يسميه ساخرا « بوقت الفراغ من عمل المصنع » على صنع بعض الأشياء الصغيرة لتجميل وتزيين المنازل القديمة في المنطقة التي كان المصنع يقع فيها ، وكان يستخدم كثيرا من الفضلات المتخلفة عن... في صنع هذه الاشياء الادوات والآلات ، بل وأحيانا الخامات التي كان يملكها المصنع ، وقد لاحظ أثناء ذلك كيف أن هذه الأشياء الصغيرة التافهة كانت ترفع كثيرا من

قيمة تلك المساكن القديمة المتهالكة ذات الماضي العريق ، واعتبر ذلك نوعا من التناقض الذي جلب انتباهه واهتمامه ، وكان ثمة تناقض آخر في حياته يتمثل في عمله في الصباح كعامل أو نجار أثاث ثم حضوره في المساء حلقات البحث والدراسة التي تعقد في جامعة لندن ، وبالذات في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وعلى الأخص حلقات البحث حول علم الاقتصاد المعرفي Cognitive Economics . كما أتيح له أن يلحظ تناقضا من نوع ثالث يتمثل في موقف الانثربولوجيين من دراسة المجتمعات الحديثة والأساليب التي يتبعونها في تلك الدراسة . فالانثربولوجيا كما سبق أن ذكرنا بدأت علما يهتم بدراسة المجتمعات البدائية ، وهي بوجه عام مجتمعات لا تاريخية ، أي أننا لا نعرف لها تاريخا مدونا وموثوقا به ، وبذلك كان يتعين على الانثربولوجيين أن يتبعوا أساليب ومناهج وطرائق تتفق مع طبيعة هذه المجتمعات ، وهي أساليب ومناهج تهمل البعد التاريخي تماما . فلما انتقل هؤلاء العلماء في فترات حديثة نسبيا الى دراسة المجتمع الحديث المعقد طبقوا نفس الأساليب واغفلوا البعد التاريخي أيضا . وقد دفعه ذلك الى أن ينظر ويفكر في أمر التغيرات التي تطرأ على المساكن والبيوت التي تعود للعصر الفيكتوري أو ما قبله ، ومحاولة سكانها تجديدها واضفاء طابع آخر عليها عن طريق اضافة تلك الأشياء التافهة التي كان يصنعها من الخشب لتزيين هذه البيوت على أمل أن يؤدي ذلك الى الارتفاع بقيمتها الاقتصادية والاجتماعية التي كانت قد فقدتها بتقادم العهد ، ولم يكن من الميسور فهم هذا التغير الذي يطرأ على هذه المساكن أو تفسيره الا في ضوء البعد التاريخي ، أي بالرجوع الى تاريخ هذه البيوت ، وبالذات تاريخ الفترة أو الحقبة التي أنشئت فيها ، ودراسة الاوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسود المجتمع في ذلك الحين .

فكأن المشكلة الرئيسية التي تواجه الباحث هنا يمكن تلخيصها بسهولة في التساؤل عن : هل قيمة الشيء تحدد سلوك الانسان نحو ذلك الشيء ؟ أو أن السلوك الانساني (أو الفعل الانساني) نحو شيء ما هو الذي يحدد قيمة ذلك الشيء ؟.

ويضرب لنا طومسون مثلا يوضح ما يريد أن يقوله وهو عبارة عن اعلان في جريدة التايمز The Times البريطانية تظهر فيه صورتان لاناء من الخزف عليه رسوم شرقية وقد كتب تحت احدى الصورتين كلمة « قديم » بمعنى تحفة بينما كتب تحت الصورة الاخرى عبارة « نصف عمر » وكتب فوق الصورتين معا « ليس الكلام هو المهم . ولكن المهم هو طريقة الكلام » ويحاول طومسون أن يبين من هذا الاعلان ان المرء يمكنه تحت ظروف معينة أن يتحكم في الطريقة التي ينظر بها الى الأشياء أو السلع او المقتنيات ويقدرها حسب هذه النظرة . أي ان هناك قدرا من المرونة في النظر الى الأشياء وتقديرها . فكلمة « مستعمل » أو « نصف عمر » تجعلنا ننظر الى الاناء على انه شيء ذو قيمة ضئيلة بينما كلمة « قديم » تجعلنا ننظر الى ذلك الاناء نفسه على أنه قطعة فنية رائعة ، لها قيمة عالية ، وأنه خليق بأن يمتلك أو أن يقتنى .

بيد أن هذه المرونة لا تصدق على كل الاشياء او السلع . فمعظم الأشياء ينظر اليها من زاوية واحدة في الاغلب وليس من زاويتين معا ، وعلى ذلك فانها تعتبر إما أشياء « نصف عمر » أو أشياء قديمة وعتيقة وتدخل ضمن فئة التحف . فالسيارات

المستعملة مثلا والتي تعرض للبيع في سوق المهملات لا يمكن اعتبارها شيئا آخر الا أنها سيارة « مستعملة » و« نصف عمر » وذلك بعكس الحال بالنسبة لقطع الأثاث التي ترجع الى القرن الثامن عشر مثلا ، أو قطع السجاد العجمي القديم فانها تحتفظ بقيمتها الجمالية والفنية لفترات طويلة جدا من الزمن . وهذا معناه انه يمكن التمييز بين طريقتين مختلفتين للنظر الى الأشياء وتقديرها . وهاتان الطريقتان تمثلان عنصرا أساسيا في تصورنا وادراكنا للبيئة الفيزيقية والاجتماعية أي « نظرتنا الى العلم » World View حسب الاصطلاح الانثربولوجي . والمألوف في الثقافة الغربية كما يقول طومسون أن تصنف الأشياء (أي الممتلكات أو المقتنيات) في فئتين متمايزتين هما فئة المقتنيات ذات القيمة المتغيرة ، وفئة المقتنيات ذات القيمة الدائمة الثابتة . والنوع الأول تقل قيمته وتتضاءل بمرور الزمن ، كما أن « عمره » محدود الى حد كبير ، وذلك بعكس الأشياء التي تنتمي الى الفئة الثانية فانها تزداد في القيمة بمرور الزمن كما أن « حياتها » طويلة إن لم تكن دائمة ، على الأقل من الناحية المثالية والنظرية . وتدخل قطع الأثاث من طراز المملكة آن في فئة المقتنيات ذات القيمة الدائمة الثابتة ، بعكس السيارات المستعملة التي تدخل ضمن فئة الأشياء ذات القيمة المتغيرة والزائلة . وثمة علاقة قوية بين الطريقة التي نتصرف بها نحو أحد الأشياء واتجاه ذلك « الشيء » الى احدى هاتين الفئتين . فبينا نحن نحافظ أشد المحافظة على الاناء الخزفي العتيق الذي نعتبره تحفة نفخر بامتلاكنا لها ونعرضها لأصدقائنا في زهو واعتزاز فاننا ننفر أشد النفور من الاناء الخزفي العادي الذي يدخل في فئة الأواني المستعملة ، بل ونتبذه وقد نحطمه . ويقول آخر فان ثمة علاقة بين « نظرتنا الى العالم » وتصرفاتنا في ذلك العالم . ولكن السؤال الذي ينبغي الاجابة عليه هنا : هل تؤثر الفئة التي تنتمي اليها الأشياء أو المقتنيات على طريقة سلوكنا ازاءها ، وهل تحدد ذلك ، أو أن طريقة السلوك نحو الأشياء أو المقتنيات هي التي تحدد اتجاه تلك المقتنيات إلى إحدى هاتين الفئتين ؟. لا شك أنه فيما يتعلق بالأشياء التي لا يثور شك أو جدال حول قيمتها مثل السجاد العجمي أو الأثاث من طراز المملكة آن من ناحية ، والسيارات المستهلكة من الناحية الاخرى ، فان اتجاه هذه الاشياء الى احدى هاتين الفئتين يكون هو الذي يحدد أسلوب سلوكنا نحوها . أي أن « النظرة الى العالم » تكون في هذه الحالة أسبق على الفعل Action لأن هذه السلعة تحتل مكانا معينا فيما يسميه طومسون بمنطقة أو مجال الدعاوي والافتراضات الثابتة Region of Fixed Assumptions ولكن حين نعامل هذين الانائين الخزفيين منذ البداية على انها تحفة أو « نصف عمر » فاننا نكون بذلك قد حددنا الفئة التي ينتمي اليها كل منهما وبالتالي حددنا قيمة كل وعاء وبذلك يكون السلوك أو الفعل أسبق على « النظرة الى العالم » . وبذلك يدخل هذان الوعاءان فيما يسميه طومسون بدائرة أو مجال المرونة Region of Flexibility وهي تقع بين هاتين المنطقتين الجامدتين الثابتتين اللتين ينتمي اليهما السجاد العجمي والأثاث من طراز المملكة آن من ناحية ، والسيارات المستعملة من الناحية الأخرى •

وواضح هنا أن تصنيف المقتنيات في هذه الفئات لا يتم بطريقة تعسفية ، كما أن تلك المقتنيات لا تنتقل من فئة الى أخرى بطريقة عشوائية او بغير ضابط ، وذلك لان هذه الفئات ترتبط في حقيقة الأمر ارتباطا قويا بالوضع الاجتماعي Social Situation . وهذا معناه أن المقتنيات لا تكون على ما هي عليه نتيجة لخصائص فيزيقية ذاتية موجودة فيها ، وانما

تتحدد قيمتها تبعا للاعتبارات الاجتماعية . أي أن المجتمع هو الذي يضفي على الأشياء خصائصها ومميزاتها بينما تلعب طبيعة الشيء نفسه دورا سلبيا الى حد كبير . ويعتبر ذلك في نظر طومسون من أهم وأخطر النتائج التي تترتب على دراسة النفايات أو المهملات من زاوية اجتماعية بحتة ، لأن مثل هذه الدراسة خليقة بأن تغير كثيرا من نظرة المجتمع الى الأشياء التي يعتز بها ويعطيها قيمة عالية . كما أنها خليقة بأن تضع كل نسق القيم ، الذي يتمسك به المجتمع ، موضع الاختبار.

وليس أدل على ذلك من أن فئات المجتمع أو قطاعات المجتمع التي تعيش قرب القمة ، أي الطبقات القادرة ، سواء من ناحية الثروة أو الثقافة أو الوضع الاجتماعي ، هي الفئات او القطاعات التي تتحكم الى حد كبير في تقدير الأشياء وتقويمها ، وبالتالي فانها تعطي قيمة اجتماعية وجمالية عالية للأشياء التي تملكها هي وتقتنيها ، بينما ترفض الأشياء الاخرى التي تملكها بقية مستويات المجتمع وقطاعاته وتعتبرها أقل في القيمة المادية والاجتماعية والجمالية أو الفنية . أي أن أعضاء تلك الطبقات أو القطاعات العليا في المجتمع هم الذين يحددون الأشياء التي يمكن ادخالها ضمن فئة المقتنيات ذات القيمة الدائمة الثابتة ، والأشياء التي تدخل ضمن فئة السلع أو الممتلكات ذات القيمة المتغيرة الزائلة ، وانهم هم أنفسهم الذين يعطون لما يملكونه قيمة أعلى وأكثر دواما واستمرارا من قيمة الأشياء التي يملكها الآخرون .

وقد يكون من المنطقي والمعقول والمقبول أن تفقد أشياء معينة كثيرا من قيمتها نظرا لقدم العهد بها ، ولكن الذي يحتاج الى تفسير وتبرير هو كيف تسترد بعض الأشياء التي سبق اهمالها وفقدها قيمتها الاصلية حتى تكتسب قيمة أعلى بكثير جدا من تلك القيمة الأصلية ؟ اننا جميعا نعرف ـ كما يقول طومسون ـ كيف أن قطع الأثاث من العصر الفيكتوري أصبحت في الوقت الحالي مجالا للتنافس ، وتلقى اقبالا شديدا من طبقات معينة في المجتمع البريطاني . وما يصدق على المجتمع البريطاني يمكن أن نجد له مثيلا في غيره من المجتمعات حيث تقبل فئات معينة من الناس على شراء أشياء كانت تعتبر من قبل من المهملات أو النفايات ، ويحاولون اقتناء أشياء جديدة عليها ، ويعتبرونها تحفا ونفائس جديرة بالاقتناء .

ولكي يجيب طومسون على هذا التساؤل فانه يفترض وجود فئة ثالثة يسميها فئة الأشياء التي وصلت قيمتها الى درجة الصفر Zero Value ، وهذه في الحقيقة ليست فئة متميزة تماما أو مستقلة كل الاستقلال عن الفئتين السابق ذكرهما ، انما هي تمثل مرحلة وسطا بين هاتين الفئتين ، بمعنى أن الاشياء ذات القيمة المتغيرة تتناقص قيمتها بالتدريج نتيجة لطول الاستعمال ومرور الزمن الى أن تصل الى مرحلة تنعدم فيها قيمتها تماما في نظر الناس فتهمل وتنبذ وتطرح بعيدا وتصبح من « المهملات » أو « النفايات » وهذا معناه أن هذه النفايات أو المهملات هي الاشياء التي كان لها في وقت ما قيمة معينة أخذت تتناقص وتتضاءل نتيجة لانصراف الناس عنها ، وحين تصل قيمتها الى درجة الصفر فانها (تنزوي) مؤقتة ما يسميه طومسون بالفئة الكامنة أو المخفية . أي أنها لا تزول وتختفي أو تندثر تماما من الوجود وانما ينصرف الناس عن استعمالها وقد ينسون كل شيء عنها ، أو ـ حسب تعبيره ـ فانها (تنزلق الى دائرة الاهمال) ، وان كانت تظل موجودة بعيدا عن الانظار . ويقول آخر فان مثل

هذه المقتنيات تستمر في الحقيقة في الوجود ، ولكن تمر في فترة نسيان واهمال وازدواء طويلة جدا لا تتمتع أثناءها بأي قيمة أو تقدير على الاطلاق الى أن يأتي اليوم الذي تكتشف فيه هذه الأشياء ، بمحض المصادفة في الاغلب ، على يدي شخص أو أشخاص لهم القدرة على الابتكار والتجديد فينقلوها من هذه المرحلة او الفئة الى فئة المقتنيات ذات القيمة الثابتة الدائمة .

والنتيجة الطريفة التي تترتب على هذا الفرض أو هذه الفرضية هي أننا لكي ندرس نظام التحكم الاجتماعي او الضبط الاجتماعي للقيمة فانه يتعين علينا اعطاء جانب كبير من الاهتمام للمهملات او النفايات التي درج علماء الاجتماع والانثربولوجيا على (اهمالها) والتغاضي عن وجودها رغم أنها تؤلف جزءا هاما في نسق القيمة في أي مجتمع وأي ثقافة . ويعترف طومسون أن هذه النظرية ـ نظرية المهملات أو النفايات بكل ما تحمله في ثناياها من تناقضات وما تعرض له من أمور وموضوعات يترفع عنها العلماء التقليديون ، وهي خليقة بأن تثير سخرية واستخفاف الكثير من علماء الاجتماع والانثربولوجيا والاقتصاد ، بل وأيضا علماء الطبيعة والكيمياء وغيرهم ممن يعتبرونها نوعا من الجدل الاكاديمي العقيم . كذلك قد يذهب بعض العلماء الى القول بأنه على الرغم من التسليم بأن المجتمع هو الذي يعطي الأشياء قيمتها ، وأنه يتحكم في تلك القيمة نتيجة لظروف اجتماعية بحتة فان هذه القدرة على التحكم أو على « التطويع الاجتماعي » حسب تعبيره هي قدرة محدودة وتخضع لكثير جدا من القيود الطبيعية القاسية بما فيها طبيعة هذه الأشياء ذاتها وخصائصها الذاتية مما يجعل نظرية المهملات نظرية عقيمة ومحدودة الأثر . ولكن طومسون يرفض مثل هذه الدعاوي ويذهب الى أنه يمكن تطبيقها في مجالات أخرى مما يكسبها درجة عالية من الصدق والعمومية .

فلو نظرنا الى (افرازات) جسم الانسان نفسه لوجدنا أنه يمكن التمييز فيها بين الافرازات التي تعتبر نوعا من القاذورات وتدخل بذلك في فئة المهملات أو النفايات . كالبصاق مثلا ودم الحيض والبول والصديد وما اليها ، والافرازات التي لا تعتبر بوجه عام من القاذورات ، وبذلك لا يمكن معاملتها على أنها مهملات أو نفايات ، بل وقد ينظر اليها بعين الاعتبار مثل الحيوانات المنوية والأجنة والدم والدموع وما اليها . وسوف نجد أيضا أن بعض الافرازات التي تدخل في باب النفايات والمهملات والقاذورات أصبح يستفاد منها في بعض الصناعات الطبية . بينما نجد أن العرق الذي كان حتى عهد قريب ينظر اليه بعين الاعتبار والاحترام ويعتبر رمزا للعمل الجاد المثمر والكفاح ، لدرجة أن ونستون تشرشل حين اراد اثارة روح القتال والصمود في جنوده وجنود الحلفاء عام ١٩٤٠ بعد موقعة دنكرك خاطبهم بجملته الشهيرة « ليس أمامنا الا أن نقدم مزيدا من الدم والعمل والدموع والعرق » يدخل الآن في دائرة النفايات والمهملات والقاذورات بحيث قامت صناعات ناجحة لانتاج « مزيلات رائحة العرق » من الجسم الانساني .

كل هذا يدل في رأي طومسون على أننا لا نستطيع أن نتقبل الفكرة السائدة عن أن المهملات وما اليها تتميز بخصائص

مادية ذاتية أو داخلية . وأننا لا نستطيع تحديد أو تعريف المهملات والنفايات بالرجوع الى هذه الخصائص وحدها . فالحدود الفاصلة بين « ما هو مهمل » و« ما ليس بمهمل » تتحرك استجابة للضغوط الاجتماعية . بل ان هذه الحدود قد تسقط تماما .

ولقد حرص طومسون على أن يضرب عددا كبيرا من الأمثلة من مختلف مناشط الحياة لكي يدلل على صدق نظريته وعموميتها . ومعظم هذه الامثلة مستمدة بطبيعة الحال من المجتمع البريطاني . ولكنه استمد البعض الآخر من الكتابات الانثربولوجية التي تدور حول المجتمعات والثقافات (البدائية) . وقد يحسن هنا أن نذكر بشيء من التفصيل أحد تلك الامثلة لكي تتبين منه أسلوب تفكيره وطريقة معالجته للمشكلة وتحليله للمادة (الاثنوجرافية) المتاحة له .

في عام ١٨٧٩ أقيم معرض صناعي في مدينة يورك . وقد قام أحد رجال الصناعة حينذاك واسمه توماس ستيفنز Thomas Stephens بعرض نموذج لأحد الانوال التي تستخدم في نسج خيوط الحرير . وكان أحد الصناع يقوم أثناء العرض بصنع رسوم ونقوش صغيرة من خيوط الحرير الملونة يبيعها لزوار المعرض بشلن واحد فقط للوحة الواحدة . وكانت كل لوحة تمثل أحد الاحداث التاريخية الهامة أو أحد مظاهر الحياة البريطانية التي كانت تجذب حينذاك اهتمام الناس .

ومع أن صناعة مثل هذه اللوحات أو طريقة صنعها ونسجها لم يكن أمرا جديدا على الصناعة البريطانية . لأن هذا النوع من الانوال كان معروفا منذ عام ١٨٤٠ . الا أنها كانت تستخدم في صنع رسوم ونقوش من خيوط الحرير البيضاء والسوداء فقط . بينما كان النول الذي يعرضه ستيفنز صالحا للنسيج بخيوط ذات ألوان متعددة . وبذلك كانت اللوحات او الصور التي تباع في المعرض تتميز على اللوحات القديمة بألوانها الزاهية المتعددة والجميلة . وقد استمر مصنع ستيفنز ينتج هذه اللوحات حتى عام ١٩٤٠ حين دمر المصنع تماما بفعل الغارات الألمانية على بريطانيا . وفي خلال تلك الفترة التي امتدت حوالي ستين عاما ما بين ١٨٧٩ ـ ١٩٤٠ أنتج المصنع آلاف اللوحات التي تمثل عشرات من المناظر الطبيعية وصور الاشخاص . فضلا عن انتاج عدة ملايين من بطاقات أعياد الميلاد والتهاني وما الى ذلك . ولكن يبدو أن المصنع وجه معظم نشاطه الى انتاج هذه البطاقات التي كانت الواحدة منها تباع بنصف شلن . كما ان تداول اللوحات بدأ يقل ويختفي بحيث لم يكن هناك في عام ١٩٠٢ سوى ستة وستين منظرا فقط من مئات المناظر والرسوم والاشكال التي كانت ترسم على تلك اللوحات . وكانت المجموعة الكاملة التي تضم هذه المناظر والاشكال والشخصيات الستة والستين تباع حينذاك بحوالي جنيهين ونصف جنيه استرليني . ولكن في عام ١٩٧٣ كانت هذه المجموعة ذاتها تباع بحوالي ثلاثة آلاف من الجنيهات . وهذه القفزة الهائلة في سعر اللوحات تكشف لنا عن مدى التغير في النظرة الى هذا اللون من الفن او الصناعة . وهو الأمر الذي يتطلب تفسيرا وتحليلا للتعرف على ديناميكيات التغير في القيمة الاجتماعية للاشياء . بحيث تنتقل الممتلكات والمقتنيات من فئة المهملات التي لا تتمتع بقيمة عالية الى فئة الأشياء الثمينة ذات القيمة الاجتماعية والفنية والمادية العالية .

هذه الديناميكية هي التي تتمثل ببساطة في تغير قيمة هذه اللوحات أو الرسوم من الناحية المادية والاقتصادية ، فبينما كان الرسم او اللوحة تباع في عام ١٨٧٩ بشلن واحد لم تكن هذه اللوحات ذاتها تجد من يشتريها عام ١٩٥٠ ، ولكن بعد ذلك بعشرين سنة فقط أي في عام ١٩٧٠ كانت اللوحة الواحدة تباع أحيانا في أشهر المزادات في لندن بما لا يقل عن خمسة وسبعين جنيها استرلينيا . ولو نظرنا الى التغيرات التي طرأت على القيمة المادية لهذه اللوحات لأمكن لنا ان نميز بين ثلاث مراحل مختلفة تنطبق تمام الانطباق على الفئات الثلاث التي ذكرها لنا طومسون ، والتي يوضحها الشكل السابق .

المرحلة الاولى : هي المرحلة التي لازمت انتاج وصنع هذه اللوحات بكثرة واقبال الناس على شرائها مع انخفاض سعرها . وعلى الرغم من انخفاض السعر منذ البداية فقد أخذت قيمة هذه اللوحات أو الرسوم تقل تدريجيا بمرور الزمن بحيث أنها كانت بعد إنتاجها بقليل تنتمي الى فئة الأشياء ذات القيمة المتغيرة أو غير الثابتة .

المرحلة الثانية : تتمثل في الفترة التي كانت فيها هذه الرسوم والاشكال او اللوحات قد فقدت قيمتها تماما ، أي وصلت الى درجة الصفر . وكان ذلك حوالي عام ١٩٥٠ والسنوات القليلة السابقة عليها . وفي هذه المرحلة لم تكن هذه اللوحات تجد من يشتريها . فقد انصرف الناس عنها واختفت من السوق و(انزلقت الى دائرة الاهمال) والنسيان . اي أنها كانت تنتمي الى فئة المهملات او النفايات .

المرحلة الثالثة والاخيرة : بدأت حوالي عام ١٩٦٠ ولا تزال مستمرة حتى الآن وفي هذه المرحلة بدأت تلك الرسوم واللوحات تكتسب بعض القيمة ، ثم أخذت قيمتها تتزايد باستمرار وبسرعة فائقة واشتد الاقبال على اقتنائها والاحتفاظ بها ، أي انها أصبحت تنتمي الى فئة الأشياء ذات القيمة العالية والثابتة .

وهنا يجب أن نلاحظ بعض الامور التي قد تبدو متناقضة في أول أمر . ولكنها تكشف عن طبيعة ديناميكية عملية الانتقال من الحال التي تكون فيها الاشياء ذات قيمة منخفضة ومتغيرة أو غير ثابتة الى الحالة التي تكتسب فيها قيمة اجتماعية ومادية وجمالية وفنية عالية وتتمتع بدرجة كبيرة من الثبات والاستمرار . فحين بدأ انتاج هذه اللوحات كان الاقبال عليها سواء في معرض عام ١٨٧٩ او السنوات القليلة التالية يأتي من جانب عامة الشعب الذين كانوا يرون فيها وسيلة جميلة ورخيصة لتزيين بيوتهم ، بينما كانت الطبقات المثقفة والمتعلمة والغنية تنظر اليها بكثير من الازدراء والاستخفاف والاستعلاء وتعتبرها (سلعا) خالية تماما من الذوق ، وبعيدة كل البعد عن الناحية الجمالية والفنية ... وكانت هذه الصور والرسوم واللوحات تحتل نفس المكانة التي تحتلها الآن المجسمات والاشكال المصنوعة من البلاستيك او الجص ، والتي يزين بها العمال وأفراد الطبقات الدنيا بيوتهم ، بينما يزدريها المثقفون وأصحاب الذوق الفني الرفيع . ولكن من السخرية حقا ان الاشخاص الذين كانوا يترفعون عن

اقتناء تلك اللوحات والرسوم الحريرية كانوا هم الذين اكتشفوها في الستينات من هذا القرن ، وأصبحوا ينظرون اليها نظرة جمالية جديدة تختلف تماما عن نظرة أترابهم في أواخر القرن الماضي . كما أنهم هم الذين يعملون على الارتفاع بقيمتها ويقبلون على اقتنائها ويدفعون فيها مبالغ طائلة . ولكن هذا التناقض نفسه هو أحد الأركان المهمة في نظرية المهملات او النفايات ، وبدونه لا يمكن فهم التحولات التي تطرأ على الاشياء .

من ناحية أخرى نلاحظ أنه في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر تقريبا وحتى عام ١٩٦٠ كانت هذه اللوحات تمر بحالة « كمون » أو« اختفاء » أو« نسيان » . ويتمثل هذا النسيان أو الاغفال والاهمال في عدم وجود كتابات تشير اليها مما يدل على عدم اهتمام مؤرخي الفن بها . وعلى أي حال ، فليس للمهملات والنفايات Rubbish في العادة تاريخ معروف ، وليس ثمة من يهتم بالتأريخ لها أو الكتابة عنها .

ولكن على الرغم من ذلك - وهذه هي نقطة التناقض الثانية - فقد طرأ تغير هائل على وضع هذه الرسوم و(اللوحات) فيما بعد ، وقد بدأ ذلك التغير في حقيقة الأمر بعد تدمير المصنع في عام ١٩٤٠ وتوقف انتاج هذه اللوحات ثم اختفائها بعد ذلك من السوق وعدم تداولها . ويعتبر طومسون تدمير المصنع بمثابة نقطة تحول هامة في تاريخ هذه اللوحات، فمن حالة المهملات والنفايات الى حالة الثبات والاستمرار في الوجود ، ويشبه النتائج التي ترتبت على تدمير المصنع بما يحدث بعد وفاة أحد كبار الفنانين . والتاريخ يسجل لنا كثيرا من الحالات التي كان انتاج أحد الفنانين الكبار يقابل بالاهمال والاغفال ، ولكن بمجرد أن يموت ذلك الفنان يبدأ الناس في الاهتمام بانتاجه وتقديره والاقبال على اقتنائه ، فترتفع القيمة الفنية والاقتصادية للوحاته التي لم تكن تجد من يشتريها من قبل . وهذا هو ما حدث تماما لتلك الرسوم او (اللوحات) المصنوعة من خيوط الحرير ، وان كان الاهتمام الحقيقي بها قد بدأ منذ الستينات . وقد ظهر هذا الاهتمام أولا بطريقة عفوية بحتة ، ثم أخذ يزيد وينتشر حتى أصبحت (اللوحات) تمثل في السبعينات أحد الاتجاهات الفنية التي تلقى كثيرا من الاقبال عليها من هواة جمع « التحف » وأصحاب المجموعات الفنية والمتاحف الخاصة . ثم اتخذ هذا الاهتمام شكلا آخر له دلالته ومغزاه ، ويتمثل ذلك في ظهور عدد من المقالات والكتب التي تتناول بالتحليل الدقيق كل لوحة من اللوحات المتاحة على حدة وتبين تاريخها ومعناها والنواحي الجمالية والفنية فيها . بل الاكثر من ذلك أنه تألفت جمعية للمهتمين برسومات ونقوش و (لوحات) ستيفنز .

ويبدي طومسون في هذا الصدد ملاحظتين على جانب كبير من الطرافة والبراعة حول انتقال هذه المقتنيات من حالة الاهمال والنبذ والاغفال الى حالة البقاء والثبات وارتفاع القيمة الجمالية والاقتصادية والاجتماعية . وهاتان الملاحظتان تكشفان في الوقت ذاته عن الاسلوب والروح اللذين يعالج بهما طومسون المشكلة ويحلل المادة والمعلومات الاثنوجرافية التي جمعها حول الموضوع :

الملاحظة الاولى : هي أن انتقال الممتلكات والمقتنيات المتمثلة في هذه الحالة في اللوحات والرسوم المصنوعة من خيوط الحرير من حالة الاهمال والنبذ الى حالة التقدير والتهافت على الاقتناء يتم في فترة زمنية قصيرة جدا ، وذلك بعكس الامر في انتقال تلك الممتلكات او المقتنيات ذاتها من فئة الاشياء ذات القيمة المنخفضة المتغيرة الى فئة المهملات والنفايات . فهذه العملية الاخيرة تستغرق في العادة فترة طويلة جدا كما هو واضح في المقال الذي نعرض له هنا . فقد تم انتقال هذه الصور واللوحات والرسوم من فئة المهملات والمقتنيات الى فئة الأشياء والممتلكات والمقتنيات الفنية ذات القيمة العالية الدائمة خلال سنوات قليلة بدأت بالفعل عام ١٩٦١ ولا تزال مستمرة حتى الآن . ويعزو طومسون هذا التحول الفجائي السريع الى الحماس الشديد الذي ينتاب الاشخاص الذين يقبلون على اقتناء هذه الصور والرسوم او (اللوحات) الفنية نتيجة للمحاكاة والتقليد من ناحية ، والرغبة في اكتساب مزيد من المكانة الاجتماعية العالية ومزيد من تقدير المجتمع لهم حين يعرف في الاوساط التي يعيشون فيها انهم حصلوا على تلك المقتنيات التي أصبح لها مكانة عالية من ناحية اخرى . وهذا معناه ببساطة أن هذه المقتنيات تدخل في فئة الأشياء ذات القيمة العالية الثابتة نتيجة لرغبة الناس انفسهم في الارتفاع بمكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، والرغبة في الحصول على تقدير المجتمع لهم .

الملاحظة الثانية : هي أن اوائل الذين اهتموا باقتناء هذه الرسوم و « اللوحات » وكذلك أول من كتب عنها كان من النساء . وقد ظهرت معظم هذه الكتابات في الفترة التي كانت تلك المقتنيات تنتقل فيها من حالة عدم الثبات وانخفاض القيمة الاجتماعية والمادية الى حالة الاهمال والنبذ ، وكذلك في بداية محاولات احياء هذه « اللوحات » ونقلها من فئة المهملات والنفايات والتفاهات الى فئة الاشياء الثمينة ذات القيمة العالية .

ولكن بعد أن توطدت مكانة هذه « اللوحات » والرسوم بدأ الرجال يقبلون بشدة وشراهة على شرائها واقتنائها وعرضها ضمن مجموعاتهم الفنية ، بل انهم تمكنوا من شراء المجموعات التي كانت في حوزة بعض النساء الثريات . وانتهى المطاف بأن أفلح « ذوو السراويل » من اخراج « ذوات الفساتين » من مجال المناقشة واصبحوا هم أكبر من يمتلك هذه « اللوحات » ضمن مجموعاتهم الفنية ، كما أصبحوا هم الذين يكتبون في الوقت الحالي عن هذا النوع من الفن . فهل هناك يا ترى علاقة بين المرأة وامتلاك المهملات والنفايات والتفاهات ، او على الاقل الاهتمام بها ، وأن ثمة علاقة بين الرجل واقتناء الاشياء ذات القيمة العالية والتي تتمتع بدرجة كبيرة من البقاء والاستمرار في الوجود ؟

ولقد سبق أن ذكرنا ان نظرية المهملات أو النفايات ليست ، كما يقول طومسون ، مجرد نوع من الجدل النظري الذي يراد به التدليل على براعة الاكاديميين في معالجة الامور التي تبدو تافهة وضحلة أمام غيرهم من المتخصصين ، وعلى الرغم من حداثة

النظرية فقد أفلحت في أن تثير حولها كثيرا من الجدل والنقاش . وكثير من علماء الانثربولوجيا يعتقدون أن كتاب طومسون أفلح هو ايضا في أن يحتل مكانا مرموقا بين أمهات الكتب النظرية . وهناك من يدخله ضمن (كلاسيكيات) الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية بوجه عام . وأيا ما يكون الرأي ، فان ظهور هذه الدراسة تكشف عن ثلاثة أمور على جانب كبير من الاهمية :

الأمر الاول : هو الاهتمام المتزايد الذي يبديه علماء الانثربولوجيا الغربيون الآن بدراسة مجتمعاتهم وثقافاتهم وأنماط الحياة وأنساق القيم السائدة في المجتمع الغربي نفسه بعد أن كان العلماء الرواد الاوائل ـ حتى عهد قريب ـ يركزون على دراسة المجتمع (البدائي) ويعطون أهمية خاصة لبعض الظواهر والنظم الاجتماعية الغريبة التي تثير فضول القارىء الغربي ، مثل العلاقات الجنسية ، ونظم العبادة والاديان (البدائية) وليس ثمة ما يدعونا هنا الى الكلام بالتفصيل عن الأسباب التي أدت الى ذلك التحول ، ولكن المهم هو أن الكثيرين من العلماء المحدثين يرون ضرورة الاهتمام بالثقافات الغربية المتقدمة وتحليلها بقصد التعرف على المفاتيح او الشفرات الرئيسية التي يمكن بها فتح مغاليق تلك النظم والثقافات . فليست الثقافة شيئا متوارثا فحسب ، كما كان يذهب اليه علماء الانثربولوجيا والاجتماع التقليديون ، الذين يرون ان الانسان يولد في ثقافة معينة فيتقبلها بالضرورة ويتصهر فيها . فدور الفرد كان دورا سلبيا الى حد كبير في تلك النظريات التقليدية ، وهو ما كان يعبر عنه في علم الاجتماع الفرنسي بأن الظاهرة الاجتماعية خارجة عن الفرد وسابقة عليه . انما الثقافة الى جانب ذلك كله « عمل » نشارك نحن جميعا في صنعه . فأحداث الحياة اليومية وتصرفاتنا ومظاهر سلوكنا وعاداتنا هي عناصر ثقافية نصنعها نحن بأنفسنا مثلما نرثها عن الاسلاف والاجيال السابقة . وفهم هذه الثقافة التي نعيش فيها والتي نصنعها لن يتيسر لنا الا اذا درسنا مظاهرها القائمة الآن بالفعل . وكلما اتجه اهتمامنا الى المظاهر الثقافية المادية المألوفة كان ذلك الفهم أعمق وأدق وأكثر صدقا ودلالة على القيم الاجتماعية التي توجه هذا السلوك وتلك التصرفات التي تصدر عنا .

الأمر الثاني : هو أن دور عالم الانثربولوجيا الذي يدرس الثقافة الحالية وينقب عن مخلفات الانسان وبقاياه وفضلاته ونفاياته لكي يصل منها الى فهم نظرة المجتمع الى « مقتنياته » وأسلوب تقويمه لها يشبه الى حد كبير دور عالم الاركيولوجيا وبخاصة أركيولوجيا مجتمعات ما قبل التاريخ الذي ينقب في المقابر التي يحفرها عن بقايا الانسان المبكر لكي يعيد بناء الحياة الاجتماعية والثقافية التي كانت تسود في تلك المجتمعات الاولى او المبكرة . ولكن هناك فارقا هاما بين الاثنين ، فبينما تحتل مكتشفات عالم الاركيولوجيا مكانة اجتماعية وثقافية وجمالية عالية ، بحيث يوليها المجتمع عناية فائقة ويحافظ عليها في متاحف الآثار أو الاثنوجرافيا باعتبارها آثارا وتحفا لها قيمة أزلية وخالدة ، فان المخلفات والفضلات والنفايات التي يدرسها عالم الانثربولوجيا الذي يهتم بمثل هذا الموضوع لا تتمتع بمثل هذه القيمة العالية الثابتة .... انه يبحث عن خلق القيمة اثناء عملية تدهور هذه القيمة ذاتها وانحطاطها .

وإذا كان عالم الاركيولوجيا يحاول أن يتعرف على الانسان المبكر عن طريق دراسة بقاياه ومخلفاته ونفاياته ، أو حتى ما يمكن تسميته بالقمامة أو الزبالة التي تركها منذ عشرات الألاف من السنين ، فان طومبسون يعتقد انه ليس أدل على ثقافة الانسان المعاصر واتجاهاته وسلوكه وتصرفاته بل وقيمه الاجتماعية والثقافية من الفضلات والبقايا التي يتركها من حوله . ومن هنا فان دراسة فضلات وبقايا ونفايات وزبالة الانسان المعاصر في الثقافة المعاصرة هي مسألة جديرة باهتمام العلماء المعاصرين ، رغم كل ما قد يبدو في هذه الدعوة من غرابة .

الأمر الثالث والأخير : وهو بغير شك اهم الامور الثلاثة جميعا ، وهو أن هذه النظرية كما يعرضها طومبسون في كتابه ومقاله اللذين سبقت الاشارة اليهما ، يمكن تطبيقها على كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية الاخرى ، فالذي يعطي أي مجموعة من الدعاوي والقضايا والاحكام والفروض قوتها وشرعيتها ويرتفع بها الى مستوى النظرية هو مدى امكان تطبيقها في مجالات مختلفة على ما ذكرنا من قبل .

ولقد حاول طومبسون نفسه ان يبين أن المسألة ليست مجرد مسألة دراسة التغيرات والتحولات التي تطرأ على قيمة الممتلكات والمقتنيات حين نهملها ونتبذها ونطرحها جانبا الى أن يأتي الوقت الذي ننفض نحن ـ أو تنفض الاجيال التالية ـ عن هذه الاشياء والممتلكات والمقتنيات غبار الاهمال ونعطيها قيمة اجتماعية ، بل ان المسألة أكبر من هذا بكثير . اذ أنه يمكن تطبيق هذه النظرية على كل ما ينبذه المجتمع وينصرف عنه ، ويدخل في ذلك الافكار والآراء والايديولوجيات التي يرفضها المجتمع لسبب من الأسباب ونتيجة لظروف معينة فتتوارى بحيث يخيل للمرء أنها أندثرت تماما ، ثم يأتي الوقت الذي تسترد فيه هذه النظريات والآراء والفلسفات والايدلوجيات قوتها وتجذب اليها مرة أخرى فئة جديدة من الكتاب والمفكرين الذين يتحمسون لاحيائها . بل انه يمكن استخدام النظرية في دراسة الاوضاع المتقلبة التي يتعرض لها الناس أنفسهم في المجتمع نتيجة لتغير الظروف ، مثل الاوضاع السياسية التي تؤدي الى ابعاد رجال السياسة او رجال الحكم او رجال الفكر عن المناصب التي كانوا يحتلونها والدور الذي كانوا يلعبونه فيتوارون عن الانظار ، الى أن يأتي الوقت الذي يستعيدون فيه مكانتهم ويقومون فيه بدور جديد قد يكون مكملا للدور الذي كانوا يلعبونه من قبل .

والخيط الذي يمر في كل هذه الحالات والأمثلة هو ما يسميه أرون وايلدافسكي Aaron Wildavsky « لغة الاشياء التي تبدو حتى تنهض من جديد » ويتساءل وايلدافسكي في ذلك : أليس من الرائع ان نجد أن الاشياء والافكار والاشخاص والجماعات التي يزدريها المجتمع في فترة من الفترات ، وينظر اليها على أنها اكوام قمامة ذلك المجتمع ، لا تلبث ان تطفو بعد طول غياب لكي تصبح هي ذاتها من عوامل تغيير ذلك المجتمع وعناصر قوته واسترداد شبابه من جديد ؟

ان المسألة تتعلق الى حد كبير بالنظام الذي يتحكم في ذوق المجتمع وتفضيلاته واختياراته . فالذوق يتذبذب وبذلك تتغير تفضيلات الناس بحيث تختفي في فترة معينة لكي تظهر في فترة أخرى . وقد تتخذ هذه التفضيلات اثناء ذلك شكلا جديدا دون أن تندثر أو تزول وتمحى تماما . وفي هذا يقول وايلداسكي « اذا كان في امكان كل ما يسقط وينزوي ويتبدد في المجتمع أن يطفو ويظهر وينجح من جديد في هذا العالم فان طومسون انما يبحث نظرته من خلال هذه النظرية برسالة ملؤها الأمل والتفاؤل . ولكن على أي أساس جديد يقوم ذلك التفاؤل ؟ الغريب أن هذا التفاؤل يقوم ويرتكز على المهملات والنفايات . أي على الزبالة » .

***

الداروينية في الميزان

يوسف عزالدين عيسى

الفرق بين النظرية والحقيقة العلمية

الحقيقة العلمية أمر تأكدت صحته ولا يحتمل الشك . فقانون الجاذبية الأرضية ، والضغط الجوى ، وقاعدة ارشيدس ، وتركيب العين أو الأذن ، أو الخلية وغيرها ، حقائق علمية يمكن اثباتها والتأكد من صحتها اما عن طريق التجربة في المعمل أو عن طريق مشاهدتها بعد تشريحها ورؤية مكوناتها بالعين المجردة ، أو من خلال الميكروسكوب الضوئى أو الميكروسكوب الالكترونى . أما النظرية العلمية فأمر غير مؤكد ، مبنى على فروض قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة ، وهى في هذا تشبه الى حد كبير النظرية الفلسفية على فروض تختلف فيها وجهات النظر . واذا تأكدت لدى العلماء حقيقة ما تناوله النظرية الفلسفية من أمور ، فان تلك النظرية تنتقل من مجال الفلسفة لتصبح حقيقة علمية ثابتة . ولقد عرف الفيلسوف العالم برتراند راسل الفلسفة تعريفا مبسطا بقوله انها « الجانب المظلم من العلم » ، أى الشيء الذى لايضيئه نور اليقين ، وكلما اتسعت رقعة العلم ، انكمشت رقعة الفلسفة .

ونظرية دارون مازال حتى الآن مجرد نظرية ولم تصل الى مرتبة الحقيقة العلمية ، وهذا يفسر اهتمام عدد من الفلاسفة ، مثل سبنسر ، بمناقشتها والمجادلة في مضمونها ، كما يفسر ايضا معارضة عديد من العلماء لها حتى يومنا هذا ، بل واشتراك عدد من الأدباء في مناقشتها .

وقديما كانت النظرية الفلسفية تقول ان العناصر التى في الوجود أربعة ، وهى: الماء والهواء والتراب والنار . ولكن جاء العلم بعد ذلك ليؤكد وجود نحو مائة عنصر يمكننا رؤيتها أو تحضيرها في المعمل ، وأن الماء يتكون من عنصرين هما الاوكسجين والهيدروجين ، ويتكون كل من الهواء والتراب من عدة عناصر . أما النار فهى مجرد ظاهرة حرارية ، فانتقلت بذلك هذه النظرية من مجال الفلسفة الى مجال العالم الذى لاتخضع حقائقه لأى جدل .

هذه الدراسة :

تشتمل هذه الدراسة على مراجعة للأفكار التقليدية لنظرية دارون عن التطور العنصري للكائنات الحية على ضوء ملاحظات توماس هكسل . وذلك بفحص الاستجابة الدينية البروتستانتية لهذه النظرية في بريطانيا وأمريكا كجزء من الفكر الداروني وما دار حولها من جدل . وهذه المجالات تشتمل على أفكار نوقشت مناقشة مستفيضة ولكنها لم تفهم الفهم الكافي كجزء من التاريخ الثقافي والاجتماعي .

ولقد مضى أكثر من أربعين عاما منذ دراسة هذا الموضوع دراسة نقدية ، ومضى قرن منذ بدأ المؤرخون يطالبون بدراسة المجادلات الدينية فيما يتعلق بنظرية دارون . وأن الأوان لمعالجة الآراء التي تراكمت على مدى الأيام فيما يتعلق بالمجادلات المدونة في سجلات التاريخ لاستخلاص تقييم حقيقي لها في شتى المراجع ، والخروج منها بنتائج ايجابية .

حجم المراجع :

على الرغم من صدور تعليقات عديدة بانتظام حول هذا الموضوع منذ بداية القرن الحالي ، فإن الدراسة التاريخية للمجادلات الداروينية يمكن أن نعتبره قد بدأت منذ عام ١٩٣٦ عندما نشر آرثر شليزنجر Arthur M. Schleisinger أستاذ التاريخ بجامعة هارفارد مقاله الشهير بعنوان « فترة حرجة في الدين الامريكي بين عامي ١٨٧٥ و ١٩٠٠ » . لقد أشار شليزنجر في مقاله هذا الى أن الداروينية تعتبر واحدة من ثلاثة أشياء تهدد الدين في الربع الأخير للقرن التاسع عشر . وترك لتلميذه برت جيمس لوينبرج Bert James Loewenberg أن يوضح بشكل أدق كيف حدث ذلك .

وفي عام ١٩٣٤ اي بعد خمسة وسبعين عاما من ظهور كتاب « أصل الأنواع » لدارون قدم لوينبرج رسالة تضمنت أول نقد في الفترة التي يمكننا أن نطلق عليها « فترة ما بعد الداروينية » . ففي خلال ثلاثة أعوام نشر ثلاثة موضوعات مستمدة من رسالته ، ولكن في ذلك الوقت تناول آخرون الموضوع بمزيد من العمق .

وفي الفترة التي تقع بين تقديم لوينبرج رسالته والحرب العالمية الثانية نشرت ستة بحوث أخرى عن الجدل حول النظرية . رسالة منها قدمتها ماري فردريك ايلستون (١٩٣٤) ووندسور هول روبرتس (١٩٣٦) وصمويل نيل Samuel Neel (١٩٤٢) وموضوعات أخرى بقلم سدني راتنر (١٩٣٦) ووليم ابنشتاين (١٩٣٩) وهربرت سنيدر (١٩٤٥) . وأهمها بحوث شنايدر Schneider وروبرت ولبل ، وعلى الأخص الاخيرين اللذين قارنا وجهات نظر المؤلفين الدينيين فيما يتعلق بنظرية دارون .

ثم ظهرت دراسات جدلية أثرتها بحوث عن علاقة العلم والفلسفة والدين والمجتمع في أواخر القرن التاسع عشر ، وتناولت استجابة الدين لنظرية التطور في هذه الفترة .

وكان عام ١٩٥٦ بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة حيث لم تظهر بحوث أو مقالات جدلية ، ولم تطرح مناقشات ذات قيمة فيما يتعلق بنظرية التطور . ثم جاء عام ١٩٥٧ اى بعد مرور مائة عام على نظرية داروين ، وتدفق طوفان من المجادلات بدأها ادوارد بفيفر Edward Pfeifer في رسالة كتبها عن تقبل الولايات المتحدة للداروينية . وفي عام ١٩٥٨ كتب ألفار اليجارد Alvar Allegard رسالة ماجستير تناولت دراسة الدوريات Periodicals التي ظهرت في انجلترا في هذا المجال ، كما نشرت رسالة ماكجيفرت Michael Mc Giffert عن الداروينية المسيحية . كما شهد العام نفسه تقييما شاملا عن الثورة الداروينية نشرته جرترد هيملفارب Gertrde Himmelfarb ، ومقال بقلم بازيل ويلي Basil Willey عن الاستجابة الدينية في بريطانيا للداروينية .

وأهم ما نشر في هذا المجال كان الدراسة التي نشرها لورين ايزلي بعنوان « التطور والرجل الذي اكتشفه » ، ومقال بقلم نويل أنان Noel Annan عن العلم والدين في بريطانيا (١٩٥٩) ، وما كتبه جون جرين عن « التطور وتأثيره على الفكر الغربي » وغيرها من المؤلفات والمقالات العديدة التي تناولت هذا الموضوع بالدراسة .

شكل المراجع :

ومثل كتابة التاريخ في أي مجال من المجالات ، نجد أن ما كتب عن الداروينية في الفترة التي جاءت بعد داروين لايمكن تخيلها على هيئة سطح مستو ، بل على شكل منطقة جبلية بتلالها ووديانها ، بقممها المرتفعة وسهولها المنخفضة . وتوجد أشكال ثلاثة تجذب أنظار كاتب تاريخ ما بعد الداروينية ، أي ما بعد عصر داروين :

أولا : بينما يوجد عديد من الكتابات الجدلية في أوربا تكاد تعادل ما كتب في أمريكا ، فاننا نجد دراسات اجلستون Eggleston وأوفرمان Overman هما اللتان تميزتا من بين جميع الدراسات ولكنتا من عبور الاطلنطي .

ثانيا : الدراسات بعد الداروينية التي تناولت تفسير المجادلات اعتمدت في معظم الأحيان على مراجع ثانوية أو في مجال محدود ، ولا يستثنى من ذلك سوى دراسات لوينبرج Loewenberg وروبرتز Roberts بينما نرى Matzger وبفيفر واليجارد Ellegard وكامبل Campell التي ارتفعت فوق هذا المستوى .

ثالثا : المؤرخون الذين تناولوا بالدراسة الاستجابة البروتستانتية لنظرية داروين بالتفصيل ركزوا على الفترة فيما قبل عام ١٨٨٠ مهملين الفترة الاخيرة لذلك القرن . والمؤرخون الذين امتدت دراستهم لفترة أطول هم روبرتز Roberts ونيل Neel وكامبل .

رابعا : وأخيرا ، ان الدراسات الجدلية لما بعد الداروينية تمت دون أن تأخذ في الاعتبار تاريخ الفكر التطوري بعد داروين . والدراسات الوحيدة التي بدأت تفسير المجادلات الدينية لمكونات التطور العلمي والفلسفي لنظرية التطور هي دراسات نيل وشيتيدو وبيرسونس Persons وبفيفر واليجارد ودانيلز Daniels ويتج Young .

ولا يمكن فهم الجدل الانجليزي بمعزل عن الجدل الامريكي . فلقد نشرت أعمال دارون في وقت واحد على جانبي المحيط الاطلنطي . فنجد دراسات لتوماس هكسل وهربرت سبنسر وجون تيندال وتشارلس ليل Charles Lyell وعلماء عديدين آخرين . كما كان هناك علماء أمريكيون تناولوا هذا الموضوع . وكانت المجادلات تروح وتجيء عبر الاطلنطي . وعند وفاة دارون عام ١٨٨٢ كانت دراسات هكسل وسبنسر وتيندال وليل وأرجل تجد ترحيبا في الولايات المتحدة . ولقد طبع من كتاب هنري دارموند : « القانون الطبيعي في العالم الروحاني » الذي ظهر عام ١٨٨٣ مالايقل عن خمس عشرة طبعة . وفي هذا الوقت في بريطانيا نجد أن آزا جري Asa Gray ووليم دوسون وجورج فردريك ورايت وجيمس ماكوين وغيرهم كانوا معروفين . وآخرون مثل توماس روسون بيركس في انجلترا وتشارلس هودج في أمريكا اشتهرا بفضل تعاونهما مع شخصيات مرموقة من العلماء . ولكننا لايمكن ان نتجاهل آلاف الكتب والمقالات التي كتبت عن نظرية التطور وعلاقتها بالدين ونشرت عقب ظهور كتاب « أصل الأنواع » لدارون . ولا يمكن تكوين فكرة حقيقية شاملة عما يعد الداروينية دون الاشارة الى هذه المؤلفات .

والدراسات التفصيلية عن استجابة الدين للداروينية تركز على الفترة الممتدة حتى عام ١٨٨٠ تقريبا . ولم توجد توضيحات أو تفسيرات بعد هذا التاريخ . ولو اقتصرنا على ما تم من دراسات قبل عام ١٨٧٢ كما فعل اليجارد فاننا سوف نعرف المجادلات حول نظرية دارون في بريطانيا دون أن نأخذ في الاعتبارما نشر في الولايات المتحدة من دراسات جدلية حول الموضوع . فلقد كانت نيران الحرب الاهلية في أمريكا مشتعلة في ذلك الوقت وكان اهتمام أوروبا مركزا على أخبار تلك الحرب . ولم يكن موجها الى المسائل الفكرية الامريكية . فلم يهتموا بعديد من المؤلفات الامريكية التي تناولت موضوع التطور في تلك الفترة . ونتيجة لذلك لم ينتبهوا لمؤلفات امريكية كثيرة تناولت دراسة علاقة الدين بنظرية التطور . وبالتنقيب عن البحوث ذات الصلة بعلاقة الدين بنظرية دارون بين عامي ١٨٦٠ و ١٩٠٠ يتضح ان أكثر من نصف هذه المؤلفات ظهرت في العشرين عاما الأخيرة من هذه الفترة . ولم تتناقص المجادلات في منتصف الثمانينات للقرن التاسع عشر . بل على النقيض لقد بلغت المؤلفات ذروتها في موضوع تكيف الدين مع نظرية التطور حيث كان الاهتمام بالعلم قد بدأ يطغى على كل ما عداه . ولو أن الجدل حول نظرية التطور لم يتوقف ممثلا فيما يسمى بالتطور اللاماركي . نسبة الى العالم الفرنسي لامارك . كما نشر الفيلسوف سبنسر مقالا على حلقات بعنوان « نظام الفلسفة التخليقية » بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٩٦ حيث صادف قبولا في كل من بريطانيا وأمريكا .

ولقد ظل دارون حتى وفاته يدافع عن نظريته دفاعا قويا . واستكمل الدفاع بعده هكسل وفرانسس جالتون وجورج رومانز في بريطانيا وجري ورايت في الولايات المتحدة . بينما كان في الوقت نفسه فريق من العلماء يشنون عليها هجوما لاذعا ويدافعون بحماس عن اللاماركية . ولقد اعتبر الجدل من مكونات التقدم العلمي والفلسفي في أخريات القرن التاسع عشر .

الجدل حول نظرية دارون :

لقد قسم المؤرخون الجدل حول النظرية الى مراحل . فكتب شليسنجر ان الجدل الديني حول النظرية في أمريكا بلغ ذروته في أواخر عام ١٨٧٠ . كما يبين لوينبرج Loewenberg ان الفترة بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٨٠ تشكل فترة الهجوم العنيف على النظرية . والسنوات من ١٨٨٠ حتى ١٩٠٠ تشكل فترة تسرب النظرية الى الفكر والثقافة . بينما كانت نقطة التحول لقبول النظرية . في رأيه عند وفاة لويس اجاسيز عام ١٨٧٣ . اما روبرتس فيرى ان نقطة التحول كانت في عام ١٨٧٤ عندما نشر

هودج Hodge كتابا بعنوان « ما هي الداروينية » . ويرى بليفر أن هدوء عاصفة النقد اقترنت مع بزوغ مدرسة امريكية عن اللاماركية الحديثة عام ١٨٦٦ وامتد هذا الهدوء الى ما بعد عام ١٨٦٨ . وسادت فترة أكثر هدوءا خلال عام ١٨٧١ ، وأخيرا ظهرت نظرية دينية للتطور صادفت القبول عام ١٨٨٠ .

أما في بريطانيا فلقد تقاسم الجدل كل من اليجارد وشادويك ، ولقد أهتم اليجارد بثلاث فترات استبعدت في خلالها تدريجيا فكرة الخلق فوق الطبيعي وذلك بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٣ عندما بلغ الجدل حول نظرية التطور ذروته ثم تناقص وعاد ليشتعل من جديد بين عامي ١٨٦٤ و ١٨٦٩ . وتلا ذلك فترة هدوء نسبية ، حتى أعاد الجدل من جديد كل من والاس وفيفارت وظهور كتاب « نشأة الانسان » وجعله يتمركز حول الانتخاب الطبيعي وتطور الانسان .

ولقد أكد شادويك ان الانسجام بين نظرية التطور والفكر الديني قد حدث تدريجيا بين رجال الدين الذين نالوا حظا كبيرا من التعليم وذلك بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٨٥ ولو أنه بعد عام ١٨٧٦ أصبحت نظرية التطور تحظى بالقبول والاحترام ، ولقد ساعد على ذلك دفن داروين في كنيسة وست منستر التى لايدفن فيها سوى العظماء من المؤمنين .

والغرض من هذا المقال هو عرض الصراع العنيف الذى نشأ بين العلم والدين بعد ظهور نظرية داروين ، وما أثارته في عقول كثيرين في القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالايمان ، وكيف نشأت هذه الازمة ومدى انسجامها أو تعارضها مع المعتقدات الدينية ، وما استجد من آراء لكبار العلماء تجاه هذه النظرية في السنوات الأخيرة .

جون وليم دربير وصراعه :

في عام ١٨٧١ أصبح ادوارد يومانز Edward Youmans المتعهد الرئيسي لتقديم العلوم المبسطة في الولايات المتحدة ، وكمن يصرخ في صحراء مهد الطريق لنظرية التطور ومؤلفات داروين وتوماس هكسلي سبنسر ، اذ تقدم لناشره المفضل دانيل أبلتون Daniel Appleton في نيويورك بمشروع يشتمل على تقديم مكتبة علمية يحررها أشهر علماء ذلك الوقت لنشرها في آن واحد في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا ، ولكن من التغلب على جميع الصعاب التى اعترضت طريق المشروع . فصدر في خلال عام الجزء الاول من المجموعة بعنوان « أشكال الماء » تأليف جون تيندال . وتوالت المؤلفات واحدا بعد الأخر ، فظهر بعد ذلك كتاب « الفيزيقا والسياسة » بقلم بيدجوت Bagehot ، و« العقل والجسم » بقلم بين Bain ، و« دراسة علم الاجتماع » من تأليف سبنسر Spencer . ظهرت جميع هذه الاجزاء في مجموعة بعنوان « المجموعة العلمية العالمية » .

كان من الواجب ، اذا أراد يومانز لسلسلته النجاح ، ان ينتقى المؤلفين بعناية من بين مشاهير العلماء المعترف بقيمتهم ، كما ينبغى أيضا أن يكونوا مؤرخين وعلماء في الوقت ذاته ، ولكن المؤلفين الذين اختارهم للكتابة في مجموعته بعد ذلك مثل : ليكى Lecky ولسلى ستيفن Leslie Stephen لم يكونا من العلماء ، ولو كان شخص مثل هنرى توماس باكل على قيد الحياة في ذلك الوقت لكان هو الشخص اللائق . ولكن يومانز لم يجهد نفسه للبحث عن مؤلف مثله ، فوقع اختياره على أستاذ في الكيمياء

هو جون وليم دريبر (١٨١١ ـ ١٨٨٢) John William Draper لم ينتج بحوثا كيميائية ذات قيمة ونشر كتابا بعنوان « تاريخ تنمو الحضارة في أوروبا » ولم يكن كتابا جيدا . بناء على فكرة معينة وهي أن المجتمعات تمر في مراحل تشبه مراحل حياة الانسان . وهذا من شأنه أن يجعل التاريخ الطبيعي تسجيلا لمدى التكيف للطبيعة . ولقد ظهر كتاب « أصل الأنواع » لداروين عام ١٨٥٩ . وفي العام التالي لنشره حدثت نقطة تحول في حياة دريبر حيث تحول الكيميائي الى مؤرخ علمي . ففي ٣٠ يونيه في أثناء القائه محاضرة امام أعضاء الاتحاد البريطاني في اكسفورد . ظل يحاضر أكثر من ساعة في قاعة مزدحمة وفي جو خانق . وبهذا تسبب في تأجيل الحدث الأساسي في ذلك اليوم . وهو المواجهة بين الاسقف صمويل ولبرفورس Samuel Wilberforce وتوماس هكسلي . وكان من الأوفق ان يركز دريبر في محاضرته على نمو الثقافة الاوربية فيما يختص بآراء داروين وآخرين . وهي ان ارتقاء الكائنات الحية يحكمها قانون . وكان من بين الذين حضروا هذا الاجتماع عدد من الصفوة ومعهم بعض المؤرخين الذين يهتمون بمحاضرات دريبر التاريخية . وبما ان دريبر قد أصبح مؤرخا فلقد سيطر هذا الجانب على ذهنه واهتم به أكثر من اهتمامه بالناحية العلمية . وفي عام ١٨٧٤ قوى دريبر السلسلة العلمية العالمية بنشره « تاريخ الصراع بين العلم والدين » .

ولقد كتب دريبر في مقدمة كتابه يقول « ان تاريخ العلم ليس مجرد تسجيل لاكتشافات منعزلة عن بعضها . انه اظهار لصراع بين قوتين ، قوة العقل البشري من ناحية والضغط الناتج عن الايمان التقليدي واهتمامات الانسان من الناحية الاخرى .

وفي عام ١٨٦٤ اهتز المجتمع المثقف واختلط عليه الأمر عندما هاجم بعض رجال الدين ما اعتبره المثقفون في ذلك الوقت تدخلا من شأنه ايقاف التقدم العلمي . والمطالبة باستيلاء المؤسسات التربوية والعلمية التي تقوم بتدريس الأدب والعلم من فرض سلطان الكنيسة عليها . مطالبين بالتأقلم لتقبل النظريات العلمية والحضارة الحديثة . اعتقد دريبر ان المسيحية والعلم لا يمكن ان يتفقا ولا يمكن بقاؤهما جنبا الى جنب . فلا بد أن يتقهقر أحدهما لافساح الطريق للآخر . وعلى الجنس البشري أن يختار أحدهما . وأصبح البابا تحت رحمة البرلمان الايطالي قابعا كالمسجون في دائرته الضيقة المقدسة وفقد سلطته السياسية .

ولم يفشل دريبر في تقدير مدى السلطة السياسية للبابا فحسب . ولكنه فشل ايضا في توضيح مفهوم تاريخي لما ذكره كدليل على هجوم البابا على العلم واعلان الكنيسة الرومانية عدم رضائها عن العلم الحديث ومهاجمته . وأعلن دريبر ان الكنيسة الرومانية ينبغي لها ان تعرف حدودها سلطانها . هذا ما قاله دريبر . ولكن الكنيسة في الواقع لم تنظر للعلم كعدو للدين . وينبغي ان يدرك الانسان ان الكنيسة الرومانية قد تهادنت الى حد ما مع الحضارة الحديثة وتولت تشجيع ورعاية العلم في القرن الذي ازدهر فيه واحرز تقدما عظيما . ولم يكن من الصعب معرفة أن بيوس التاسع لم يمانع في استخدام ثمرات العلم الحديث . فلقد كانت حكومته الحكومة الاولى في ايطاليا التي سمحت باستخدام طوابع البريد . كما استخدمت مصابيح الغاز في شوارع روما عام ١٨٥٣ . ثم استخدمت التلغراف في مقاطعات البابا . ولقد كان بيوس مهتما باستخدام السكك الحديدية . وفي عام ١٨٥٦ وافق على انشاء سكة حديدية لمد خمسين ميلا . ولقد أسهم في هذه الانجازات أشخاص من غير رجال الدين مثل دوماس في الكيمياء وجالفاني في الكهرباء . وفرزنل Fresnel وفرونهوفر Fraunhofer في البصريات وليفرير Liverier في الفلك . ولقد صادف كتاب « الصراع بين الدين والعلم » نجاحا أعظم من أي نجاح صادفه أي كتاب آخر في المجموعة . فطبعت منه عدة طبعات في كثير من اللغات الاوروبية .

وفي بداية الحرب الأهلية الامريكية نشأت حرب أخرى بين العلم والدين . وفي عام ١٨٧٠ هبت عاصفة في المجال العلمي محتها كتاب « أصل الانواع » لدارون . وتصدى رجال الدين لمهاجمة الداروينية ممثلة في كتاب « تسلسل الانسان » لدارون وكتاب « المبادىء الاولى » لسبنسر عام ١٨٦٤ . ولكن في عام ١٨٦٦ بدأت ماري بيكر إدي نشر صحيفة « [illegible] » « العلم المسيحي » ، كما قام فرانسيس النجوود بتكوين « الجمعية الدينية الحرة » . وفي عام ١٨٧٠ بدأ [illegible] نشر صحيفة « المفكر الحديث » Modern Thinker . وأصبحت هذه المؤلفات توجد في المكتبات [illegible] وساءت الامور بالنسبة لرجال الدين عندما توفي لويس أجاسيز Louis Agassiz العالم الشهير في علم الحيوان [illegible] لنظرية دارون . ولقد تسبب ذلك في بلبلة أفكار الجماهير .

بدء تحول في الجامعات الامريكية

وفي عام ١٨٥٧ ، وفي الخامسة والعشرين من عمره ، وافق اندرو ديكسون وايت Andrew Dickson White على قبول منصب أستاذ التاريخ في جامعة متشيجن . كان هنري فيليب تابان رئيس الجامعة ، كمن سبقه من رؤساء هذه الجامعة ، من رجال الدين ، وفي الوقت ذاته من المعجبين بالجامعات الالمانية المعنية بالبحث العلمي . ولقد حاول ادخال النظام الالماني للبحث العلمي في جامعته ، وعمل على انشاء معهد تابع للجامعة يستطيع فيه الطلبة اختيار مايودون دراسته من المواد . وهذه المحاولة من جانب تابان كان من نتائجها تحويل الكليات الجامعية ذات النظم القديمة الى كليات حديثة ، وبهذا عمل على تحويل الجامعات من جامعات مقتصرة على المواد الدينية الى جامعات تدرس العلوم الحديثة ، معارضا في ذلك النظام التقليدي الذي كان مقتصرا على تعليم العلوم الدينية . وكان لهذا تأثير قوي على أستاذ التاريخ الذي شارك تابان تحمسه للنظام الالماني في التعليم الجامعي ، وهو النظام الذي درسه وايت نفسه وعملا معا على انشاء جامعة امريكية حديثة متحررة من القيود الدينية .

وعندما انتخب وايت عضوا في البرلمان عن ولاية نيويورك عام ١٨٦٣ أصبح أكثر قدرة على تنفيذ أفكاره ، وذلك بتوفير الاعتمادات المالية اللازمة لانشاء جامعة جديدة تسير وفق النظام الحديث الذي تشيع له . وبمساعدة صديق له في البرلمان يدعى كورنيل لمكن من تحقيق حلمه في انشاء هذه الجامعة الحديثة . ولكن هذا النظام الجديد قوبل بمعارضة قوية من الكليات ذات النظم القديمة التقليدية ، وشنوا على وايت حربا شعواء وبذلوا كل ما يمكنهم من جهد لمنع البرلمان من الموافقة على الاعتمادات اللازمة . ولكن مقاومتهم العنيفة باءت بالفشل وتم انشاء « جامعة كورنيل » . واستقطبت هذه الجامعة الأساتذة الذين يناصرون الداروينية وبهذا أسس وايت مدرسة في جامعة كورنيل تتبنى أفكار سبنسر في اطارها العام . وأعلن وايت أن هذه المدرسة سوف تعمل على الوصول الى الحقيقة بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى . واتهمت هذه المدرسة في ذلك الوقت بأنها تتبع الشيطان وتنشر الالحاد .

ولكن وايت آله هذا الاتهام ، فلقد كان في أعماقه مؤمنا غير ملحد ، وكان معهده يقوم بتدريس علوم الدين ، والقى محاضرة في معهد كوبر بنيويورك ، عنوانها « ميادين القتال العلمي » The Battle-fields of Science قال فيها ان مثل هذا الاتهام ليس في صالح الدين ولا في صالح العلم ، اذ أنه في جميع مثل هذه المواقع الحربية بين العلم والدين يخرج العلم في النهاية من الموقعة منتصرا . وكان مبعث السرور عند وايت ان محاضرته نشرت في اليوم التالي (١٩ ديسمبر عام ١٨٦٩) في

صحيفة « نيويورك ديلي تريبيون » . وأعاد وايت القاء المحاضرة نفسها في عدة مدن أخرى . ثم ظهرت بعد ذلك في كتاب بعد مراجعتها واضافة اجزاء اليها . وانتشر الكتاب على جانبي المحيط الاطلنطي بعنوان « حرب العلم » . وشيئا فشيئا استقطب الكتاب الى جانبه عددا من رجال الدين المسيحي المرموقين واعتبر وايت ذلك نجاحا وانتصارا لحرية الفكر الجامعي .

ولقد كان وايت عنيدا في صراعه واصراره كما وصفه استاذ التاريخ كارل بيكر Carl Becher . فأخذ يصارع أعداء حرية الفكر بلا هوادة وصارهذا الصراع ينمو ويزداد عن طريق قراءات وبحوث تلميذه وصديقه جورج لنكولن . ولخص كل ذلك عن ظهور كتاب من تأليفه بعنوان « تاريخ الصراع بين العلم والنظام اللاهوتي المسيحي » . ولم يكن صراعا معاديا للمسيحية . بل محاولة للتآخي والانسجام معها واعتبارها صديقا ينبغي أن يلزم حدوده . وكان كتابه تاريخيا أكثر منه علميا . ذكر فيه تاريخ الصراع الطويل بين العلم والدين المسيحي بما فيه معارضة المسيحية لنظريات جاليليو عن دوران الارض وغيرها . وحوكم جاليليو بسبب هذه النظرية واضطر لانكارها لينجو من الحكم بالاعدام . ولكنه بعد انكاره وصدور الحكم ببراءته همس وكأنه يحدث قائلا « ولكن الأرض تدور » ! ولقد ذكر وايت في مقدمة كتابه أنه هو نفسه تربى تربية دينية وانتخب أمينا لاحدى الكليات الكنسية وأستاذا في كلية أخرى من هذه الكليات وأن لاشيء يمتعه مثلما يمتعه الشعر الديني . ولا تستهويه موسيقى مثلما تستهويه الموسيقى الدينية . وان معظم أصدقائه كانوا من رجال الدين . وان رجال الدين بوجه عام هم أفضل وأعظم الاذكياء . ولكن هذا لايمنع من افساح طريقا لبعض حقائق العلم . وان الدين اذا أزال العلم فسوف يصبح ذلك شيئا من أجل الأشياء . وان فهم الدين يزداد عمقا اذا خالطه العلم . ولقد نجح وايت في النهاية في اثبات حقيقة هامة وهي ان العلم والدين لايتعارضان ولا يتعاديان . وقام دربير بتأليف كتاب آخر عن الصراع بين العلم والدين . ولقي الكتابان اقبالا كبيرا من الجماهير . ثم تضاءل الاقبال على الكتابين بعد ذلك ولكنهما تركا أثرها حيث شرحا العلاقة التاريخية بين العلم والعقائد المسيحية . تلك العلاقة التي استهوت الباب المؤلفين بعد ذلك لمدة مائة عام بصرف النظر عن شخصية مؤلفيها .

وظل المؤلفون يحتفون المعنى المجازي بين العلم والدين على أنه « حرب » ولكن البعض الآخر انتهج منهجا مختلفا وهو مناقشة الرأي القائل « بالحرب » بين العلم والدين قائلين ان هذا الموضوع يخضع لمناقشة ما اذا كانت هذه « الحرب » قد نشبت بين العلم والدين بهذا المعنى المجازي . ومن بينهم تشارلس وجراف شيلدز في كتابه « الفلسفة النهائية » الذي نشر عام ١٨٧٧ . ولقد نجح شيلدز في ايجاد مصالحة بين العلم والمسيحية في القرن التاسع عشر . فلقد أظهر المسيحية والعلم بشكل يدل على عدم وجود صراع بينهما . وكان من نتيجة ذلك ان عين شيلدز أستاذا للتوفيق بين العلم والدين في كلية نيوجرسي التي أصبحت فيما بعد جامعة برنكتون . وفي قاعات العلم وخارجها حاول شيلدز طوال هذه المدة عرض وجهة نظره . وعمل على التآخي بين العلم والدين في الاجزاء الأخرى التي أضافها الى كتابه الأصلي . وأعلن أن الحرب بين العلم والدين يجب أن تتوقف . وكان هذا في صورة عرض فلسفي اثبت فيه أن العلم والدين ينبغي ان يلتقيا في النهاية بحيث ان العلم لا يلغي العقيدة الدينية فلا يكون بينهما في النهاية سوى سلام دائم .

تعايش سلمي بين العلم والميحية

في كتاب بعنوان « الدين في العصر الفكتوري » (١٩٣٦) يصف اليوت بنيز Elliot Binns الجدل بعد الداروينية تحت عنوان « الصراع بين العلم والدين » ويقول ان الصراع اشتد بضراوة في النصف الأخير للقرن التاسع عشر . ويقول ان

الهجوم تركز على كتاب دارون « أصل الأنواع » . وأول تصادم حدث عندما أعلن هكسلى ان الغزو العلمي ، كما يفعل جميع الغزاة ، هدفه احداث أكبر قدر من الهدم . ويقول اليوت بينز في المجال نفسه في مؤلفاته عن تاريخ اللاهوت ان الصراع بين العلم والدين حدث نتيجة لعدة أسباب ، ربما أهمها جميعها فشل كلا الفريقين العلماء ورجال الدين ، في فهم كل منهما للآخر . ونجد نفس الرؤية في دراسة ليرنارد ريخون بعنوان « من كوليريدج الى جور » From Coleridge to Gore (١٩٧١) حيث يقول ان كلا الطرفين كانا في مزاج يحتم الصراع ، الا أن كلا منهما كان مندفعا أكثر من اللازم ، ولم يتناقشا في هدوء كاف لاحداث الاتزان الفكرى الذى لابد منه للوصول الى الحقيقة التي يتيحها المزاج الهادىء غير المندفع ، ولم تتم الهدنة بينهما الا بعد ادراك أن لكل منهما مجالا لايتعداه .

ويدأ بعد ذلك عدد كبيرمن المفكرين المسيحيين المرموقين يوقفون الحرب بينهم وبين العلم ويتعايشون سلميا مع نظرية التطور ، من بينهم ايجستس هوبكنز سترونج (١٨٣٦ ـ ١٩٢١) الذى أعلن في كتابه « التصنيف اللاهوتى » توافقا بين نظرية التطور والفلسفة يتمشى مع جميع المذاهب المسيحية . كما قبل أيضا ودفيلد نظرية التطورمطنا أنها قد تقدم نظرية معقولة عن طريقة العناية الالهية المقدسة في مجال خلق الانسان . وبعد أربع سنوات بدا انه يجد متعة في اثبات ان مذهب كالفين Calvin في الخلق ، بما في ذلك نشأة جميع صور الحياة سواء فيما يتعلق بالنبات أو الحيوان والانسان كان نتيجة خطة الهية للتطور . كما ان جيمس أور James Orr (١٨٤٤ ـ ١٩١٣) أستاذ تصنيف اللاهوت في كليه جلاسجو للكنيسة الاسكتلندية كان كتب في كتاب ذى شهرة أن نظرية التطور عند تطبيقها على المواد العضوية تبدو له منطقية ومدعمة ببراهين عديدة . وفي عام ١٩٠٥ أكد أور أنه في حدود معينة لاتتعرض أية تعاليم دينية للخطر عن طريق نظرية التطور باعتبارها وسيلة من وسائل الخلق . ويقول ان الكتاب المقدس المسيحى ليس كتابا علميا ولا يُنْسَب ولیس من أهدافه الكشف عن الحقائق العلمية ، بل رسالته اظهار ارادة الله وقدرته على تنويع وتطوير الخلق . ويقول ان نظرية التطورما زالت نظرية لم تثبت بالبرهان القاطع لتتحول الى حقيقة علمية ، الا انه توجد بعض الدلائل التي تشير الى بعض تطورات في أصل الأنواع . ويقول أور في كتابه ان التطور العضوى ما هو سوى مرادف لكلمة الخلق ، أى أن التطور العضوى للكائنات الحية ما هو سوى عملية خلق متواصلة تنبع من ارادة الله الذى لايتم ولا يحدث شيء في الوجود بغير ارادته .

الحقيقة والمجاز في العلم

المجاز أو المعنى المجازى من ضروريات الحديث أو الكتابة ، اذ بواسطته يتحول المعنى المطلق الى معنى متماسك ويضفى على الكلام حيوية ويبسط المعانى المعقدة فيجعلها أسهل للفهم . ماذا يكون حال الأدب ، مثلا ، بدون المعانى المجازية في « الكوميديا الالهية » لدانتى و« رحلة الحج » لبانيان Pilgrims Progress، و« الارض المنبسطة Flat Land لاليوت و« مزرعة الحيوانات » لجورج أورويل ؟ وكما ان المجاز او النموذج لازم للأدب فهو حيوى ومفيد للعلم . ولولا تشبيه هيوجنز لامواج المحيطات لما أمكن فهم نظرية الأمواج في الضوء . ولولا تشبيه حركة الجزيئات بتصادم كرات البلياردو لما أمكن تقريب نظرية حركة الغازات الى الأذهان . وكذلك الأمر في نظرية بور الذى وضحها كنموذج للمجموعة الشمسية وبدون هذا التوضيح فان تطور النظرية الذرية كان من الممكن أن يعوق .

ولذا فالاستعارة والمجاز لاغنى عنهما ، لا في الأدب فحسب ، بل في العلم وفلسفة العلم أيضا ، يتوقف عليها فهم الاكتشافات وفهم الحقائق العلمية . ولقد اعتبر دارون الجملة القائلة « الانتخاب الطبيعى Natural Selection التى

استخدمها والمستمدة من المعنى المصطنع لاختيار العناصر الممتازة في الحيوانات والنباتات لانتاج سلالات أرقى ، أقل اقناعا من جملة هربرت سبنسر التى تعبر عن المعنى نفسه بشكل أكثر دقة وهى « بقاء الأصلح » . وبعد ذلك أشار ولاس الى أن تعبير « بقاء الأصلح » كان التعبير الواضح عن الحقيقة ، اذ أن « الانتخاب الطبيعى » ولو أنه التعبير المجازى لهذا المعنى الا أنه لدرجة ما غير مباشر وخاطىء . اذ أننا لو عبرنا عن الطبيعة « بشخص » فانها ، أى الطبيعة ، لاتقضى على جميع الصفات غير المرغوب فيها عندما تختار الصفات الممتازة .

ويجاول جون باسمور ، وهو على حق في هذا ، قائلا اننا لو كنا نقصد بالعلوم الطبيعية Science محاولة التوصل الى ما هو حادث بالفعل ، فاننا في هذه الحالة نعتبر التاريخ أيضا من العلوم الطبيعية ؛ فهو أيضا ينطوى على بحث حقيقة ما يقع من أحداث ، وبهذا نجيز للمؤرخين ، كما أجزنا للعلماء ، استخدام المجاز لشرح وتوضيح الظروف المعقدة .

ففي التاريخ ، كما في العلوم الطبيعية ، لا يمكن الاستغناء عن مجازات معينة تخضع للتغيير تحت ضغط الحقائق ، ولهذا توجد تعبيرات معينة لمصطلحات مثل « المتطهرين » و« الفكتورى » ، مثلا ويوجد ايضا استخدام شائع لها قام بتصحيح لمصطلحات في عديد من الدراسات والرسائل الاكاديمية في مجال التاريخ .

تأثير نظرية دارون على جماهير المسيحيين

عرفنا الصراع الذى حدث بين العلماء والفلاسفة بشأن نظرية التطور ، ولكن ماذا كان تأثير ذلك على جماهير المسيحيين في تلك البلاد التى دار فيها هذا الجدل ؟ ان تأثير الرؤية الجديدة للطبيعة كان قويا لدرجة أن البعض ارتد عن العقيدة الدينية المسيحية ، ورأوا أن دارون في اعتقادهم قد دمر العقيدة المسيحية ، اذ أن الخلق ان لم يكن قد حدث وفقا لما هو في في الكتاب المقدس فلقد تساءلوا عما اذا كان ما ورد في الكتاب المقدس خارج هذا المجال صحيحا؟ واذا كان الانسان لم يخلق كما ورد في الكتاب المقدس ولكنه انحدر من حيوانات سابقة ، فماذا يكون من شأن الوقوع في الخطيئة وما حاجتهم للفداء (أى أن المسيح افتدى جميع المسيحيين بنفسه) . واذا كانت الاشياء تصنع نفسها ، واذا كانت الكائنات الحية قد تكونت نتيجة صدفة بدون تخطيط وبلا هدف، فما هى الحاجة (في رأيهم) لوجود قوة خالقة عاقلة مديرة لمراقبة وملاحظة ودفع عجلة الخلق ؟ من المعقول (في نظرهم) أن يوجد خالق في عالم ملىء بالآلام والمعاناة واهدار اعداد لاحصر لها من الأحياء في سبيل خلق عدد آخر يحل محلها ؟ واذا كانت الامور تسير على هذا المنوال ، واذا لم يكن هناك فداء ، أو خالق رحيم ، بل يوجد بدلا من ذلك نضال وعذاب وموت فكيف يتحدث الانسان (في رأيهم) عن الأخلاقيات المسيحية وهى العنصر الاساسى لمجتمعهم والحياة الأخرى التى يكافأ فيها المحسنون المؤمنون ؟

واستخلص آخرون من الداروينية مثل هذه التساؤلات ولذا فلقد رفضوها واعتبروها نوعا من الهذيان الذى لايخضع لأى منطق ، وبدا لهؤلاء ان قبول الداروينية يعنى بالنسبة لهم سببا حتميا لحدوث ثورة روحية وتغيير جذرى فيما يتعلق بنظرتهم للحياة ويجعل كل ما في الحياة عديم الجدوى والهدف وكان هناك بلا شك عدد من رجال الدين والعلماء والأدباء الذين اعتبروا نظرية دارون تحديا ينتظر الاستجابة من الطبقة المثقفة ، وهؤلاء كانوا مهيئين لقبول النظرية . والبعض منهم يحكم عليها بما تقدمه من مزايا أو فوائد . ولكن الغالبية العظمى تجاوزت الاهتمام الجماهيرى برفضهم النظرية على أسس فلسفية وعلمية ولكنهم لم يختلفوا عن الجماهير فيما يتعلق بالثورة الروحية ولم يكن في الداروينية حافز كاف ليتغلب على الاتجاهات التقليدية .

والنبش . نتيجة لذلك ، من الصراع استجابتان مختلفتان تجاه داروين . بعض الأفراد احتضنوا نظريته وهجروا المسيحية ، وآخرون اداروا ظهورهم نحو داروين وظلوا متمسكين بمعتقداتهم المسيحية . ومهما كانت اختلافات وجهة نظرهم تجاه النظرية فلقد اتفقوا جميعا على أن المسيحية اذا فهمت على حقيقتها تتعارض مع الداروينية اذا فهمت هي أيضا على حقيقتها .

وفي العلم ، كما في الحرب ، فان التاريخ يكتبه الصفوة الموجهة . وهؤلاء الذين احتضنوا نظرية علمية جديدة يعتبرون خارجين على التعاليم الدينية الارثوذكسية . بينما يعتبر الذين تعلقوا بالقديم كتحف تاريخية قديمة .

والذين حادوا عن المسيحية واعتنقوا الداروينية مروا خلال تجربة أليمة من عدم الاستقرار الفكري،هؤلاء وحدهم هم الذين هجروا ما كانوا يعتبرونه شيئا مقدسا ، وتحولهم منه الى الحاد مضاد بسبب لهم هوة نفسية عنيفة . ويقول فستنجر Festinger ان النتيجة لذلك التي لايمكن تجنبها هي الافتقار الى الانسجام النفسي بسبب اتخاذ قرارهم هذا . ولكن حجم وقوة هذا الاهتزاز النفسي يختلف ويتوقف الى حد كبير على الجاذبية النسبية للشيء الذي اختاروه والشيء الذي تخلوا عنه . ولذا فعدم الانسجام النفسي لدى المعارضين للداروينية كان ضئيلا للغاية ، لأن الداروينية بالنسبة لهؤلاء لم تكن ذات جاذبية وتعتبر في نظرهم شيئا تافها لايحفز على ثورة روحية . ولكن الانسجام النفسي لدى المسيحيين الذين رغبوا في اعتناق الداروينية كان على قدر عظيم من الضخامة .

الداروينية والفكر التطوري

ان مؤلفات تشارلس داروين يذكرها كثيرون ولكنهم لم يقرأوها ، ويقرأها كثيرون دون ان يفهموها . والرجعيون ومتملقو العلم كلاهما استغل داروين لخدمة اغراضهما المتعارضة . بينما نجد أن المعتدلين قد أظهروا الداروينية بشكل أكثر أو أقل مما يحويه الكتاب . وتحت هذه الظروف التي لم تتغير الا أخيرا ، نجد أن نظرية داروين في التطور بالانتخاب الطبيعي يجب ان تبنى كما ذكرها داروين . ويوجد في كتب داروين فقرة لاتزيد عن خمسمائة كلمة تعبر عن الداروينية تعبيرا مركزا . ويتركز الجدل في الداروينية على عدة محاور أو قوانين طبيعية . واذا كانت هذه القوانين صحيحة فان ذلك يؤدي الى نتائج يمكن ان نلاحظ في الطبيعة حيث يقول انه اذا وجدت بعض الاختلافات في النباتات والحيوانات ، واذا كانت نتيجة لزيادة عدد الافراد زيادة ضخمة ، فان كل فرد يجد نفسه مضطرا لصراع في سبيل البقاء . والافراد المتصارعة التي تحمل صفات تساعدها على الصراع تكون لديها فرصة للبقاء وانتاج ذرية تحمل الصفات نفسها التي تساعدها على البقاء اكتسبتها عن طريق الوراثة . وهذا مايقصده داروين بجملة « الانتخاب الطبيعي » . وهذه الأفراد المنتصرة في الصراع هي التي يكتب لها البقاء بينما تختفي الافراد الأخرى التي لم تستطع الصمود . وقد يكون من بين أسباب عدم بقائها فشلها في عملية التناسل . وينتج عن ذلك ، في رأي داروين ، بعد عدة أجيال اختلافات في التركيب والوظيفة تؤدي في النهاية الى انتاج مجموعات من النباتات والحيوانات المختلفة القادرة على انتاج ذرية نتيجة التزاوج فيما بينها . وتجرى منذ أعوام عملية صناعية ، أي من صنع الانسان ، تؤدي الى تحسين نسل بعض الحيوانات ، وذلك بأخذ الحيوانات المنوية من الذكور ذات الصفات الممتازة وتلقيح أكبر عدد من اناث هذه الحيوانات لانتاج ذرية أفضل ، وهي العملية ذاتها المبنية عليها نظرية الانتخاب الطبيعي لداروين .

الاختلاف والوراثة

يقول دارون ان الظواهر الاولية للانتخاب الطبيعي هي الاختلافات الفردية ووراثة هذه الاختلافات . ولقد اعترف دارون بجهله بقوانين الاختلافات في ذلك الوقت . لماذا تختلف الملامح وأشكال بعض الاعضاء بين الأب والابن ؟ وذكر ان التغيرات تختلف في طبيعتها ولو أنه عزا هذه التغيرات للبيئة . وأن الاختلافات الفردية البسيطة في تركيب الكائن الحي يمكن ان تكون المادة الاولية للانتخاب الطبيعي .

ولا ينكر احد ان الاختلافات تظهر بشكل مستمر في ذرية اى كائن حي . ولكن كون هذه الاختلافات لن تتوقف عن الظهور وانها تتراكم في حدود معينة لاستعدادها في هذه الافراد ويحتفظ بها عن طريق الانتخاب الطبيعي لم تعقلها الغالبية العظمى من زملاء دارون . واعتقد بعضهم مثل هارفي Harvey ويجري Gray ولويس اجاسيز ان حدود الاختلافات في كل كائن حي تنزع لأن تكون محدودة ومحصورة بحواجز هائلة . وان الاختلافات الفردية لايمكن ان تمدنا بالمادة اللازمة للتطور العضوى .

وسبب الاختلافات ، في رأى دارون ، يكمن في البيئة حيث تنشأ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نتيجة لتغيرات جديدة في البيئة وظروف الحياة . ولكن جنكين Jenkin ، وهو من علماء الرياضيات المرموقين ، ذكر بناء على برهان علمي ان كل حيوان أو نبات يحتوى داخل اطار للاختلافات ، ويوجد في مركز هذا الاطار الشكل المتوسط بينما تتضاءل الاختلافات كلما اتجهنا نحو السطح . وقال ان نظرية دارون لايمكن ان تكون مقنعة على أساس تثبيت مجموعة مختلفة بالقرب من الحافة الخارجية للاطار ، ولكن لابد لها من قوة تجعلها قادرة على التغير خارج نطاق هذا الاطار . وأجاب دارون على هذه الملاحظة قائلا بأن هذه القوة التى أشار اليها جنكين تكمن في قدرة البيئة على احداث الاختلافات بشكل متواصل ، والصفات التى بلغت ذروتها في الوقت الحالي ، قانها بعد بقائها على ما هي عليه القرون عديدة ترجع وتتغير مرة أخرى تحت ظروف للحياة جديدة . واذا أعطيت الوقت الكافي فان تأثير الاحوال البيئية للحياة قد يؤدى الى ظهور تغيرات جديدة كافية لتخطى أى حاجز .

وفي الطبعة الاولى من كتاب « أصل الأنواع » لدارون كتب يقول ان ظروف الحياة بتأثيرها على الجهاز التناسلي تعتبر العامل الأول لحدوث التغيرات . ومن العوامل الاخرى استخدام أو عدم استخدام عضو من أعضاء الحيوان . فالكائن الحي بتغيير عاداته تبعا لتغير البيئة يحدث تغييرا للحيوان في هذه البيئة الجديدة يقتضى استخدام بعض الاعضاء واهمال استخدام أعضاء أخرى . وهذا يؤدى الى تغيرات في ذريته .

وهذه الفروض التى وضعها دارون ظلت محل جدل بين من جاء بعده من العلماء تزيد عن خمسين عاما . وعلاوة على ذلك فان قوله بأنه عن طريق العلاقة بين الحيوان والبيئة والتعويض قد تحدث اختلافات ثانوية في أعضاء ترتبط فسيولوجيا بغيرها من الأعضاء التى ظهرت فيها اختلافات ثانوية جعلت الجدل يتفاقم اذ أن عديدا من العلماء بدا لهم أن دارون قد جعل البيئة تتسرب الى الكائن الحي بأكمله . ومن خلالها قد تحدث التغيرات بلا أية علاقة أو أى دور للانتخاب الطبيعي .

والمسائل التي أثارها دارون حول الوراثة أقامت بدورها عقبات أمام نظرية الانتخاب الطبيعي . ومثل الاختلافات ، فان الوراثة كانت بالنسبة له لغزا محيرا حيث كانت قوانينها غير معروفة لدارون في ذلك الوقت . فلقد تساءل دارون قائلا : « ألا

يمكن أن يعرف أحد لماذا تورث بعض الصفات ولا تورث الصفات الاخرى في أفراد من النوع نفسه ؟ ولماذا يرث بعض الصفات في بعض الأحيان عن جده ولا يرثها عن أبيه ؟ ولماذا قد تورث بعض الصفات الى الجنسين الذكر والأنثى وفي بعض الأحيان تورث لجنس واحد فقط ، فيرث الابن بعض صفات أمه ولا يرث صفات ابيه ، او العكس ؟ »

الوحدة والزمن

لقد فرضت نظرية الانتخاب الطبيعي ان الاختلافات تكون مفيدة في حالة ما اذا كانت في صالح الفرد الذى حدث له التغير . كما فرضت النظرية ايضا انقضاء فترة من الزمن تعطى الافراد فرصة لتراكم هذه التغيرات لتصبح عن طريق الانتخاب الطبيعي اشكالا جديدة . ولكن دارون اكتشف ان هذين الفرضين عرضة للمناقشة والشك . فالانتخاب الطبيعي لا يمكنه احداث تغيرات في أى نوع من أنواع الكائنات الحية لكى ينتج نوعا آخر . واذا كانت التغيرات تحدث لمجرد ان يبدو الكائن الحى جميلا في نظر الانسان او لمجرد التغير فان النظرية تنقوض من أساسها . وتساءل دارون قائلا : « هل يتمخض الانتخاب الطبيعي عن انتاج صفات ضارة بالكائن الحى ؟ » . ان الانتخاب الطبيعي في رأى دارون يتم لصالح الكائن الحى . اذ أنه اذا انتج صفات ضارة بالكائن الحى فان الصراع من أجل البقاء في هذه الحالة سوف يقضى على هذا الكائن . ولكن براون وكارل نيجيل وآخرين أشاروا الى اختلافات عديدة لافائدة منها اطلاقا للكائن الحى نباتا كان أو حيوانا ، اذ ما الفائدة التى تعود على حيوان ما في مجال البقاء للأصلح اذا اختلف طول الاذن في بعض الأرانب والفئران ، او الثنيات المعقدة في الطبقة الخارجية لأسنان عديد من الحيوانات ؟ فمثل هذه التغيرات لاتقدم ولاتؤخر . ولم يستطع دارون الرد مقنعا على مثل هذه التساؤلات .

وتساءل بعض العلماء قائلين : كيف استطاع الانتخاب الطبيعي انتاج نوع من الحيوانات مثل الزرافة . فالاستطالة التدريجية في عنق هذا الحيوان تؤدى الى زيادة وزنه ، ويترتب على ذلك زيادة حاجته للطعام . وهذه الصفة الجديدة تعتبر ضارة بالحيوان في حالة نقص المواد الغذائية وصعوبة الحصول عليها . واذا كان طول العنق ذا فائدة فلماذا لم يحدث للحيوانات الاخرى القريبة الصلة به ؟ ولم يستطع دارون الرد على هذه التساؤلات ايضا ردا مقنعا .

وغير ذلك ، فان نظرية الانتخاب الطبيعي لدارون تحتاج بطبيعة الحال الى وقت طويل لاثبات صحتها او عدم صحتها . فالتأثير المباشر للبيئة واستخدام الأعضاء وعدم استخدامها ذكرها دارون في الطبعة الاولى لكتابه « أصل الأنواع » . ولكن بدون مرور احقاب جيولوجية كافية لاحداث التغيرات التى لاتعد ولاتحصى والانتخاب الطبيعي وانقراض بعض الحيوانات اللازمة لملاحظة الظواهر التى أشار اليها ، فاننا لايمكننا التسليم بأن الانتخاب الطبيعي عامل مساعد للتطور الحقيقى للكائنات الحية . ولقد قال دارون ان الانتخاب الطبيعي يتناول بالتغيير اختلافات عديدة ، وان هذه الاختلافات لابد ان تستمر لعدة أجيال لاتعد ولا تحصى حتى يتمكن الانتخاب الطبيعي من تغيير أشكالهم تغيرا جذريا يجعلهم يبدون على هيئة أنواع أخرى من الحيوانات غير تلك التى انحدروا منها ، وهذا يضعف النظرية الى حد كبير ولا يجعلها في مرتبة الحقيقة العلمية . فتظل نظرية التطور مجرد فكرة فلسفية معلقة في الهواء لا يمكن اثباتها لترقى الى مستوى الحقيقة العلمية . ولقد ذكر دارون نفسه ان فكرة الانتخاب الطبيعي لايمكن اثباتها لتصبح حقيقة علمية قبل مرور ثلاثة آلاف مليون سنة !

رد دارون على معارضيه

في عام ١٨٧١ ظهر كتاب لدارون بعنوان « نشوء الانسان » The Descent of man بعد خمس طبعات سابقة ، تضمنت كل طبعة منها عدة تغييرات وتعديلات محاولا الرد على الاعتراضات التي وجهت ضد نظريته ، ولو أن بعض الاعتراضات لم يستطع الرد عليها . ذكر دارون في هذا الكتاب ان الاختلافات التى تحدث في الكائنات الحية مستمرة وبلا حدود . وقال ان الاختلافات السطحية هي التى يمكن التحدث عنها ، وهى الاكثر أهمية بالنسبة لموضوع الانتخاب الطبيعى ، وان أسباب الاختلافات هى تغير الظروف البيئية التى يعيش فيها الكائن الحى . وتناول التأثير الذى يحدثه استعمال العضو او عدم استعماله مع التغيرات البيئية . وذكر ان الوراثة كانت عامل توصيل ، وان المزج بين الصفات كان النتيجة ، كما قال أيضا ان استخدام الصفات الجديدة المختارة والوقت الطويل اللازم لتراكمها لتتحول الى نوع جديد من الكائنات الحية كانت مقدمة الانتخاب الطبيعى ، ولكنه لم يشر الى الوقت اللازم لذلك . وعاد وكرر ماذكره من قبل عن التأثير المباشر للبيئة واستعمال الاجزاء والأعضاء أو عدم استعمالها لاحداث اختلافات وراثية . وعندما اشتد نقد العلماء لموضوع الانتخاب الطبيعى ظل يردد هذه الكلمات المذكورة مرارا وتكرارا . وبالاشارة الى عدم اختيار التركيبات عديمة النفع للكائن الحى ، قال ان كل تغير يطرأ على الكائن الحى له سببه الفعال . فاذا كانت هذه الاسباب تعمل بشكل متماثل ومتجانس وبفاعلية خلال فترة طويلة فان النتيجة لن تكون ظهور اختلافات فردية سطحية بل ستكون اختلافات جذرية كبيرة وثابتة ولو أنها ليست ذات أهمية فسيولوجية . فالتركيبات التى يطرأ عليها التغير التى لايستفيد منها الكائن الحى لاتستمر متشابهة من خلال الانتخاب الطبيعى ولو أن الصفات الضارة سوف تتلاشى وتتخلص منها الذرية .

وفى موضع آخر من الكتاب لخص دارون التغيرات التكيفية (أى الناتجة عن التكيف لبيئة جديدة أو ظروف مختلفة للحياة) في الانسان قائلا ان التأثيرات الموروثة او الاجزاء من الجسم التى يستخدمها الحيوان وتلك التى لايستخدمها تزداد عن طريق الانتخاب الطبيعى ، وكان قد ادعى من قبل ان عدم استعمال الأعضاء أو الأجزاء من الجسم كسبب للأعضاء او الاجزاء الضامرة . ولكنه يعود الآن ويقول ان استخدام الاعضاء وعدم استخدامها يفسر لنا لماذا نجد المتوحشين من البشر طويل البصر ، اى يرون رؤية واضحة عن بعد ، بينما الذين مهنتهم اصلاح الساعات هم قصيرو البصر . ويفسر لنا أيضا لماذا نجد البشر الذين يعيشون في أماكن عالية ذات ضغط جوى منخفض أكثر طولا وحجما من غيرهم من الشعوب . ولقد اعترف دارون قبل ذلك بأنه أعطى الانتخاب الطبيعى أكثر مما يستحق من الاهتمام .

التحدى اللاماركى[1] لنظرية دارون

كان كتاب « نشوء الانسان » هو آخر ما كتب دارون من كتب فيما يتعلق بالتطور العضوى للكائنات الحية . ومنذ نشره لهذا الكتاب حتى وفاته عام ١٨٨٢ شغل نفسه ببحوث طويلة المدى تخدم الاطار العام لنظريته ، وتمخضت بحوثه هذه عن موضوع « التعبيرات والعواطف عند الانسان والحيوانات » الذى نشر عام ١٨٧٢ ، وبعض الموضوعات الاخرى مثل حركة وعادات النباتات المتسلقة » الذى نشر عام ١٨٧٥ و « تأثير التلقيح الخلطى والذاتى فى المملكة النباتية » (١٨٧٧) . وفي سبتمبر عام ١٨٧٢ قال دارون لولاس : « لقد ركزت بحوثى في علم النبات وتركت جميع النظريات » . وفي فترة شيخوخة دارون كانت بحوث العلماء تتقدم بشكل لم يسبق له مثيل ، وبدأ العلماء الشبان يتخصصون في فروع من العلوم البيولوجية . وقال دارون

(١) نسبة الى العالم الفرنسى « لامارك » صاحب النظرية المعروفة باسمه .

لارنست هيكل في هذه الفترة : « سوف استمر في العمل أطول مدة ممكنة ، ولو أن توقفي عن العمل لن يكون ذا أهمية كبيرة اذ يوجد الآن عديد من العلماء قد يكونون أكثر مني كفاءة سيواصلون المسيرة » .

ولقد بدأ أتباعه يعملون ، فلقد قال أحدهم وهو آرثر طومسون ، انه معني بالاجزاء الضامرة في الحيوانات . والمشكلة التي كان داروين يواجهها اساسا هي اختلاف الأراء حول كتب داروين نفسه ، تلك الأراء التي تحولت عام ١٨٧٠ الى مدرسة تهاجم نظريته وتظهر تناقض الأراء في كتبه ، ولكن ولكي ينقذ داروين نظرية الانتخاب الطبيعي من هجوم نقاده اخذ يعيد ويزيد عن التأثيرات الوراثية على الصفات غير المختارة والتأثير المباشر للبيئة واستخدام وعدم استخدام الاعضاء والاجزاء التي ظنها في البداية أنها ببساطة بسبب التغيرات غير المحددة العشوائية .

ولكن يرد على اعتراض وليم طومسون الذي قال ان الفترة الجيولوجية غير كافية لاحداث الانتخاب الطبيعي ، فلقد فرض داروين ان سرعة اختلاف ظروف الحياة سببت اختلافات متواصلة تتيح للكائن الحي بالانتخاب الطبيعي أن يسبق المديد النوعية الظاهرية . والرد على الاعتراض فيما يتعلق بمزج الصفات قال ان تأثير البيئة على الحياة والعادات تؤكد ان عديدا من التغيرات المقيدة حدثت في مملكتي النبات والحيوان ، وفي الوقت ذاته فان الاجزاء تبدو عديمة الفائدة ولا يمكن تفسيرها على أساس الانتخاب الطبيعي تكونت تحت ضغط ظروف وعادات جديدة . وبغض النظر عن هذه التعديلات في نظريته ، فلقد ظل داروين معتقدا ان التأثير للبيئة والتغيرات الناشئة عن استعمال او عدم استعمال الاعضاء قد تكون دعامة فكرة الانتخاب الطبيعي ، وقد تكون عاملا ثانويا ، ولكنها كأسباب للاختلافات فانها ضرورية وكافية ، والانتخاب الطبيعي وحده ، في رأيه يمكن ان يكون كافيا لانتاج انواع مختلفة ، وبعد هذا كان على داروين وأتباعه ان يواجهوا التحدي اللاماركي .

مكونات نظرية لامارك

لم يعش العالم الفرنسي لامارك ليشهد شهرته ، وهذا أقسى ما يمكن أن يحدث لعالم أو أديب أو فنان . ولد لامارك عام ١٧٤٤ وتوفي عام ١٨٢٩ ، وكان يشغل منصب أستاذ في متحف التاريخ الطبيعي بباريس . وكان لامارك أول من أجرى تفرقة واضحة بين الحيوانات اللافقارية والحيوانات الفقارية ، اى ذات العمود الفقري أو السلسلة الظهرية ، وكان الى جانب ذلك فيلسوفا طبيعيا .

ولقد تكونت في ذهنه نظرية « التحول » Transformation على مدى سنوات عديدة ، وهي في شكلها العام تدور حول عاملين ، الاول عبارة عن قوة داخلية في صلب الكائن الحي سماها قوة الحياة Pouvoir de La vie وهبها الله للطبيعة ، وهذه تنزع نحو انتاج سلسلة من النباتات وسلسلة من الحيوانات تظهر كل منها تدرجا نحو التعقيد والاتقان ، وفي المجموعة الحيوانية نجد الانسان على قمة السلسلة .

والعامل الثاني عبارة عن تنظيم تتميز به الكائنات الحية Sentiement interieur ومن الحيوانات العليا تؤكد عمل أشياء تناسب الحاجة التي خلقتها البيئة . ويصبح الفعل عادة وتتحول العادة الى غريزة وتنتج تغيرات عضوية ، والغريزة والتغيرات التي تكونت تورث للذرية ، هذان العاملان المكونان لنظرية لامارك : القوة الداخلية الموجودة في الكائن الحي ،

والتنظيم التكيفي يمكن اعتبارها بوجه عام كمكونين للتطور الوراثي للمجموعات الحيوانية ، والمكون الاول رأسي بسبب ارتقاءها في التعقيد العضوي يؤدي الى تكوين أشكال أعلى للحياة . اما المكون الثاني للنظرية فهو أفقي او جانبي في اتجاهه بسبب تكيفات وراثية لظروف معينة منتجا انحرافات (أو حتى رجوعا الى الخلف) للمجموعة الصاعدة الافقية (الجانبية) . ونظرية التطور التي تظهر أحد او كلا هذين المكونين هي التي نعبر عنها بقولنا (التطور اللاماركي) .

وبعد وفاة لامارك بعدة سنوات ، كما حدث في أثناء حياته ، كان أعداؤه من العلماء اكثر من أصدقائه . والشخص الذي نقل نظريته الى العالم المتحدث بالانجليزية لم يكن عالما ، بل شخصا عاديا من الناشرين للكتب يدعى روبرت تشيمبرس Robertt Chambers (١٨٠٢ - ١٨٧١) . فلقد نشر هذا الناشر الاسكتلندي موضوعا عن التطور بوجه عام ابتداء من علم الفلك حتى النفس بعنوان « البقايا الأثرية في التاريخ الطبيعي للخلق » ولم يذكر اسمه كمؤلف لهذا الموضوع . ولقد كان لموضوعه هذا تأثير لتمهيد الطريق أمام داروين . وذكر تشيمبرس في مقاله الدلائل التي تصلح لتكون أساسا لنظرية قيمة عن التطور . ولقد كان تشيمبرس هاويا وأساء موضوعه الى لامارك . ومع ان تشيمبرس ادعى في بادىء الأمر أنه لايعير نظرية لامارك أي انتباه الا أنه في الواقع ذكر أن الأنواع نشأت عن طريق قانون عضوي من خلال التأثير المباشر وغير المباشر للطبيعة على الحياة الجنينية . وفي الطبعة المنقحة لهذا الموضوع الذي نشر عام ١٨٥٣ وافق على الشقين اللذين كونا نظرية لامارك .

وفي الوقت الذي كانت فيه فكرة الأعضاء الأثرية عرضة للتشهير بها لما تنطوي عليه من أشياء لايمكن أن تدخل العقل بسهولة ، كانت هنالك نظرية أخرى في حالة تكوين . فان رتشارد أوين (١٨٠٤ - ١٨٩٢) البريطاني الذي كان يقوم باعادة تركيب الهياكل العظمية للفقاريات كان أمرين يوافق قبل عام ١٨٥٩ على تطور انواع الكائنات الحية . ولو أن قبوله كان مغلفا بفلسفة أوكين Oken المثالية التي تقول بأن الاكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر في غموض وابهام وليس عن طريق الخبرة او التجربة . أعلن أوين نظريته عام ١٨٤٨ في كتاب عن مقارنة الهياكل العظمية للفقاريات . وتتكون النظرية من عنصرين ، شأنها في ذلك شأن نظريتي لامارك وتشيمبرس . العنصر الاول الافلاطوني الفكرة يقول ان قوة حيوية تنتج الاختلافات الشكلية ، وقوة مضادة تنتج التشابه في الشكل تكرر أشكال الاجزاء ووحدة التكوين . وفي موضوعه عن طبيعة الاطراف Limbs الذي نشر عام ١٨٤٠ يعترف أوين بجهله بالقوانين الطبيعية والأشياء الثانوية التي تحدث الترتيب المنتظم والارتقاء ،ولكنه يؤمن بأن هذه الأسباب مسترشدة بضوء الطراز البدائي للأعضاء ،قد تقدمت ببطء في تكوينها من الاعضاء البدائية حتى ظهرت في النهاية بأرقى طراز في الانسان . وفي تعليقه على كتاب « أصل الانواع » لداروين عزا أوين التطور الى العملية المتدرجة لاكتساب الحياة تبعا للقانون خلق قدري دائم العمل . وكتفسير لأسباب التطور لم تختلف نظرية أوين فيما يتعلق بالأعضاء البدائية ، عن القوة المتقدة الدافعة للتطور التي بداخل الكائن الحي . وعلى ذلك ، فانه على الرغم من أن لامارك عرض نظرة مادية للحياة فان نظريته كانت قريبة الشبه بآراء الذين يقولون ان هذه العمليات غامضة تقع خارج نطاق الخبرة والمعرفة .

ولقد عرض لامارك ببساطة ووضوح ما عرضه داروين بارتباك واضطراب مصرا (داروين) على أن يؤكد مرارا وتكرارا أهمية الانتخاب الطبيعي . فلقد قال لامارك : « التطور عن طريق التأثيرات الموروثة للبيئة والعادة » . فالوضوح والبساطة كانت مطلوبة بشدة في السنوات التي شهدت « أصل الانواع » يتحول الى طرق ملتوية محيرة . وهكذا نجد أنه بما يتناسب مع اعتقاد

دارون المطرد على البيئة والعادة لمؤازرة ومساندة الانتخاب الطبيعي . كانت هناك حركة أخرى تبتعد عن فكرة الانتخاب الطبيعي متجهة نحو البيئة والعادة باعتبارهما العامل الأساسي للتطور العضوى .

وفي انجلترا نجد أن الفيلسوف هربرت سبنسر الذى كان متشيعا للامارك منذ قرأ نظريته ، قد مزج الانتخاب الطبيعي بالوراثة في الجزء الاول من كتابه « أساسيات البيولوجيا » .

أما في الولايات المتحدة الامريكية فلقد ظهرت جماعة من التطوريين على رأسها عدد من اللاماركيين مثل ألفياس هيات عضو جمعية بوسطن للتاريخ الطبيعي ، وباكارد أستاذ علم الحيوان والجيولوجيا بجامعة براون ، وكوب أستاذ الجيولوجيا والتعدين بجامعة بنسلفانيا .

كوب وزملاؤه

كان كل من هيات وباكارد وكوب من الشبان الطموحين المهتمين بالداروينية ، ولقد اعتنقوا نظرية لامارك قبل بلوغهم سن الثلاثين . وفي عام ١٨٦٦ نشر هيات بحثا عن حفريات الحيوانات رأسية القدم Cephalopods [١] اتسمت بالصفات المميزة للاماركية الحديثة فيما يختص بالنمو الجنيني . ونشر كوب بحثا في العام نفسه جاء مشابها لبحث هيات دون ان يكون لدى أحدهما علم عن بحث الآخر ، وصفه بأنه قانون الاسراع والتعويق acceleration and retardation . ولقد هجر باكارد الداروينية عام ١٨٧٠ وكرس كل وقته للتطور اللاماركي مطبقا نظريته على الصفات المميزة للحيوانات التي تعيش في الكهوف . وفي عام ١٨٦٧ اصبح هيات وباكارد المحررين المؤسسين بصحيفة « أمريكان ناتشر اليست » American Naturalist تخصصت في عرض وجهة النظر الامريكية فيما يتعلق بنظرية التطور . ثم انضم اليها كوب عام ١٨٧٨ عندما أسهم في تمويل الصحيفة . وعن طريق تلك الصحيفة الى جانب المحاضرات تمكنوا من الحصول على تأييد عدد كبير من العلماء مثل توماس ميهان عالم النبات وجوزيف لى كونت العالم الجيولوجي اللذين كانا من جيل أحدث من جيل هيات وباكارد وكوب . كما ناصرهم عدد من تلاميذهم وأصبحت لهم مدرسة في البحث العلمي في هذا المجال . يعتقدون ان الانتخاب الطبيعي الذي أصر عليه دارون ماهو سوى عامل واحد من عدة عوامل ، وهو أقل أهمية من تلك العوامل الأخرى . وهذه العوامل كلها مجتمعة تصنع نظرية حقيقية في التطور . وكانت القوة الدافعة لهذه اللاماركية الحديثة مركزة في كوب ، حيث كتب مجموعة من المقالات بعنوان « أصل الاصلح » The origin of the fittest ونشرت مجموعة من هذه المقالات عام ١٨٨٦ وبعد عشر سنوات نشرت مجموعة أخرى بعنوان « العوامل الاولية للتطور العضوى » جمعت الاكتشافات الجوهرية عظيمة القيمة في التطور اللاماركى التي ظهرت باللغة الانجليزية خلال القرن التاسع عشر .

لم يكن كوب في بادىء الأمر من مريدى لامارك ، ولكنه اقتنع بعدم كفاية الانتخاب الطبيعي كتفسير لأصل الصفات عديمة الفائدة التي لم يأخذها دارون في الاعتبار . وكما فعل دارون فلقد اتجه كوب نحو أهمية البيئة والعادة لحل هذه المشكلة ،

---

(١) الحيوانات رأسية القدم طائفة من طوائف الحيوانات الرخوية Mollusca ومن أمثلتها السبيا (الحبار) والأخطبوط (Octopus) .

ولكنه اختلف عن دارون في تفكيره حيث قال (كوب) : « لماذا لا تكون البيئة والعادة هي العوامل الاولية للتطور ؟ » . ولقد كان واضحا لديه ان هذه العوامل عندما نجحت نجاحا يدعو الى الاعجاب في تفسير أصل التركيبات العديمة القيمة فانها يمكن تطبيقها بالسهولة نفسها لتفسير التركيبات التي اعتبرها دارون نتيجة حتمية للانتخاب الطبيعي .

وفي رأى كوب ، فانه لا الصفات التكيفية ولا غير التكيفية يمكن أن تنشأ عن طريق الانتخاب الطبيعي . والانتخاب الطبيعي لا ينشىء الاختلافات الأصلح . وبعبارة أخرى فان أصل النوع يحدث في رأى كوب نتيجة للتأثيرات الموروثة عن طريق البيئة والعادة وتبعا لقانون يختلف تمام الاختلاف عن قانون الانتخاب الطبيعي ، وهو قانون « الاسراع والتعويق » . ولقد فسر كوب نظريته كالآتي :

ان اكتساب الصفات التي تكون عملية التطور يعنى أن عددا كبيرا من الصفات يكتسب في النماذج العالية من الكائنات الحية أكثر منها في النماذج الأقل رقيا . وهذا يشتمل على عدد كبير من التغيرات في أثناء النمو الجنيني للكائن الفرد في النماذج الراقية . وبعبارة أخرى فان الصفات التي يكتسبها الكائن الحي في خلال تطوره . وهذه العملية سماها هيات كما سماها كوب عملية الاسراع . كل تقدم في التطور العضوي يحدث عن طريق « الاسراع » كما وصفه كوب في الأسطر السابقة . ويجيب التطور التقدمي الذي ينتج عنه أنواع أرقى يسير على هذا المنوال . اما عملية « التعويق » أو التطور الى نوع أقل رقيا فتحدث نتيجة بطء في معدل نمو الصفات في أثناء النمو الجنيني ، اذ لا بد من اضافة صفات فوق الصفات التي سبق اكتسابها . وبعض الصفات الموروثة قد لا يصل اليها التطور في أثناء نمو الجنين فيفقد بذلك بعض الصفات التي سبق أن اكتسبها ، حيث يرجع الجنين في أثناء تطوره الى الخلف في هذه الحالة بدلا من التقدم الى الأمام . فتبدو الحيوانات التامة النمو (أى بعد انقضاء التطور الجنيني) وكأنها ترجع الى الوراء بدلا من اتجاهها الى الأمام حيث ترتقي . ولقد سمى كوب هذه العملية بالنكوص او الارتداد .

والتطور عن طريق « الاسراع والتعويق » في لغة كوب يعنى التطور من خلال النمو الجنيني . فالجنين في أثناء نموه يمر بجميع المراحل السابقة الممثلة في المجموعات الحيوانية الاقل منه رقيا حتى يصل الى الجنين الذي ينتج عنه حيوان يماثل الحيوان الذي ينتج هذا الجنين . فالانسان ، مثلا ، يمر جنينه ، في أثناء تكوينه ، بجميع مراحل التطور السابقة ، فيصبح في طور من أطوار نموه ذا خياشيم مثل الاسماك ، ثم تتلاشى الخياشيم في أثناء نمو الجنين . ويكون للجنين ذنب مثل الحيوانات الاقل منه رقيا ، ولكن الذنب يتلاشى قبل خروج جنين الانسان من بطن أمه وفي النهاية يتحول الى جنين بشرى يخرج من بطن أمه ليصبح انسانا . ويحدث مثل ذلك في حالة الحيوانات الاقل رقيا من الانسان ، كالأرنب مثلا ، حيث يتطور الجنين في أثناء نموه داخل رحم امه حتى ينتهي بالشكل الجنيني الذي يخرج من بطن أمه ليصبح أرنبا . وفي حالة التطور الجنيني لانتاج نوع أرقى ، فان هذا الجنين الذي في داخل رحم أنثى الارنب يستمر في التطور داخل الرحم ليصبح جنين حيوان أرقى . هذا هو ما يقصده كوب « بالاسراع » acceleration . اما في حالة التعويق او الارتداد فان جنين الأرنب بدلا من أن يوالى تطوره داخل الرحم ليصبح أرنبا ، مثلا ، فانه يتوقف عند مرحلة جنينية معينة ولا يوالى تطوره الطبيعي ، فيخرج من رحم الانثى جنين يمثل حيوانا أقل رقيا ؛ أى أن التطور في هذه الحالة حدث له تعويق او ارتداد الى الوراء .

وهكذا نرى بوضوح ان التطور عن طريق « الاسراع والتعويق » في رأى كوب هو التطور نحو الأرقى أو نحو الأدنى : وهذا يتشابه مع رأى تشيمبرس وأوين حيث يأخذان أيضا في الاعتبار النمو الجنيني . بالاسراع في نظرية كوب يشابه الشق الاول من نظرية تشيمبرس ، وهو ما سماه « قانون التكوين الأرقى » .

ويقول تشيمبرس ، ان جميع التغيرات قد احدث بمجرد تعديل لعملية النمو الجنيني ويخلص من هذا بأن انتاج أشكال جديدة لم يكن سوى اضافة طور جنيني آخر في أثناء نمو الجنين . ففي رأى تشيمبرس يمكن اعتبار قانون النشوء Low of generation سببا . أما في نظرية كوب فان الاسراع والتعويق هما تلخيص لتأثيرات البيئة والعادة ، وهذه الأسباب بدورها تعتمد في كفاءتها على تكوين خلقى ميتافيزيقي في نظرية لامارك في التطور .

لقد اعتقد كوب ان كل تغيير في صفات الكائنات الحية مهما كان ضئيلا ، لا بد له من سبب ، وهذا السبب من الممكن ان يكون من نوعين : سبب فيزيقي كيميائى Physico-Chemical ينتج عن التأثير المباشر للبيئة ، وسبب ميكانيكى ينتج عن استعمال العضو أو عدم استعماله . وظهور الاختلافات نتيجة لسبب فيزيقي كيميائى تكون على الاخص في المملكة النباتية ، اما ظهور الاختلافات لسبب ميكانيكى فتوجد على الاخص في الحيوانات . وهذه التغيرات التي أكتسبها الكائنات الحية تورث عن طريق طاقة للنمو سماها كوب batlism تحدث تحت تأثير ظروف البيئة والعادة . وعندما تزداد الطاقة وتتدخل ، عن طريق الجهاز العصبي ، في العناصر التناسلية فانها تسجل فتصبح الاختلافات قابلة للوراثة . وتنمو الاختلافات للظهور كجزء من النمو الجنينى ويترتب على ذلك احداث اسراع أو تعويق للتطور . ويقول كوب انه من الواضح ان العناصر التناسلية والوحدات العضوية الاخرى التي يتكون منها الكائن الحي تنطوي على ذاكرة تقرر مصير تكوين الجنين . ويتضح هذا باعادة أشكال الحيوانات السابقة في أثناء التطور الجنيني . ومن المحتمل ان يكون لهذه الذاكرة الأساس الجزيئي للذاكرة الواعية . ولكن لأسباب غير معروفة لنا فان الوعي لا يوجه أنشطتها . والطاقة التي تسير تحت ارشادها تصبح اوتوماتية ولا يكون في استطاعتها احداث نموذج جديد . الا كاضافة لما هو مسجل لديها .

سبنسر والداروينية

كان الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر من الأصدقاء المقربين لدارون ، وعلى الرغم من ذلك فلقد كان على رأس المؤيدين للامارك . ولقد أمضى معظم حياته في محاولة اثبات فرض مؤداه ان التكيفات البيولوجية تحدث أساسا من خلال التأثيرات الوراثية للبيئة والعادة . ولقد كانت نظرة سبنسر للداروينية عن نظريات اللاماركيين الامريكيين . وكانت أكثر تحديا لدارون .

وسواء كان على صواب أو على خطأ ، فلقد كان دارون يعتقد انه ناقد رديء ، وان قدرته على تتبع سلسلة من الافكار محدودة وذاكرته ضعيفة . ولكنه كان واثقا من شيء واحد وهو أنه في مجال التاريخ الطبيعي لديه القدرة على التفكير الواضح . ولقد أشار في سيرة حياته الى كتاب « أصل الأنواع » على انه عبارة عن جدل طويل من بدايته الى نهايته لم ينجح في اقناع ولو عدد قليل من العلماء المرموقين . وكان تقييم دارون لنفسه صحيحا الى حد كبير . فلقد تقبل سيلا من قذائف التفسيرات

لنظريته . وعندما أراد الدفاع عن قدرته على تعقل الأشياء ، قال انه منذ صباه الباكر كانت لديه رغبة قوية في تفسير كل شيء يقع تحت ملاحظته ، وجمع الحقائق ليستخلص منها قانونا عاما . ولكنه قال ان هذه الرغبة بالاضافة الى حبه للعلوم الطبيعية قد أكسبه الصبر الذى مكنه من التركيز سنوات عديدة على حل معضلة لا تفسير لها . وقال انه ليس من طبعه ان يتبع غيره بدون تفكير ، وانه حاول المحافظة على حرية فكره فلا ينقاد لأى فرض مهما كانت درجة تسليم الناس بصحته عندما تتجمع لديه الحقائق التي تعارضه . ولا يمكنه مقاومة تكوين رأيه الخاص في اى موضوع . ولقد قاده هذا الى عدم الثقة في الفروض العقلية في العلوم الطبيعية المتداخلة .

ولقد كان جدل دارون فيما يتعلق بنظرية التطور مثالا على استنتاج الفروض العقلية واستخدامها كوسيلة لمقدمة منطقية فرضية فيما يتعلق بالنباتات والحيوانات ، ينبثق منها نتائج تطوريه معينة . واكتفى بعرض فروض يمكن أن تؤدى الى استنتاجات تخضع للاختبار عن طريق مجموعة معينة من الظواهر . ولذا فان نظريته لا علاقة لها بتكوين المجموعة الشمسية او تسلسل العناصر الكيميائية أو أصل وطبيعة الحياة . لقد اقتصرت على « أصل الانواع عن طريق الانتخاب الطبيعي » . ولقد كتب دارون في الفصل الأخير من كتابه عن أصل الانواع : « انني أرى مجالات تتفتح لبحوث أكثر أهمية ـ بحوث يلقى فيها مزيد من الضوء على أصل الانسان وتاريخه » .

وتنم هذه الفقرة عن رأى قديم لدارون كتبه في نوتة خاصة يقول : « انني لن أسمح بذلك ، اذ توجد فجوة كبيرة بين الانسان وباقي الحيوانات تدل على ان الانسان ينبثق من أصل مختلف عن الأصل الذى انبثقت منه الحيوانات الاخرى » . ولقد احتفظ لنفسه بهذا الرأى لمدة أكثر من ثلاثين عاما ، ولكنه بعد أن ذاعت شهرته عاد يقول ان وجود الانسان لا يستثنى من أن يكون هو أيضا نتيجة عملية تغيرات تطورية . وفي الفصل الاول من كتاب « نشوء الانسان » جذب الانظار الى دلائل تشير الى ذلك في جسم الانسان ، وهي التركيبات المتشابهة مع تركيبات حيوانات أخرى ، والنمو الجنيني والاعضاء الأثرية الضامرة التي تضع الانسان (في تصوره) مع غيره من الحيوانات . ويذكر في الفصل الثاني لهذا الكتاب ان الاختلافات تحدث في الاشكال الفيزيقية للانسان ، وان هذه الاختلافات قد تكون موروثة وان زيادة النسل لانتاج ذرية أكثر مما يلزم والصراع في سبيل الحياة حدثت للانسان كما حدثت لغيره من الحيوانات . وباختصار ، فان الانتخاب الطبيعي كان الوسيلة الاولية لتطور الانسان . ويتناول في فصول الكتاب ابتداء من الفصل الثالث حتى الفصل الخامس المظاهر التي تميز الانسان عن غيره من الحيوانات : القوة الذهنية والحاسة الأخلاقية .

وأراد دارون بعد ذلك اثبات ان الفرق في القوى العقلية بين الانسان والحيوانات العليا ، ولو أنه كبير ، الا أن حجم هذا الاختلاف يكمن في درجته وليس في نوعيته . كما وجد ان بذور العاطفة والضمير كامنة أيضا في بعض الحيوانات ، ولو أن الهوة ما تزال شاسعة بين ضمير الحيوان وضمير الانسان . وقال دارون ان الدلائل تشير الى أن التطور نحو الانسان قد تناول قدراته العقلية وأخلاقياته عن طريق الانتخاب الطبيعي ، ولو أن دارون رأى في الوقت ذاته أنه الخطوة الأولى التي خطاها الانسان المتوحش ليصبح متحضرا أمر يصعب حله . ويقول بعد ذلك ان الانتخاب الطبيعي يصلح في حالة الانسان البدائي المتوحش ، حيث لا تسمح الظروف في هذه الحالة الا ببقاء القبائل او المجموعات المتقدمة نسبيا في الصفات العقلية . ولكن الانتخاب الطبيعي لا يصبح ذا تأثير في المجتمعات المتحضرة التي تعنى برعاية المتخلفين عقليا ولا يسمح لها ضميرها بالقضاء عليهم .

بل على العكس ترعاهم وتكفل لهم البقاء وقد تسمح لهم بالتزواج فيزداد عدد المتخلفين عقليا بدلا من أن ينقص . ولو أنه من جهة أخرى ، كما يقول دارون ، من الممكن أن يستمر الانتخاب الطبيعي في المجتمعات المتحضرة اذا أخذنا في الاعتبار أن في مثل هذه المجتمعات يرتفع مستوى التغذية ، وهذا بدوره يؤثر على العقل ويترتب على ذلك تمكن الآباء من القيام بتربية أفضل لابنائهم وتعليمهم ، كما ترتفع مثل هذه النوعية من التربية والتعليم الى مستوى أخلاقي أعلى . هذا في رأى دارون ، ولكنني أرى أن هذه المبررات تبدو واهية وساذجة . ويعود دارون ويقول انه على الرغم من كل هذا فقد تحدث زيادة في التخلف العقلي لأسباب أخرى . والرأى القائل بأن في داخل الكائن الحي نزعة نحو الارتقاء بالجسم (وهو رأى لا مارك) لم يكن مقبولا لدى دارون الذي ظل مصرا بعناد عجيب على أن التقدم نحو الرقي في مجال التطور لا بد أن يحدث نتيجة للانتخاب الطبيعي بمعاونة التأثيرات الوراثية للبيئة والعادة دون أن يقدم المبررات المنطقية الكافية لاثبات هذا الرأى . وكان يقول أيضا ان التقدم نحو الافضل هو الأمر السائد وليس الارتداد الى الخلف ، اذ أن ذلك يعطى الجنس البشرى أملا في الوصول في المستقبل الى مستوى أفضل ؛ ولقد غاب عن باله أن التبشير بمستقبل أفضل لا بد أن يرتكز على دعائم من العلم والمنطق العلمي والا تحول الى مجرد تفاؤل أبله أقرب الى الهذيان لا يمت الى العلم بأية صلة . فالعلم يقدم حقائق ولا يقدم تفاؤلا أو تشاؤما .

التكوين الداروني السبنسري

كان أول اتصال لدارون بسبنسر عام ١٨٥٨ ليشكره على اهدائه كتابا ، معربا عن اعجابه بملاحظات سبنسر على الدخل العام فيما يختص بنظرية التطور قائلا انه يعالج الموضوع كعالم طبيعي وليس من وجهة نظر عامة ، مشيرا في ذلك الى كتاب « أصل الأنواع » الذي كان يواصل كتابته في ذلك الوقت . وكتب دارون لسبنسر مرة أخرى بعد ذلك ليخبره بأن مقاله الممتاز عن فرض التطور سيشير اليه في الطبعة الثالثة لكتاب « أصل الأنواع » . وبعد ظهور كتاب لسبنسر بعنوان « اساسيات البيولوجيا » عام ١٨٦٧ قال دارون لسبنسر : « لقد دهشت لوجهة نظرك الخصبة . فمعظم فصول كتابك تقدم افتراضات لمجلدات من البحوث يمكن أن تجرى في المستقبل » . وفي عامى ١٨٧١ و ١٨٧٢ أشار دارون في كتابه « نشوء الانسان » الى سبنسر قائلا عنه « فيلسوفنا العظيم » . ووصفه في كتابه (كتاب دارون) « التعبير عن العواطف في الانسان والحيوان » بأنه (سبنسر) المؤيد العظيم لمبدأ التطور . ولكن العلاقة الطيبة بينهما لم تدم طويلا . فلقد كتب دارون بعد ذلك يقول : « انني لا أشعر بأية استفادة من كتابات سبنسر فيما يختص بأعمالي ، فان آراءه الحاسمة لمعالجة أى موضوع تتعارض مع اطار تفكيرى .

فلم تقنعنى آراؤه . ولقد حدثت نفسي مرارا وتكرارا بعد قراءة احدى مناقشاته قائلا : « هنا يمكن ان نجد موضوعا قد يحتمل يستغرق ست سنوات . ولكن تعميماته التي قد تكون ذات أهمية من وجهة نظر الفلسفة تبدو لى غير ذات فائدة علمية ، اذ تهتم بالتعريفات الفلسفية اكثر من اهتمامها بقوانين الطبيعة » .

والآراء التي عرضها سبنسر في كتابه « الفلسفة التخليقية Synthetic phylosophy لم تكن ذات فائدة للعلماء منذ زمن دارون . وظلت أعمال دارون ذات أهمية من الوجهة العلمية لطرافتها واصالتها وعلاقتها بمشكلة الأصل النوعي ، واشارته الى عملية الانتخاب الطبيعي بكونها الاكثر اهمية ولكنها ليست الوحيدة المسئولة عن تغيرات الكائنات الحية . اما كتابات سبنسر فممتعة من الوجهة التاريخية . والشيء الوحيد ذو القيمة العلمية في مؤلفات سبنسر هو تمسكه بالاعتقاد في وراثة الصفات المكتسبة .

ويعزى اهتمام الفيلسوف سبنسر بنظرية التطور الى عدم شعوره بأن آراءه السياسية والفلسفية موضع تقدير في وطنه ، فأراد أن ينتزع الاهتمام والتقدير من جهات أخرى ، فأدار وجهه نحو الولايات المتحدة التي أعارته الاهتمام ومنحته الشهرة ، فلقد بيع من كتبه فيها ما يقرب من ثلاثمائة وسبعين ألف نسخة . وكان سبب الاقبال على مؤلفاته هناك عدم تعارضها مع المسيحية ، ذلك التعارض الذي وصمت به نظرية دارون . ففي كتابه « الأساسيات الاول First principles نجد أن عنوان الفصل الاول : « الدين والعلم » وعنوان الفصل الثاني : « المصالحة » ويقصد بالمصالحة تلاقي العلم والدين وعدم تعارضهما . واعتبر كتابه « الفلسفة التخليقية » بمثابة أساس للاهوت جديد لا يتعارض مع العلم . ولقد عبر عن ذلك الكونت جوبليت دالفييلا ، وهو من البلجيكيين المعجبين بسبنسر عندما كتب عام ١٨٨٦ يقول ان الظاهرة تبدو مميزة للفكر الامريكي الذي عندما يعتنق فلسفة العالم القديم فانه يحولها في الحال الى دين . ومن أسباب اعجاب الامريكيين بسبنسر كانت الحقيقة الواضحة بأن فلسفته قدمت طريقا عقلانيا للحياة الامريكية . ففي جميع مؤلفاته ابتداء من مقالاته السياسية المبكرة الى آخر مؤلفاته أشاد سبنسر بالحرية وحقوق الانسان وحرية التجارة والمنافسة الحرة . وكانت أفكاره تدور حول الأشياء التي تصادف قبولا لدى الامريكيين ، ولقد مزجها سبنسر بأفكاره عن التطور حيث اعتبر ان تقابل الأجناس المختلفة نتيجة حتمية للقوى الطبيعية ومظهر من مظاهر التقدم العالمي . فعندما توجد الأسواق المتنافسة تنافسا حرا والحكومة التي تتسم باللامركزية فان الافراد في مثل هذا المجتمع يكونون متضامنين مع القوى التي تقوم بتشكيل الآمال الكامنة في عقولهم والمتوقف عليها مصيرهم .

الداروينية والداروينية الحديثة

« لقد تغيرت الأنواع خلال حقب طويلة ، وعلى الأخص عن طريق الانتخاب الطبيعي لمجموعات عديدة من الاختلافات الضئيلة ، تعاونها التأثيرات الوراثية لاستخدام أو عدم استخدام بعض الاجزاء في الكائن الحي وتكيف التركيبات بالتأثير المباشر لمؤثرات خارجية فتتحول مع الزمن الى اختلافات ثابتة مستقلة عن الانتخاب الطبيعي ... ولقد اقتنعت بأن الانتخاب الطبيعي كان العامل الأساسي ولكنه لم يكن العامل الوحيد للتعديلات والتغييرات ... » .

اذا لم يوجد سوى فقرة واحدة في جميع مؤلفات دارون تمهد لمناقشة نظرية التطور في أواخر القرن التاسع عشر ، فان هذه الفقرة المأخوذة عن الخلاصة في الطبعة الاخيرة لكتاب « أصل الأنواع » تعتبر كافية لذلك . والنصف الاول من الفقرة يفصح عن التوتر الذي أحدثه دارون في كتابيه « أصل الأنواع » و« نشوء الانسان » حيث مزج الانتخاب الطبيعي مع تأثيرات البيئة والعادة ، ويذكرنا بأولئك الذين أزالوا التوتر لمصلحة التطور اللاماركي .

والتوتر بسبب دواعي التطور في عمل دارون لم ينشأ عن طريق الصدفة ، وكذلك لم ينشأ نتيجة للجهل أو عدم الفهم ، ولكنه نشأ بسبب حرص دارون ، الذى تميز به ، عندما أشار الى الانتخاب الطبيعى بأنه أهم عامل وليس العامل الوحيد لاحداث التحورات بينما احتفظ بكل التفسيرات المساعدة ليواجه برهانا محيرا . ولقد وجد عديد من العلماء ان توتر دارون لايحتمل ، وبهذا فانه في الوقت المناسب حدث استقطاب لجميع عوامل التطور . ويمكن فهم الوضع المنطقى بسهولة ، اذ لو سلم الانسان بأن الصفات المكتسبة تورث كما قال دارون فلا يوجد ما يمنعنا من الاعتقاد بأن البيئة والعادة تستحوذان على معظم ان لم يكن كل القوى التي عزاها دارون للانتخاب الطبيعى . ومن جهة أخرى ، اذا كان الانتخاب الطبيعى هو العامل المؤثر في

احداث التغيرات . وهو الرأى الذى كان يميل اليه دارون . فانتا في هذه الحالة يمكن أن نستخلص أن الصفات المكتسبة لايمكن أن تورث . وان الانتخاب الطبيعى هو العامل الوحيد للتطور . وهؤلاء الذين قللوا من دور الانتخاب الطبيعى في احداث التطور اطلقوا على أنفسهم انهم أصحاب مبدأ اللاماركية الحديثة ووجدوا أعظم تأييد لهم في الولايات المتحدة الامريكية . والذين رأوا أن الانتخاب الطبيعى هو القوة المحركة نحو التطور أصبحوا هم أصحاب مبدأ الداروينية الحديثة .

ولابد أن نفرق بين التطور اللاماركى لسبنسر واللاماركية الحديثة لكوب . اذ بينما ادعى سبنسر وجودا للبيئة والعادة أكثر فعالية مما رأى دارون . ورأى أن مقارنته لما كتبه دارون في الطبعات المتتالية لكتاب « أصل الانواع . تدل على تسليمه بأن الانتخاب الطبيعى هو المسئول الاول عن ظاهرة التطور . فان كوب . على العكس . اعتبر الانتخاب الطبيعى أقل فعالية من قانون « الاسراع والتعويق » . وان سبنسر لم يكن أقل خطأ من دارون عندما عزا الى الانتخاب الطبيعى أية وظيفة بناءة فيما يتعلق بتطور الحياة .

والداروينية الحديثة في الواقع تشير الى أراء الفريد والاس الذى اكتشف هو أيضا (مستقلا عن دارون) نظرية التطور . واوجست ويزمان استاذ علم الحيوان بجامعة فريبورج . فكلاهما اعتقد ان الانتخاب الطبيعى وحده يعتبر كافيا لاثبات أصل الانواع . واستثنى والاس الانسان من ذلك .

الأراء الحديثة في التطور

في عام ١٩٥٨ نشر جراهام كانون الذى كان رئيسا لقسم علم الحيوان بجامعة مانشستر بانجلترا كتابا بعنوان « تطور الأشياء الحية » The evolution of Living things » وترجمه الى العربية الاستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد بعنوان « نظرات في تطور الكائنات الحية » . قال في مقدمته :

« قصدت أن أوضح في كتابى هذا ان النظرية التى يشار اليها على أنها النظرية الأصيلة في الوراثة قاصرة قصورا كبيرا عن تفسير المسألة الجوهرية الكبرى من مسائل الفلسفة البيولوجية . الا وهى التطور ... ولو نجحت في تحويل طريق النقاش والبحث الى وجهته السليمة فسوف أكون راضيا عن تلك النتيجة تمام الرضا . فلو أننى وفقت الى اقناع القراء بأن التطور يمثل تتابعا مستمرا لعوامل ذات تأثير على قدر كبير من الكفاءة . وليست اطلاقا مجرد سلسلة غير معقولة من المصادفات المتكررة الناجحة لشعرت بأن محاولتى هذه كان لها ما يبررها » .

ويقول في الفصل الاول من كتابه القيم : « .. ان فكرة تطور الكائنات .. قديمة ولا تمت بأية صلة الى ما لقنه وشب على الاعتقاد فيه بعض جيلنا الحاضر الذين أمضوا صباهم في أوليات هذا القرن . من انها بدعة جديدة تبلبل الأذهان بل وقد تبلغ حد انتهاك حرمة العقائد المقدسة ... ففكرة التطور قد صاحبتنا منذ فجر تاريخ الحضارات البشرية . بل ربما تقدمت هذا التاريخ ... ان الانسان قد فكر منذ بداية تاريخه على الأرض في أصول الكائنات . ليس في أصله وحده . بل في أصول جميع الكائنات المحيطة به ...

منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد على الاقل كان على سطح هذا الكوكب مركزان راسخان للحضارة ... اما أحدهما فقد كان في وادي النيل في الاقليم الذي نسميه الآن « مصر » وأما ثانيهما فقد شغل المساحة الشاسعة التي يشغلها نهر الفرات ونهر دجلة ... أو أرض ما بين النهرين ... وحضارة ما بين النهرين قضت عليها كارثة كبرى وطمرتها تحت الرمال . بينما في مصر ظلت حضارة الفراعنة القديمة ماضية في تطورها الى وقتنا هذا في سجل متتابع الصفحات متصل الحلقات .

... ففي أرض ما بين النهرين ... نشأ في نفوس القوم ميل الى الاعتقاد بما نسميه اليوم نظرية الكوارث ، اى الاعتقاد بالرأى القائل بأن العالم كان يتعرض من حين الى آخر لكوارث هائلة تقوض أركانه وتبيد الاحياء ... ثم تعود في كل مرة بعض القوى الرحيمة الى تعميره من جديد ... وقصة طوفان نوح تشير الى كارثة من هذا النوع . ولكننا لانستطيع ان نحكم على وجه اليقين أنهم كانوا أو لم يكونوا يؤمنون بحدوث سلسلة من تلك الكوارث . وهى فكرة وجدها البيولوجيون في العصر الفكتورى صالحة لاستخدامها في دعايتهم لنظريتهم عن التطور .

أما في مصر فان الاحوال الهادئة المستقرة ... قد اوحت اليهم بفكرة أكثر أمنا وسلاما . وهى عقيدة الاستمرار في منشأ الكائنات وأصولها .

وقد حدث ، قبل عهد المسيحية بنحو خمسمائة عام أو أكثر قليلا أن هبط أرض مصر رجل اغريقى ... يسمى فيثاغورس عاش في ربوعها نحو عشرين عاما . فلما عاد الى وطنه الأصلى نقل اليه فكرة الاستمرارية او الاطرادية وهما الاسمان اللذان اطلقهما الناس فيما بعد على تلك الافكار الاولى للمصريين القدماء . وهكذا ورث الفيلسوف الاغريقى العظيم أرسطو تلك الآراء بعد ذلك بنحو قرن ونصف قرن ، ثم عالجها بمنهاجه الخاص ، فاستنتج من تلك المبادىء ... الفكرة الأساسية التى نسميها نحن اليوم « التطور » ... كان يقول ان في الطبيعة سلسلة من الكائنات تتدرج من أبسط الصور الى أعقدها وأقربها في هذه الى الكمال ، وهذا الترقي قد تم بمرور الزمن وبفعل ناموس يهدف الى الكمال ، وان هذا نفس ما تعنيه كلمة « التطور » عندنا في هذه الايام على سبيل المقابلة والمناقضة لفكرة الكوارث والخلق الجديد المتكرر . ويرجع اسم « التطور » Evolution في الانجليزية الى مصدر لاتينى يعنى « نشر الشيء المطوى » فالكلمة تعنى بمدلولها الحرفي الظهور التدريجى لشيء من شيء آخر . أما القول بأنها تشمل أيضا الترقي عن طريق وثبات مفاجئة ... فهو مخالف مخالفة صريحة وبتر للكلمة من أصولها .

ويقول جراهام كانون انه عند مطلع القرن الحالى حدث اتجاه لسحب الثقة من الداروينية بينما اللاماركية تأخذ طريقها الى الصدارة . غير أن نصر اللاماركية لم يدم طويلا وذلك لأن حدثا هاما قد ظهر فدفع بالداروينية واللاماركية معا الى الصفوف الخلفية . اما ذلك الحدث فهو الكشف عن قانون مندل في الوراثة . واستقبل العلماء ذلك الحدث بحماس عظيم واعتبره كثير من العلماء الوصفة السحرية الكفيلة بحل جميع الغاز التطور . ولم يكن داروين على علم بذلك الاكتشاف عندما كتب ونشر كتابه « أصل الانواع » ولو أنه كان مثبوتا في كتاب في حوزة داروين لم يقرأه ... ولقد غير بحث مندل النظرية العلمية كلها لا بالنسبة لمسائل الوراثة وحدها ولكن بالنسبة للتطور أيضا .

ويقول جراهام كانون ان الدلائل كلها تشير الى أن التطور كان عملية متدرجة للغاية ولم تحدث بوثبات مفاجئة Mutations . فكل الدلائل المستمدة من دراسة الحفريات ، التى هى قبل أى شيء آخر الدليل الايجابي الاول على حدوث التطور ، توميء الى أن العملية كانت على اشد ما يكون التدرج ... وكان داروين يرى ان التغاير نتيجة للصدفة العفوية وحدها ، وهذه التغايرات العفوية هى المواد الاولية لنظرية داروين عن التطور .

وكتاب « اصل الانواع » لدارون ، كما يقول جراهام كاتون ، يتضمن غلطة وبه نقص . فالعنوان يشير الى « أصل الانواع » ولكن دارون لم يقصد « الاصل » اى النشوء ، وانما قصد تأصيل الأنواع وتوطد وجودها بعد نشوئها فعلا من قبل . ثم هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وهو انه لم يعرف النوع تعريفا محددا .

ويقول جراهام كاتون وهو يتحدث عن أجزاء الفم في الحشرات ، ان هذه الطائفة الهائلة (الحشرات) وهى واحدة من أكبر المجموعات في عالم الحيوان ان لم تكن اكبرها قاطبة [٣] يمكن تقسيمها تبعا لاجزاء الفم [٤] . وهذه الأجزاء ليست سوى مجموعة من الأطراف منسقة على جانبى الفم ، ولكن هذه الأطراف متحورة الى العديد من الاشكال المتنوعة العجيبة ، ومجموعها يكون في كل حالة جهازا واحدا متكيفا ليلائم طريقة بذاتها من طرق الاغتذاء . بعضها مهيأ للمضغ كفم الصرصار والجرادة وغيرها ، وأخرى مهيأة لامتصاص الرحيق من الازهار كما هى الحال في الفراشات ، أو طراز مخالف لذلك تماما من أجهزة الامتصاص كأجزاء فم ذبابة الخيل ، وتتحول الى جهاز ثاقب ماص كما في بق النباتات الذى يغتذى بعصارته أو في البعوضة التى تعيش على امتصاص الدماء . ولكن هذه الاجزاء في جميع الاحوال ومهما اختلفت طريقة تحولها وتكيفها ، تتكون على الدوام من جهاز متكامل الى درجة تدعو للاعجاب يتألف من ثلاثة ازواج من الأطراف المتعاونة في العمل .

ويقول كاتون ان القول بأن هذه الاطراف قد تغايرت مستقلا بعضها عن بعض ، ومن تطور كل واحد منها مستقلا عن الآخرين ومع ذلك انتج ذلك التطور هذه النتيجة ، ان القول بذلك هو في رأى كاتون حديث خرافة وأمر غير معقول . ومع ذلك فان هذا هو عين اللون من الالوان الذى يحاول الداروينيون المحدثون ان يصلوا الى الاعتقاد بأنه نتج بفعل التغيرات العشوائية المحضة التى تطرأ على الجينات ! وليس هذا قول الداروينيين المحدثين وحدهم بل رأى دارون نفسه أيضا . وجميع الحالات التى وصفها كاتون تقع تحت عنوان ما نسميه « تناسب الاجزاء » ، وآراء دارون في هذا التناسب ، كما قال البعض قاصرة بصورة عجيبة . ويقول كاتون ان تطور عين الانسان لم يكن من قبيل العزف العشوائي الذى تقوم به فرقة موسيقى الجاز ، بل انه أقرب الى أداء رباعية وترية كلاسيكية ... أى شيء لم يحدث بالصدفة بل وفقا لقواعد محددة تؤدى الى نهاية محددة ... وان التغايرات المختلفة التى تطرأ على الاعضاء المختلفة لا تكون خبط عشواء وانما موجهة لغاية محددة يجب بكل تأكيد ومن باب أولى أن يكون لها جينها الخاص بل جيناتها الخاصة ... اذا كانت الكائنات تتغاير على تلك الصورة العشوائية التي يزعمها الداروينيون فكيف يتسنى تطور اجزاء البنيان المتناسبة ؟ وهل يمكن اعتبار التطور بأنه نتيجة المصادفة العمياء التي لا تعرف لنفسها وجهة معينة ؟ ويقول كاتون ان الحيوانات البرية ، كما ذكر دارون في تأكيد واصرار ، تتكيف تكيفا كاملا لبيئتها ، فهل يعقل أن تعتبر هذه الكائنات قد تطورت قطعة قطعة (بالقطاعى) دون أن يعلم أى جزء منها الذى يحدث لسائر الاجزاء ؟ . وهكذا يمضى منتقدا نظرية دارون بعرضه لعديد من السقطات والأشياء اللامعقولة وغير المقبولة علميا او منطقيا التى تضمنتها نظرية دارون فيقوضها من أساسها .

***

(٣) تشكل أنواع الحشرات نحو ثلاثة أرباع جميع انواع المملكة الحيوانية .

(٤) تقسم الحشرات أساسا تبعا لانواع الاجنحة ، وانواع التحول Metamorphosis .

المراجــع

James R. Moore (1979) : "The Post - Darwinian Controversies".

Charles Darwin (1859) : "On the Origin of Species by means of Natural Selection, or the preservation of favoured races in the struggle for life".

Charles Darwin (1874) : "The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex".

Cope, E. D (1886) : "The Origin of the Fittest"

Huxley, T.H. (1863) : "Evidence as to Man's Place in Nature".

Spencer, H. (1896) : "A System of Synthetic Phylosophy".

جراهام كانون (١٩٥٨) : « نظرات في تطور الكائنات الحية » (ترجمة د . عبد الحافظ حلمي محمد) .

د . يوسف عزالدين عيسى (مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ١٩٧٣) . « التطور العضوي للكائنات الحية » .

***

الموسيقى والباليه

نادية عبد العزيز

مقدمة :

الموسيقى فن يسير في الزمن ، غير مرئي ، والرقص فن يتحرك ويتجسد في المكان .. وهو يترجم النغم الى معنى ومفهوم .. والى شكل ومضمون . وقد أثار الربط بين الفنون الكثير من مؤلفي الموسيقى في شتى العصور ، فمنذ الحضارات القديمة في الصين والهند ومصر واليونان والمسرح الموسيقى يشتمل على الرقص والغناء الى جانب اللحن .. الذي يعتبر روح الفن ، وربط الكثير من الموسيقيين في القرون الثلاثة الماضية بين اللحن المعبر والشعر الملهم والحركة الراقصة ليخرج فنا متكاملا في دراما مسموعة ومرئية .. مجسدة ومحسوسة .. ينطلق معها خيال المشاهد المستمع الى آفاق غير محددة بحاسة أو بأخرى ، ولكن تشترك حواس البشر في التجاوب مع هذا الفن المتكامل .

والموسيقى لها قوالبها وسرعاتها وايقاعاتها وألوانها وتشكيلات وتركيبات سمعية ، امتزجت رقيقة بالحركة في القضاء بالجمال المجسم لايقاعاتها وألوانها وشتى عناصرها .. فهي بمفردها فن شامل غير مرئي .. ولكنها مع الباليه تكون مجسدة في قصيدة بدون كلمات .. ولكنها معنى تفسره الحركة والايماءة والتشكيلات والديكور والأزياء .. وقبل كل شيء الموسيقى التي تحمل المعنى الحقيقي الصامت بلغة البشر .

ويتناول العرض المقدم حياة شوبان .. الموسيقى القومي البولندي الشاعر ، الذي كتب موسيقى شاملة لايقاعات متعددة راقصة .. ولمضمون شاعري متدفق . ألهم خبراء الرقص فجمعوا من مؤلفاته رقصات متعددة ألهمت مصممي الباليه ومنتجيه فوضعوا عليها باليهات منها باليه السيلف Les Sylphides الذي أصبح واحدا من أهم وأنجح موضوعات الباليه التي أنتجها دياجيليف ، الذي تناول فن الباليه من جميع جوانبه .. والذي عاش الى سنوات قليلة مضت عاصره فيها فنانون يعيشون بيننا ويروون عنه تاريخا حيا ملموسا يرتبط بجذور الحركات الفنية في الموسيقى

والرقص والديكور والاضاءة والأزياء والتشكيل المسرحي .. يعو الفنان الذي استمد ايقاع حياته وفنه من الموسيقى لحنا وايقاعا وتركيبا هارمونيا وجعل من الباليه الروسي قصيدة مرئية ومسموعة مترجمة بلغة الفن والجمال السمعي والبصري معا .

●●●

صاحبة كتاب فردريك شوبان هي الصحفية والكاتبة المعروفة روث جوردان R uth Jordan التي تعمل كمنتجة ومعدة برامج في دار الاذاعة البريطانية BBC بلندن . وقد أصدرت قبل ذلك كتابا مشوقا عن حياة جورج صاند . ونشرت كتابها عن شوبان عام ١٩٧٨ . وبالرغم من أن شوبان شخصية تاريخية كتب عنها الكثيرون . الا أن الكاتبة أضاءت بعض الجوانب الخفية من حياته . كما نشرت لأول مرة خطابا كتبه جورج صاند له .

والكتاب يأخذ طابع القصة الادبية المشوقة ويسرد حياة شوبان بتعبير أدبي حديث . ولم تتعمق الكاتبة في الناحية الموسيقية أو في أسلوب شوبان كمؤلف موسيقي ولكنها لم تغفله مثله كعازف بيانو . لذلك فان الكتاب لا يدخل في عداد الكتب التخصصية الدقيقة . وانما هو قصة حياة عبقري قد يجدها قارىء القرن العشرين غريبة وفوق مستوى البشر وربما غير واقعية . وان لم تكن كذلك في القرن التاسع عشر فهي حقيقية في ضمير التاريخ وبوثائق الحضارة .

ولا شك أن هذا الكتاب يلقي ضوءا على موسيقى شوبان بالنسبة للقارىء الغير موسيقي ويدفعه متشوقا للتعرف عليها وسماعها وربما للتعمق في تفاصيلها . وان كانت الكاتبة قد أعطته عنوان « نوكتيرن شوبان Nocturne Chopin فانها تقصد أسيات شوبان العاطفية وبمعنى أصح حياته كلها .

والمعروف أن نيكول شوبان Nicholas Chopin والد فريدريك شوبان كان قد رحل من لوريان بفرنسا الى مدينة وارسو ببولندا عام ١٧٨٧ سعيا وراء التجارة . وكان حينئذ في السابعة عشرة من عمره . وقد وقع اختياره على تلك المدينة لأن حاكم لوريان ـ الدوق ستانيسلاوس Stanislaus البولندي ـ كان زوجا لابنة الملك الفرنسي لويس الخامس عشر مما جعل كثيرا من البولنديين الارستقراطيين يهاجرون من بولندا الى لوريان أثناء فترة حكمه ومعهم ثرواتهم . وقد تعرف الفرنسيون على وارسو من خلالهم .

اراد والد شوبان ان يجرب حظه في التجارة ببولندا التي بدت له بلادا غنية . وطلب العمل عند الكونت البولندي باك Pac المقيم في لوريان . وكان الكونت يرسل وكيل أعماله الى بولندا لمباشرة أمور ضيعته هناك . فوافق على ذهاب نيكول مع وكيله

للعمل ككاتب حسابات تحت التدريب . لتمتع نيكول برعاية عائلة ويدليش Weydlich في وارسو . وكشاب قروي رأى فيها مدينة مدهشة . واستقر في وارسو ولم يرحل عنها أبدا . لم يعمل نيكول بالتجارة وانما اشتغل بتدريس اللغة الفرنسية لابناء نبلاء وارسو وكان من بينهم ماريا لاسينسكا M. Laczynska التي تزوجت فيما بعد الكونت فالفسكي Walewski والتي لعبت دورا في حياة نابليون بونابرت العاطفية .

اشتغل نيكول كمعلم خصوصي لدى الكونتيسة سكاربيك Skarbek وعاش بقصرها طوال أربعة عشر عاما الى أن أصبح في الواحدة والثلاثين من عمره . وكانت هذه العائلة تتبنى فتاة فقيرة تدعى يوستيناسكاربيك Justina نالت حظها من التعليم والثقافة والرعاية مثل أبناء الكونتيسة الحقيقيين تماما . فقد كانت تلهو وتلعب وتعزف البيانو وتتحدث الفرنسية بطلاقة . تزوج نيكول هذه الفتاة في عام ١٨٠٦ . وبهذا الزواج اصبح الرجل الفرنسي بولندي الموطن باختياره .

ولقد سقطت وارسو أمام الهجوم الفرنسي تحت قيادة نابليون بونابرت في نوفمبر عام ١٨٠٦ . وفي نفس الوقت كانت يوستينا تنتظر مولد طفلها الاول . وفي ابريل رزقت يوستينا بلويزا شقيقة فريدريك شوبان . اما هو فقد ولد في ٢٢ من فبراير عام ١٨١٠ . وعاشت عائلة شوبان في كوخ ملحق بقصر الكونتيسة سكاربيك حياة تغمرها ثقافة النبلاء . بدأت الموهبة الموسيقية تظهر على الطفل فريدريك منذ سنواته الاولى . فقد كان يتوقف عن الشغب والبكاء عندما كانت تعزف أمه على البيانو وهو في السنة الاولى من العمر .. وعندما تمكن من التسلق ليجلس على مقعد البيانو، بدأ في إصدار نغمات خاصة به .. وقبل أن يبلغ السادسة كان يعزف ثنائيات للبيانو مع اخته الكبرى لويزا . منذ ذلك الحين أدرك الوالدان ان عزفه على البيانو رائع ولابد أن يتعهداه بالدراسة . وبالفعل بدأ شوبان دروس البيانو وهو في السادسة من عمره على يد البرت زيفني Albert Zywny الذي وهب حياته لخدمة الموسيقى في وارسو . وتفاهم الاستاذ البالغ الستين مع تلميذه ذي الست سنوات . وكان الأستاذ يقوم بدور الموجه وليس المعلم أمام مهارة الطفل الطبيعية في العزف على البيانو . وكان فريدريك يتمتع بتناسق عضلي متكامل مما سهل عليه قراءة المؤلفات الصعبة ووفر عليه أوقاتا طويلة من التدريب الاضافي . وقد تمشت براعته اليدوية مع كل من تفكيره العقلي واحساسه الموسيقي . وبتوجيه استاذه عزف الكثير من مؤلفات هايدين وموتسارت وبتهوفن وقبل كل شيء باخ .. وغيرهم . كان شوبان يقضي غالبية وقته في الارتجال على آلة البيانو . وكان أستاذه يدون له ما يعزفه . وبعد سنة واحدة من الدراسة (١٨١٧) استطاع الطفل وهو في السابعة من عمره ان يدون أول مؤلفة له وهي بولونيز في سلم صول صغير كتب عليها اهداء باللغة الفرنسية لاحدى صغيرات الكونتيسة سكاربيك .

وانتشرت أخبار الطفل المعجز في مجتمع وارسو المثقف . وكتبت عنه مجلة المدينة Wars Review ان مؤلف هذه الرقصة البولندية عبقري حقيقي في الموسيقى . فهو لا يعزف ببراعة فقط وانما ألف العديد من الرقصات والتنويعات Variations وهو ما يزال في الثامنة من عمره . والمتوقع منه عطاء فني صادق في حياته المستقبلية .

وبعد بلوغه الثامنة بيومين حرر أول عقد للاشتراك بالعزف في حفل موسيقي عام . وكان أداؤه أعظم ما قدم في ذلك الحفل مما أدهش جمهور المستمعين . وبعد الحفل كتب فريدريك الرقيق تهنئة لوالده بمناسبة ذكرى يوم تعميده قال فيها « والدي العزيز .. كان أسهل علي أن أعبر عن مشاعري بالموسيقى . ولكن أعظم الحفلات الموسيقية لا يمكن ان تعبر عن عمق حبي لك . لذلك أرجو يا والدي العزيز أن تتقبل كلمات قلبي . فاني أضع نفسي في تفان واخلاص تحت قدميك اعترافا بجميلك الابوي » .

ولم يترك والداه أو أستاذه فرصة تمنحها الحياة الموسيقية في وارسو الا وقدموها له . فقد حرصوا على حضوره الحفلات والتعرف على الموسيقيين . وشجعوه على الاطلاع والتعرف على القوالب الموسيقية الجديدة .

وفي يوم من أيام الربيع كان شوبان في الحادية عشرة من عمره (١٨٢١) . أهدى لأستاذه بولونيز (في سلم لابيمول كبير) . ومنذ ذلك الحين أصبحت دروس البيانو شكلية فقط . فقد فاق التلميذ أستاذه في امكانيات العزف والتأليف الموسيقي . وانتهت الدروس بصفة رسمية بعد مضي عام واحد ليتجه الى دراسة علوم الكونتربوينت والتأليف الموسيقي على يد جوزيف السنر Joseph Elsner مدير كونسرفتوار وارسو . وتحول أستاذه زفني من موجه الى صديق . متتبعا تقدم تلميذه بعاطفة وفخر . تقدم شوبان في دراسة التأليف الموسيقي وقدم حفلات موسيقية خاصة . وعندما كان في الثالثة عشرة والنصف من عمره (١٨٢٣) دخل المدرسة لأول مرة . وقبل في الصف الرابع الذي يسبق دخول الجامعة بثلاث سنوات .

شغف شوبان بدراسته الثانوية حيث تعلم تاريخ بولنده وآدابها . واللغات اللاتينية واليونانية . والرياضيات . والعلوم .. وكان موهوبا وواعيا في الدراسة ونال تقدير ورعاية أساتذته بالرغم من أنه أثناء استماعه للدروس كان يوزع انتباهه بين تلقي العلم والرسم . فقد اشتهر برسم زملائه وأساتذته بسرعة فائقة نتيجة لارتباط مهارته اليدوية بتفكيره واحساسه . وهي ظاهرة بدت واضحة من قبل في عزفه على آلة البيانو .

كان شوبان ضعيف البنية عليل الصحة طوال سني تعليمه بالمدرسة . لذلك كان والداه يرسلانه في العطلات الى قرية زافارنيا Szafernia في ضيافة دزيفانوفسكي Dziewanowski زميله في الصف حاملا معه أدويته ودعوات والدته التي أطاعها بحب وولاء . وتحسنت صحته بعض الشيء من أثر الريف الصحي الهادىء . فقد كان يقضي الوقت في التنزه مع صديقه واخته متمتعا بجمال الطبيعة ومستوحيا منها أجمل الالحان التي كانت تتدفق في ارتجالات على البيانو .

كان شوبان سعيد الحظ بوالده المتعلم وبحب وعطف جميع أفراد عائلته . ولم يستغل والده حماس المعجبين به بأن يقدمه في حفلات موسيقية عامة ويكسب من ورائه المال الكثير . بل تعهده بالدراسة الموسيقية والثقافة العامة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٥ . بدأ شوبان يجني ثمار هذا العلم وتلك الدراسة . وتحدد طريقه نحو مستقبل موسيقي مشرق في مجال الاحتراف .

اشترك في حفلات الكونسرفتوار . وكانت صالة الاحتفالات تتسع لـ ١٧٠ مستمعا .. وامتدحت الصحف عزفه لمؤلفات الموسيقيين العالميين . وارتجالاته المذهلة . ومنذ ذلك الحين أصبح عازف الأورج في أيام الاحد بأكبر كنائس وارسو .

لم يكن في استطاعة شوبان أن يوقف ارتجالاته على آلة البيانو سواء بالليل او في النهار . وكان يترك سريره أثناء الليل ليعزف ما كان قد تخيله في ذهنه من ألحان . وفي يونيه عام ١٨٢٥ . أصبح مؤلفا .

قضى شوبان عام ١٨٢٦ في الدراسة والعزف على البيانو . وتلقي الدروس من أستاذه السنر . والذهاب الى الحفلات الموسيقية . واحياء أمسيات للعزف والارتجال في صالونات أرستقراطي مدينة وارسو . ولكن علة المرض بدأت في الظهور وكانت شقيقته اميلي مريضة أيضا وتسعل وتبصق دما . وانقطع شوبان عن الدراسة .. ولم يؤد امتحانات اتمام الدراسة الثانوية لضعف صحته . ولكن والده كان حريصا جدا على تعليم ابنه فألحقه بالكونسرفتوار لدراسة منهاج ثلاث سنوات في علوم التأليف الموسيقي . وكان أستاذه الخاص السنر هو نفس أستاذه بالكونسرفتوار ومديره أيضا .

أظهر شوبان براعة ومهارة في التأليف والعزف . مما أثار حقد وغضب زملائه خاصة وأن أستاذه كان يوليه اهتماما خاصة ويقبل منه قواعد التأليف التي يستنتجها هو . والتي قد يعتبرها البعض أخطاء في نظريات التأليف . كما رد عنه استاذه بعض الاتهامات قائلا « اتركوه وشأنه فانه عندما يسلك طرقا غير شائعة في التأليف فان السبب يرجع الى موهبته النادرة وقدراته غير المتوقعة . ولسوف يأتي اليوم الذي يكشف عن أصالة موهبته التي لم يسبق لها مثيل من قبل . »

وفي بداية عام ١٨٢٧ اشتد المرض على أخته اميلي . وتوفيت في ابريل من نفس العام بداء السل .

ألف شوبان في نفس العام أيضا المارش الجنائزي (من مقام دو صغير) وأعمالا أخرى من قوالب الفالس والنوكتيرن Nocturne (الامسيات الحالمة) وتنويعات Variations على لحن من أوبرا « دون جوان » لموتسارت الذي قرر توزيعه

أوركستراليا . وأنهى هذه الاعمال بانتهاء عامه الاكاديمي الاول وذهب الى الريف عند أمه الروحية الكونتيسة سكاربيك التي قدمته الى الأمير راديزيفيل Radziwill الذي كان يرغب في التعرف على شوبان الصغير نظرا لأنه كان أيضا موسيقيا يعزف على آلة التشيلو ويتمكن من التأليف الموسيقي ، وقد أسفر التعارف عن صداقة بينهما .

قام شوبان بتوزيع التنويعات المذكورة في الريف ، وعندما عاد الى وارسو عرضها مع سوناتا مصنف ٤ على السنر الذي أعجب بها كثيرا وأرسلها الى صديقه الناشر الموسيقي توبياس هاسلينجر Tobias Haslinger بمدينة فينا .

شعر شوبان برغبة كبيرة في السفر الى مدن أوروبا الشهيرة لكي يعايش الاساليب الموسيقية هناك . ووعده والده أن يأخذه الى فينا في عطلة صيف عام ١٨٢٨ . وفعلا سافر شوبان الى برلين في سبتمبر عام ١٨٢٨ بصحبة صديق لوالده .

قضى شوبان اسبوعين في مدينة برلين ، وكان يذهب يوميا الى الحفلات الموسيقية والعروض الاوبرالية ، وأحب الأوبرا كثيرا ، وقال عنها أنها تقترب كثيرا من مثلها الاعلى للموسيقى العظيمة . وكان يأمل أن يتعرف على مؤلف الأوبرا الايطالي جاسبارو سبونتيني Gasparo Spontini الذي كانت أوبراته تبهج برلين في ذلك الوقت . كذلك كان يتمنى أن يتعرف على مندلسون Mendelssohn لكنه شعر برهبة كبيرة من هذا اللقاء لأن مندلسون كان مؤلفا موسيقيا مشهورا بالرغم من أنه في التاسعة عشرة فقط من عمره (يكبر شوبان بعام واحد) .

عاد شوبان الى وارسو والتحق بالصف الثالث والأخير بالكونسرفتوار ، وكان مستواه الفني مرتفعا فلم يتلق من أستاذه سوى القليل ، وبدأ محاولاته لكتابة أعمال في قوالب موسيقية مختلفة . فبدأ في كتابة ثلاثي Trio مصنف ٨ من مقام صول صغير للبيانو والفيولينة والتشيلو مهديا اياه للأمير رادزيفل كما كتب فانتازي كبيرة على لحن شعبي بولندي مصنف ١٣ من مقام لاكبير للبيانو والاوركسترا . وفي العام التالي (١٨٢٩) ، كتب أغان ، وفالسات ، ومازوركات ، وبولونيزات ... وكان يرغب دائما في السفر مرة أخرى خارج بولندة ، لأن رحلته الى برلين أقنعته بأن مستقبله الموسيقي يتطلب البقاء في مدن اوروبا التي تعتبر مركزا للموسيقي . وفكر والده في حاجة ابنه لجولة فنية تمتد ثلاث سنوات على الاقل في المراكز الرئيسية الموسيقية بعواصم أروربا .. لذلك كتب طلبا قدمه الى وزير الثقافة والتعليم يطلب منه تصريحا لابنه السفر شارحا موهبته الموسيقية غير العادية .. ووافق الوزير وأعطاه توصية ، ولكن سلطات الأمن لم توافق على سفره .

تخرج شوبان من الكونسرفتوار في ابريل عام ١٨٢٩ حاصلا على تقرير من أستاذه السنر يؤكد مهارته الفائقة وعبقريته الموسيقية . وأرسله والده في رحلة فنية قصيرة الى فينا كان هو مولها ، وكتب شوبان من هناك خطابا الى صديقه تيتوس

فويسيشوفسكي Titus Woycieohowski ـ الذي كان يراسله دائما ـ قائلا له « فينا غمرتني بحياتها الفنية وأثملتني وربطتني بها لدرجة أنني لا أشعر بأي حنين لوطني » . وفي فينا ذهب شوبان لمقابلة توبياس هاسلينجر الناشر الموسيقي الذي نشر له مؤلفات من قبل وعرض عليه مؤلفاته الجديدة وطلب الناشر منه أن يعزف مؤلفاته في حفل موسيقي عام ولكن شوبان رفض بإصرار لأنه كان يخشى مواجهة الجمهور العريض ويحب أن يعزف لمجاميع صغيرة من أصدقائه ومعارفه . وفتحت توصيات الـ... ومنشورات هاسلينجر أبواب صالونات علية القوم في فينا . وكان شوبان في ذلك الوقت في التاسعة عشر من عمره ، وسيم الطلعة أنيق الملبس . ولأنه كان أجنبيا فقد تشوق ارستقراطيو فينا الى الاستماع الى عزفه . وفي أغسطس عام ١٨٢٩ عرض عليه الكونت جالينبرج Gallenberg أن يشترك بالعزف في حفل موسيقي عام ، ورضخ شوبان للأمر ، وكان ذلك مولدا لاحترافه الحقيقي للموسيقى .

كان نجاح شوبان في الحفل منقطع النظير . وصفق له جمهور المستمعين بحماس شديد بعد كل مقطوعة صغيرة ، وطلب منه أن يعزف لحنا بولنديا فاسترسل في الارتجال على لحن رقصة بولندية فأثار الحماس في قلوب المستمعين ورقصوا بأرواحهم على موسيقاه وصفقوا له بجنون . وأقام حفلا آخر في نفس الأسبوع وكان ذلك بمثابة مرتبة شرف في حياة احترافه الفني ، وعندما عاد الى وارسو قرأ الصحف النمساوية التي كتبت عنه أنه فنان قدير وله طريقة في اللمس على الآلة تتميز بالرقة المتناهية ، وسهولة في العزف لا توصف ، وتعبير عميق في التظليل الموسيقي ، وقد أثبت انه عازف ماهر ومؤلف عبقري وظهر في أفق حياة فينا الموسيقية كالشهاب اللامع المضيء .

كان شوبان عاطفيا رقيق المشاعر منذ أيام طفولته ، فأحب زميلته في المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره ، واعترف في سنوات نضوجه بهذا الحب وقال « لقد كنت أحب زميلتي كثيرا وغضب مني والدها لانني حاولت مقابلتها سرا . لذلك اكتفيت بمراسلتها » . وفي شبابه أحب كونتيسة صغيرة تدعى الكساندرين Alexendrine وكان في الثامنة عشرة من عمره عندما أهداها روندو Rondo مصنف ٥ من مقام فاالكبير ولكنه لم يقابل حتى عام ١٨٢٩ المرأة التي تغمره بالعاطفة الصادقة وتبادله بها .. لأنه كان خجولا في هذه الأمور .

وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره كان في سنواته العاطفية الحرجة لأن عواطفه كانت لم ترتفع الى مصاف نضجه الفني . وأحب زميلة له في الكونسرفتوار تدعى كونستانس جلادكوفسكا Constance Gladkowska تدرس الغناء ، وعندما سمعها تغني أحبها من أول لحظة .. فكان يتطلع اليها ويحبها في صمت ، ولم يبح أبدا بهذا الحب ، فقط .. وصفها لصديقه تيتوس بأنها مثله الاعلى في المرأة ، وهذا يرجع الى أن شوبان كان يفضل بطبيعته الخيال على الحقيقة . وقد وجد في كونستانس وحيا والهاما خاصة عندما كان يشعر بالشوق اليها ، كان يكتب الموسيقى معبرا عن حبه لها في كثير من مؤلفات عام ١٨٢٩ ..

أمثال الحركة البطيئة من كونشرتو البيانو مصنف ٢١ مقام فاصغير وعملين من قوالب الفالس من مقام ري بيمول كبير مصنف ٧٠ ورقم ٣ . وكتب لصديقه تيتوس قائلا « لا يستطيع أحد أن يعرف مؤلفات ملهمتها كونستانس بالعمق الحقيقي مثلما أفعل » .

وفي عام ١٨٣٠ ، اشترك شوبان بالعزف في حفلين موسيقيين عزف فيهما الكونشرتو المذكور باحساس عميق ، وكتبت عنه صحف بولندية كثيرة تشهد بمهارته الفائقة وبجلائية أعماله المبنية على ألحان شعبية بولندية وجاء في النقد أن كل صوت يعزفه لا يطرب الأذن فحسب وانما يلمس أوتار القلب ويخاطب أعماق الروح . كان شوبان يدرك ضرورة سفره الى بلاد أوروبا ويحتاج فقط الى من يشجعه ويصاحبه . فكتب لصديقه تيتوس طالبا منه مصاحبته .. ووافق تيتوس .. وبالفعل سافرا الى فيينا مارين بمدينة درسدن ، ومدينة براغ بعد أن غادرا وارسو وودع كونستانس التي كتبت له شعرا في مفكرته معبرة عن مشاعرها نحوه بشكل مستتر .

سافر شوبان الى فيينا عام ١٨٣٠ ومعه ثروة فنية من مؤلفاته التي كتبها في وارسو والتي أصبحت جزءا من المقتنيات الموسيقية الاوروبية .. منها ستة أعمال للبيانو والاوركسترا (وهي كل ما كتب شوبان للأوركسترا) ودراسات عديدة من مصنف ١٠ وأعمال النوكتيرن (الامسيات الحالمة) مصنف ٩ . وعندما وصل الصديقان مدينة فيينا ناقشا الخطط والآمال الفنية ، ولكن بعد وصولهما بخمسة أيام فقط في يوم ١٨٣٠/١٢/٥ علما بأن هناك تمردا مسلحا من الشعب البولندي على الحكم الروسي .. وفي الحال انقلبت خططهما وآمالهما ، فقد كان هدف البولنديين هو اسقاط الحكم الروسي والحصول على الاستقلال ، وكان رد الفعل على الصديقين هو الرغبة في العودة الى وطنهما والمشاركة في كفاح الوطنيين البولنديين . كان ذلك يناسب تيتوس تماما ، فقد كان قوي البنية ومتملكا لأراض قريبة من روسيا خشي عليها من الضياع . لذلك قرر تيتوس الرحيل ورغب شوبان في مصاحبته . ولكن بعد نقاش طويل أقنعه صديقه بأنه سوف يخدم وطنه بموسيقاه التي لا يستطيع الرفاق مجاراته فيها .. بينما هم لا يملكون سوى بذل الدماء .

تأثر شوبان لسفر صديقه وأراد أن يلحق به ، ولكن المركبة كانت أسرع منه فعاد الى فيينا وحيدا معتمدا على نفسه لأول مرة . وكانت أفكاره مع بولندة ومع أصدقائه ، فقد اشترك معظمهم في الثورة وقامت أخته بتضميد الجرحى . مما جعله يشعر بالذنب لانه بعيد عن ميدان الصراع .. ودفعه ذلك الى العمل من أجل بلاده ليعطي للثورة وقودا من المشاعر .. طلب متعهدو الحفلات من شوبان ان يقدم حفلا موسيقيا معتقدين انه لن يطلب أجرا ـ كما فعل في فيينا من قبل ـ ولكنهم فوجئوا أنه يطلب المال فانصرفوا عنه خاصة وأن الحياة الموسيقية في فيينا كانت قد تغيرت عما كانت عليه منذ سنتين أو ثلاث سنوات سابقة عندما

كان بتهوفن وشبرت على قيد الحياة .. فقد حلت الموسيقى الحقيقة ، وڤالسات شتراوس (الاب) محل الموسيقي الجديد . فتحير شوبان ما بين البقاء في ڤيينا أو الرحيل عنها .. وشعر بالضيق والحزن لأنه لم يستطع أن يعزف في حفلات عامة وكتب في مذكراته « ليتني كنت ميتا . اني أتمنى أن أرى أبي وأمي » .

ولم تستمر حالته هذه ، فقد اشترك بالعزف في حفلة موسيقية كبرى في ابريل عام ١٨٣١ وخلال ثمانية أشهر من الحزن قبل هذا الحفل كتب ٩ مازوركات مصنف ٦ ، ٧ وسكيرتسو Scherzo رقم ١ في مقام سي بيمول صغير وثلاث أغان وغيرها من مؤلفات الفالس .

قدم شوبان حفله الاخير في ڤيينا بتاريخ ١٨٣١/٦/١١ وقد رحل عن المدينة بعد ذلك بخمسة أيام بعد أن كان وباء الكوليرا قد انتشر بها في ذلك الحين .. وتوجه الى ألمانيا بصحبة صديق بولندي يدعى كوميلسكي Kumelski كان قد سعد بلقائه قبل الرحيل بأيام قليلة .

أرسل شوبان يطلب نقودا من والده .. وكانت أخبار بولندة سيئة طوال هذه الشهور ، فقد تكبد الجيش خسائر في الارواح والمعدات ، وتقدم الروس نحو وارسو وأصبح شوبان قلقا لأن جواز سفره الروسي كانت قد انتهت صلاحيته وعلم بأنه لا يستطيع تجديده وهو خارج البلاد ، فشعر بأنه مثل ورقة شجر في مهب الريح . وعندما كان يسعى الى السفر الى باريس في ١٨٣١/٩/٨، علم أن وارسو قد سقطت في أيدي الروس ، وكان في ذلك نهاية لبولندة .. فشعر أنها نهاية لحياته أيضا . كتب شوبان في تلك الأيام دراسته الشهيرة (الثورة) Revolution التي عبرت عن قوة وكفاح بولندة وصعوبة هزيمتها حتى في وقت تقهقرها .

بولندي في باريس : وصل شوبان باريس في سبتمبر عام ١٨٣١ وهو مثقل القلب خالي الوفاض لا يمتلك سوى بعض التوصيات ، وسرعان ما أصبح شخصية مألوفة لدى أرستقراطيي باريس أمثال الكونت لويس بلاتير L. Plater والكونتيسة كومار Komar والكونتيسة دلفينا بوتوكا Delphina Potocka . وبعد مضي شهر واحد ، أراد أن يبقى في باريس على الدوام وتحير في أمر حصوله على تصريح لاقامة دائمة بها ، ولكن فرديناند باير Ferdinand Pae'r قائد الموسيقى في بلاط لويس فيليب ساعده في الحصول على هذا التصريح ، خاصة وأن والد شوبان فرنسي الجنسية أصلا . وقدمه باير الى مشاهير مؤلفي الموسيقى أمثال روسيني ، وشاربير ، وهوميل ، وأوبير ، وآخرين . وقدمه أيضا الى أحد كبار أساتذة البيانو في باريس « الاستاذ فريدريك كالكبرينر F. Kalkbrenner .

أراد شوبان أن يثبت وجوده كمؤلف موسيقي عن طريق عزفه في الحفلات الموسيقية العامة . ولأنه كان يعلم أن عزفه لمؤلفاته يفوق عزفه لمؤلفات الآخرين فقد قرر أن يزيد من امكانياته في تقنية العزف على البيانو ، فدرس مع الأستاذ كالكبرنر ، وتوصل الى هدفه في بضعة أسابيع ، وأهدى أستاذه كونشيرتو البيانو (من مقام مي صغير) ولم يأخذ بعد ذلك دروسا أخرى في العزف أو التأليف الموسيقي .

صادق شوبان مؤلفين وعازفين معاصرين له وقريبين من عمْره أمثال ليست Liszt ، وهيللر Hiller ، ومندلسون Mendelssohn .. وغيرهم ، وكان جميعهم غرباء في باريس ، وعاش الأصدقاء حياة موسيقية زملاء ، وحضروا الحفلات الموسيقية والاوبرالية . وقد أحب شوبان الاوبرا على الخصوص وان لم يؤلف لها شيئا .

انتظر شوبان خمسة أشهر وأخيرا بدأ مولده كعازف ومؤلف في فبراير عام ١٨٣٢ حيث اشترك في حفل موسيقي بصالة بلييل قدم فيه كونشيرتو البيانو من مقام فا صغير ، وتنويعات ، قدمها بدون اوركسترا . ولما لم يتوقع متذوقو الموسيقى اسم شوبان من بين العازفين ، خاصة وأنه لم يكن بعد مشهورا ، فقد كان اقبال الجماهير محدودا والدخل منخفضا ، فاضطر الى تدريس البيانو من أجل المال . وكان عليه ان ينتظر ثلاثة أشهر أخرى لكي يقيم حفلا آخر عزف في صالة كونسرفتوار باريس ، وكان لهذا الحفل شأن كبير فحضره أثرياء ونبلاء المدينة . وبالرغم من ذلك كتب عن شوبان نقد لاذع يقول ان توزيعه للأوركسترا رديء ، وأن نغماته تصدر ضعيفة من البيانو . وهكذا لم يحرز تقدما طوال ثمانية شهور في مجال الاحتراف . وفجأة ابتسم له الحظ ودخل في صالونات علية القوم ، وعزف فيها ، وتوافدت عليه التيلات لدراسة البيانو على يديه ، وأصبح أكثر مدرسي البيانو شهرة ، لدرجة أنه كان يطلب في الدرس الواحد عشرين فرنكا فرنسيا ، وسمعت عنه كل باريس ، وتوافدت عليه الدعوات ، واستجاب لطلب هيللر ، وليست في الاشتراك في العزف معهم في ديسمبر عام ١٨٣٢ . ومنذ ذلك الحين لم يفترق عن ليست .. واستمر الحال كذلك لمدة عام أو عامين ، فكان العزف في الصالونات هو المتنفس الوحيد له ، وأحب شوبان ذلك واستمر يهوى العزف في الصالونات طوال حياته . وفي نفس الشهر (ديسمبر) أيضا ، نشرت له أربع مازوركات مصنف ٦ ، وخمس مازوركات مصنف ٧ . وعاش شوبان حياة رغدة قوامها الشهرة والمال .

تهافتت نساء باريس على الفنان الشاب والوسيم والأنيق وأعجبن به . وبالرغم من أنه كان في الثانية والعشرين من عمره ويتدفق عاطفة فقد أدار ظهره لمن وقال : (النساء فاكهة محرمة) .. ولكنه لم يفلت من الكونتيسة دلفينا بوتوكا البولندية الاصل ، والمرأة ذات التجارب العديدة . وكانت دلفينا متزوجة ولها من الأولاد خمسة ، ولكن زوجها كان مريضا بالصرع وكان زواجها غير سعيد منذ بدايته ، فانفصلت عن زوجها وعاشت في باريس ، وكانت حياتها مليئة بالعلاقات العاطفية المتعددة .

كما كانت لها أكثر من علاقة في وقت واحد . وكانت لها مميزات عديدة ، فهي قارئة ممتازة ، ومتذوقة للشعر ، وعازفة بيانو ، ومؤلفة موسيقى ، وأحيانا كانت تغني غناء جميلا لأصدقائها ، واعتبرتها باريس مضيفة فاتنة ، وأصبح صالونها مكانا يتقابل فيه ذوو المواهب والمناصب الرفيعة . أدركت دلفينا أن العبقري الشاب والعازف الرقيق شوبان ليست لديه أية خبرة عاطفية ، فمنحته العاطفة والحب وكل ما أراده ، وتبادلا الحب في نهاية عام ١٨٣٢ . نضج شوبان على يديها وتحول من مراهق خجول الى عاشق مندفع . ولم يغير حب دلفينا له من عاداتها السيئة في أسلوب حياتها ، فقد كانت تسافر من باريس الى لندن لتضيف الى عشاقها أسماء جديدة . فيطلب شوبان الهدوء بأن يعزف على البيانو وتصبح هذه **المعزوفات الصغيرة مؤلفات للفالس أو المازوركا أو الدراسات .. الخ .**

وفي أوقات الهدوء ، وجد شوبان في دلفينا الحبيبة العظيمة ، والاكثر من هذا أنها كانت رفيقة له يناقشها في الموسيقى ومؤلفاته ونقده بآرائها الصائبة . وعندما كانت تتركه كانت أشواقه لها تتحول الى أجمل الالحان . وأحبها لدرجة أنه قال بها ذات يوم « أتمنى أن تواتيني المنية وأنا أستمع الى غنائك » . وفي أثناء هذه الفترة في حياة شوبان العاطفية قدم حفلين موسيقيين في ابريل عام ١٨٣٥ تضاعفت بعدهما رهبته من العزف أمام الجماهير العريضة وتسبب ذلك في امتناعه عن العزف في الحفلات العامة لمدة ٦ سنوات باستثناءات قليلة . وقد قوبل عزفه في الحفل الاول ببرود من السامعين وقيل أن عزفه الخافت لم يصل الى آذان جميع المستمعين . أما الحفل الثاني فكان أكثر نجاحا ونال عليه نقدا صحفيا جيدا ، الا أنه لم يقتنع بهذا الاسلوب في التعبير عن الموسيقى ، وقال للمؤلف والعازف الشهير ليست « انني لم أخلق للعزف في الحفلات العامة ، فالازدحام يرهبني ، والأنفاس تخنقني ، وتحديق الجماهير في يحرجني ، ووجوههم الغريبة تربكني . أما معك فالأمر يختلف . فانك ان لم تستهوهم فانك تذهلهم » .

وفي نفس العام (١٨٣٥) ذهب الى درسدن لسماع الموسيقى الجيدة وهناك قابل صديق طفولته فيليكس فودزينسكي Felix Wodzinski الذي اصطحبه لمقابلة بقية العائلة التي ارتبطت بعائلة شوبان في وارسو أيام طفولته وكانت الابنة الكبرى لهذه العائلة تتحدث الفرنسية والالمانية والايطالية بطلاقة ، وتجيد الرسم والعزف على البيانو . ووجد شوبان فيها مثلا أعلى للزوجة التي يتمنى الارتباط بها . ومكث أسبوعا مع العائلة وفي خياله قصة عاطفية جديدة . وأهدى الأبنة ماريا فالسا من مقام لابيمول كبير ، أسماه فالس الوداع .

سافر شوبان بعد ذلك الى ليبزج Leipzig ليقابل مندلسون ، وتقابل الصديقان وتبادلا الرأي في آخر مؤلفات لهما ، ثم قدم مندلسون شوبان الى عائلة فريدريك فيك F. Wieck (أستاذ شوبان ووالد زوجته كلارا) .. وتعرف على الابنة الكبرى كلارا التي كانت عازفة بيانو معروفة في ذلك الوقت . ومن خلال هذه العائلة قابل شوبان روبرت شومان (الصغير) لاول مرة .

وكان شومان معروفا لدى شوبان كناقد فني أكثر منه مؤلفا موسيقيا . وكانت هذه المقابلة مجزية ، فقد عزفت كلارا بعض مؤلفات شوبان وقال عنها أنها من أحسن من عزفوا مؤلفاته . اما شومان فقد امتدح شوبان وكتب عنه قائلا « ان عزفه وتأليفه وحدة متكاملة » .

كان شوبان ما يزال يحب دلفينا بالرغم من أنه التهى بخياله وتفكيره نحو ماريا . ولكنه قطع علاقته بدلفينا في صيف عام ١٨٣٦ حيث عادت للمعيشة والاستقرار مع زوجها السابق في بولندة بعد أن لفت لشوبان حياة سعيدة ، ونصحته بأن يتزوج ويهيء لنفسه حياة اجتماعية سليمة .. وفكر شوبان في أن يتبع نصيحتها ، وطلب ماريا فودزينسكي للزواج ، ولم تفاجأ الكونتيسة الأم لهذا الطلب فقط وانما شعرت بالخطر عندما رأت شوبان يسعل بشدة وأن المرض يداهمه . وتخلصت الأم من شوبان بلباقة وحكمة .. ولكنه أدرك أن سبب رفضه يرجع الى أن عائلته تقل في مستواها الاجتماعي عن عائلة الفتاة . وقد استمر هذا المشروع بين اليأس والأمل حتى نهاية عام ١٨٣٧ حتى فقد شوبان الأمل تماما . ولم ينس شوبان هذا الدرس طوال حياته فلم يفكر في الارتباط بعائلة نبيلة بعد ذلك .

مقدمات Preludes وجورج صاند في أكتوبر عام ١٨٣٦ قام شوبان بزيارة ليست وعشيقته ، وقابل جورج صاند (التي كانت تشاركها المسكن) لأول مرة . وكتب لأبويه هذه الرسالة :

(تعرفت على جورج صاند الكاتبة الذائعة الشهرة . ولم أحب وجهها ، فهناك شيء غير مقبول فيه . وهناك شيء آخر ينفرني منها) .

وكان قبل أن يتعرف عليها قد سمع ما قيل عنها في الصالونات ، وما جعله ينفر منها . فقد قيل انها أيا تواجدت تركت وراءها فضيحة . وكان مظهرها بعيدا عن الانوثة حيث كانت ترتدي ملابس الرجال وتدخن السيجار بالرغم من أنها تنحدر من عائلة عريقة ، فهي بارونة وينتمي والدها بصلة قرابة لملك بولندة منذ أربعة أجيال مضت .

وعندما زارت جورج صاند شوبان مع مجموعة من الأصدقاء وجدته مضيفا متكاملا يضع نفسه في خدمة مضيفيه ويحقق جميع رغباتهم . وشعرت جورج صاند بمشاعر تملأ كيانها وتتفجر بينه عاطفة قوية نحوه .

كانت حياة جورج صاند العاطفية تعسة قبل أن تعرف شوبان . فقد تزوجت وهي في الثامنة عشرة من عمرها من زوج لم تحبه أبدا ورزقت منه بابن . وبعد مضي سنة أو اثنتين ملت الحياة معه وأحبت رجلا من ذوي الفكر المتحرر كان من مبدئه تقييد

الحرية بالزواج ، وأنجبت منه بنتا ولم ترزق بعدها بأولاد آخرين . وكانت تعرف في ذلك الوقت باسمها الحقيقي (أورور Aurore) وكانت تعزف البيانو وترسم وتكتب . وأرادت أن تحرر نفسها من منزل الزوجية فسافرت مع طالب يدرس القانون الى باريس عام ١٨٣١ . وهناك أدركت أن الكتابة هي هوايتها الحقيقية وانكبت عليها ونشرت روايتها « الهنود Indiana » وغيرها . واستبدلت اسمها باسم « جورج صاند » وهو اسم مذكر مشتق من اسم حبيبها الطالب ساندو Sandeau نظرا لأن مهنة الكتابة كان يشتهر بها الرجال وليس النساء .

كان اسمها الجديد مثار سخرية الطبقة الارستقراطية في باريس . وفي عام ١٨٣٦ ، كانت تعد من أعظم كتاب فرنسا ، وتقاضت أعلى الاجور عن أعمالها بالرغم من أنها عانت كثيرا من أجل حصولها على الطلاق من زوجها . حرصت جورج صاند على لقاء شوبان عن طريق أصدقائها وحضور دعواتهم . وعادت بعد ذلك الى قرية نوهان Nohant (بلدتها) ولم تر شوبان الا بعد ستة عشر شهرا . وأثناء اقامتها فيها ، كانت توجه اليه الدعوات لزيارتها ، ولكنه لم يلب واحدة منها . وكتبت الى ليست ترجوه احضار شوبان قائلة « قل لشوبان أنني أعبده » وكتبت مرة أخرى « قل له أنني أبجله » وكتبت مرة ثالثة تدعوها قائلة « أريد شوبان أيضا » ولكن شوبان كان مشغولا بصحته لانه كان يسعل سعالا عنيفا . وقلق عليه أصدقاؤه وأوصاه الاطباء بالراحة وتغيير جو المدينة الى جو الريف النقي . وعندما وصلته دعوة أخرى من جورج صاند ، فكر في أن هذه الرحلة ربما تسعده . ولكن حالته الصحية منعته من التعاقب ، ونوه... الأصدقاء بسفره الى لندن . وقد سافر ناشدا سماع الاوبرا والموسيقى هناك . وتدهورت صحته في لندن وكان يصطحب بلييل Pleyel (صانع البيانوهات) متجنبا التعارف على الطبقة الارستقراطية خوفا من العزف أمام من لا يعرفه ، أو ايجاد الاحتكاك بالطبقة التي تصور أنها تعرفه وتحتقر شأنه .

عاد شوبان الى باريس في يوليه عام ١٨٣٧ ومارس نظام حياته المعتاد (اعطاء الدروس وكتابة الموسيقى) وكان يكتب أعمال البريلود التي بدأها منذ عامين سابقين عندما كان على اتصال بدلفينا بوتوكا .. وكان قد كتب لها عن هذه الاعمال « تتدفق في نفسي ألحان مثل أسراب النمل ، سوف تصبح مقدماتي Preludes ، ولست أدري إن كنت سأكتب ثمانية وأربعين عملا منها مثل ما فعل باخ . من المحتمل ألا أصل الى هذا العدد ، فان صبري البولندي لا يسمح بذلك . وحتى لو جاءت هذه الاعمال صغيرة وقصيرة فهذا لا يعني أنني لم أبذل جهدا كبيرا في كتابتها » .

كتب شوبان في نفس العام أيضا أمبرمبتو Impromptu رقم ١ من مقام لابيمول كبير ، وسكرتسو رقم ٢ من مقام سي بيمول صغير ، وأعمال أخرى أعدها للنشر .

اشترك شوبان في حفل موسيقي في مارس ١٨٣٨ وأحرز نجاحا فائقا وكتب عنه ليجوف Legouve في جريدة (جازيت موزيكال Gazette musicale الى الأمام يا شوبان الى الأمام ، دع هذا النجاح يقضي على أنانيتك ، ويدفعك الى أن تمنح

فنك العظيم للجميع . وأقبل نفسك كما أنت . وضع نهاية لهذا الجدل الذي يسبب انشقاقا في عالم الموسيقى . دع العالم يعمل ويجزم بأن شوبان هو عازف البيانو الأعظم في أوروبا) . وتلقى شوبان هذا النداء بآذان صماء .

عادت جورج صاند الى باريس في ابريل عام ١٨٣٨ حاصلة على انفصال قانوني من زوجها ومتملكة لبيتها في نوهان ، وحضانة طفليها . وصرحت بمشاعرها نحو شوبان لجميع أصدقائها وكانت طبيعتها تختلف تماما عنه . فكانت تمر عليه الشهور دون أن يهمس بكلمة واحدة عن حبه لأي انسان وأخذت تتبعه كظله وتتواجد في جميع الاماكن التي يرتادها .

وفي واحدة من الأمسيات التي عزف بها .. أعطته ورقة صغيرة كتبت فيها « أعبدك » وقد احتفظ شوبان بها طوال حياته . ومنذ ذلك الحين اكتشف فيها جوانب تنقصه ويحتاج اليها . وتعجب لهذه المرأة الصريحة والبادئة بالحب واعجب بها كثيرا . وبعد مرور شهر واحد كان قد أحبها حيث منحته رعاية كاملة كان في أشد الحاجة اليها . وفارقه القلق الذي كان يلازمه من قبل . وكتبت جورج صاند عن شوبان « بدأت اعتقد أن هناك ملائكة يهبطون الى الأرض في صورة رجال يحيطوننا بعطفهم ويخلصونا من أرواحنا الفقيرة .. البالية .. الحزينة » .

وكتبت أيضا تصف حبها « لا توجد سحابة واحدة في سمائنا ، ولا حبة رمل واحدة في بحيرتنا » .

وأعاد شوبان الأنوثة ، ووطهرها الى جورج صاند ولم يناديها بهذا الاسم مطلقا ولكنه كان دائما يناديها : أوررور .. فجري .. نجم صباحي .

وكان شوبان في الثامنة والعشرين من عمره عندما بدأ يرتبط بجورج صاند ، وكانت هي في الرابعة والثلاثين . فكانت هذه هي المرة الثانية التي تجذبه فيها امرأة تكبره سنا وتفوقه خبرة .

كانت طباعهما متباينة فهو بطبيعته متردد وهي مسيطرة . هو متحفظ ، وهي منطلقة . فكان يكمل أحدهما الآخر لأن شوبان كان يحتاج لليد التي تشد أزره ، وتسير له أمور حياته . أما جورج فكانت بطبيعتها عطوفة ومسيرة للأمور ، وكانت رغبتها في حبها لشوبان تتركز في الرغبة للحياة الهادئة والبحث عن الاستقرار العائلي .

ولم تقطع جورج صاند علاقتها بالطالب لوسيان ماليفيل مرة واحدة لأنها لم تجرؤ على ذلك . وأخفت هذه العلاقة عن شوبان ، وأيضا أخفت علاقتها بشوبان عن عشيقها السابق . وعندما علم الطالب بما بينها وبين شوبان حاول قتلها وقتله .

ولكن المحاولة فشلت . واشتعلت غيرة شوبان أمام هذه الأحداث ، وقررت جورج صاند مغادرة باريس الى مكان آخر أكثر هدوءا . وبدا لها أن السفر الى مايوركا باسبانيا فكرة مثالية لصحة شوبان وهدوء حياتها معه ومع أولادها .

أبحر شوبان وجورج صاند وولدها البالغ من العمر خمسة عشر عاما وابنتها ذات العشرة أعوام الى برشلونة ومنها الى بالما في نوفمبر عام ١٨٣٨ . وهناك لم يجدوا مكانا للمبيت ، فأخذت جورج صاند تطرق الأبواب الى أن وجدت غرفتين بالإيجار . وفي الصباح استمروا في البحث عن مسكن ، وبعد مشقة كبيرة استأجروا منزلا مؤثثا في ضواحي بالما كان رديئا للغاية ، قديم الأثاث .. ونوافذه بدون زجاج ، وبالرغم من ذلك طاب لشوبان العيش في بالما في أول الأمر .. مأخوذا بالدفء وجمال الطبيعة وكتب الى صديقه البولندي جوليان فونتانا Julian Fontana» انني أحيا من جديد ، وقريب من كل ما هو جميل . انني أشعر بتحسن » .

أثرت الطبيعة الجميلة على نفس شوبان فتدفقت الافكار الموسيقية وتفجرت الالحان في خياله . ولكنه للأسف لم يمتلك بيانو ليطبقها عمليا . فكتب لصانع البيانوهات بليل ليرسل اليه واحدا « انني أحلم بالموسيقى ولكني لا أمارسها لعدم وجود بيانو » .

ذهبت عنه حالة الخلق الموسيقي مع بداية فصل الشتاء ، حيث هبت الرياح من خلال النوافذ المحطمة وسقطت الامطار وتخللت الحوائط الضعيفة وملأ دخان فحم المداقىء المنزل ، فكان سعاله عنيفا مصحوبا ببصق الدماء . وعاده ثلاثة من الاطباء الاسبان قال له أحدهم أنه يسير في طريق الموت . وقال الثاني انه يلفظ أنفاسه الاخيرة . قال له الثالث انه ميت بالفعل . وبسرعة البرق انتشر خبر مرضه في البلدة الصغيرة ، وخشي الناس على أنفسهم من العدوى ، وطلب صاحب المنزل نقودا أكثر من جورج صاند ، بحجة أنه سوف يحرق المفروشات بعد رحيلهم .

كان شوبان في صحة سيئة ولا يقوى على العمل بسبب السعال المستمر ، وكان قلقا لأنه لن يحصل على نقود مقابل مؤلفاته التي لا يقوى على كتابتها . وطردت جورج صاند الأطباء وأخذت تعالج المريض بالراحة والغذاء . فكان عليها ان تنتقل الى بالما من أجل استحضار المأكولات لانها كانت تصل اليهم فاسدة . واقتنعت هي وشوبان أن مغامرة مايوركا كانت غلطة اقترفاها ، وقررا العودة الى باريس بمجرد تحسن حالة المريض الصحية الى الدرجة التي يتحمل معها السفر .

كانت جورج صاند ترعاه بكل عطف أثناء مرضه ، وكان هو بدوره مريضا رقيقا مرحا . وعندما كان يشتد عليه المرض وتتعب أعصابه لم تفقد هي صبرها أبدا . أفادته رعايتها أكثر من العلاج وقال عنها شوبان إنها ملاكه الحارس . وأحيانا كان

يقول ان الملائكة تجتمع في شخصها . كانت جورج صاند ترعى أولادها أيضا وتتولاهم بالدراسة وتمارس الكتابة ليلا وحتى مطلع الفجر . وفي احدى الأمسيات دخلت هي وأولادها المرحين صومعة شوبان فوجدوه تائها وقد اتسعت عيناه وما زالت يداه على أصابع البيانو . واستغرق الأمر بضع دقائق الى أن عاد الى الواقع وقد وصفت جورج صاند هذه الحال في « سيرتها الذاتية » Histoire de mavie قائلة « ضحك شوبان ضحكة مفتعلة وعزف لنا أفكاره الموسيقية الرهيبة التي سيطرت عليه في وحدته ، واتسمت بالكآبة والخوف . »

وفي ليلة أخرى ضلت جورج صاند وابنها الطريق من بالما الى منزلهم بسبب هطول المطر مع الظلام والأوحال وتأخرا في الخارج . وانتظرهما شوبان وهو في حالة قلق مميتة . وعندما يئس جلس الى البيانو وأمضى الليل يعزف والدموع تنهمر من عينيه ... وعندما وصلا المنزل ورآهما أطلق صرخة عالية وقال بصوت غريب « علمت يقينا أنكم فارقتم الحياة » وبعد ذلك قال لجورج صاند أنه رأى حلما وهو يعزف رأى فيه أنهم ماتوا جميعا ، وأنه كان يغرق في بحيرة ، وتتساقط عليه أمطار مثلجة .

كتب شوبان أعمال البريلود من مايوركا ومن بينها البريلود المعروفة باسم « قطرات المطر » والجدير بالذكر أن الاعمال التي اعطاها شوبان أسماء ، كان يرتبط معظمها بأحداث معينة ، أو بحالات نفسية بعيدة عن الواقع البشري .. وكانت تحمل هذه الأسماء ..

وتحسنت صحة شوبان ، وأنجز الكثير من مؤلفاته في خلال شهرين ، منها ستة من أعمال البريلود ، ومازوركا ، وسكرتسو ، واثنتان من أعمال البولونيز ، وبالاد واحدة . ولا شك أن هذه حصيلة غنية كتبها في هذه الفترة القصيرة ، وأرسلها لكي تنشر في باريس .

شعر شوبان أنه يستطيع الابحار وكان ذلك في فبراير عام ١٨٣٩ ، وحاول أن يبيع البيانو في بالما ، ولكن أحدا لم يتقدم لشرائه خوفا من انتقال عدوى المرض . وأخيرا اشترته زوجة مدير البنك الفرنسي في بالما بثمن بخس . وارهقت شوبان الرحلة البحرية ، ووصل الى برشلونة وهو يبصق دما . وعندما وصل الى مرسيليا ، شعروا جميعا بالراحة والمدنية من جديد ، فلم ينفر الناس من مصافحته أو يحرق صاحب الفندق المفروشات التي استعملها . انتقلوا جميعا الى نوهان موطن جورج صاند ، وأحب شوبان القرية الجميلة وعاش فيها من أول يونية عام ١٨٣٩ حتى منتصف اكتوبر من نفس العام . وفي خلال هذه الفترة أوصى أصدقاءه في باريس باستئجار شقتين واحدة له والأخرى لجورج صاند وأولادها تجنبا لنقد المجتمع الفرنسي لهما . وعادا الى باريس بعد غياب عام كامل طلبا للدفء والراحة التي لم يجدا اليها سبيلا .

<u>سنوات المجد :</u>

استمع المؤلف والعازف الشهير إجناس موشيلز Ignaz Moscheles الى شوبان عام ١٨٣٩ يعزف مؤلفاته وقال « أفهم الآن موسيقى شوبان لأول مرة وأعرف يقينا لماذا يطرب لها النساء » وكتب في مفكرته « لم تعد الانتقالات الموسيقية (Modulations) الخشنة تصدمني ، فهو ينتقل فيما بينها بدقة منزلقا بأصابعه التي تبدو وكأنها احدى عشر اصبعا » .

قال ذلك لأنه كان قد وجه لشوبان نقدا مختلفا فيما سبق (عام ١٨٣٥) عندما كتب يقول « انني معجب بأصالة شوبان وعزفه لأنه منح عازفي البيانو كل ما هو مبدع وجميل ، ولكني لا أحب الانتقالات التي يقوم بها فيما بين المقامات لأنني أرى أنها مصطنعة ومفتعلة » .

وفي عام ١٨٣٩ عزف شوبان سوناته لاثنين من آلات البيانو من مؤلفات موشيلز ، واشترك معه المؤلف في العزف أمام العائلة المالكة بقصر الملكة تقديرا منه لهذا المديح .

بدأت جورج صاند في الكتابة للمسرح منذ عام ١٨٤٠ حيث قدمت مسرحيتها « كوزيما » Cosima لفرقة المسرح الكوميدي الفرنسي ، وشغل شوبان بذلك وساعدها كثيرا ، وعندما سقطت المسرحية ، خفف عنها شوبان كثيرا أثر هذا الفشل على نفسها وقالت هي أنه رحيم مثل الملاك ، وأنها لا تستطيع العيش بدونه هي وأولادها ، واعتبرته ابنا ثالثا لها ، مما أثار في نفسها الحاجة الى العاطفة من جديد . لذلك رحلت عن باريس في أغسطس من نفس العام تاركة أولادها في رعاية شوبان الذي لم يتوان في احاطتهم بالحب والرعاية طوال فترة غيابها التي انقطعا فيها بحرية كبيرة .

نال شوبان قمة الشهرة والمجد كعازف بيانو عام ١٨٤١ بعد نقاش دار بينه وبين ليست وأصدقائه حول قيامه بالعزف في الحفلات الموسيقية العامة الموسعة ، وتمت الاستعدادات لحفل يقدمه في صالة بلييل بباريس ، ولكنه ندم على هذا القرار وأراد أن يؤجل الحفل فلم يستطع لأن ثلاثة أرباع التذاكر كانت قد بيعت بأعلى سعر (من ٥٠ الى ٢٠ فرنك للواحدة) بمجرد أن عرف مستمعو الموسيقى ان العازف الماهر سيظهر مرة أخرى أمامهم في هذا الحفل ، الذي أقيم في ٢٦ من ابريل عام ١٨٤١ . واعتبر الحفل حدثا اجتماعيا مبهرا ، فقد فرش الدرج بالزهور والورود على طوله حتى خشبة المسرح ، كان من بين الحضور معاصره العازف الماهر والمؤلف القدير ليست الذي أقنع ناشر الجريدة الموسيقية أن يكتب بنفسه نقدا عن الحفل ، وأعلم ليجوفيه Legoive (ناقد الجريدة الأساسي) شوبان بذلك الاتفاق قبل أن يبدأ العزف .. فقال شوبان « أفضل أن تكون أنت ناقدي وليس ليست » أما الناقد فقد اعترض قائلا « انها نعمة وفرصة لك وللجمهور أن يقوم ليست بالنقد . يجب أن تثق باعجابه بفنك وموهبتك ، فانني على يقين من أنه سيلقبك بملك الموسيقيين » .. ولكن شوبان أجابه ساخرا « سليم .. ولكنه سيحتفظ

لنفسه بلقب الامبراطور » وقد دار هذا الحوار التاريخي بالرغم من صداقة العازفين المؤلفين الوثيقة . وبالرغم من أن الفضل في تقديم شوبان الى الجمهور يرجع في الاصل الى ليست . وجاء تقدليست صادقا وأمينا واعتبره كل من يتذوق الموسيقى أوقع ما كتب عن شوبان . فقد وصفه بأنه شاعر البيانو وبأنه عميق وحالم . نسي شوبان اثناء أدائه أنه يعزف في حفل عام وعزف ألحانا ارتجلها في التو واللحظة الى جانب برنامج الحفل المحدد . وحقق نجاحا لم يشهده في حياته من قبل . فقد كتبت الصحف عنه الكثير مثل « يعتبر شوبان مؤسسا لمدرسة جديدة في العزف على آلة البيانو » . « لا توجد طريقة في اللمس تعادل طريقته الحقيقة الطبة » .

« لا توجد أعمال تقارن بأعماله . فهي فريدة .. ممتازة وجذابة ويعلو بها فوق مستوى البشر » .

« لا يمكن مقارنة شوبان بموسيقى آخر لأسلوبه المميز للغاية » .

فكر شوبان في الاستمرار في تقديم حفلات عامة بعد هذا النجاح الباهر . وسعدت جورج صاند بهذا النجاح واعتبرته نجاحا لها . واصطحبته الى نوهان لقضاء الصيف هناك حيث حصلا على كل ما كانا قد تمنياه من قبل في ماروكا باسبانيا من راحة وسعادة وانتاج غزير .. وتعاون فني انساني متبادل وعاشا حياة مستقرة لبضعة شهور تفرغ فيها شوبان للتأليف الموسيقي دون أن يزعجه أحد أو يضيع التدريس من وقته أو يجهد من ارهاقات المجتمع الباريسي .

وبعد انقضاء خمسة شهور عاد شوبان الى باريس وعاود الطبيب لأنه كان يبصق دما مرة أخرى . وفي ديسمبر من نفس العام عزف أمام الملك لويس فيليب . وكان يعد نفسه لحفل موسيقى آخر .. وعادت اليه الرهبة من الجمهور . فقد دار حديث بينه وبين تلميذه ويليام لينس W. Lenz حول هذا الأمر .. سأله التلميذ « هل تتدرب كثيرا قبل الحفل ؟ » . وأجابه شوبان « انني أمر بوقت رهيب قبل أي حفل . فأنا لا أحب الظهور أمام الجمهور وذلك أمر متوقع من شخص مثلي . فأنا اختلي بنفسي لمدة أسبوعين أعزف خلالها مؤلفات باخ ولا أعزف مؤلفاتي . وهذه طريقتي في الاستعداد لحفل عام » .

قدم شوبان حفلا موسيقيا في ٢١ فبراير عام ١٨٤٢ في صالة بلييل . وفتحت أبواب الصالة لمجتمع باريس الراقي . ونال شوبان نقدا صحفيا رائعا في الجريدة الموسيقية : « ان البيانو يتحول تحت اصابعه الى آلة جديدة تغني وتزمجر وفقا لتدفق دماء محمومة بنبض عبقري رقيق وعاطفي » .. ولكن بخاصة اقترن بالحزن عندما وصلته أنباء موت استاذه الاول زيفني Zywny في وارسو . عندما علم أن والده يسعل سعالا يعرفه تماما . وأن والدته الحزينة فقدت بصرها .

أخذته جورج صاند الى نوهان من أجل الترويح عنه ، ولكن شوبان رأى لأول مرة في حياته أن حياة الريف سقيمة ، وبالرغم من ذلك انكب على التأليف الموسيقي ، وتوصلت عبقريته الى قمة درجات نموها في التعبير عن طبيعته الرومنتيكية .. وكان في ذروة عظمته يعبر في الثانية والثلاثين من عمره .

شعر شوبان بحاجته للطاقة الحقيقية في نهاية عام ١٨٤٢ . وعندما عادت محبوبته السابقة دلفينا الى باريس في نفس الوقت ، اتجهت أفكاره وحواسه اليها مرة أخرى خاصة وأنه كان قد أمضى العامين السابقين في ضيق شديد للحالة التي وصل اليها مع جورج صاند ، فقد شعر بالمرارة وبالاهانة لرجولته ، فقد كانت تعامله كطفل من أطفالها .

وكتب خطابا الى دلفينا يطلب منها الغفران ويرجوها اعادة العلاقات بينهما شارحا لها حبه الحقيقي . ومن أهم ما أوضحه شوبان في خطابه الطويل حقيقة علاقته العاطفية بجورج صاند حين قال « ان أقوال الناس أكاذيب تبعد عن الحقيقة .. فعلاقتي العاطفية بجورج صاند استمرت أقل من عام واحد ، وقد انتهت باللحظة التي أصبت فيها بالمرض . ومنذ ذلك الوقت تحولت عاطفتها المشتعلة الى عاطفة الامومة الصادقة ، وكانت تمرضني بكل صبر وحنان ، ولا يمكن ان يتخيل أحد مقدار عطفها علي ، وقد قبلت ذلك منها لأنك تعلمين شدة احتياجي للرقة حيال قلقي المستمر . واليوم أشعر نحوها بالصداقة فقط وأحبها حبي لأمي » .

تأثرت دلفينا بخطاب شوبان وعاملته برقة ومحبة وعادت العاطفة السابقة ولكن أحدا لا يعلم الى متى استمرت ، ولكنها تحولت الى محبة رقيقة دامت حتى موت شوبان .

من الأمور التي أقلقت شوبان ايضا حبه الكبير لوطنه بولندة وامنيته في العودة اليها (التي لم تتحقق أبدا) ، وشعوره بالذنب لاعتقاده بتخليه عن وطنه عندما مرت بلاده بأحداث قاسية .

عاش شوبان مهددا بمرضه الخطير الذي اشتد عليه منذ عام ١٨٤٢ والذي لم يجد له طب القرن التاسع عشر علاجا . وتسببت شدة مرضه في هزاله وضعفه ، فلم يقو على عمله المعتاد ، واكتفى بالتدريس بالقدر الذي يعود عليه بالدخل الضروري الذي يحتاجه للحياة . وكان تلاميذه يبجلونه ويرعونه ويأتونه دائما بالزهور التي يحبها ، ويملأون عليه حياته فلم يشعر بالوحدة .

أما بالنسبة للتأليف الموسيقي فقد كتب شوبان أكثر مؤلفاته روعة في الفترة ما بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٨ .

اصطحبت جورج صاند شوبان الى نوهان لأنها كانت تعلم أنه المكان الوحيد الذي تتحسن فيه صحته وتستريح فيه نفسه القلقة . ومنذ بداية عام ١٨٤٥ ، لم يبعد تفكيره في الموت عن عقله بسبب انحدار صحته . وقضى صيف هذا العام في نوهان دون أن ينتج شيئا ، فلم يفعل سوى كتابة خطابات طويلة الى أهله . وشعر أولاد جورج صاند بالغيرة أكثر من أي وقت مضى بسبب حبها له كابن أكثر منه كرجل ، وضغطا على أمها لتقطع علاقتها به ، مما أوجد جوا جديدا مليئا بالحساسية لم يعترف به شوبان ، ونشأت خلافات كثيرة بينهم بالرغم من علمه بان بقاءه في نوهان أصبح غير مرغوب فيه . وذات يوم قال له ابنها موريس أنه لا يريده في منزل أمه .. وتشاجر معه شوبان . وفي يوم آخر قالت له جورج انه لم يصبح أكثر مرونة فستضطر الى ابعاده عن نوهان . وفي أثناء ذلك الصيف خطبت ابنتها ، وساءت العلاقة بينها وبين أمها ، وأخذ شوبان صف الابنة مما أثار غضب جورج صاند ، وتسبب في قطع علاقتها بشوبان نهائيا .. وعاد شوبان الى باريس وبقيت جورج في نوهان بعد أن قررت عدم العودة الى باريس كارهة حياة المدن .

وعاش شوبان وحيدا في باريس بدون الراحة التي كانت تحققها له جورج صاند ، وأخذت صحة شوبان في التدهور عاما بعد عام . وفي ١٩٤٨ كان لا يقوى على العزف على البيانو أو على القيام بالتدريس ، واصبحت قطرات الافيون على مكعبات السكر لا تجدي نفعا ولا تخفف ألما . ولم يخفف عنه حالات ألمه الرهيبة سوى موسيقاه . وفي أمسية من نفس العام دعا أصدقاءه الى منزله لسماع سوناتا للبيانو والتشيلو من تأليفه . وقد وصف صديقه هال Halle حالته في هذا المساء قائلا « عند وصولنا الى منزله ، وجدناه غير قادر على الحركة ، منحنيا كمطواة نصف منفرجة وفي حالة ألم شديد . وتوسلنا اليه أن يؤجل الحفل ولكنه أبى ولم يستمع الينا ، وتوجه الى البيانو . وعندما اندمج في حرارة مؤلفاته عاد جسده تدريجيا الى وضعه الطبيعي » .

أراد أصدقاء شوبان أمثال ليو Leo وبليل Pleyel أن يخففوا عنه وطأة المرض بالموسيقى ، فضغطوا عليه لكي يقدم حفلا عاما ، ووافق بعد أن كان قد أختفى طوال ست سنوات عن الجمهور .

أعلن عن الحفل بتاريخ ١٦ من فبراير عام ١٨٤٨ . وقبل الحفل بيومين بيعت جميع التذاكر بأعلى سعر (٢٠ فرنك للواحدة) من أجل حضور « سلف البيانو Sylph of the Piano » . ولم تكن جورج صاند بجواره لتشد أزره قبل الحفل كما كانت تفعل سابقا ولكن تلميذته السابقة الاسكتلندية جين ستيرلينج J. Stirling اعتبرت نفسها ملاكه الحارس ، فقدمت له المساعدات وساهمت في اعداد الترتيبات اللازمة .

قدم شوبان مقطوعات كان جمهوره قد استمع اليها من قبل . وبينما كانوا ينتظرن الجديد من مؤلفاته فاجأهم شوبان بتغيير تلوين التعبير الموسيقي بسبب ضعفه الشديد وعدم قدرته على العزف بقوة . فقد أدى مقطوعة « الباركارول Barcarolle

ابتداء من الجزء الذي يتطلب حيوية وقوة في أسلوب عكسي تماما فجاء أداؤه في غاية اللين Pianissimo وكان هذا منه تلوينا منعشا أثار شك المستمعين في أنه أفضل بكثير من التلوين المعتاد . وقال هال عن ذلك « لا يستطيع أحد سوى شوبان أن يقدم هذا الابداع . »

لكن الحفل استنفذ كل قوته ، ولم يعد يقوى على السير الى غرفته . وطلب منه أصدقاؤه أن يقدم حفلات أخرى ولكن ذلك لم يتحقق . فبعد مضي أيام قليلة قامت ثورة فبراير ولم يكن هناك مجال لأي حفلات يقدمها شوبان في باريس . وفي أيام صحوة الثورة ، تمت مقابلة غير متوقعة بينه وبين جورج صاند وكان قد رآها آخر مرة منذ ثمانية شهور . فحياها شوبان بكل احترام واستمرت المقابلة لحظات ولم يرها شوبان بعد ذلك طوال حياته . بعد أن كانت تشغل أهم جزء من حياته لدرجة أنه لم توجد المرأة التي احتلت في قلبه مكانا هاما مثلها . ولم يمتد به العمر بالقدر الذي يتمكن فيه من نسيان مرارة انفصالها .

اضطر العديد من الفنانين الى مغادرة فرنسا بعد ثورة فبراير وكذلك فعل شوبان .. فقد خطط للرحيل الى انجلترا ، التي اختارها تلبية لدعوة تلميذته السابقة جين ستيرلينج ، التي لم تتزوج بعد أن رفضت ثلاثة وثلاثين عرضا للزواج ، وتمنت الزواج من شوبان ولكن أمنيتها لم تتحقق أبدا . قدمت جين الكثير من الرعاية والعطف لشوبان ، ولكنه لم يحبها أبدا ، بل كان يمل صحبتها في كثير من الاحيان . ولم يحسب شوبان لصحته حسابا عندما قرر السفر الى انجلترا . فقد أرهقته الرحلة ارهاقا شديدا وتدهورت صحته .

قدم شوبان الى مجتمع لندن الارستقراطي ، وعزف أمامه في حفلات خاصة ، كما عزف أمام الملكة فيكتوريا في ١٥ مايو عام ١٨٤٨ . وبالرغم من نجاح هذه الحفلات وتقدير شوبان لحب الارستقراطيين في لندن للثقافة ، فقد كان سيء من نظرتهم الى الموسيقى . وكتب لصديقه جرزيمالا Grzymala في هذا الشأن قائلا « الموسيقى هنا ليست فنا ولا تسمى فنا ، واذا قلت أنك فنان اعتقد الانجليز أنك رسام ، أو مثال ، أو مهندس ، فالموسيقى هنا مهنة وليست فنا . »

أقام شوبان حفلين عامين بعد وصوله لندن ببضعة أسابيع . كان الاول في ٢٣ من يونيه عام ١٨٤٨ ، والثاني في ٧ من يوليه من نفس العام . ولم تكن صحته تسمح له أبدا باقامة هذه الحفلات . فقد كان دائما يبصق دما ، ويسعل سعالا عنيفا في الصباح والمساء ، وكان ينتظر نهايته بعد كل نوبة سعال . ولكن قوة الروح فقط ، هي التي كانت تتغلب على ضعف جسده كما قال « هال » . ونالت حفلاته نقدا رائعا في الصحف الانجليزية أحبطت عزيمة شوبان لأنه لم يتمكن من تقديم المزيد من الحفلات وضاعت آماله في اثبات وجوده . وأصبحت لندن كالصحراء القاحلة في نظره ، ولم يجد سببا واحدا يبقيه فيها . ودعته

جين ستيرلينج لزيارة أقاربها في اسكتلندة لعل مناخها يفيد صحته ، ولكنه لم يجد أبدا جوها ، ولم يسعد ببقائه فيها خاصة وأن قلبه كان مع بولندة .

لم تكن تعاسته ناتجة عن تفكيره في الموت بقدر ما كانت ناتجة عن عدم قدرته على العزف أو التأليف فقد كتب لصديقه « لا توجد في رأسي فكرة موسيقية واحدة ، لقد فقدت الموهبة . »

قدم شوبان حفلات موسيقية عامة ناجحة في اسكتلندة بالرغم من ضعفه الشديد وعدم تفهم الجمهور لموسيقاه . وكانت دهشة المستمعين كبيرة عندما رأوه لا يقوى على السير ويحمل الى البيانو ، ولكنهم ذهلوا عندما استمعوا الى كل نغمة وهي تصل الى أسماع الجالسين في آخر الصالة بالرغم من هذا الضعف الصحي الشامل . وكانت حفلته الاخيرة في ٤ من اكتوبر عام ١٨٤٨ .

لم يتحمل شوبان شتاء اسكتلندة ، فرحل الى لندن من أجل لقاء أصدقائه البولنديين هناك ، وقدم آخر حفل عام قبل موته ، وكان ذلك في ١٦ من نوفمبر عام ١٨٤٨ ورغب في مغادرة انجلترا ولكن صحته لم تسمح له بذلك ، فانتظر يرقب في فراش المرض أول فرصة تسمح له بالرحيل ، فسافر الى باريس التي كانت بالنسبة له الوطن والأمل في ٢٣ من نوفمبر من نفس العام .

شوبان محاطا بالحب والرعاية : عندما كان شوبان في العشرين من عمره ، وبعد مغادرته وارسو كتب يقول : « كم هو مؤلم أن يموت الفرد بعيدا عن موطنه ، وكم هو مخيف وقاس أن يحاط بطبيب أو خادم أثناء موته بدلا من أسرته . » وقد بدت له هذه المخاوف حقيقة عندما كان في لندن . ولكنه عندما عاد الى باريس عام ١٨٤٨ وجد نفسه محاطا بحب ورعاية الأصدقاء ، أمثال الاميرة البولندية « تشارتوريسكا Czartoryska وجوتمان Gutmann وبرتسيالا ، وحشد من الاصدقاء الأرستقراطيين الذين هبوا لمساعدته .

قام شوبان بتدريس البيانو في الاسابيع الاولى من عام ١٨٤٩ من أجل المال واحساسه بأن النشاط يعيد اليه صحته .

وفي بداية الربيع ، شعر أن لديه القوة لاحياء النشاط الموسيقي في منزله ، فدعا أصدقاءه في ١١ من ابريل ولكنه لم يعزف ، وقامت تلميذته السابقة الكونتيسة الكيرجيس Kalergis والكونتيسة دلفينا بوتوكا حبيبته الاولى بالعزف بدلا منه . وفي الصيف

انتشرت الكوليرا في باريس ورحل عنها غالبية أصدقائه . وذهب هو الى شايو Chaillot حيث الهواء النقي . وهناك حضرت جين ستيرلينج وشقيقتها للعناية به . وكانت أحواله المالية سيئة للغاية . فأرادت جين أن تمنحه المال ولكنه رفض قائلا « لو قبلت مالا من امرأة فلن تكون هذه المرأة أقل من الملكة فيكتوريا مكانة . » وعندما علمت والدته بحاجته الى المال ، أرسلت اليه ألفي فرانك ولنت أن تكون بجواره ولكنها لم توفق .

عندما شعر شوبان بدنو أجله ، أرسل لاخته خطابا يرجوها الحضور . فاقترضت المال وسافرت اليه مع زوجها وابنتها في أغسطس وأمسكت بزمام الامور . وقدمت له أفضل رعاية . وأقامت معه حتى وفاته . وفي نهاية سبتمبر اتضح للجميع أنه يحتضر . فتوافد عليه الأصدقاء من كل مكان . وكانت غرفته تزدحم بالفنانين الذين جاءوا ليرسموه . وعندما علمت دلفينا أن نهايته قريبة . حضرت على وجه السرعة من مدينة نيس قبل وفاته بيومين وقال لها شوبان « لقد أبقاني الله على قيد الحياة لكي أراك ثانية » .

وتوفي شوبان في ١٧ من أكتوبر عام ١٨٤٩ . بعد أن أوصى بأن يدفن قلبه في وارسو . وشيعت جنازته في ٣٠ من أكتوبر وكانت مهيبة للغاية . فقد حضرها حوالي ثلاثة آلاف شخص وقدم فيها قداس موتسارت الذي كتبه عمدا بدون ملائكي وأصوات النساء فقط . وحمل جثمانه بحركة حزينة على ايقاع المارش الجنائزي من سوناته المعروفة من مقام سي بيمول صغير .. وعزفت مؤلفاته (بريليود رقم ٤ ، ٦) اثناء القام المراسم . ونقل الى مثواه الاخير وقد أحيط قبره بالآلاف من باقات الورود والزهور التي أحبها طوال حياته .

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض أن شوبان عبقرية فذة فوق مستوى البشر . وقد كتب عنه الكثيرون أنه رومنتيكي سيائي . ولكن يتضح لنا من وراء السطور انه أحب مثلما يحب البشر . وكان يتوق الى حياة عائلية طبيعية .. ولا زالت آراء من كتبوا عنه تختلف في هذه النقطة ، لأن معظم خطاباته فقد أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأثناء الصراعات التي قامت بين روسيا وبولندة .، أما جميع رسائله لجورج صاند ، فقد أحرقتها بيديها . وعندما تفعل ذلك جورج صاند الكاتبة المتحررة المنطلقة ، فهناك سبب يدعوها لذلك .. أرادت اخفاء بعض جوانب علاقتها بشوبان .

ان هذا الاختلاف أمر طبيعي خاصة وأن هؤلاء الكتاب اختلفوا أيضا على لون عيني شوبان .

ومن أنبل ما وجد في هذا الكتاب .. أن شوبان الذي عاش حياة الألم والشقاء والمعاناة أسعد معاصريه بفنه .. وسيظل دائما يثري وجدان الملايين من محبي الموسيقى والمهتمين بالثقافة لأنه فنان خلدته موسيقاه الرائعة فهي شعر موسيقي .. وأسطورة في عبقرية الابداع والأداء .

●●●

ولقد صدر كتاب « دياجيليف Diaghilev » عام ١٩٧٩ ونشر لأول مرة في بريطانيا من دار النشر فايدنفلد « Weiden feld ونيكلسون Nicolson .

وهو كتاب صادق ، عرض فيه كاتبه « ريتشارد بكل Richard Buckle » قصة حياة دياجيليف كاملة لأول مرة ، فقد كتب آخرون أمثال الراقص الشهير « ليفار Lifar » الذي أصدر كتابا عن حياة دياجيليف نشر عام ١٩٤٠ . كما أصدر مساعد دياجيليف الأمين « بوريس كوخنو Boris Kochno » كتابا عنوانه « دياجيليف والباليه الروسي » ولكن هذه الكتب ينقصها بعض فترات من تاريخ حياة دياجيليف .

وقد كتب ريتشارد بكل كتابا قبل هذا عن دياجيليف أيضا ، ولكنه رغب في أن يكتب الكثير وبالتفصيل عن رسول الفن العظيم . فأصدر هذا الكتاب المشوق والصادق في معلوماته . وجاء هذا الصدق نتيجة لما بذله الكاتب من مجهودات كثيرة للحصول على المستندات الحقيقية ، وأهمها مذكرات دياجيليف التي كتبها قبل وفاته بعام واحد ، والخطابات والبرقيات التي تبادلها مع كوخنو ، وليفار ، وسترافنسكي ، وباكست Bakst . ومذكرات الأميرة تينيشيف Tenishev . التي ترجمتها للكاتب ابنة أخت تشايكوفسكي ، ومذكرات الراقصة كارسافينا Karsavina .

لم يكتف الكاتب بهذه الوثائق الغنية بالأحداث ، بل قابل كلا من كوخنو وليفار ونيجنسكا Nijinska والراقصة سوكولوفا Sokolova وأنطون دولين Anton Dolin وإيجور ماركيفتش I. Markevitch وجميعهم عاصروا دياجيليف وشاركوه كفاحه . وقد أمد هؤلاء الكاتب بكل ما طلب من تفاصيل حياة دياجيليف . هذا بالاضافة الى المراسلات التي تمت بين الكاتب والمؤلف الموسيقي ايجور سترافنسكي Igor Stravinsky . أثرت الوثائق والمقابلات والرسائل الكتاب ، وجعلته مرجعا من مراجع الكتب والوثائق التاريخية .

ولقد أفلح دياجيليف في أن يتخطى هوة الثورة الروسية . فقد لفظته بلاده ولكنه أصبح خير سفير لها .. تعمق في فنه بتشايكوفسكي وموسورجسكي ، وتعلم على يد ريمسكي كورساكوف ، وعاش حتى أنتج أوائل باليهات بروكوفييف ، وهو الرجل الذي زار تولوستوي ، وأوكل الى تشيكوف رئاسة تحرير مجلته ، كما ناقش الخطط الفنية المثيرة مع مايكوفسكي في أواخر أيام حياته .

يرتبط شوبان الشاعر الحالم .. الثائر .. الرقيق .. الفنان المبدع بدياجيليف .. عملاق الأداء الموسيقي الدرامي الراقص ، يرتبطان بأسرار الفن ، فكان دياجيليف عالما فنانا خبيرا بكل ما يحيط بفن الباليه .. وكانت الموسيقى مدرسته الاولى .. أما شوبان ، فقد كان الملهم والمحرك .. والصوت الذي حرك دياجيليف لانتاج واحد من أشهر الباليهات وأكثرها تأثيرا في حياته . فقد تميز بموسيقى شاعرية كتب أغلبها للبيانو في ابداع جديد ، وغناء شاعري على ايقاعات رقصات بلاده .. رقصات بولندا الشعبية مثل البولنيز والمازوركا والفالس .. وعلى يد دياجيليف أصبحت رقصاته هذه تسبح وترى لتتكامل في وجدان البشر .. وليعمق مفهوم ومضمون تلك الموسيقى البليغة الرائعة . وارتبط العملاقان أيضا بباريس مدينة الفنون التي جمعت بينهما في فترات متباعدة .. وبأنها عاشا غرباء على أرضها وفي مسارحها ومجتمعاتها واستمدت باريس الى قبض ملهم من الموسيقى التي كتبها شوبان لآلة البيانو وعزفها بنفسه ، وكانت آلة البيانو هي الآلة التي عاش دياجيليف مع أسرارها .. فالباليه يتحرك بالبيانو ويتدرب وينضج بنفس الآلة .. ثم تأتي الاوركسترا في النهاية وقبل العرض بأيام قليلة لتحل محل البيانو وأحيانا يكون البيانو هو المحرك الوحيد لمسرح الباليه الشامل الكامل .

وكانت باريس في القرن التاسع عشر موطنا للفنانين وقد هرب اليها شوبان ليكتب موسيقى الثورة لبلاده .. تلك الموسيقى التي كانت وقودا للحرب في بولندا ، وجاء دياجيليف في القرن العشرين ليعيد أداء موسيقى شوبان في نفس المدينة « باريس » مع فن الباليه الراقص في عرض باليه السيلف .. ومن مفارقات القدر أن جد دياجيليف كان محاربا قائدا في الجيش الروسي الذي قام بغزو بولندا ويأتي الحفيد دياجيليف ليستلهم موسيقى شوبان ويحولها الى نصر للبولنديين على كل الغزاة .. على مسرح الباليه الخالد في كل عصر ومكان .

ولا شك أن وراء كل فنان عظيم رصيد ضخم من الكفاح المرير حتى يرتقي بفنه دون يأس أو استسلام لظروف القدر وقسوته . وقد كانت هذه المعاناة هي سر نجاح كل من شوبان في مجال الفن الموسيقي ، ودياجيليف في الوصول بالباليه الروسي الى ذروة المجد والشهرة . وكان اختيارنا لهاتين الشخصيتين الفريدتين بهدف تقديم نموذجين نادرين في مجالات الموسيقى والباليه .

ولد دياجيليف عام ١٨٧٢ وعاش حياة قصيرة نسبيا ، اذ أنه توفي وهو في السابعة والخمسين من عمره . ومن حسن الحظ قدم تحف بالانشين Balanchine الاولى قبل موته . وما زال بالانشين يقدم ويبدع باليهات لا تضاهي في روعتها حتى عام ١٩٧٨ .

تجاهل مؤرخو حياة دياجيليف تفاصيل نسأته ، ولكن مما لا شك فيه أن الرجل الذي ترك أثرا واضحا في حياته هو الجد لجده ... فكان عصاميا ، جمع ثروة طائلة ولكنه لم يتملك ضمن هذه الثروة أية أراض تدخله في عداد النبلاء . أما جد دياجيليف (١٨٠٣ ـ ١٨٨٣) فقد دخل في عدادهم بالرغم من أن قوانين روسيا كانت صارمة في ذلك الوقت حيث كان من النادر الحصول على لقب (نبيل) . ويرجع حصول الجد على هذا اللقب الى عمله بالجيش الروسي في وظيفة جنرال عام ١٨٣٩ ، والى احرازه لبطولات في حرب الفرس والأتراك ، فاستحق جائزة صليب سانت فلاديمير مما أعطاه الحق في أن يرتفع الى منزلة النبلاء في عهد الامبراطورة كاترين التي كانت تمنح المتفوقين في الجيش هذه الالقاب . وهكذا توارث دياجيليف هذا اللقب أبا عن جد .

ولد دياجيليفي في ١٨٧٢/٣/١٧ وتوفيت والدته بعد مولده بأيام قليلة ، وقد اتخذ والده بافيل لفتاة تدعى الينا بانايف Elena Panaev زوجة ثانية له ، من عائلة موسيقية مثل عائلة دياجيليف . وكان الابن سرجي دياجيليف يحبها كثيرا وقال عنها أنها أفضل امرأة في العالم . ولهذا عاش سرجي طفولة سعيدة في اطار جو موسيقي .

وكان المؤلف الموسيقي موسورجسكي صديق طفولته ـ مع أنه كان لا يزال طفلا ـ يمارس التأليف الموسيقي والعزف على آلة البيانو .

توفي الوالد بافيل عام ١٨٨٣ عندما كان سرجي في الحادية عشرة من عمره ، فعاش مع عمه ، وانتقل معه في عطلات الصيف من مدينة سانت بيترسبورج الى مدينة بيكباردا Bikbarda حيث عاش حياة القصور والقلاع التي نعرفها من مسرحيات تشيكوف .

تمتعت عائلة دياجيليف بفضل الجد وأقاموا في مدينة بيرم Perm ، وكانت حياة هذه العائلة شبيهة بحياة الملوك اذ كان لهم قصر عظيم ، عبارة عن مركز للنشاطات الادبية والفنية ، مما أثر تأثيرا بالغا في ثقافته .

كان سرجي دياجيليف صبيا نابغا في مدرسته وتفوق في معرفته على زملائه في الآداب الروسية والاجنبية ، وكذلك في فنون المسرح والموسيقى ، وفي اللغات الالمانية والفرنسية . وكان لسرجي مجموعة من الاصدقاء أصبحوا فيما بعد من مشاهير الادباء والفنانين ، من بينهم الكسندر بنوا A. Benois وفالتر نوفيل Walter Nivel بالاضافة الى ديمتري فيلوسوفوف Dimitri Filosofov وكونستانتين سوموف Konstantin Somov . اهتمت مجموعة الاصدقاء بالفن وقدروا كبار المؤلفين الموسيقيين من أمثال فاجنر Wagner وعاشوا حياة فنية ثقافية الى أن أنهوا دراستهم الثانوية عام ١٨٩٠ .

وفي نفس العام قام سرجي بجولة برحلة زارا فيها برلين وباريس وفيينا وروما . وقيل عنهما أنه كانت بينهما علاقة غامضة أكدها فيما بعد ايجور ماركيفيتش Igor Markevitch صديق دياجيليف في الفترة الاخيرة من حياته ، وقائد الاوركسترا المعاصر الشهير . فقد أوضح أبعاد هذه العلاقة بين أوساط الكتاب والمؤرخين في فبراير عام ١٩٧٨ ، وان لم يذكرها بنوا في مذكراته ولا ليفار Lifar في حياته . ولقد كان لهذه الرحلة أثرها على دياجيليف حيث اتخذ من باريس ، عاصمة الرشاقة والفن ، مدينة يقدم فيها أحدث وأجرأ خبراته ومحاولاته في عالم الباليه مستقبلا . أما مدينة فينيسيا فقد أحبها واختارها منفى له يشعر فيها بالراحة والأمن . ولقد شاءت الاقدار أن تنتهي حياته في هذه المدينة التي كانت لسنوات طويلة ملجأ لراحة نفسه . استمع الصديقان الى موسيقى وأوبرات فاجنر وأحبها سرجي وقال أنها توحي بالمجد والعظمة . ومما هو جدير بالذكر أنه فيما بعد تحدث عن روعة أوبرا « تريستان Tristan » وهو على فراش الموت .

درس دياجيليف القانون في جامعة سانت بيتر سبورج بدون حماس ، فلم يكن يرغب في أن يتخذ من المحاماة مهنة له ، ولكن شهادة الجامعة كانت الجواز أو الترخيص الذي يؤهله للعمل بالخدمة المدنية في روسيا ، وكذلك كان الحال بالنسبة للمؤلف الموسيقي موسورجسكي الذي اشتغل مهندسا ، وتشايكوفسكي الذي اشتغل بوزارة العدل . وبالرغم من ذلك لم تؤهله شهادة القانون لشغل وظيفة أساسية في الخدمة المدنية ، بل كان عليه أن يعمل بالجيش أولا .

ولكن دياجيليف لم يرغب في الالتحاق بالجيش أو البحرية ولم يبال بالوظيفة ، فقد بدا له أن الطريق الوحيد الذي يوصله الى التفوق والامتياز هو طريق الفن . ومن الفنون التي أحبها ... الموسيقى ، وكان من المحتمل أن يصبح مغنيا ، أو مؤلفا حيث درس الغناء على الباريتون الذائع الصيت كوتونى Cotogni ودرس التأليف على يد سوكولوف Sokolov وريمسكي كورساكوف ، وقد ترتب على دراسته للموسيقى اهمالا لدراسة الحقوق . لم ير دياجيليف أثناء فترة دراسته الثانوية بمدينة بيرم عرضا واحدا من الباليهات التي كتب تشايكوفسكي موسيقاها ... وبالرغم من ذلك كان هو وأصدقاؤه يكنون له حبا عظيما . وتحمس الأصدقاء أيضا للمؤلف ريمسكي كورساكوف ، وتعرف دياجيليف بوجه خاص على الكثير من موسيقى موسورجسكي ،

كما شغف كثيرا بأوبراته أمثال « بوريس جودونوف Boris Godunov » و « خوفانشتشينا Khovanshchina » ، التي عرضت في مسارح عامة الشعب كمسرحيات شكسبير التاريخية . ورأى دياجيليف أن موسيقى موسورجسكي قدمت للبشرية فنا واقعيا ، وانشقت جزئيا عن الليبرالية . وحاكت واقعية فن الرسام بيريد فيجنكي Pered Vijiniki الذي عبرت لوحاته عن شتى الانفعالات ، كالشفقة والخوف والحب والوطنية .

وفي عام ١٨٩٠ (العام النهائي في دراسته الجامعية) شاهد دياجيليف العرض الاول لباليه « الجمال النائم » لتشايكوفسكي (وهو الباليه الذي اهتم دياجيليف بتقديمه بعد ذلك في مدينة لندن عام ١٩٢١) وقد قوبل العرض الاول للباليه المذكور بفتور من المشاهدين ، كما وبخ الامبراطور تشايكوفسكي بسببه . ولكن اعجاب بنوا بالباليه كان له الأثر الاكبر في توجيه تفكير دياجيليف نحو فن الباليه وانتاجه بعد ذلك . وبالفعل اتجه دياجيليف هذا الاتجاه وعاش حياته عاملا لرفعة هذا الفن .

كان دياجيليف ناقدا لكبار المغنين ، فقد كتب عن السوبرانو النمساوية ملبا Melba في أدائها لدورها في أوبرا « روميو وجوليت » لجونو Gounod ، كتب يقول « ان جين دي ريسكي Jean de Reszke (البطل روميو) يبدو بالفعل حبيبها » . وقد عبرت هذه الجملة الموجزة عن مدى اتقان المغنية المذكورة لدورها . كما كتب عن دي ريشكي أنه كان ينحرف في أدائه عن النغمات الاصلية ولكنه كان رائعا في كل من أوبرا « روميو وجوليت » وأوبرا « ترتستيان » لفاجنر ، وأن أداءه معبر في اطار الطابع والاسلوب المطلوب . كما أنه باص ذو صوت مليء ، وله طريقة نبيلة في الأداء .

كان دياجيليف ناقدا للموسيقى أيضا ، ففي عام ١٨٨٩ أي قبل تخرجه من الجامعة بعام واحد ، حضر حفلا موسيقيا للعزف على البيانو كان نجمه العازف الروسي الشهير روبنشتاين Rubinstein وكتب دياجيليف عن الحفل : « كان أداء روبنشتين رفيعا ، خاصة في الدراسات السيمفونية لشومان ، ومن المحال أن أصف بصدق طريقة عزفه هذا المساء ، فلم يوجد عازف استطاع أو يستطيع أن يضاهي عبقريته أو قوته في ابراز الضغوط الايقاعية . »

أما بالنسبة لفن الرسم والنحت ، فكان دياجيليف ما يزال يتلمس طريقه اليها ، وكان يستمع الى آراء ونقد كل من بنوا وباكست Bakst دون أن يبدي رأيا ، ولكن بنوا كتب عنه فيما بعد يقول إنه دهش للخطوات السريعة التي خطاها نحو فهمه لهذا الفن واهتمامه به بجدية وبعمق ، وأنه أظهر في نقده كفاءة عالية كما لو كان ناقدا متخصصا .

كانت وثبة دياجيليف واضحة في هذا المجال عندما أبدى رد فعل مضاد لواقعية بريدفيينكي Pered Vijniki وتقديرا للأسلوب الجريء في التعبير ، الذي انتهجه الفنانون التشكيليون والذي عرف في شتى ألوان الفنون بالموضوعية ، او التجريد أو تسميات أخرى متعددة يشرحها الاصطلاح السائد : « الفن للفن » . وهو في ذلك يؤيد الأسلوب او الحركة الفنية التي اتضحت في اتجاهات فناني أواخر القرن التاسع عشر ، والتي نفر منها نبلاء الامبراطورية الروسية ، ونظروا الى الرسامين الطلاب ، أمثال بنوا ، نظرة شملها الاضطهاد ، لاعتبارهم اياهم من الثوار .

ترك دياجيليف الجامعة بعد اتمامه دراسة القانون ، وفي عام ١٨٩٤ قام هو وقريبه ديمتري برحلة الى فرنسا ثم الى مدينة جنوا وميلانو وفينيسيا وفلورنسا منقبين عن التحف الفنية القديمة .

استمر دياجيليف في دراسة التأليف الموسيقي على يد ريمسكي كورساكوف ، وذات يوم ، دعا أصدقاءه لسماع احدى مؤلفاته وأدائه لدور « ديميتري » في أوبرا « بوريس جودونوف Boris Godunov » وأجمع صديقاه بنوا ونوفيل على أن أداءه ليس سوى كارثة فنية ، وقال له ريمسكي كورساكوف أنه لا يتمتع بموهبة التأليف الموسيقي . ترك دياجيليف الغناء معترفا بأن صوته ليس جميلا ، بالرغم من ذلك لم تكن دراسته للموسيقى غير ذات فائدة ، بل كانت أساسا لعمله كمنتج للباليه . ومن هوايات دياجيليف التي أشبعها بحق اقتناء الكتب واللوحات الفنية لمشاهير الرسامين من مختلف أنحاء العالم .

وفي يناير عام ١٨٩٧ ، أقام دياجيليف أول معرض للرسامين الالمان أمثال هيرمان Hermann وباريلس وليبرمان Liebermann ، وعرض لوحاتهم الى جانب لوحات لافري Lavery وباترسون Paterson وغيرهم من الرسامين الانجليز ، الذين اتبعوا في رسومهم الاسلوب التأثيري Impressionism قبل غيرهم من الفنانين المعاصرين . وانتقل في نفس العام الى مدينة بيرويت بألمانيا لسماع مؤلفات فاجنر وكان أثر ذلك أن اتفق الاصدقاء على التخطيط لثورة على الفن في روسيا ، وكانت وسيلتهم الوحيدة هي انشاء مجلة فنية ينشرون فيها آراءهم الجريئة . وكان دياجيليف اكثرهم نشاطا وحماسا لهذه الفكرة فتعهد بأن يكون هو ناشرها ، وكتب خطابا الى بنوا يطلب مساعدته في انجازهذا العمل ويحترض علي الحياة الفنية في روسيا بوصفها حياة مزيفة ، وأنه يتطلع الى حياة أفضل ، لا تتحقق الا بثورة فنية يفجرها مجموعة الاصدقاء .

كان هدف دياجيليف وأصدقائه من هذه الثورة هو التعبير عن الفن بالفن أي «الفن للفن» Art for Art's Sake مثلما فعل أوسكار وايلد ، فلا توجد في الفن أخلاقيات أو قيم Movals ، ولذلك أعجب دياجيليف وبنوا وأصدقاؤهم بالرسام ريبان Repine لأنه انتهج هذا الاسلوب ، وان كانت له بعض لوحات بعيدة عن مذهب الصديقين ، مثل لوحة جرية الكسندر الثاني . وقد وصف الصديقين بالانحطاط بسبب اعتناقها ذلك المذهب .

ظهور مجلة « عالم الفن » (١٧٩٨) - (١٩٠١) : قيل عن دياجيليف أنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب . ولكن السنوات التي قضاها في يسر انقضت مع بداية كفاحه في نشر مجلته ، وإقامته للمعرض العالمي الاول عام ١٨٩٨ ، فقد كان عليه أن يناضل من أجل نشر فكره الجديد بإدخال كل ما هو خيالي للوصول بالفن الى آفاق بعيدة ، أسمى وأرفع من كل ما هو واقع .

بدأ دياجيليف عمله في مجلته « عالم الفن The world of Art » صامدا أمام التيارات المعارضة والأعداء الذين ظهروا بسبب هذا النضال ، فقد انسحب عنه بعض أعوانه وتوقف مؤيدوه عن مساندته .

وفي ربيع عام ١٨٩٨ سافر الى برلين ، ولندن ، وباريس لطبع مجلته ، فقد كانت الطباعة متخلفة حينئذ في روسيا ، أما حفر « الكلاشيه » ، وهو ما يختص بطبع اللوحات ، فكان بدائيا للغاية مما اضطره الى تصميم كليشيهات المجلة في الخارج ، الى جانب قيامه باستعارة وجمع اللوحات الفنية لمشاهير الفنانين حتى يتمكن من اقامة المعرض الدولي الاول الذي افتتحه في مدينة سانت بيترسبورج في العام التالي (١٨٩٩) .

ناصرت العائلة الامبراطورية الفنانين الأجانب وشجعت الفنانين الناشئين في روسيا إبان القرن التاسع عشر ، كما أغدق الأمراء على البلاد ذوقا رفيعا وثقافة عالية .

عندما عاد دياجيليف الى مدينة سانت بيترسبورج ذهب لزيارة الاميرة تنيشيف Tenishev ، لمناقشة خطوات نشر المجلة والمطالبة بالمساعدات التي يمكن ان تقدمها له . وقد كتبت الاميرة عن هذه الزيارة « ان فكرة المجلة مبهجة جدا بالنسبة لي ، لأني كنت أحلم منذ وقت مضى بمشروع مشابه ، واعلم أنه بدون مجلة فنية ناقدة لن توجد صلة ولا تعايش بين الفنان والمجتمع ، خاصة وأن المتشردين يقفون عقبة في سبيل تقدم ذوق ومفهوم البشر في بلادنا فتخلف الفن كثيرا عنه في غرب أوروبا » .

وبالرغم من تحذير زوجها لها ومحاولته ثنيها عن تمويل المجلة ، فقد أبرمت عقدا مع دياجيليف ، والناشر مامونتوف Mamontov لنشر مجلة عالم الفن . وفي خريف عام ١٨٩٨ تواجد دياجيليف والاميرة تنيشيف في باريس للعمل في المجلة وأيضا لاستعارة وجمع اللوحات الفنية لمعرض عام ١٨٩٩ . وفي نفس العام وبعد كفاح مرير ظهر أول عدد من مجلة عالم الفن وكان ذلك في يناير عام ١٨٩٩ . لم تشمل المجلة كتابات عن الفن الروسي فقط ، بل شملت ايضا مقالات عن الفن في الغرب ، ونقدا عن معارض الفن التشكيلي والكتب الفنية الجديدة ، والحفلات الموسيقية ... الخ .

وفي نفس الشهر من ذات العام ، افتتح دياجيليف والاميرة تينيشيف المعرض العالمي في متحف شتيجليتس Stieglitz ، واستقبلا العائلة الامبراطورية والنبلاء ، الذين حرصوا على زيارة هذا المعرض . واحتوى المعرض مجموعة رائعة لكبار الفنانين الروس أمثال باكست ، وبنوا ، والفنانين الالمان أمثال بارتيلز Partels وليبرمان Liebermann .. والفنان السويدي تسورن Zorn والنرويجي تاولو Thaulow والايطالي بولديني Boldini . والفنانين الانجليز أمثال برانجوين Brangwyn . وكوندير Conder .. والفنانين الفرنسيين مارو Mareau ، وبلانش Blanche . ولا توش La Touche ولا شك أن تأسيس هذا المعرض بهذا المستوى الرفيع ، الى جانب النضال من أجل نشر مجلة عالم الفن في وقت واحد ، كان عملا هائلا ومدهشا من دياجيليف .

دياجيليف بين الباليه والأوبرا : نبغ دياجيليف كمنتج للباليه ، وكانت شهرته في هذا المجال تفوق الوصف ، لأنه مارس العديد من الفنون المختلفة قبل دخوله عالم الباليه .

بدأت أفكار دياجيليف تتجه نحو الانتاج الفني للباليه منذ عام ١٨٩٠ عندما حضر أول **عرض لباليه « الجمال النائم »** لتشايكوفسكي ـ كما ذكر سابقا ـ ولكنه ظل يعمل بالمجلة والمعارض الفنية حتى عام ١٩٠١ حيث أصدر النبيل فولكونسكي Volkonsky أمرا بإسناد انتاج باليه « سيلفيا Sylvia » لـ « ديليب Delibes » اليه ، ولكن عجرفة وتكبر دياجيليف تسببت في ظهور أعدائه ، فتراجع النبيل عن تكليفه بانتاج الباليه المذكور ، وثار دياجيليف وامتنع أصدقاؤه عن العمل ، وتسببت الازمة في طرد دياجيليف من روسيا بتهمة أنه ضعيف وهش . وطبقت عليه أحكام المادة رقم ٣ من القانون السائد في ذلك الوقت . والغريب في ذلك الحكم أن هذه المادة كانت تطبق على المخالفات الجسيمة في المحكمة العسكرية . لذلك تحير الناس في السبب الحقيقي لهذه العقوبة .

(سمح لدياجيليف دخول بلاده بعد ذلك ، وطلب منه أن يعود الى بروسيا للعمل وزيرا للفنون عام ١٩١٦ ولكنه رفض بعد تردد من أجل أن يظل حرا لنشر الفن في أوروبا وامريكا .)

وتسبب طرد دياجيليف من البلاد في انطلاقة الى عالم انتاج الباليه في أوروبا والقارة الامريكية ، ناقلا أسس وقواعد الباليه الروسي اليها . وانطبق عليه القول « رب ضارة نافعة » . ذلك أنه قام بجولات الى ايطاليا وفرنسا وألمانيا مكتشفا فنون هذه البلاد مفكرا ومتعمقا في اتجاهاتها . ومنذ عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٠٦ ، اهتم باقامة المعارض الفنية العظيمة والتوسع في كتابة النقد الفني .

وفي عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ شغل باقامة معرض للفن الروسي في باريس ، وتقديم أربع حفلات موسيقية من أجل نشر الموسيقى الروسية في أوروبا . وفي هذه الحفلات عزف رخمانينوف R achmaninov أعماله بنفسه ، كما قدمت فيها أعظم الأعمال الروسية التي قدمها مشاهير القادة ، أو عزفها المؤلفون أنفسهم . وبالرغم من هذا الجهد لم يكن دياجيليف راضيا عن نفسه ، وقرر أن يتجه الى تقديم فن الأوبرا في العام التالي (١٩٠٨) .

وقد أراد أن يقدم أوبرا « سادكو Sadko » في باريس عام ١٩٠٨ ، ولكنه لم يعرضها بسبب المشاكل التي حدثت بينه وبين مؤلفها ريمسكي كورساكوف الذي رفض التغييرات والاختصارات التي أدخلها عليها دياجيليف . وقال ريمسكي في هذا الصدد : « ان الجمهور الفرنسي الذي يذهب الى الاوبرا لارتداء فاخر الثياب ، ولا يصمد على الاستماع طوال أربع ساعات ، لا يحق له ان يفرض ذوقه علي ، واذا رأى وزير المالية والدوق فلاديمير ضرورة اختصار الاوبرا من أجل تخفيض الميزانية ، فان لي وجهة نظري الفنية التي أعتز بها ، ولا يوجد داع لعرض أوبرا « سادكو » في ظل هذه الظروف » لذلك صرف دياجيليف النظر عن عرض هذه الاوبرا ، ووجه اهتمامه الى الأوبرا الرائعة « بوريس جودونوف Boris Godunov » منتقيا نسختها الاصلية لمؤلفها موسورجسكي Mussovgsky وليست النسخة التي أعدها اوركستراليا ريمسكي كورساكوف ، حتى يتجنب اعتراضاته مثلما حدث في أوبرا « سادكو » .

وقد عرضت أوبرا « بوريس جودونوف » لأول مرة عام ١٨٧٤ بالمسرح الامبراطوري في روسيا . وبعد ان مات موسورجسكي عام ١٨٨١ ، وقد أعاد ريمسكي كورساكوف كتابتها بتوزيع أوركسترالي جديد) .

عرض دياجيليف هذه الاوبرا الهائلة عام ١٩٠٨ ـ بعد أن مرت به صعوبات كادت تؤدي الى استحالة عرضها ـ بمجموعة كبيرة من الفنانين الاوبراليين والراقصين الروس . وتحققت أمنية دياجيليف وعرض الفن والاسلوب الاوبرالي الروسي في أوروبا ، وكان ذلك نتيجة العمل الشاق والمضني الذي قام به هو ومعاونوه .

راودت دياجيليف فكرة احضار الباليه الروسي الامبراطوري الى باريس منذ عام ١٩٠٦ ، ولكن هذا العمل تطلب منه مجهودات ومساهمات اشترك فيها مجموعة العاملين بهذا الفن . فقد بدأ فوكين Fokine في وضع قالب جديد للتصميم امتاز بأنه اكثر تعبيرا عن ما قدم من قبل . واشترك بنوا مع فوكين في تصميم باليه طالما تشوق دياجيليف لعرضه في باريس . واستحضر دياجيليف أعظم راقصين من فرقة الباليه الامبراطوري الروسي ، هما الراقصة بافلوفا Pavlova والراقص نيجنسكي Nijinsky اللذين فاق أداؤهما أروع ما قدم في فن الباليه من قبل على الاطلاق .

بدأ دياجيليف في تنفيذ فكرة نقل الباليه الروسي في خريف عام ١٩٠٨ حيث بدأ يخطط لاقامة موسم للأوبرا والباليه في باريس . وكان يعلم أنه لن يستطيع تقديم موسم للباليه بدون أوبرا . فقد كانت الاوبرا هي الغذاء الروحي الذي لا غنى عنه للوجدان الثقافي الباريسي . وحتى يتمكن دياجيليف من الحصول على الموافقة لادخال الباليه مع موسم الأوبرا ، أسهب في وصفه لمقدرة فناني الباليه الامبراطوري . وامتدح الراقصة بافلوفا Pavlova لأستروك Astruc قائلا : « إنها أعظم راقصة باليه في العالم ، متفوقة في كل من الكلاسيكية والوصفية التعبيرية ـ إنها لا ترقص وانما تسبح . » وقال له أيضا ان الفرنسيين لديهم راقصات ممتازات ، ولكن ليست لديهم فكرة عن امكانيات الراقصين الرجال . فالراقصون في موسكو نجوم لامعة ، وأشار الى جدارة « فلاسلاف نيجنسكي » كما حدثه عن عبقرية فوكين كراقص ومصمم . اقتنع أستروك بما قاله دياجيليف وأمر باستحضار الفنانين الثلاثة الى باريس في العام التالي (١٩٠٩) . وسافر دياجيليف في ربيع عام ١٩٠٨ الى روسيا ليتعاقد مع بعض الفنانين ، واتيحت له فرصة تقييم عبقرية فوكين وقوة تعبير نيجنسكي المتعددة الجوانب عندما شاهد عرضين للباليه بمسرح « ماريتسكي Mariinsky » الاول كان عن كليو باترا ملكة مصر باسم « ليلة مصر Une Nuit d' Egypt » قامت فيه بافلوفا بدور درامي رائع .

والباليه الآخر هو الباليه الشهير « شوبينيانا Chopiniana » وهو عبارة عن مجموعة فالسات ومازوركات لشوبان أعدها للأوركسترا شترافينسكي ، ويتاز بأسلوب الباليه الرومنتيكي الأصيل ، وقام فيه الراقص نيجنسكي بدور شاعري حالم . وبعد العرض قابل دياجيليف الراقص الماهر وتعاقد معه على أدوار يقوم بها في باريس .

أما فوكين فقد تعرف عليه دياجيليف عن طريق صديقه بنوا ، وقام فوكين بدوره في اتمام التعارف بين دياجيليف والمتعهد الفني سرجي جريجوريف Sergei Grigoriev الذي خدم وساند دياجيليف كمخرج لعروض الباليه ومشرف عليها في أوروبا بعد ذلك .

وهكذا اكتملت المجموعة التي قدمت أجمل وأروع عروض الباليه في العالم أجمع . حيث تعاون معهم أيضا نوفيل Nuvel كمسئول عن الناحية الموسيقية ، وبنوا وباكست Bakst وسرقيو كرسامين . وقام بالنقد الفني فاليرين سفتلوف Valerien Svetlov الشهير باسم « السيد باروت Mr. Parrot وكان الجنرال بيزوبرازوفا Bezobrazova الاب الروحي لباليه دياجيليف .

وأعطت هذه المجموعة الاتجاه الصحيح للحركة الثورية في الباليه الروسي . وكان كل من الدكتور سرجي بوتكين Dr. Sergei Botkine والامير ارجوتيسكي دولجوروكوف A. Dolgorukov من الرجال الذين ساعدوا مجموعة فناني الباليه اجتماعيا وماليا .

اشتهر دياجيليف بإدخال الابتكارات الفنية العظيمة على أعمال الباليه مثل « ليلة مصر » عن قصة كليو باترة ، حيث بحث عن موسيقى ذات طابع شرقي طابقت تماما خطوات تصميم الرقصات . أما افتتاحية أوبرا « أوريستا Oresteia » للمؤلف تانييف Taneyev فقد اختارها بدلا من افتتاحية المؤلف ارينسكي Arensky وانتقى من أوبرا « مالادا Malada » لريمسكي كورساكوف موسيقى المزمار لرقصة حلم كليوباترا ، كما انتقى موسيقى لجلينكا Glinka وجلازونوف Glazinov وموسورجسكي .

أما بالنسبة لخاتمة الباليه فلم يرض عنها دياجيليف لأنها كانت خاتمة سعيدة ، فبدلا من عودة آمون الى الحياة تعبيرا عن حبه لتاهور ، اراده دياجيليف أن يبقى ميتا ولا يعود للحياة مرة أخرى ، وأن ترقص تاهور حول جسده رقصة درامية معبرة . وطلب من تشريبنين Tcherepnine أن يكتب موسيقى جديدة لهذه الرقصة .

وكان عرض باليه « كليوباترا » حدثا ضخما في باريس . كذلك كان لباليه « السلفيد Les Sylphides » وباليه « فراشات أرميد Le Pavillon D' Armide » نفس الأثر . وأحرز موسم الاوبرا والباليه الروسي عموما نجاحا فائقا في مدينة الفنون ... باريس .

وفي عام ١٩١٠ ، أراد أن يقدم نوعا جديدا من الباليه في باريس قوامه الفولكلور الروسي . كما أراد أن يبدأ في تقديم أعمال فنية جديدة تتمثل في لوحات موسيقية رائعة للمؤلفين رافيل Ravel وسترافنسكي وديبوسي Debussy . ان أمكن . وأ... دياجيليف « الطائر الناري Fire Bird » وبراسات باسم « الشرقيون Les Orientales » ليبدأ بها . وكانت رغبة بنوا تتمثل في عرض الباليه الروسي الشعبي في اطار الاساطير السحرية ، لذلك اهتم فوكين بقراءة مجموعة من الحكايات الشعبية وجمع عناصرها . وقبل أن يكمل رواية « الطائر الناري » عدل وأعاد كتابة نصوصها مرات ومرات . وعندما وافق عليها دياجيليف قال له « أريد باليها روسيا لم يسبق له مثيل من قبل » وطلب من سترافنسكي أن يؤلف موسيقى « الطائر الناري » . وألح سترافنسكي في عمل تغييرات أساسية في النص ، ووافق فوكين على استبدال رقصات التتويج التي ينتهي بها الباليه تلبية لرغبة سترافنسكي . وكان ذلك من الاثنين خروجا عن القاعدة السابقة في كتابة الباليه ، حيث كانت تؤلف الموسيقى بناء على أوامر محددة من المصمم تحدد خطوات الرقصات ، مثلما فعل بتيبا Petipa مع تشايكوفسكي في باليه « الجمال النائم The sleeping Beauty » على سبيل المثال . ولكن طريقة تعاون فوكين مع سترافنسكي في باليه « الطائر الناري » دلت على اندماج تام في كتابة الباليه ، فقد كان سترافنسكي يصاحب الراقص مرتجلا الهارمونيات والالوان المناسبة للالحان من أجل اختيار التعبير المناسب لشخصية ودور الراقص . وكان سترافنسكي يدون بعد ذلك ما كان قد عزفه من قبل مما كان له أثر

كبير في صدق التعبير الموسيقي . وهكذا نرى من خلال « الطائر الناري » شيئا من التجديدات التي أدخلها دياجيليف وأعوانه في فن الباليه . فقد كان الابتكار والتجديد هو هدف دياجيليف في كل ما قدم في موسم الباليه والاوبرا الروسية عام ١٩١٠ بمدينة باريس . وتخلل هذا الموسم وامتد الى مدينة برلين بالمانيا حيث قدمت المجموعة باليه « كرنفال Carnaval » للمؤلف الالماني شومان ضمن البرنامج ، وقد أعجب الالمان بهذا الباليه . وكان غالبية الراقصين المشتركين فيه من فرقة الباليه الامبراطوري الروسي .

وكان قد انضم الى مجموعة الراقصين في هذا الموسم الراقصة الحديثة التخرج ليديا لوبوخوفا Lydia Lopukhova . اما الراقصة كارسافينا Karsavina ، فقد اشتركت بالادوار الرئيسية في كل من باليه جيزيل Giselle » ، وباليه « الطائر الناري » اللذين عرضا بعد عودة المجموعة من برلين الى باريس مرة أخرى . حيث قدموا موسما للباليه فقط بواقع ثلاثة عروض اسبوعيا بالتبادل مع موسم أوبرا المتروبوليتان والمغني العالمي الشهير التينور كاروزو Caruso .

أراد دياجيليف أن يكون فرقته الخاصة المتفرغة للعروض التي يقدمها ويقوم بتمويلها وتحمل مسئوليتها بنفسه . وقد بدأ هذا المشروع عام ١٩١١ ولكنه وجد مشقة في تكوين هذه الفرقة . اذ كان يجب على الراقصين أن يقدموا استقالاتهم من وظائفهم السابقة وبشرط أن يزيد دياجيليف من رواتبهم . وقد تحقق له ذلك .. ولكن قابلته مشكلة كبيرة وهي : كيف يستحوذ على الراقص الاول نيجنسكي الذي كان متعاقدا مع الباليه الامبراطوري الروسي ؟ وأدرك أن رغبته لن تتحقق الا اذا طرد ونفى نيجنسكي من روسيا . ولما كان دياجيليف لا يترك مجالا لأية صعوبة تقف حائلا بينه وبين النجاح والتقدم فقد دبر خطة استطاع من خلالها أن يتسبب في طرد نيجنسكي من البلاد . وذلك بأن أوصى باكست بتصميم ثياب فاضحة له في عرض للباليه بمدينة سانت بيترسبورج . وتسبب الزي المشين في طرده من البلاد . حيث أبدت الامبراطورة دوفاجر Dowager استياءها بعد العرض . وتحقق غرض دياجيليف ووقع عقدا مع نيجنسكي كراقص أول في فرقته الخاصة .

كان هدف دياجيليف هو التطوير والتجديد في فن الباليه لانه رأى ان اللون المحلي للفن لابد وأن ينتهي ، وأن احياء الماضي ، من خلال باليهات تتناول مصر القديمة ، أو الاغريق ، او الفرس ، أو الروس القدامى ، لم يعد له مكان في عالم الفن الجديد الذي يوشك أن يولد في أوائل القرن العشرين . فقد اكتسب الفن الحديث المعاصر مكانة عالية من خلال التداول والانتشار . ورأى دياجيليف ان التعبير عن الماضي بأسلوب مبتكر وجديد أفضل بكثير من مجرد استعادته ، وأنه ليس بالضرورة أن يقدم الباليه الحكايات الخرافية . لذلك ، شعر بالروح الجديدة التي استحوذت على أفكار الفنانين في كل أوروبا ، فكانت بمثابة الدفعة للبحث عن الجديد في الفن . واستوجب ذلك ادخال بعض التغييرات في المهام التي يقوم بها أعضاء الفرقة . وأهم

هذه التغييرات هي أنه أراد أن يسند تصميم الرقصات الى الراقص الاول نيجنسكي تدريجيا .. وقرر أن يقوم فوكين بابتكار باليهات جديدة الى أن يستعد الشاب نيجنسكي لتصميم الرقصات . وقد سبب هذا الأمر خلافات كبيرة في المجموعة . ولكن مرة أخرى تحقق لدياجيليف ما يريد . وكان نيجنسكي يسائل نفسه كيف يبتكر منهاجا جديدا للحركة لكل من الأسلوب الكلاسيكي والمعبر في اطار تصميم متين ؟ وكيف يبتكر لغة جديدة لفن الباليه ؟ وأين هي نقطة البداية ؟ وتخوف الفنان الخلاق .. الشاب ابن القرن العشرين من هذه المسئولية الكبيرة .

صمم نيجنسكي أول باليه في موسم ربيع عام ١٩١٢ في باريس بعنوان باليه « أمسية الفون L'pre's - midi d'un Faune » واحتاج هذا الباليه الى تدريبات طويلة ، لأن الراقصين وجدوا صعوبة في تطويع أجسامهم لتتلاءم مع أداء الحركة الجديدة التي ابتكرها نيجنسكي . فقد اعتاد هؤلاء الراقصون على أداء خطواتهم تبعا للضغوط الموسيقية ، ولكنهم شعروا بالضياع عندما طلب منهم أن يتحركوا بحرية خلال وعبر الدوامات الصوتية التأثيرية للمؤلف الموسيقي ديبوسي . فقد كان نيجنسكي في تصميمه معبرا أكثر منه محددا لخطوات الرقص ، وذلك تمشيا مع روح التأثيرية التي سادت هذا الفن الذي اتسم بالضبابية والبعد عن التحديد في الحركة والشكل والمضمون على السواء .

منذ ذلك الحين بدأ فوكين يتحدر في مجال التصميم وقد تأكد هذا في خطاب كتبه المؤلف الموسيقي الروسي سترافنسكي الى والدته في روسيا .

انسحب فوكين من الفرقة بعد موسم باريس عام ١٩١٢ ، وكان على نيجنسكي أن يصمم باليهات عام ١٩١٣ التي من بينها الباليه الصعب « طقوس الربيع Rite of Spring » .

قدمت الفرقة العديد من العروض ، وكان أفرادها يعملون بشكل متواصل . وكانت عروض مونت كارلو بشرى ببداية جيدة للفرقة . كما قدمت في روما باليه « فراشات أربيد » ، وأوبرا « الامير ايجور Prince Igor » ... وغيرها . وقد حضر هذه العروض ملك ايطاليا وقوبلت الفرقة بحماس كبير من الجمهور .. هذا بالرغم من وجود بعض النقائص التقنية مما اضطر بنوا الى المساعدة في تغيير اللوحات والمناظر . اما دياجيليف ، فكان أسفل خشبة المسرح لضبط الاضاءة . قدمت الفرقة أكثر من موسم في انجلترا منها عروض بالكوفنت جاردن قدمت فيها « كرنفال » للمؤلف الالماني شومان ، و « فراشات أربيد » ، وأوبرا « الامبراطور » . وليس هناك شك في أن الانجليز قد أعجبوا بروعة الباليه الروسي كما أعجب الفرنسيون من قبل .

وفي يناير عام ١٩١٢ ، انتقلت الفرقة الى مدينة برلين حيث وقع دياجيليف عقدا مع مدير فرقة ألماني لتقديم ١٥ عرضا خلال السنة ، وكان قائد هذه العروض القائد الفرنسي بيير مونتو Pierre Monteux .

كان دياجيليف مشغولا أثناء هذه العروض بالتخطيط لوسم في روسيا . وقدمت الفرقة عروضا في مسرح رويال بمدينة درسدن . بعد ذلك قدمت الفرقة في مسرح الأوبرا الملكية في العاصمة النمسوية فينا ، وبعد الانتهاء منها تطلب دياجيليف بعض الراحة . وكانت الراحة بالنسبة له تعني ارتياد المناطق التي تستحق المشاهدة وخاصة معارض الرسم ، وأيضا التخطيط لاعمال جديدة . وكان يرى أن الرسم ، واللوحات الجيدة توحي له بأفكار لباليهات جديدة . وبعد انتهاء فترة راحته ، فكر في انجاز باليه على موسيقى ديبوس « الاعياد « Fetes » . وفي فينا ، تحدث دياجيليف الى هوجو فون هوفمانستال Hugo von Hofmannsthal (كاتب نصوص أوبرات ريتشارد شتراوس) حول امكانية كتابة شتراوس لموسيقى باليه لنيجنسكي .

أما في باريس ، فقد قدمت الفرقة خمسة مواسم خلال عام ١٩١٢ وذلك لأن دياجيليف أحب هذه المدينة ورأى فيها خير مكان يقدر فنه .

ويعتبر عام ١٩١٣ عاما حاسما وعصيبا بالنسبة لفرقة دياجيليف ، وان كانت بدايته ناجحة للغاية حيث غزت الفرقة جميع عواصم أوروبا الرئيسية ما عدا مدينة مدريد ، وأثينا ، وأمستردام ، وقدمت العروض الناجحة ، وحققت انتصارات فنية لاعمال جديدة . ولكن كثرة العمل والاحداث التي مر بها دياجيليف وفرقته كانت سببا في ظهور المتاعب والقلق .

فقد كانت الفرقة في قمة نجاحها حتى شهر مارس عام ١٩١٣ حيث قدمت موسما في مسرح الكوفنت جاردن بانجلترا كتب عنه المؤلف الفرنسي ديبوس برقية الى الراقص نيجنسكي يقول « أشكرك يا عزيزي نيجنسكي على عبقريتك الفذة في أدائك لايقاع مقطوعتي (الأرابيسك Arabespues) فقد منحتها بأدائك سحرا وجمالا جديدين . وأرجو أن تقدم لشعب انجلترا التهاني على فهمهم اياها » .

توجهت الفرقة بعد انتهاء هذا الموسم الى ليون ومنها الى مونت كارلو ولم يكن دياجيليف معايشا لعروضها ، فقد كان في روسيا لانجاز بعض الاعمال ؛ حيث أبرم تعاقدا مع بوريس رومانوف Boris Romanov كراقص ومصمم ، لأنه رأى أن نيجنسكي بطيء في انجاز الأعمال المطلوبة منه ، ولو أنه كان بارعا في تصمياته .. فقد جمع بين نضج التفكير العقلي وحيوية

انفعالات الشباب ولم يوجد قبله في التاريخ أستاذ للباليه في الرابعة والعشرين من العمر . وعندما كان نيجنسكي يصمم باليهاته لم يضع في اعتباره ضرورة اظهار مهارة الراقصين أو ابراز خطوات الرقص الرائعة ، حتى لو كان هو نفس الشخص الذي سيرقصها وينفذ تصميمها ، بل كان يرسم في ذهنه خطا أساسيا يتخلل العمل الفني يهدف التعبير عن جوهرقصة البالية .

قدمت الفرقة في ابريل عام ١٩١٣ عروضا في باريس أهم ما قدم فيها تصميم جديد لنيجنسكي هو « لو Feux » .

توجهت الفرقة ومعها دياجيليف الى لندن وقدمت في شهر يونية عروضا للأوبرا والباليه ، منها أوبرا « بوريس جودونوف Boris Godunov » وتراجيدية « سالومي » وقابلت دياجيليف متاعب جسيمة بسبب اختصاره لباليه « الطقوس Le Sacre » للمؤلف سترافنسكي ، فقد صدر عن الاوركسترا أداء فاضح (والمعروف ان هذا العمل هو أعقد المؤلفات الموسيقية على الاطلاق في الأداء الاوركسترالي والقيادة الموسيقية على السواء) . وفقد القائد مونتو Monteux شعوره وامتنع الراقصون عن أداء التدريبات وخاطب نيجنسكي دياجيليف بكل احتقار، ومنذ ذلك الحين ظهرت بوادر سوء العلاقة بينهما ، التي اعتبرها البعض غير سوية وغير طبيعية .

فكر دياجيليف بعد هذه المصاعب في مشروع جديد للأعمال التي ستقدمها الفرقة عام ١٩١٤ وهو أن تقدم باليه على موسيقى عصر الباروك لعرض تمثيلية أكاديمية في أسلوب جديد من الأداء الراقص، وطلب دياجيليف من المؤلف الموسيقى التأثيري الفرنسي رافيل Ravel أن يقوم بتوزيع أعمال الايطالي سكارلاتي Scarlatti توزيعا اوركستراليا ، ولكن رافيل لم يستجب لطلبه ، فتحول تفكير دياجيليف نحو مؤلفات جون سباستيان باخ Bavh (١٦٨٥ - ١٧٥٠) ونفذت الفرقة بعض رقصات من متتاليات Suites باخ وأعمال البريلود والفوج Preludes L Fugues بمصاحبة البيانو وقد بذل بنوا جهده في اظهار فخامة احتفالات قصور عصر الروكوكو الشهير بالزخارف المبالغة في الشكل واللحن .

طلب دياجيليف الراحة لنفسه بعد كل ذلك العناء فلم يصاحب الفرقة الى أمريكا الجنوبية . ومن الأحداث الهامة التي تمت أثناء الرحلة زواج نيجنسكي من الراقصة المجرية المبتدئة رومولا بولسكي Romola Pulszky . وتقبل دياجيليف هذا الخبر باستياء كبير لأنه كان يرغب في الاستحواذ على نيجنسكي لشخصه ولعروض فرقته ، ورأى أن هذه الزيجة ستتسبب في فقدان الفرقة لبريقها وجمالها الرئيسيين متأكدا من أنه من الصعوبة بمكان أن يترك زوج شاب زوجته الجميلة من أجل التفرغ لعروض الفرقة . في ذلك الوقت كان دياجيليف في مدينة فيينا حيث قابل هوجوفون هوفمانستال واتفق معه على اعداد « يوسف Joseph » على أن يقوم فوكين بتصميم رقصاتها بدلا من نيجنسكي ، وذلك بعد أن كان دياجيليف قد قرر ايقاف نيجنسكي عن التصميم والاحتفاظ به كراقص فقط واعادة فوكين كمصمم للفرقة .

كان الموسم في أمريكا الجنوبية حافلا بالعروض التي قدمتها الفرقة عام ١٩١٤ في بيونس ايريس ومونت فيديو ، وريودي جانيرو ، بعدها عادت الفرقة الى باريس .

وسافر دياجيليف الى روسيا للبحث عن راقص جديد لفرقته وحضر عروض باليه البولشوي Bolshoi ولاحظ راقصا يمتاز بجمال الوجه والحضور المسرحي وان لم يظهر براعة كبيرة في الرقص . كان هذا الراقص المبتدىء في الثامنة عشرة من عمره واسمه ماسين (اصبح له شأن كبير بعد ذلك في الفرقة) .

عندما قابل دياجيليف الراقص الشاب وامتدح أداءه في باليه « بحيرة البجع » لتشايكوفسكي ، عرض أن يتعاقد معه ، ولم تكن للشاب أية رغبة في هذا العمل لما كان قد سمعه عن أخلاق دياجيليف وسلوكه الشائن حيال راقصيه . ولكنه لم يستطع أن يرفض له طلبا بسبب شخصية دياجيليف القوية . وبعد موسم حافل للفرقة في بلدان ألمانيا المختلفة سافر دياجيليف الى مدينة سانت بيترسبورج (ليننجراد حاليا) ليتعاقد مع أعضاء جدد لفرقته .. وكانت هذه هي آخر زيارة له في روسيا .

الباليه والبانتوميم (الايماء الصامت) : عندما قدم نوفيل المؤلف الموسيقي الشاب بروكوفيف Prokofiev الى دياجيليف واستمع الاخير الى مؤلفاته ، فكر دياجيليف في امكانية تأليف بروكوفيف الباليه في الوقت الذي بدأ فيه المؤلف كتابة أوبرا « المقامر The Gambler » ولكن دياجيليف قال له « انتهى عصر الاوبرا وأصبح الذوق المصري يتطلب باليه وبانتوميم » وطلب كتابة موسيقى لرواية خرافية روسية ، او لمادة عن عصور ما قبل التاريخ . كما طلب من نوفيل ان يقدم بروكوفيف الى الشاعر الروسي سرجي جورودتسكي Serge Gorodetsky من أجل ذلك .

كافح دياجيليف كفاحا مريرا لابقاء فرقته عاملة في سنين الحرب ، في عام ١٩١٤ عندما كان بصدد توقيع عقد للعمل في أميركا لم تكن لديه فرقة ، فقد تفرق أهم العاملين فيها بسبب الحرب حيث عاد فوكين الى سانت بيترسبورج كأستاذ للباليه أثناء الحرب ، واعتبر نيجنسكي في المجر (موطن زوجته) عدوا أجنبيا مراقبا ، أما ماسين فكان لا يزال معصما مبتدئا وسافر بصحبة دياجيليف الى ايطاليا وأمضيا معا اجازة طويلة طوال عام ١٩١٤ .

كان هذا العام (١٩١٤) بمثابة التخطيط والعمل من أجل احياء فرقته مرة أخرى ، وهو أيضا عام لتثقيف ماسين وتعليمه كيف يتعمق في مفهوم الفن . وقد حاول دياجيليف خلال الشهور أغسطس ، وسبتمبر ، واكتوبر أن يحضر نيجنسكي من المجر وسترافنسكي من سويسرا ، ولكنه لم يفلح في ذلك لأسباب سياسية ومالية ، ومن الطريف أنه أبرق لسترافنسكي يطلب منه

كتابة باليه جديد « العرس Les Noce » قائلا : « لا تقلق بخصوص العرس » وكان هذا القول من سمات دياجيليف الذي لا يعرف اليأس . فبالرغم من الحرب وأحداثها صمم دياجيليف على تحدي هذه الأحوال وابقاء الفن حيا كدليل على استمرار البشرية في زمن تناسى فيه البشر إنسانيتهم . كتب بروكوفييف في بداية عام ١٩١٥ موسيقى لباليه « ألا ولولي Ala and Lolli » وقد عزف منها أجزاء للمؤلف توفيل في مدينة بتروجراد ، فأرسل توفيل خطابا الى دياجليف قال فيه : « بروكوفييف يكتب موسيقى مشوشة لموضوع مشوش » . وعلى أثر ذلك استضاف دياجيليف المؤلف الشاب بروكوفييف في روما في ربيع نفس العام لأنه أراد أن يحكم على موسيقاه بنفسه . سافر دياجيليف في مايو عام ١٩١٥ الى مدينة لوزان بسويسرا ، وهناك قابل سترافنسكي واستمع أخيرا الى موسيقى باليه « العرس » وانهمرت دموعه تأثرا بها ، وقال أن هذه الموسيقى ستتحول الى أجمل وأنقى عمل فني روسي ستقدمه الفرقة ، وقد كان محقا في قوله .

كان من الطبيعي أن يعيد دياجيليف تكوين فرقته بالفنانين الروس العاملين في روسيا في ذلك الوقت ، وقد ساعدته الظروف في الحصول على قائد بارع أحضره له سترافنسكي عن طريق صداقاته بالسويسريين وهو أرنست أنسرميه Ernest Ansermet . وأرسل جريجوريف الى روسيا لمقابلة الفنانين وارسالهم اليه في لوزان . وقابل جريجوريف الراقصة الرائدة في باليه البولشوي ماكليتسوفا Makletsova » ووافقت على العمل بفرقة دياجيليف وكانت اول من وصل الى لوزان من الفنانين تبعها بعد ذلك تشرنيشيفا Tchernicheva (زوجة جريجوريف فيما بعد) ، وبولم Bolm ، وجافريلوف Gavrilov ، ووجوه جديدة أخرى من مدينة بتروجراد ومن ثم بدأ النشاط والتدريبات ، وكان على أعضاء الفرقة الصعود يوميا الى تل بمدينةلوزان ليقوموا بتدريباتهم في صالة تستعمل سوقا في الصباح ، من أجل الاستعداد للسفر الى أمريكا .

قدمت الفرقة عروضا في روما وباريس في أواخر عام ١٩١٥ ، وكانت عروض باريس تحت رعاية الملكة الكسندرا حيث كانت ممثلة اتحاد الصليب الاحمر البريطاني وكان ايراد العروض مخصصا لمساعدات هذا الاتحاد . وكان تقديم وتشجيع هذه العروض الرائعة في زمن الحرب يعتبر شيئا نادرا . اعتزمت الفرقة الرحيل في ديسمبر عام ١٩١٥ أثناء زحف الجيوش الالمانية والنمساوية والبلغارية على جبال الألب وأثناء هجوم الجيش الروسي على بولندا .

وبدأت جولة الفرقة بمدينة بوسطون ، التي كانت عاصمة المثقفين لقربها من جامعة هارفارد ، وقدمت عروضها المحدودة على مسرح الاوبرا . وقد علم الميجور كيرلي Curley من البوليس الامريكي أن الروس لا يسترون من أجسامهم سوى اطراف أصابع أرجلهم . وكان رأي دياجيليف في الجمهور الامريكي أنه جمهور متحير في فهم هذا الفن الجديد وأنه ينظر الى الباليه كعروض تسلية بعد اجهاد العمل الصباحي . بالرغم من أن تخطيط عروض الفرقة كان جيدا حيث قدمت في خلال شهرين عروضا في كثير من المدن الامريكية الرئيسية . كانت الفرقة تنتقل بجميع معداتها بواسطة قطارات خاصة مما جعل هذه

الجولة من أشق جولات الفرقة . انتقلت الفرقة الى مدينة شيكاغو ومكثت بها وقتا طويلا حيث قدمت عروضها على مسرح الجامعة . وفي العرض الاول كان جمهور الحاضرين يتحدثون بأصوات عالية أثناء العزف الموسيقي ، وكانت المثلجات تقدم أثناء العرض .

توجهت الفرقة بعد ذلك الى مدينة كنساس وتجمع أربعة آلاف متفرج يرغبون مشاهدة العرض النهاري الذي كان محددا له أن يبدأ في الثانية والنصف ظهرا ، لكن العرض لم يبدأ سوى الساعة السادسة والنصف مساء لأن دياجيليف أصر على ذلك رغبة منه في حماية فرقته (لأن المبلغ المتفق عليه في التعاقد خفض من قبل الامريكيين) . وقد توجه اليه الكابتن أنيس Ennis من البوليس الامريكي وقال له « هذه مدينة متمسكة بالأخلاق ونحن لن نقف لانتظار لا أخلاقيات رفيعة المستوى ، إبدأ عرضك حالا . نحن لا نريد أن نخلق المتاعب ، واذا كان العرض فاضحا فسوف أنزل الستار فورا » . وعندما رفع الستار وبدأ العرض قوبلت الفرقة بتصفيق الجمهور الحاد بعد كل فقرة ، وفي اليوم التالي نشرت الصحف في صفحاتها الاولى (الباليه الروسي يستهوي مدينة كنساس) وفي واشنطن العاصمة قدمت الفرقة عروضها لصالح جرحى الجنود الروس . وحضر العروض الرئيس الامريكي والسيدة ويلسون وقدموا التهاني للراقصين على المسرح .

ودعا دياجيليف تيينسكي للاشتراك في عروض الفرقة على مسرح أوبرا متروبوليتان بمدينة نيويورك في أول ابريل عام ١٩١٦ ، وكان تيينسكي قد قضى عام ١٩١٥ كراقص في مدينة بودابست ، وفي يناير عام ١٩١٦ سافر الى مدينة فينا تلبية لدعوة دياجيليف للاشتراك مع فرقته في باليه « طيف الوردة Le Spectre Dela Rose » . وجاء العرض مثيرا ، فقد كانت أنظار واهتمامات المشاهدين والصحافة مركزة عليه لأن اسمه يعني بالنسبة للامريكيين أكثر من أفراد الفرقة مجتمعين . وعندما قام بدور البطولة في باليه « بتروشكا Petruchka » ، نال ترحيب وحماس المشاهدين بالرغم من أن نقد الصحف عنه كان لاذعا .. فقد كتب عنه أنه مخنث لأنه كان يرقص على أطراف أصابع قدميه مثل الراقصات ، وكان يرتدي ثيابا لها فتحة واسعة حول الرقبة ، كما كانت له مرونة ذراعي المرأة . وبالرغم من ذلك لم تنكر عليه الصحف حقه بالثناء والمديح ، فقد كتب عنه أيضا أنه فنان عظيم ، بل أعظم من كل الراقصين المعاصرين له ، وأن حركاته متدفقة وتؤدى بدون أي صعوبة ، ومتلاحقة في ترابط وتناسق وتوافق عضلي نادر ، وهو أيضا خفيف الحركة لدرجة أنه عندما يقفز كان يبدو طائرا في الهواء . وقد قال عنه منافسه ماسين أن كل ايماءة منه تعبر عن أرق الانفعالات واعقدها تركيبا . وأنه كان يرعش ذراعيه بسرعة مذهلة تحاكي سرعة ذبذبات الطائر الطنان في باليه « الطائر الازرق » .

ثم تلقى دياجيليف دعوة من ملك اسبانيا ألفونسو لتقديم عروض في بلاده ، وسافرت الفرقة في مايو عام ١٩١٦ وقدمت عروضها الرائعة التي شاهدها الرسام بيكاسو لأول مرة .. وقابل دياجيليف واتفقا على التعاون الفني وكان نتاج هذا التعاون تحف فنية رائعة سيرد ذكرها فيما بعد .

افتتح الباليه عرضه الأول في مدينة مدريد بحضور الملك ألفونسو والملكة فيكتوريا أوجينيا . ومنذ ذلك الحين أصبح الملك راعيا مخلصا للفرقة ، وواظب على حضور جميع العروض هو والملكة . وطلب الملك من سترافنسكي أن يؤلف باليه اسباني وفكر الزملاء في نوعية موسيقى المناسبة لهذا الباليه . واستقر الرأي على اختيار موسيقى « بافان Pavane » للمؤلف الموسيقي الفرنسي فوريه Faure . سافرت الفرقة الى سان سباستيان لتقديم عروضها في مسرح الجالا بناء على طلب الملك . وهناك وضع الفنانون اللمسات الاخيرة لباليه فوريه الذي عرض تحت اسم « لاس مينيناس Las Meninas » . وبعد واحد من العروض ، استضاف الملك أعضاء الفرقة في قصره ودار بينه وبين دياجيليف حديث طريف .. فقد سأل دياجيليف :

« الآن . ماذا تعمل في الفرقة ؟ أنت لا تقود الفرقة ، لا ترقص ، لا تعزف البيانو . فماذا تفعل ؟ » فأجابه دياجيليف قائلا « يا صاحب الجلالة ، أنا مثلك ... لا أعمل ، ولا أفعل شيئا ، لكني أساس ولا غنى عني » .

قدمت الفرقة في موسم اسبانيا الكثير من العروض الناجحة منها باليه « شهرزاد » وباليه « شمس الليل Solei de nuit » وباليه « كرنفال » . وسافرت الفرقة في سبتمبر عام ١٩١٦ مرة أخرى الى أمريكا لتقديم عروضها على مسرح المتروبوليتان ومن أهم أحداث هذا الموسم أن الفرقة كانت تحت اشراف نيجنسكي . فلم يصحبها دياجيليف الى أمريكا . وحل بهم القائد الموسيقي الفرنسي مونتو ، الذي سرحه الجيش الفرنسي من أجل قيادة الفرقة في ذلك الوقت .

صمم نيجنسكي باليها جديدا للمؤلف الموسيقي النمساوي ريتشارد شتراوس وهو باليه « المرث Till » وقد قال عنه النقاد انه الباليه اليدوي « صنع يد » وهو يحاكي العقل والعاطفة .. وقد رفع هذا الباليه من شأن نيجنسكي وجعل منه الراقص الاعظم بدون منازع ، وكذلك المصمم النابغة لفرقة دياجيليف . وفي ديسمبر من نفس العام انتقلت الفرقة الى كاليفورنيا لممارسة نشاطها . وفي نفس الوقت كانت أوروبا تمر بأحداث الحرب الرهيبة ، فقد بدأت المجاعة في ألمانيا وتغيب ملايين الجنود الروس بدون تصريح . وفي ١٩١٦/١٢/٣٠ ، قتل الدوق ديمتري والأمير يوسوبوف « راسبوتين » .

سافر دياجيليف في يناير عام ١٩١٧ الى باريس وقابل كلا من بيكاسو وكوكتو Cocteau وساتي Satie ، وتأكد بعد هذه المقابلات من مقدرته على تقديم التحفة الرائعة « استعراض Parade » فقد تعهد بيكاسو بعمل اللازم من حيث الاعداد والستائر والملابس ... الخ بالتعاون مع القائد ، والمؤلف كوكتو ، وساتي . وفي نفس العام (١٩١٧) قدمت الفرقة عروضا في ايطاليا وباريس واسبانيا . والجدير بالذكر أن نيجنسكي لم يرقص الا في اسبانيا لأنه رفض أن يرقص فنه أمام شعوب دول الحلفاء .

وسافرت الفرقة الى أمريكا الجنوبية ، وقدمت ١٢ عرضا في مدينة ريو ، و ٣٢ عرضا في مدينة بيونس ايرس .. واعتزل نيجنسكي الرقص أمام الجمهور بعد الانتهاء من هذه العروض ، وبذلك انتهى تاريخه مع فرقة دياجيليف .

منذ بداية عام ١٩١٨ ضعفت امكانيات الفرقة حتى تلاشت ، فقد اضطر دياجيليف الى تخفيض أجور العاملين فيها الى النصف أحيانا . وفي شتاء هذا العام عانت الفرقة من الصقيع ومن الجوع ، وأصابها اليأس والملل لاول مرة منذ وقوع الحرب .

شعر دياجيليف بثقل وضخامة مسئوليته في هذا الموقف العصيب ، وبذل المساعي الضخمة حتى تم الاتفاق على تقديم عروض للفرقة في اسبانيا بأجور زهيدة ، الا أن هذا العرض كان بداية الخلاص للفرقة من هذا اليأس وبداية على طريق النشاط والعمل مرة أخرى .

وقع لينين في ذلك الوقت (١٩١٨/٣/٣) معاهدة سلام بينه وبين القوى المركزية ، وفقدت روسيا بولندا ، وتخلت عن فنلندة وأوكرانيا .. وغيرها من البلاد ، وكان دياجيليف وغالبية الراقصين كالغرباء بلا موطن ، وحتى بعد انتهاء موسم اسبانيا القصير ، كانت الفرقة بلا مال .

وأدرك دياجيليف أنه استنفذ جميع الوسائل في الحفاظ على كيان فرقته فاضطر الى تحرير الراقصين من التزاماتهم تجاه الفرقة بعد أن يئس من استمرارها في العمل . ولكن بيكاسو أمد دياجيليف بالأمل وشجعه على التحمل والكفاح . ففكر دياجيليف أن ينتقل بفرقته الى لندن والتغلب على صعوبة الانتقال من اسبانيا الى انجلترا عن طريق فرنسا أثناء الحرب خاصة وأن بعض الراقصين كانوا قد تركوا الفرقة لأن دياجيليف لم يستطع أن يدفع أجورهم ، ووجد المعونة من ملك اسبانيا الذي قدم مساعداته مع سفيري انجلترا وفرنسا حتى تستطيع الفرقة القيام بهذه الرحلة .

كانت مدينة لندن متعطشة لمشاهدة عروض فرقة دياجيليف بالرغم من غياب نيجنسكي عنها ، اما ماسين فقد كان معروفا كراقص في لندن ، وكان عليه أن يثبت وجوده كمصمم للرقصات .

وبحلول عام ١٩١٩ الذي اعتبر عام الحظ والهناء بالنسبة لدياجيليف فقد جاءت سعادة وعم هدوء فخلاله قدم تحفتين من أكبر أعماله وأكثرها شهرة ، في كل من لندن وباريس .

كان العمل الأول هو باليه « البوتيك الخيالي La Boutique Fanta » وهو العمل الذي رسم ديكوراته باكست باسم « العرائس Die Puppen Fee » ثم أعيدت التصميمات بواسطة أندريه ديران Andre Derain بالاسم الجديد ، بعد أن رغب دياجيليف في تغييرها لأنها لم ترض خياله الطموح .. وغضب باكست لذلك ، وقاطع دياجيليف سنتين ولكن دياجيليف عرف بقوله المأثور « في المسرح لا يوجد أصدقاء » أما موسيقى هذا الباليه فكانت مختارة من مؤلفات الايطالي روسيني Rossini .

والباليه الثاني هو باليه « تريكون Le Tricone » كتب موسيقاه « ايما نويل دي فالا E. De Falla وصمم بيكاسو ديكوراته ونظرا لأن كلاهما اسباني فقد غلب عليه الطابع الاسباني الأصيل . أما مصمم الرقصات فهو ماسين الذي صمم اكثر من مائة باليه في حياته ولكن هذا الباليه كان العمل الذي ظل دائما فخورا به وجعله يثق بأنه يستطيع مستقبلا أن يستغني عن مساعدات دياجيليف في مجال التصميم .

قدم دياجيليف هذين العملين في لندن مع أعمال أخرى سبق عرضها من قبل ، وقد حققت مواسم لندن الثلاث انتصارات ونجاحات منقطعة النظير .

أما في فرنسا فقد قدم موسما أضاف فيه الى أعمال الفرقة باليها جديدا عام ١٩٢٠ هو « بولشينللا Pulcinella » وهو عبارة عن موسيقى لبرجوليزي Pergolesi (١٧١٠ ـ ١٧٣٦) كتب لها سترافنسكي توزيعا أوركستراليا ضخما تضمن آلات المطارب والآلات الايقاعية ، وكان ذلك منه مخالفة لاسلوب التوزيع الاوركسترالي في عصر برجوليزي . وقد دهش دياجيليف عندما استمع اليه ولكنه اقتنع به ، وكان رده على النقاد قولا له معناه العميق « أنتم تحترمون القديم ، أما أنا فأحبه » .

تأثر دياجيليف بحدث هام اهتز له كيانه .. فقد بلغه في نفس هذا العام أن الراقص العظيم نيجنسكي قد أصيب بالجنون ، وقيل أنه يسير على أربع ، وذكر دياجيليف أنه كان يتوقع له هذا المصير وان كان أصابه مبكرا .

أما الحدث الآخر والهام فنيا الذي أثر على دياجيليف بالفعل ، فكان خلافه مع ماسين المصمم والراقص الأول وعماد الفرقة في ذلك الوقت . كانت الخلافات في الرأي حول مواضيع فنية أولا ، ثم بسبب زواج ماسين بالراقصة الانجليزية سافينا Savina وتحديه لدياجيليف ثانيا .

وعلى أثر ذلك طرده دياجيليف من الفرقة وقال : « لا يوجد انسان لا يمكن استبداله ، فسوف أجد شخصا آخر . »

دياجيليف يجد رفيقا لأفكاره : قد يتسبب الحظ أو الحاجة الملحة في حدوث المعجزات احيانا . ففي الوقت الذي ترك ماسين فيه دياجيليف ظهر في حياته شاب روسي في السابعة عشرة من عمره . هو بوريس كوخنو Boris Kochno . فقد اختاره دياجيليف رفيقا ذكيا وسكرتيرا . وأصبح بعد ذلك شريكا فنيا مقربا لدياجيليف عالما بأسرار تفكيره وخبايا عقله .

وكان كوخنو قد غادر روسيا عام ١٩٢٠ راغبا الهجرة من بلاده والاقامة في باريس وهناك تعرف على دياجيليف ولازمه منذ ذلك الحين .

كان دياجيليف في أشد الحاجة الى مصمم باليه لأن كوخنو لم يعمل أبدا في هذا المجال . ولأنه كان عليه أن يقدم عملين جديدين على الاقل للموسم التالي في باريس . ووقع اختياره على باليه « شو Chout » من موسيقى بروكوفيف . وباليه « الجمال النائم The Sleeping Beauty » من موسيقى تشايكوفسكي . فكر دياجيليف في بنوا لتصميم هذين الباليهين . ولكن الأخير كان في روسيا ويصعب خروجه منها . فاستعان بباكست وقدم العملين في موسم باريس مع أعمال سبق عرضها من قبل باخراج جديد لأن الراقصين لم يتمكنوا من استعادة التصميات السابقة التي قام بعملها نيجنسكي وماسين . وقد هاجم النقاد ضعف الاخراج رغم أنهم امتدحوا الديكور والموسيقى . أما بالنسبة لباليه الجمال النائم الذي أسماه دياجيليف الاميرة النائمة . كانت ديكورات باكست وبراعته هي السبب الرئيسي في نجاح الباليه . وبلغت درجة النقد هذه ذروتها لدرجة انه كتب في بعض الصحف أن الباليه الروسي يتجه نحو نهايته . وقد عانى دياجيليف من قلة الموارد المالية وصعوبة تنفيذ موسم باريس ثم موسم لندن . وأصيب بانهيار عصبي نتيجة لما بذله من جهد جسماني وعصبي وروحي في سبيل انجاح هذين الموسمين . وكان دياجيليف يدرك تماما أن نقطة الضعف توجد في تصميم الرقصات ولكن الحظ كان حليفه عندما تركت برونيسلافا نيجنسكا Bronislava Nijinska (شقيقة نيجنسكي) روسيا قاصدة مدينة فينا بالنمسا حيث قابلها المؤلف الموسيقي نوفيل وعرض عليها الانضمام الى الفرقة وكتب الى دياجيليف قائلا أن نيجنسكا هي المصممة التي يحتاجها حاليا . وبالفعل قامت نيجنسكا بأعمال التصميم منذ ذلك الحين (١٩٢١ ـ ١٩٢٢) .

عندما عرض باليه « الأميرة النائمة » في لندن لأول مرة رأى قليل من المشاهدين أنه أعظم باليه كلاسيكي وقالوا عنه انه زهرة الرقص الاكاديمي . وقال البعض الأخر أن الباليه الروسي فقد مجده . وانتهى هذا الموسم في فبراير عام ١٩٢٢ نهاية شاقة على دياجيليف وفرقته ولم يكن دياجيليف يملك المال الذي يدفع منه اقامته في انجلترا .

وحدثت في الفرقة تغييرات كثيرة طوال عام ١٩٢٢ وحتى نهاية عام ١٩٢٤ . فقد بدأت هذه الفترة بملاحقة الدائنين لدياجيليف الذي كان ينكر وجوده كلما طلبوا مقابلته . وترك كبار الراقصين الفرقة للالتحاق بفرقة ماسين . وبالرغم من ذلك .

أدلى دياجيليف في فبراير عام ١٩٢٢ بتصريح لمراسلي الصحف ، قال انه سعيد بنجاح باليه « الأميرة النائمة » في لندن ويأمل أن يعرضه في باريس . ولكنه طوال عام ١٩٢٢ لم يقدم شيئا وان كان قد طلب من نيجنسكا أن تقوم بتصميم باليه « العرس Les Noce » الذي عقد عليه آمالا عريضة . وصممت نيجنسكا الباليه المذكور في ثلاثة أسابيع فقط ، وأعجب دياجيليف بالتصميم ، ولكن سترافنسكي لم يكمل التوزيع الاوركسترالي الا في ابريل عام ١٩٢٣ .

أثبتت نيجنسكا براعتها في التصميم والرقص على السواء وان كانت طبيعتها حيدة متشبثة برأيها مما أوجد خلافات بينها وبين مونتو أولا ، ثم بينها وبين سترافنسكي فيما بعد ، وعلى أثر ذلك تركت الفرقة عام ١٩٢٤ بعد أن صممت العديد من الاعمال الجديدة .

ومن أهم أحداث هذه الفترة أن دياجيليف شاهد أنطون دولين Anton Dolin وهو يرقص فأعجب به وتعاقد معه في الحال على أدوار رئيسية بالفرقة . كان دولين في العشرين من عمره في ذلك الوقت ، متقد الذكاء ، وأراد دياجيليف ان يجعل منه صديقا لولا ظهور سرجي ليفار Sergei Lifar الذي سعى باستمرار للتقرب الى دياجيليف بالرغم من أنه كان في السابعة عشرة من عمره . وقد نجح ليفار في تقربه لدياجيليف الذي تعهده بالدراسة والتثقيف . واتخذ منه صديقا روحيا ، وعرض عليه أكبر الفرص في مجال التصميم على الأخص .. وأصبح لليفار شأن كبير في عالم الباليه بعد ذلك .

بدأ عمل الفرقة ونشاطها مرة أخرى في نهاية عام ١٩٢٣ : ولا شك أن لحالة دياجيليف النفسية سببا في ذلك ، لأنه كان سعيدا بصداقة ليفار ومطمئنا لحصوله على راقصين جدد من المهاجرين الروس ، ومنتصرا على ماسين الذي رجاه أن ينضم اليه مع كامل أعضاء فرقته وبأي أجر يحدده دياجيليف ، ولكنه رفض هذا العرض انتقاما منه لماسين وانتصارا عليه . وقد خطط دياجيليف مواسم للأوبرا والباليه قدم فيها أربع أوبرات وثلاث باليهات جديدة بالاضافة للتجديدات المستمرة التي أدخلها على العروض التي قدمت من قبل .

كان أول هذه المواسم في مونت كارلو ، وقدمت فيه عروضا للأوبرا والباليه تضمنت أوبرا « كليوباترة » ، وأوبرا « الاميرة ايجور » وغيرها .. ومن الباليهات باليه « الدواء Le Me decin » وهو مقتبس من مسرحية موليير ، ووضع موسيقاه المؤلف الفرنسي جونو Gounod وميزتها الحانه الجذابة وعربلاته الموسيقية الرقيقة والتوزيع الاوركسترالي الحي ، وقدم دياجيليف باليهات أخرى بالاضافة الى ذلك . وكان من أسباب نجاح هذا الموسم ، براعة نيجنسكا في كل من التصميم والرقص ، وجاذبية دولين واتقانه لأداء أدواره ، وتصميم بيكاسو الرائع للديكورات والبرامج ، وجمال الاخراج والملابس . وانتهى هذا الموسم بانتهاء عام ١٩٢٣ .

عرضت الفرقة بعد ذلك موسما في باريس عام ١٩٢٤ ، ومن باريس انتقلت الى اسبانيا ، ثم هولندة ، وبعد ذلك عادت مرة أخرى الى باريس .. ومن أهم الاعمال التي قدمت في ذلك العام باليه « القطار الازرق Le Train bleu » وهو باليه حديث كتب نصه كوكتو ، وهو عرض راقص للجمباز والرياضة والسباحة ، وكتب هذا الباليه خصيصا لاظهار براعة الراقص دولين . قدمت الفرقة عروضا أخرى في مدن ألمانيا الرئيسية ، واستقبلت في لندن بترحاب كبير حيث حازت العروض على اعجاب المشاهدين . ومجد النقاد الفرقة في الصحف الانجليزية المختلفة .

قدمت الفرقة في عام ١٩٢٥ عروضا رائعة بلندن ، ثم في مونت كارلو حيث مكثت بها وقتا طويلا . وكانت الفرقة في قمة مجدها .. واستقبل المشاهدون عروض لندن بتحية عبروا عنها بتصفيق استمر أكثر من ٢٠ دقيقة في بعض الأحيان .. وبالرغم من ذلك لم يمر هذا العام بدون مشاكل داخلية في الفرقة سببها تمرد بعض الراقصين على أجورهم ومطالبتهم بزيادتها ورفض دياجيليف لمطالبهم مما ترتب عليه تركهم الفرقة الى فرق أخرى .

ظهرت أيضا بعض الخلافات بين دولين (الراقص الاول في ذلك الوقت) وبين دياجيليف سببها اختلاف وجهات النظر الفنية . كما ظهرت خلافات بين دولين وأستاذ الباليه الكبير « تشيكيتي Cecchetti » الذي يرجع له الفضل في تعليم كبار راقصي الفرقة منذ نشأتها وحتى نهايتها . وكان سبب ذلك الخلاف هو طريقة أداء الراقص الانجليزي دولين التي اختلفت عن أسلوب تشيكيتي ، بالرغم من أن فرقة دياجيليف هي الفرقة التي أوصلت دولين الى المجد والشهرة في هذا الفن . وفي نفس العام ، بدأ الراقص ليفار يغزو أدوار البطولة واشتد التنافس بينه وبين دولين بالرغم من أن كلا منهما كان يقدر الأخر ويعترف بامكانياته الفنية الهائلة ، الا أن ليفار كان محببا الى قلب دياجيليف لرقته ووسامته ومقدرته الفنية العالية ، فاهتم به وجعل منه نجما لامعا .

استعان دياجيليف هذا العام بالراقص والمصمم السابق ماسين ، وبذلك أصبح لديه ثلاثة من أعمدة الفرقة في وقت واحد ، الى جانب تعاقده مع الراقصة البارعة نيكيتينا Nikitina والراقصة دانيلوفا Danilova .

ومن أهم الباليهات الجديدة التي قدمت في مواسم عامي ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ باليه « نسيم وأزهار Ze'phyr et Flore » اشترك في تكوينه كل من كوخنو ودوكيلسكي Dukelsky وماسين ، وباليه « Les Matelots » . اشترك في عمله ايضا كوخنو وماسين مع أوريك Auric . وقام بدور البطولة في كل من العملين الراقص ليفار ، مما أثار الغضب والحقد في قلب دولين . الذي كان عليه ان يرقص في باليه « القطار الازرق » دوره الصعب « أكروبات » .. وهدد بعدم قيامه بهذا الدور ، وطلب أجرا مضاعفا .. وأراد دياجيليف أن يعاقبه فأرسل ليفار ليتعلم الاكروبات ولكنه فشل . وعندما علم دولين بذلك هدد بترك الفرقة ولكن دياجيلف اضطر الى التوسل اليه حتى استقر الحال . وكانت هذه العروض من أروع ما قدمته الفرقة في لندن ، ومونت كارلو ، وأيضا في باريس وغيرها من مدن أوروبا .

وفي عام ١٩٢٧ ، قدم دياجيليف عملين شيقين للغاية يتميزان بوجود الخيال في تصميمها ومضمون نصوصهما ، وكانت حركات الراقصين جديدة وغريبة على فن الباليه . الأول كان باليه « القط » La Chatte الذي كتب موسيقاه المؤلف الناشئ (في ذلك الوقت) سوجي Sauguet الذي اكتشفه دياجيليف . وليزت موسيقى هذا الباليه بجو غامض تطلب مصمم ديكورها أفكار حديثة بعيدا عن الديكور الكلاسيكي أو المركب التكوين (أسلوب بيكاسو) . وقد كانت ديكورات المصمم كريستيان بيرار Christian Be'rard منسجمة تماما مع موسيقى ونصوص كوختو . أما تصميم بالانكين للرقصات ، فكان قوامه اظهار المشاعر والانفعالات من خلال حركات جسمانية معبرة .

أما الباليه الثاني فهو « الرقص الآلي » Le Pas D'arcier ، كتب موسيقاه بروكوفييف وصمم ديكوراته الرسام ياكولوف Yakulov وقد عملا معا في تلاؤم تام . وقد أثار هذا الباليه اشمئزاز أصدقاء دياجيليف القدامى أمثال بنوا ، وقالوا عنه أنه تنكر للحكم الروسي القديم وعبث بصوتياً بالحكم الجديد ، وافتتن بالفن الثوري الذي قوامه عالم جديد ، أساسه الحرية والمساواة والأخوة .

توقع دياجيليف ثورة من أعوان روسيا البيضاء بعد أول عرض لهذا الباليه ، ولكنه قوبل بتحية المشاهدين ، وإن تخللها بعض أصوات مواء القطط استهزاء . والجديد في هذا الباليه هو عرض الراقصين لحياة المصانع وحركات العمال والآلات . ويهدف دياجيليف بذلك الى تمجيد العمال واظهار عصر الآلة . وكان دياجيليف في ذلك سابقا لعصره . فلم تظهر هذه البادرة الا بعد سنة كاملة من عرض الباليه ، وذلك في الفيلم التأثيري « متروبوليس Meuroplis » الذي أحدث ضجة في عالم السينما وان اختلف عن الباليه في أنه لم يمجد العمال وانما حولهم الى آلات ميكانيكية .

قدم دياجيليف عروض عام ١٩٢٧ في مونت كارلو ولندن وباريس .. وغيرها ، وكان دائما يقدم راقصين جددا من أجل إثراء العروض .. وفي نفس العام قدم الراقصة الموهوبة سبسيفا Spessiva التي كونت مع ليفار ثنائيا رائعا ، فأعاد بذلك مجد الثنائي السابق « بافلوفا ونيجنسكي » عندما حققا نجاحا ساحقا في باريس .

كان اهتمام دياجيليف بالراقص ليفار بالغا فقد جعل منه مثقفا ومنظما ومعلما . وطلب من المصمم بالانكين أن يبتكر له أسلوبا خاصا به استمر عليه ليفار وتقدم به وأثناه بعد موت دياجيليف ، وعرف فيما بعد بمدرسة ليفار . كان ليفار بالرغم من المساعدات العظيمة التي قدمها له دياجيليف يتقاضى أجرا بصفة منتظمة من الفرقة . أما كوختو فلم يتقاض أجرا مطلقا ، وتكفل دياجيليف بملبسه واقامته .

هناك شك كبير في أن دياجيليف كان يفصل نفقاته الخاصة عن ميزانية الفرقة ، والمعروف أنه لم يتقاض أجرا من الفرقة .. وان كان يحيا في أعلى مستوى معيشي ، وبالرغم من المكاسب التي حققتها الفرقة فقد كانت تعوزها النقود في بعض الأحيان ، وقال ليفار أن السبب في ذلك هو جنون دياجيليف باقتناء الكتب ولوحات الرسم الثمينة ، وأن مقتنياته يمكن أن تكون متحفا كاملا . وبالفعل فاننا نجد بعضها الآن في متاحف أوروبا .

باليه أخير وحب أخير : شعر دياجيليف في عام ١٩٢٩ بوحدة الرجل المسن . ولكن القدر جاءه بشاب في السادسة عشرة من عمره يدعى ايجور ماركيفيتش **Igor Markevitch** كان موسيقيا ناشئا في ذلك الوقت . وقد أعجب به دياجيليف وأخذ على عاتقه مهمة تثقيفه وتعليمه أسرار الموسيقى ، وقام معه برحلات في مدن ألمانيا من أجل الاستماع الى موسيقى وأوبرات فاجنر وموتسارت ، بالرغم من أن دياجيليف كان في حالة مرض شديد ، واعتقد أن بعده عن أصدقائه القدامى سيبعد عنه المرض والاحساس بالكبر ، وأن صداقته لماركيفيتش ستعيد اليه أيام الشباب ومرحه .

ولم يكن دياجيليف في الواقع وحيدا بسبب حفاظه على فرقته وعمله الدائم في التخطيط لمستقبلها حتى آخر أيام حياته . وكان آخر ما تأثر به فنيا هو حبه الكبير لفاجنر ، وموتسارت ، وكان يبكي متأثرا بهذا الفن الخالد كلما استمع الى موسيقاهم .

حضر دياجيليف عرض الفرقة في ١٩٢٩/٧/١ ، وكان آخر عرض يحضره ، وقدم التهاني الى جميع أعضاء الفرقة على خشبة المسرح وقال « أود أن أقبلكم جميعكم » ، وودعهم الى فراش المرض .

قام كل من كوخنو وليفار بتمريض دياجيليف باخلاص ومحبة . ولم يغمض لهما جفن تعاطفا منهما مع المريض الثائر نفسيا . وفي صباح ١٩٢٩/٨/١٧ تحدث دياجيليف الى بوريس كوخنو حديثا مرحا مليئا بالأمل في غرفته المشمسة . تحدث عن الفن وعظمة فاجنر وعن اعتزازه بتعليم ماركيفيتش وغيره من الشباب أسرار الفن .

ولم يجد دياجيليف سبيلا الى النوم في هذا اليوم حيث اشتد عليه المرض ، وثارت نفسه ولكن بعد ساعات قليلة من النوم أفاق وكان هادئا ، وتحدث عن المستقبل ، وتمنى الراحة .. وفي نفس اليوم ١٩٢٩/٨/١٨ ارتفعت حرارته الى أن وصلت الى ٤١ درجة ، وكان الرجل القوي يحترق ولكنه أدى صلاته وهدأت أنفاسه .. ثم انقطعت وعلى وجنتيه دمعة كبيرة .

● ● ●

أخيرا وبعد هذا التلخيص الذي حرصت فيه على ذكر غالبية الأحداث الهامة في حياة الرجل العظيم ، وكذلك بعض أقواله النادرة ، وأقوال بعض كبار الفنانين ، وبعض البرقيات والرسائل الهامة ، فهناك بعض الجوانب في شخصية دياجيليف لا نقرأها في سطور وانما تتضح لنا فيما وراء السطور منها :

دياجيليف انسانا .. عندما قبل ساق جثة تشايكوفسكي بعد موته بالكوليرا غير آبه بالتقاطه عدوى المرض ، مقدرا لعبقرية الفنان الراحل ومعربا عن حبه له .

دياجيليف أ ـنا .. عندما قال أن سوء حظ الفن يرجع الى أن كل فنان ينسب الابتكار فيه الى نفسه بعكس اختراع الآلة التي لا يمكن ان تنسب الا الى مخترعها الحقيقي . وبالرغم من أن دياجيليف أدخل على فن الباليه ابتكارات وتطويرات طوال ٢٥ عاما الا أنه صرح بأن الباليه الكلاسيكي لم يكن ابدا الباليه الروسي ، وان مولده كان في فرنسا ، ونموه في ايطاليا . أما روسيا فقد حفظته وصانته .

دياجيليف المعوق نفسيا وعاطفيا .. مكافحا ليجعل جماهير البشر أسوياء من خلال تأثير فنه عليهم .. فقد سخر حياته لخدمة هذا الفن ، وقدم عددا كبيرا لا يصدقه عقل من عروض الباليه .

وختاما ... فاني أوصي كل من يعشق الفن أو يمارسه أو يتصل به بطريقة أو بأخرى أن يقرأ الكتاب كاملا حتى يستمتع به ويستفيد منه كما فعلت . أما هذا العرض الذي أضعه بين أيديكم ، فهو ليس سوى انعكاس شامل لتعليقات على مواقف ، وايضاحات لأخرى ، واخفاء لروايات قد يراها البعض خادشة للحياء ، مع أنها تصور عالما آخر من التقاليد والمشاعر التي قد يرقى اليها ندرة من البشر .. وابراز لاحداث وأقوال أرى أنها خالدة مؤثرة في تاريخ الفن ووجدان البشر .

***

ترجمات

العلاقة بين الموسيقى والشعر

ترجمة من الفرنسية : سونيا نجا

تأليف : درية فهمي

ان الوظيفة الحسية والوجدانية للموسيقى واضحة بينة ، وليس بغريب أنها تعبر عن انفعالات داخلية ما دامت هذه الانفعالات ذاتها هي سبب نشأتها وبعثها . وقد هدفت الموسيقى دوما الى الافصاح عن بعض الاحاسيس وايقاظ البعض الآخر . ومن ثم اهتم الموسيقيون دائما بالبحث عن النبرة الصادقة وعن صدى نبضات القلب .

غير أن للموسيقى ميزة خفية اكثر غموضا من إثارة الوجدان ، وهي القدرة على خلق صور ، وهذه خاصية يتصف بها عادة الادب الذي يفسر ويحلق . وكذا الفنون التشكيلية التي تجسد الاشياء . هذه الاشياء الموصوفة بالكلمات أو المجسدة بالرسم والنحت تستدعي الى مخيلتنا أشياء أخرى لصيقة بها ، وهذا رائع وعجيب في حد ذاته . ولكن أن يتم كل ذلك بتلك القوى الخفية للصوت بدون أن يخط سطرا ، وبدون أن تستعمل كلمة (فالحديث هنا عن الموسيقى الآلية) ان يصبح ممكنا خلق صور جديدة ، وبعث صور أخرى مندثرة بكل ما يصيب ذلك من أحلام وأفكار متعلقة بها . كل هذا يشكل أمرا غامضا قد يعود تفسيره الى علم النفس وعلم الفيسيولوجيا . ولنتفق اذن أنه اذا كانت الموسيقى الآلية البحتة ـ أي التي لا يعضدها الصوت والكلمة ـ هي خليقة بوصف أو اثارة فقد تصبح أكثر اقناعا واكثر اثارة للمشاعر اذا ما تبارت معها المعاني اللفظية ، والمراد منها أن تلقي ضوءا على الصورة الدرامية وتبرزها بألوان واضحة ودقيقة . وقد تتبلور أهمية الكلمة ، وربما كان لها هنا المقام الاول ، عندما يؤول لها توجيه مختلف الاحاسيس والانفعالات التي يستجيب لها المستمع وقد يخضع لها . وما أن يتضح معنى الكلمة في ذهن المستمع حتى تكون الموسيقى قد تشبعت به بدورها مكملة ، مؤكدة ، ومبرزة ـ بأساليبها الخاصة والتي تستقل بها ـ معنى الكلمة ، وأحيانا تقوم الموسيقى بتعديل المعنى بين خفض أو افاضة أو إسهاب أو عزت الكلمة والجو الدرامي .

لكن ماذا يحدث لو أنه لم يكن هنالك توافق مطلق بين هذه الموسيقى والكلمة التي التزمت بها ؟ اذا كانت هذه الكلمة بالكيفية التي قيلت بها قد تغير معناها

فسوف تبدو الموسيقى المصاحبة لها وكأنها على غير صلة . وبهذا ينعدم التأليف بين عنصري الاحساس مما يجعله مبلبلا ، أو يقضي عليه نهائيا . ولا يغيب عنا أنه في الميلودي الغنائية يقوم المغني بدور في غاية الاهمية يحتم عليه أن يطوع نطقه بأمانة مطلقة لمتطلبات النغم والكلمة معا . وليس ضروريا أن نعود بذاكرتنا الى زمن Minn Sanger [1] لتفسير معنى كلمة (lied) الليدة . فالليدة قد وجدت دوما وبأشكال مختلفة تباينت تبعا لظروف كل عصر . وهي تفترض مقدما وجود الشعر ومن ثم فهي مرتبطة بالأدب . وقد انفرد العصر الروماني في القرن التاسع عشر بالمجرة بظروف ملائمة لانتشار الليدة كطراز من الفن الرفيع . وبما ان العهد الكلاسيكي لم يكن يعير الغناء الا اهتماما عابرا ، فكان ان جذب شكل الليدة الشاعر الرومانتيكي ، يصب فيه ما يترع به وجدانه من مفاجآت الذات أو « الأنا » .

وقد وجد فن الذاتية في هذا الشكل الجديد ضالته المنشودة والموصل المباشر للشخصية والمفسر لما يختلجها . وهذا لا يعني ان الموسيقيين في العصر الرومانتيكي قد تصدت لهم أحداث أعمق أثرا منها في أي جيل آخر . وان هذه الاحداث قد وجدت طريقها الى فنهم .

بل ان المسلم به أن حدة الأحداث الخاصة وقوتها واحدة ومتعادلة عند الانسان في كل الازمان . فالعنصر المتغير ليس هو حدة الحدث ، وانما الاهمية التي سيختص بها في الخلق الفني . وقد تكون متميزة لونا وموضوعا . وقد تختلف في أدق تفاصيلها بين شاعر وآخر من شعراء الرومانتيكية .

وقد عرف عن فناني ذلك العهد الآنذاك أنهم لا يميلون الى الدقة الطبيعية ، Berlioz ولا الى الشكل المتفتح العواطف كما نجده عند Lizt فهم أكثر برجوازية ، وهم يبحثون عن الالفة والاحلام ونعيم الحياة الأسرية . وهذا يفسر تفضيلهم للشكل الصغير المحدود المخطوط .

وحين يتطلب الأمر الاستعانة بالاوركسترا فهذا الاخير لا يتطلع الى السلطة ولا الى القوة المنفخة وانما الى الالوان الهادئة الرقيقة . ان الرومانتيكية الالمانية تتجنب ألوان الاساليب الطنانة التي تعرك او تثير العواطف ، وتلجأ الى احلال الرقة المحببة والتفكير الحالم محلها . وهي بذلك تتأمل دخائلها وتهدهد أحلامها .

ومن الطبيعي ان يصبح الغناء الفردي لا يتطلب البناء الشكلي أبلغ الاساليب تعبيرا عن الفكر الرومانتيكي ، حيث يبلغ هذا الاسلوب أوج وقمة خصوبته . وهذا بفضل الليدة أكثر الصيغات الموسيقية بساطة وتلقائية ويسرا ، وتوافق مختلف أنواع الشعر الرفيع . وقد قال فولتير : أول شرط هو توافق عنصري الاسلوب والموضوع حتى يصلا معا الى الذروة . » ويعني آخر دراسة العلاقة بين الموضوع والمؤلف الموسيقي ، كيف يتراءى له أو بالأحرى كيف يحسه ـ . ولنأخذ على سبيل المثال أساتذة الليدة الالمانية : « شوبرت » ، و « شومان » [2] محاولين بذلك دراسة كيف استطاعا التعبير عن « الدموع » في بعض مجموعات الليدة الخاصة بها .

(١) شاعر جوال ، وبخاصة في المانيا .

(٢) شوبرت (١٧٩٧ ـ ١٨٢٨) ، شومان (١٨١٠ ـ ١٨٥٦) .

وهدفنا من ذلك هو تبيان أنه على الرغم من اختلاف سريرتها وطباعها التي أملت عليها التعبير بأسلوب فني مختلف فانه تجمعها سمة مشتركة ، وهي أن أسلوبها هو النتاج الفوري لانفعالاتها وحساسيتها .

موضوع « الدموع » قد يبدو عاديا ، تافها ، بل وباليا ، غير أننا نعيش على الكثير من العاديات الانسانية والموضوعات التقليدية : الحب ، الندم ، الجمال ، الموت .... لا شيء أكثر عمومية ولكنها أعماق الانسان ، ولم يكن كل من شوبرت وشومان يخجلان من فرحها ولا من حزنها . فقد كانا يأتمنان العالم عليها من غير بادرة شك واحدة في أن هذه الرغبة الجارفة في البوح بالعواطف يمكن أن تثير الاستهجان . فالليدة اذن وليدة احساس بالافصاح والافاضة بخلجات القلب وليست وليدة رغبة لبناء فني ينظمه العقل .

وهكذا بقيت أحاسيس كلا الموسيقيين الكبيرين في الادب الموسيقى تعبيرا عن أكثر أحاسيس القلب بساطة . موسيقى الاسرار بما يعتمل في النفس ، فشوبرت هو انسكاب الروح ، أما شومان فهو فيض دافق من الاعترافات الغنائية . وتعزى هذه الجملة الى قائلها شومان : « يبدو أن شوبرت كان سيحيل الادب الالماني تدريجيا الى موسيقى ... في كل موضع أحس فيه انفعالا فاضت موسيقاه من نبع غزير . حتى أعمال أخيلوس(Eschyle) وكلوبستوك Klopstock أكثر الاعمال صرامة وجفافا وبعدا عن التعبير الموسيقى قد استسلمت لأنامله . كما كان يكتشف عن أعمق جوانب اغنياته Wilhelm Muller الواضحة الاسلوب ، واليسيرة المعاني . وتكون هذه الاغنيات حلقة من عشرين ليده ظهرت عام ١٩٢٣ ، وكان شوبرت قد انتقاها من ديوان يتكون من ٢٥ مقطوعة شعرية بعنوان « الطحانة الجميلة » عام ١٨١٧ .

ولو لم يكن ويلهلم موللر[٢] قد وأتاه حظ الهام شوبرت في مجموعتي أعماله لاندثر اسمه وما سمع به أحد خارج ألمانيا .

واستنادا الى النهج الجديد الذي نهجه جوته « Goethe » في بداية القرن التاسع عشر نجد أن موللر قد اهتم في « الطحانة الجميلة » باللهجة البسيطة الساذجة والاسلوب غير المتكلف ، والطابع « الانساني » في أعمق معانيه التي هي من صميم نكهة الاعمال الشعبية ، ولم يكن شوبرت في حاجة الى أكثر من ذلك سندا ودليلا على رقته وعلى قدراته في التعبير الدرامي ، ولو أن النغمة المحتونة الحزينة في « الطحانة الجميلة » تستمر هادئة وبدون تطرف . ونوجز في كلمات موضوع القصيدة :

« ترك طحان شاب طاحونته جريا وراء المغامرة ، « الطحان الاصيل يجب أن يحب الأسفار فكل ما يلمسه ينمي فيه حب الحركة ، المياه الجارية ، والعجلة التي تدور ... « سافر طحاننا وسمع في طريقه خرير المياه المتدفقة بين الصخور ، هذا الرافد سوف يقوده الى قدره الجديد . سار الطحان على حفاف الضفة المتعرجة فما لبث ان لمح طاحونة بالقرب منها منزل صغير يجذبه ، وتنم هيئته عن كرم الضيافة به . هل يطرق الباب ؟ سأل الطحان الرافد الرقراق فطمأنه مياهه الفرحة ، فتوجه الى الطاحونة ووافق مالكها على قبوله للعمل بها وكان لهذا الطحان ابنة جميلة ، راع الطحان الشاب جمالها ، ولم يجد سبيلا لجذب انظار محبوبته اليه سوى القيام بكل العمل وحده فهل يمكن أن ينال حبها ؟ الحق ان الطحانة الجميلة لم تخف مشاعرها ، ولما كان اللون الأخضر هو لونها المفضل فقد سارع العاشق الشاب باهدائها الشريط الذي كان يعلق فيه عوده . ولم يكن لفرط

---

(٢) Wilhelm Muller : Le Voyage d'Hiver La Belle Meuniere

سعادته قادرا على الغناء . غير ان الطحانة كانت مغناجا ذات دلال ، تكاد تلتهم بعينيها صيادا شابا كان يحوم حول المنطقة ويكثر من الاهتمام بها .

وفاجأها الطحان الغيور يوما ... وداعا يا أحلام السعادة .. فر الطحان المسكين لاعنا الحب ، واستغاث بالرافد ، ودعاه هذا الاخير الى اللجوء الى أحضانه ليهدهد خريره سباته الاخير . »

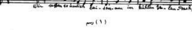
مما سبق نرى أن أبيات موللر لم تقطع في البلاغة شوطا كبيرا ، كما انها ليست فريدة في نوعها ، غير أنها بسيطة صادقة ، مؤثرة ، مطابقة بذلك شكل الليدة الالمانية الشعبية . وتشكل هذه السلسلة الشعرية مسرحية موجزة ذات جاذبية خاصة لشوبرت المولع بالطبيعة . من هذه الدراما لا نعرف مّن الشخصيات عن قرب سوى « الطحان » . أما الشخصيات الاخرى فنتخيلها من خلال ما يسرده علينا الشاب رغم أنه لا يصف أفعاله ، ويكتفي بالكشف عن أحاسيسه وبعض حالات فرحه وحزنه ، ما يجعله متفائلا ، وما يثير مخاوفه .

« فيض الدموع » هي الميلودى العاشرة في هذه السلسلة . يصور الموقف اذن أكثر أطوار الحب اكتمالا بين اثنين . غير أنه بالامعان في النص نشعر أن المأساة تقترب ، ولا تستشعر الشخصيات هذه الفاجعة بعد . ولكن شوبرت أحسها من خلال عبرات الشاب ، ومن خلال تلك القوى التي تجذبه الى الرافد . يحسها شوبرت وينقل الينا ظل المأساة التي تحلق فوقهم عن طريق تكرار ثلاثي للازمة بعد كل استعادة . وتزداد فرحة العاشق في الاغنية التالية : « خاصتي Mienne » . وهي موسيقى عذبة على درجة عالية من الرقة للتعبير عن هذه اللحظات الهائلة . بدءا من الليدة الثانية عشرة « الصمت Silence » وهي أجمل ما يحوى الديوان يتجسم هذا الاحساس بالقاسية . فالطحان يستشعرها وهو يسمع صوت النغم المنبعث من عوده الشاكي الذي يعبث النسيم بأوتاره ، ولكن سرعان ما يجتاحه شعوره بعدم المبالاة . ويتذكر الطحان الشريط الذي قبلته الفتاة فتعود النغمات هائلة ملؤها الحب والسعادة .

وفي الليلة الرابعة عشرة « الصياد » Le Chasseur يبدأ الخط الدرامي في الظهور . فهناك منافس يحاول الاطاحة بسعادة العاشق المدله ويعلم هذا الاخير أنه قد خدع وتصبح أغنياته أكثر ايلاما وألما . وتتصاعد المأساة حتى تصل الى نهاية الطحان المفجعة .

ومما سبق يتضح أن ليده « فيض الدموع » ذات مغزى نفسي خاص بين مجموعة « الطحانة الجميلة » .

ونلاحظ أن الميلودى تتبع بساطة النص الشعرى ، وتعبر عن طمأنينة ساذجة لفلاح عاشق يقص احدى لحظات حبه . وتتم بساطة التعبير عن جو ريفي عام ، فتنساب الميلودى بدون عناء في الكتابة الموسيقية في سيولة وعفوية .



(١) رسم

ترجمة الكلمات الالمانية :

(١) وجلسنا معا بحنان وموجة تحت سقف ندى .

وطبقا للقواعد الكلاسيكية التقليدية تنقسم المقطوعة الى ثلاثة أقسام ، فالجزء الاول ينتهي بالنغمة الخامسة من المقام الرئيسي ، وذلك تسهيلا لبدء الجزء الثاني الذي لا يجيء بعناصر جديدة ولكنه يغذي ويقوى فكرة سعادة الطحان وطمأنينته واستمراره في مناجاة نفسه عن سعادته .

ونلاحظ هنا تغير الايقاع الى  رسم (٢) الذي يعطي انطباعا بالاضطراب اذا ما كان الجو العام ليس جو طمأنينة قلب عاشق محب واثق أن من يحبه يبادله شعوره .

ثم يعود هذا الجزء بدوره الى النبرة الاساسية لتصل بالجزء الثالث الذي يحتفظ بنفس الطابع مستعيدا للميلودى الاول مع مراعاة اكثر للصيغة الفنية .

ونجد أنفسنا تلقائيا في جو مؤثر يمس شغاف قلوبنا ويؤكد معنى الكلمات التي تعبر نبرة القدر . ويرجع كل التأثير المحزن هنا الى تلك النغمة Sib التي كثيرا ما تتردد في الميلودى ، وذاتيا في الاتجاه التصاعدي .



(٣) رسم

ونلاحظ أيضا أن ايقاع  (٤) يجود هنا بقيمة تعبيرية جديدة ، وهو بانضمامه الى Sib يكمل الاحساس بكارثة وشيكة الوقوع .

وتستمر مصاحبة الجزء الاول في انسيابها في شبه ظلال رقيقة تفسرها معاني الكلمات ، وهي في ذلك بدون نبرة أو اصطدام أو تأخير .

---

(٣) انطلقت الدموع من عيني ، وقلبت صفحة المرآة . قالت سيأتي الانطار ... وداعا ... سأذهب الى بيتي .

ونتوقف هنا عند تفصيل أو ملحوظة قد تبدو عابرة الآن ولكنها ذات أهمية كبرى في بناء ومعنى الليدة، وهي خاصة بالـ Re ♯ في الائتلاف الاول الذي يبدو غامضا من ناحية الكيفية والصياغة وذلك نظرا لكونه عارضا في الجزء الاول ولكنه ما يلبث ان يتجسد مارا في تحويل درجة الصول في السلم الثانوى وذلك في الجزء الختامي.

ومن هنا نخلص الى أن النغمة الائتلافية mib - re ♯ ذات هدفين : التهيئة للتغير الصيغي في الجزء الختامي، وللجو المؤثر الحزين الذي يجتاحها.



(٥) رسم

وتستمر الميلودى باليد اليمنى على البيانو حتى نهاية الليدة، وتسير المصاحبة بطابعها الهادىء مما يلطف من تأثير الايقاع.

(٦) رسم



رأينا أن الرافد قد اختص بدور حساس في سير المجموعة فيؤول لليد اليسرى كي تساند في وصف خرير المياه أو هديرها في تعبيرات تتلون وتتطور حسب الموقف السيكولوجي او الدرامي وتسوق هنا الجزئين الاول والثاني حيث يدور الموضوع حول رقرقة المياه وظلال المشوقة فيها. فنجد أنها ينتهيان بهذه المازورات الثلاث التي يقوم فيها الرافد بوصف الظلال بخريره واختلاف مياهه.



(٧) رسم

ولم تكن لنجد عند مؤلف ليده آخر قدرة موسيقية اكثر ذاتية الى جانب ملكة كاملة في تجسيد العمل الادبي . ودليلنا الدامغ على ذلك هو المصاحبة في الجزء الختامي ، فالتعبير الموسيقى الهادىء يعكس روح الطمأنينة وثقة الطحان في السعادة الهادئة . ويرجع ذلك الى أنه لا شيء يتغير من الناحية الايقاعية ، ولكن أثر التلوين القاتم والتحويلات المقامية المفاجئة يخيم على الجو الهارموني ويوحي باحساس حزين مستتر رقيق .



(٨) رسم

ويقتصر هذا الاحساس علينا نحن المستمعين ، ولكن الطحان يكاد أن يطير فرحا في الجزء اللاحق : خاصتي « Minne » فكما أشرنا من قبل لا يساوره الاحساس بالحزن الا في الاغنية الثانية عشرة : الصمت « Silence » عندما تتنهد وتئن أوتار العود من لمسات النسيم . اعتبارا من هذه اللحظة تتغير النبرات . فالفلاح العاشق المخدوع يختفي مخلفا بدلا منه كائن وانسان كل العصور وكل الطبقات . فآلام الحب المتأجج واحدة ومتشابهة في كل زمان .

وعلى الرغم من بدايتها البسيطة ، تنتهي « الطحانة الجميلة » بطريقة أكثر عمقا وأعمق ألما . ومع ذلك فانه لا يجب البحث هنا عن معتقدات فلسفية أو نبرات عنيفة ، فالطحان بريء التفكير ، رقيق القلب . ولذلك تزخر هذه القصيدة بالانفعالات البسيطة الصادقة . غير أن التحليل المبين الدقيق يكشف عن ثراء متعدد الجوانب ، وقد حقق شوبرت بالاحساسات عملا رائعا رقيقا يتضح فيه الوحي والروح الشعبية في أحلى معانيها .

وتختلف أغنية « رحلة الشتاء » كلية عن أغنية الطحانة الجميلة » في أن المؤلف قد خص الصيغة الشكلية بكثير من العناية ، في حين أن الجانب الروحي قد ينقصه التصرف التلقائي والتعبير الحر الحار . وتفوق هذه الاغنية في جمالها ليس فقط كافة أعمال شوبرت ، وانما كل ما ألف في تاريخ الليدة . فمن العسير أن نجد عملا أكثر اكتمالا وكمالا .

وتمثل هذه الاغنية احدى اللوحات الكئيبة للحياة الانسانية . على مرمى البصر تختفي القرية تحت الجليد ، وتتجمد الروافد وتخمد فيها الحياة والكلمات . ويصفر الهواء على نحو مثير للرثاء والحزن ، وتنثني الاشجار العارية بين يدي العاصفة . وتنبح الكلاب وتصر طواحين الهواء . ويمر في هذا الاطار الكئيب رجل حطمته خيبة الأمل فهو يحب ولا يحب ، حياته بلا هدف . يهيم على وجهه في دليل الشتاء هاربا من المدينة التي تقطن فيها تلك التي خدعته . »

وعلى قدرما يسعدنا نغم المجموعة الاولى الذي يحمل روح الصبا والحنان ، صافية واضحة في يسر ، على قدرما تحزننا هذه بلونها القاتم الكئيب ، بجمالها الفائق والمأساوي في آن واحد ، حتى لنكاد نقول أن هذه المعاني المثقلة بالتشاؤم واليؤس تتعدى حدود الميلودي وتفوق في حدتها شاعرية المكان .

وقد نتساءل عن سر هذا الالهام الحزين لدى سوبرت . الواقع ان هذا الانفعال ، وهذا الحزن مختلفان كل الاختلاف عما تحويه اكثر أعماله من حنين حزين . وكما هو معروف أن « رحلة الشتاء » قد كتبت عام ١٨٢٧ ، اكثر الاعوام قتامة في حياة شوبرت . فصحته المعتلة كانت سببا في قلقه ، وجدير بالملاحظة ان شوبرت قد وافته منيته في العام التالي أي سنة ١٨٢٨ . ويضاف الى هذا السبب ضيق ذات اليد . فلم تكن موسيقاه تباع نظرا لما كانت تبدو عليه من ألفة وبساطة جعلت العامة يفضلون عليه ألحان روسيني (Rossini) وبهجتها السطحية وخدعة زخارفها .

ولم تثنه الفاقة عن مواصلة العمل ووجد في موسيقاه ومعتقداته الدينية ملاذا وعزاء لآلامه . وقد عرف شوبرت ساعات مراره ، باح بها في مذكراته .

« لا أحد يمكنه ادراك حزن الآخر أو فرحه ... كل منا يعتقد أنه سائر الى الآخر ولكن الحقيقة أننا نسير فقط كل الى جانب الآخر . وما أشد ألم من يدرك ذلك . اكثر ما أسعد الناس من أعمالي هي تلك التي خلقتها آلامي . »

كما كتب الى أخيه :

« أحس نفسي دوما غارقا في حزن مستمر لا أعرف له سببا . ولا تعتقد أنني غير مرح . فأنا أؤكد لك العكس في الحقيقة ليس ما يقلقني وأحاول دوما تغييره بمخيلتي هو هذا الوقت السعيد الذي يبدو فيه كل شيء محاطا بهالة الصبا . وانما اللحظة التي نعي فيها تلك الحقيقة القاتلة والمحتومة » . (٤)

وهكذا نجد أن « رحلة الشتاء » تصور بوضوح اللحظة القاتلة والرائعة التي التقت فيها نفس شوبرت البريئة والساذجة بهذه الأحاسيس العميقة ، المتأججة والمتشائمة .

واعتبارا من هذه المؤلفة نجد أن أحاسيس شوبرت قد تغيرت من حيث الشكل وانتقلت به من الطبيعة الموضوعية الى ذاتية الشاعر الذي يتأمل ويعاني ويتساءل . وتبدو هنا طبيعة عراقته كاملة بغموضها وميلها الى الاحلام وبحثها عن الفكرة العميقة . هنا يجيء شوبرت بعد بضع سنوات بمؤلفاته العظيمة للبيانو ، ومجموعاته من الليده . وقد قرأ شوبرت مسودات « رحلة الشتاء » في فراش الموت . هل نفترض أنها كانت بمثابة وصيته الفنية ؟

وبعد أن تغنى في صباه الاول بلذات الحياة ومباهجها ، واستيقظ فيه الحس الباطني لم يتحمل حتمية اذعان قلبه البريء لفيض الآلام المعنوية التي غمرته ، فمات ولم يتعد الثلاثين الا بأيام .

---

(٤) La Vie de Schubert per Landorny P. 166

وتعطي مجموعات الليند الذاتية والروحانية التي تصور التطور النفسي لشوبرت فكرة واضحة عن سر عبقريته الفني. « انغام فلسفة » ١ قد يبدو هذا التعبير مبالغا فيه بالقياس لوضع بضع سطور ميلودية بمصاحبة آلة البيانو لا غير، ولكن كم تحوي هذه السطور القليلة من تنوع لحالات النفس، من أفكار نبيلة، وأحاسيس عميقة ! وكم توحي لنا من تأملات عميقة !

يعتبر شوبرت بحق أول من استطاع أن يضع في الليند كل مأساة الحياة وبؤسها الى جانب كل جمال الطبيعة الحية المرحة المثيرة أو المليئة باليأس. وأغنيات هذه المجموعة الاربع والعشرون لا تتابع تتابعا زمنيا كما لا تضمهم وحدة حركية كما في « الطحانة الجميلة ». ولكن هذا لا ينفي وجود وحدة من نوع آخر بينهم وهي تكمن في نفسية تلك الشخصية الرقيقة المستضعفة التي تغزو القصيدة بأكملها.

وتضم الى هذه الوحدة الداخلية وحدة أخرى خارجية وهي العنوان : « رحلة الشتاء ». ففكرة السفر والارتحال تتردد في عدة قطع في هذه المجموعة :

١ ـ ليلة جميلة	٨ ـ نظرة الى الخلف	٢١ ـ الفندق الصغير

ويشكل الشتاء بتلوينه الطابع الاساسي لهذه القصيدة مما يوحي للنفس بالشعور باليأس

٣ ـ الدموع الباردة	٤ ـ الصورة الثلجية	٥ ـ الزيزفون
٦ ـ الثلوج الذائبة	٧ ـ على ضفاف النهر الثلج	٨ ـ نظرة الى الخلف
١١ ـ حلم الربيع	١٨ ـ الشتاء القاسي	٢٢ ـ الشجاعة

ونلاحظ أيضا ذلك الاحساس بالزوال والوقتية الباعث على الازعاج والضجر من الحياة وهي ذات الأحاسيس التي يحسها البطل اليائس. ويتضح هذا الاحساس من خلال تطلعه الى الراحة في تداعي النوم أو في السعادة العابرة التي يحسها في الاحلام والتي تزول باليقظة.

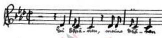
« الدموع الباردة » هي الاغنية الثالثة في « رحلة الشتاء » ويلاحظ انه طبقا لقصيدة (موللر) كان ينبغي أن تكون الصيغة الشكلية لموسيقى الليند ثلاثية. غير أن شوبرت قد رأى اجراء بعض التعديلات بتكرار نص للمقطع الاخير مفضلا الاستماع الى نفسه وهو يكرر شكواه مما جعل الليند منقسمة لجزئين فقط وقد تغير التسب مع عدم التوازن هنا. وتتميز الاغنية بتقلبات مقامية يغلب عليها عدم الاستقرار المنهجي فيتموج اللون الأساسي بين تحويلات مقامية أقل ما يقال عنها أنها قد تكون ـ مضللة بل وخادعة، اذا ما حافظت المصاحبة على الجو المقامي.

وينقسم الجزء الاول الى جملتين، فاذا تناولنا بشيء من التفصيل الجملة الأولى ذات العشرة ما زورات نجد أنها تسير على ثلاث نوتات تتآلف في نهايتها على المقام الاساسي. وقد يرى أن الاصرار على هذه النوتات الثلاث يزيد الميلودي شجنا وصدقا ورقة. ويكاد يخلو من المرارة والأسى اذا لم تخف المصاحبة الى الايقاع نبرة موجزة تبرز ايقاع الغناء الشاكي الرتيب.



(٩) رسم

وأكثر الاجزاء تعبيرا في اللبدة هو الجملة الثانية من الجزء الأول ، ويرجع ذلك الى المازورتين الآتيتين :



(١٠) رسم

اللتين تبدآن بـ « دموعي يادموعي » مع تكرار نوتة معينة عند التعبير عن الملكية « ي » ، وخاصة النغمة الزخرفية appogiature الموضوعة على نصف مقام أعلى بعض النوتات ، وهي ذات تأثير مؤلم يوحي بنحيب في الصوت . وتسير بقية الجملة بين علامات تحويل modulation أساسية وثانوية ، فجائية وعابرة ، وتتميز هذه الاخيرة بألوانها القاتمة الحزينة شيئا ما .



(١١) رسم

ترجمة الكلمات الالمانية :
(١٠) (دموعي .. يادموعي)
(١١) هل بلغ بك أن تضحكي باسمة مثل الجليد ، وبارقة مثل ندى الصباح .

وما يزيد من هذا الاحساس المتقصد وجود فاصلة ميلودية تشاز مكررة مرتين (* نموذج رقم ١١) وبالجزء الثاني يعود الميلودى الى شاعر الجملة الاول ، غير أن الكلمات ترتفع حماسا واثارة ، فيعززها ويدعمها العنصر التلويني chromatisme (١) وبعض الفواصل الميلودية النشاز (٢) ونموذج رقم ١٢)

ثم يلاحظ مظهر بارز للعيان في المازورة الثامنة قبل النهاية ، وهو ارتفاع الميلودى الى أرفع درجات النغم حدة وتتلاءم والمعنى في النص في أكثر الاوقات احتياجا اليه .

وقد عني المؤلف الموسيقي بذلك بوصفه اشارة « dynamic-Stark » تحت المعنى على التعبير الفعال القوى . وما يميز الجزء الثاني ويبلغ به ذروة معناه هو كثرة استعمال الفواصل الميلودية المتفككة عنه في الجزء الاول . ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية (نموذج رقم ١٢)



رسم (١٢)

ونضيف هنا كثرة النغمات الزخرفية appogiature التي لها روح مؤثرة خاصة . ولنقف قليلا عند المازورتين اللتين تنتهي بهما الجملة الاولى والجملتين الثالثة والرابعة .

نهاية الجملة الاولى .

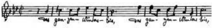


رسم (١٣)

---

(١٢) (ويتحدث من ينبوع القلب مرارة متوجعة تذيب كل جليد القساة) .
(١٣) (انني كنت أبكي ـ انني كنت أبكي) .

نهاية الجملة الثالثة



رسم (١٤)

خاتمة الجملة الرابعة



ومن الامثلة يتضح لنا من الناحية الموسيقية أن هذه المازورات لا تتكرر كما هو معتاد في المازورات الأخيرة في الجملة ، ولكن بتغير الميلودى تصبح أكثر ملاءمة مع نفسية الانسان التى يشكو ، ويبرز بذلك صدق الشكوى .

المصاحبة : مقدمة موسيقية من سبع مازورات تضع المستمع في جو الشكوى الذى يغمر الاغنية بأكملها ، وقد سبق أن بينا أن وزنها ايقاعي ، إلا أنه متقطع لكثرة اعتراضه باستعمال تأخير النبر (syncope) الذى يثقله ويجرده مما هو تلقائي متدفق .. وهذه الظاهرة تدعم الجملة الاولى من الجزء الاول وتختفى في الجملة



رسم (١٦)

---

(١٤) « كل جليد الشتاء ... كل جليد الشتاء » .

(١٥) « كل جليد الشتاء ... كل جليد الشتاء » .

والثانية حين يتطلب التغيير سندا موسيقيا مختلفا . ويتم اختفاؤه قبل دخول الصوت المصاحب في فاصل موسيقى من مازورتين تعبران بدقة عن هذه الحاجة .



رسم (١٧)

ويؤدى غياب النبر المؤخر (syncope) ووجود تحويلات خاطفة تتأرجح بين درجتى السلم الثانوى والسلم الرئيسي الى احساس بضيق غامض . . بل بحزن عميق مبهم .



رسم (١٨)

أما في الجزء الثاني وحين يعود الانطباع الاول أكثر قوة وأكثر امتلاء بالمرارة واليأس يعود تأخير النبر (syncope) مدعما للمصاحبة وحتى نهاية القيدة . ولسنا بمبالغين اذا ما وصفنا هذا الجزء الاخير بتكثيف المعنى بوجود تلك الدرجة السابعة المخفضة (1) والتاسعة (2) .



رسم (١٩)

(١٩) كما لو كان سيذوب لها كل جليد الشتاء ، كل جليد الشتاء .

وكذلك التحويلات الطارئة (3) '(4) كما لمسناه تكرارا في الجزء الاول من الاغنية . وفيما يختص بتلك التحويلات نجد أن العناصر الكلاسيكية التقليدية متواجدة ، ولكن شوبرت يتعامل معها اختياريا ويزيد من الحرية .

وقد يتضح عامة أن شوبرت لم يكن يجد مجاله الروحي في اللون الثانوي (mineur) الذى يعبر عن مرارة زائدة ، وحين لا يتطلب الأمر وصف جمال الطبيعة او التعبير عن موقف درامي معين ، يعبر شوبرت ببساطة ودونما لجاجة ، بعيدا عن براعة الاسلوب وزخارفه ، واجدا لونه ونغمه الرثائي في وسائل طبيعية تعبر بصدق عن حالته النفسية : حالة انسان تعيس ، ولكنه أنوف ذو نفس أبية قانعة . ونسوق هنا على سبيل المثال نص « الدموع الباردة » (٥) فنجد أنه اذا ما وضع له شومان لحنا يصبح هذا النص ذا طابع كئيب مقبض أكثر منه شاك . فألم شومان من النوع العميق الذى يشعر بالرجفة .

وذكر اسم شوبرت يستدعي الى الذهن اسم شومان ومن ثم يصبح من الطبيعي ان دراسة محورها أيا منهما تتطلب مكملا لها دراسة عن الآخر . فكل منهما أستاذ لليدة الالمانية أو بمعنى آخر « الاعترافات المغناة » فالمعروف أن الليدة قد وجدت لا كبناء فني وليد العقل ، وانما كضرورة للقلب ليبوح بأسراره . وككل شاعر عبقرى أصيل يتمتع شوبرت بقدرة على الغوص في العمق اللانساني جنبا الى جنب مع نزوات الروح الحقيقة المتقلبة . وذلك بأحلى التعبيرات وأصدقها . وكثير من هذه الجوانب تقربه من الشاعر الفرنسي الفريد دى موسيه الذى كان أعمق وأبسط شعراء الرومنتيكية تعبيرا عن الحب .

وتشكل مجموعته المكونة من ٦٠٠ ليدة أدبا موسيقيا عن أسمى الانفعالات العاطفية . غير أننا لن نجد بها ألوان تلك الأحاسيس الناتجة عن الصدمات النفسانية والتي تحرك العاطفة بعنف وتستأثر بها . تلك التي بينها لنا شومان ، وجعلت له بعد سلفه العظيم خاصية ليست أقل عمقا ، هذه المخاوف ، هذه الأحاسيس المرهفة وهذه القلقة التي كان يسببها له العصاب النفسي ، والتي جعلته كالشاعر (بدلير) خالقا لرجفة شعورية . كل ذلك لانجد عند شوبرت مثيلا له . فهو صحيح ، سليم ، واضح كجو الصباح . يواجه الأحاسيس التي تخالجه بصراحة عميقة وتلقائية بعيدة عن الشكوك الخفية والاسئلة الباقية الى الأبد بدون ردود ، والظلال المعقدة والغير واضحة المعالم التي يبحث عنها دوما الفنانون ذوو النفوس السقيمة .

وراء ما يقوله شومان هناك العديد من الأشياء المقلقة المكتومة التي تتطلب حلها . أما شوبرت فهو الغناء الشدو البسيط الصافي ، شدو قيثارة بأنغام مؤتلفة واضحة ، ومتدرجة توقظ الأحاسيس لأنه من القريب . بل ومما يصعب تصديقه أن التشاؤى بالحب هذا ، في أكثر تعبيراته رقة وصفاء لم يكتب له أن يعرف الحب . كان لشومان في صباه بعض النزوات والرغبات الجياشة كللها بحب كبير ، وعبر عن هذه العاطفة في مجموعات الليدة التي ألفها وهى سر وحدتها رغم اختلاف وتنوع العناوين واطارات الاحداث . ويقول أحد مؤرخيه :

« ويرجع [٦] الشكل الغنائي لوحي شومان الهائم اذن وعلى غير العادة الى الحياة الزوجية . وتكاد نرجف لفكرة أن بقاء شومان أعزبا كان يمكنه حرماننا من أعماله » .

---

(٥) Les Larmes glacees

(٦) Victor Basch : La Vie douloureuse de Schumann, P. 214

اذا لم يكن شومان قد بكي من أجل « كلارامنياك » ما كان لدينا الأن « غراميات الشاعر » ، الحب وحياة امرأة ، فقد كان الحب أساس رومانسيته . [٧]

وأخيرا وبعد عدة محاولات فازشومان سنة ١٨٤٠ باستمالة كلارا اليه . وفي نشوة السعادة كان يدعو أصدقائه كي يحذوا حذوه في كتابة الليدة . »

« الغناء أكثر من أي فن آخر يظهر الروح الموسيقية الكامنه في الاعماق » .

ولا يرجع تفضيل شومان للموسيقى المغناة ولا تفوقه فيها الى الصدفة أو الى نزوة عابر . فنحن نعرف أنه أكثر من أي من الموسيقيين الكبار المعروفين أحب شومان الشعر لدرجة جعلته مترددا لفترة طويلة بينه وبين الموسيقى ، حتى أنه كان لا يفرق بينهما .

ويقودنا هذا الى الاعتقاد بأن شومان نظرا لعدم تدربه على المناجاة الشعرية قد اغترف من كنوز عصره قصائد تحمل ايحاء بتلائم وتقلباته النفسية ، وكأنه كشف عن قلبه لصديق شاعر موهوب استودعه سره وعهد الى عبقريته بالتعبير عنه . ومن هنا ندرك التطابق النفسي العجيب بين عبقريته وعبقرية الشاعر (Heine هاينى) الذى يحتفل بذكراه معه ، حيث أنهما توفيا سنة ١٨٥٦ . كان الكثير من انتاجهما نقطة ارتكاز للشعر الوجداني ، لم يسجل لها تاريخ الفن مثيلا .

كما تحدثنا الظروف التي تشكل خلفية مرحلة « غراميات الشاعر » ـ هذه الحلقة تذكرنا « برحلة الشتاء » لشوبرت من حيث وصف نفسية غامضة ، ساكنة في العمق ، خالية من ذلك التتابع المنطقي للأحداث وتطورها الذى يوضح سياق الحبكة الدرامية . غير أنها يختلفان ، فعند شومان هناك احساسان : « ابتهاج ـ حزن » ، أما عند شوبرت فهناك فقط الاحساس بالمرارة . وقد انتقينا من « غراميات الشاعر » لموذجين لليدة نبين فيها توازى الاحساسين في القصيدة .

« دموعي » ، دموع رقة وسعادة ، دموع حب وأمل . ان تحليل هذه الليدة فقط سوف يبين لنا كل الحنان الذى تحويه هذه العبارات المادية البسيطة .

تأخذ هذه الليدة الشكل الذي يتكون من جزئين ، كل جزء منها مكون من ثماني مازورات . ومما يميز شومان تكرار تقسيم الجملة الموسقية الى وحدات صغيرة . وهي حالة لانجدها الا نادرا عند شوبرت الذى يعتبر بدون جدال أكثر ثراءا وتنوعا من ناحية التعبير الموسيقى .

هذا الشكل الثنائي يمكن رؤيته من زاوية الشكل الثلاثي ، ولكن غير المنتظم . ويوجز القول أنه برغم هذا الخط الثنائي المتفاوت الاقسام ، قد يرى أن التحويلات المقامية modulation تسير من مقام la كبير الى mi صغير . وهو الدرجة الخامسة من ذات المقام ـ dominante ـ ثم يرجع الى القاعدة الرئيسية الاولى .

Les Amoeurs du poets, - L'Amour et la Vie d'une Femme (٧)

والخاصية المميزة لميلودى شومان هى أنها خالية من أى تكلف أو زخرف زائد . ق « دموعى » لا يبدو على شومان أنه يحاول ترويض الميلودى لابراز فكرة النص الشعرى لها ، ولكنه يعبر عما في وجدانه بصدق وبساطة توحيان بالتواضع الجم . وهكذا تحمل الجملة الميلودية لهجة الحديث العادى المتزن التعبير ، بدليل ان اللقاء الملحن لمقطع شعرى لا يتعدى أربع نوتات ؛ Re ، La, Si, Do ♯♯ . ما عدا ظهور عابر وجيز fa ♯♯ في المازورة الحادية عشرة في برهة حاسمة ، وهى لحظة الوعد بالسعادة .

هذا النوع من الالحان المنظومة يميز أغلبية مجموعات الليدة عند شومان في كل مرة تتطلبها بساطة وألفة التعبير وهو في ذلك يختلف كلية عن معاصره . (mexdelsshon مندلسون) . الذى كان يسرح بالميلودى في عالم الخيال الرومنتيكي هائما على هواه . والجزء الاول يجيء في بساطة وروح الصبا .



رسم (٢٠)

ولا تعليق عليه غير أنه يلاحظ ايقاع المازورة السابعة مختلف عنه في الثالثة ، ومن هنا يصبح متصلا وتتفق الميلودى مع الكلمات في وحدة كاملة ، وهو ما يرى في الجملة الوسطى البليغة التعبير .



رسم (٢١)



فتسير اذن في انسجام طبيعي مع الصوت . ونشير الى استعمال النوتة المضاعفة double croche بدلا من واحدة croche في هذه الجملة السابقة ، ويليها تجمع ثلاثي يسبق المازورات الأخيرة ، وهو ذو تأثير صادق وفنان .

وقد أوحى لنا اللحن ببساطة ساذجة فكرة رجل ليس الاشومان ، وهو يتحدث الى « طفلته الصغيرة » . اما المصاحبة (بدون أي عامل خارجي) فتجيء لتضيف الى هذا التعبير النقي ايقاع المنعدة في هدوء وحنان يهائين المازورتين .



رسم (٢٣)

وكون المصاحبة تستمر في اللون الرفيع من البدء حتى النهاية تقريبا هبطا يجري في رقة براءة الطفولة ، وبشعور لا يشوبه أية ظلال والمصاحبة في الجملة B التي تلخص فكرة النص قد تساهل واقتصر وكأنها تتنازل للصوت الغنائي ، وهي تساندة بلطف ، وتتلاشى خفية .



رسم (٢٤)

تاركة الكلمات الرشيقة لمواجهتنا مباشرة . ويزيد هذا الاحساس بالحنان والملاطفة التحويلات **les modulation** العابرة المترددة وكأنها تهرب هروبا وتنتهي الليدة في همهمة هادئة ترجع بها الى الجزء الاول .



رسم (٢٥)

وتذكرنا حلقة « شومان » هذه « بالطحانة الجميلة » لشوبرت ، وذلك لتواجد إحساسين متتاليين كما بينا من قبل . فكلاهما تبدأ بأغنيات ليدة مليئة بالسعادة . أفكارها واضحة وتكاد بساطتها أن تصل منها شيئا عاديا . ولكن كليهما ذات نوع مختلف خاص بها . وهناك تقارب أو تشابه آخر بينهما ، فالزهور بالنسبة للشاعر الحزين هي بمثابة الرافد « للطحان التعيس » يستودعه سره ويكشف له عن قلبه ويستشيره في كل الظروف ويسترشده في أهم الحلول . فالرافد كان الدليل والمرشد الأوحد للطحان . أما الزهور فقد نصحت الشاعر المخدوع بالتسامح والغفران .

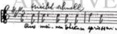
في « غراميات الشاعر » لا يوجد شعور مسبق أو نبوءة تمهد لنا احتدام المأساة . فهي تجيء على حين غرة في الليدة السابعة « أنا سامحت » . ويبدأ من هذه النقطة الرائعة يطل الحنان على الحب المخدوع . ولكن نلاحظ ان التأثير المحزن لن يصبح دائما وملحا كما في « رحلة الشتاء » فيمر بمراحل متقلبة بين عسر ويسر ، يبرزها تعبير ملائم للوضع السيكولوجي في صورة حادة التأثير ، ورويدا الى كبح الانفعالات ، ومن ثم الاستسلام الذى فرض فرضا . ويشمل النص بكل هذا . وتعتبر ليدة عيناى تبكيان في الحلم ، أكثر أغنيات هذه المجموعة تأثيرا وأشدها ايلاما .

وأراد شومان أن يعزز الوحدة الواقعية للنص الشاعرى ، فاتبع ما جاء به في الحلقة السابقة بتكرار استعادة النغم الرئيسى وابرازه في مختلف الاوضاع . ولذلك أمثلة في « غراميات الشاعر » . فالشاعر اعتبارا من البرهة التي اختفت فيها سعادته لم يعد يحس فرحا وانما عزاء الغفران . ويبدو ذلك من خلال عودة نفس النغم الذى يظهر لاول مرة في المصاحبة ومقدمة الاغنية الثانية عشرة « عندما يبزغ الفجر اكثر جمالا » ثم يعود أكثر نضجا في نهاية آخر أغنيات المجموعة « أغنيات وأحلام » . ولكن بالطبع في لون مقامى مختلف حيث أن الموضوع يدور حول غفران ما بعد الموت .

في أغنية « دموعي » رأينا أن شومان يبكي فرحا وحبا . أما في « عيناى تبكيان في الحلم » وهي الاغنية الثالثة عشرة فدموع « شومان » تصبح أكثر رثاء . فهو يبكي حبه المخدوع . وشكل هذه الليدة كما في « دموعي » مكون من جزئين ، ويتكون الجزء الاول ايضا من ليدة تكرار كامل لجملة واحدة من اثنتي عشرة مازورة . أما الجزء الثاني فيتكون من ثماني مازورات ، ومن هنا يتضح أن هذا التفاوت البنائي يبين رغبة شومان في احترام النص الشعرى بدون مراعاة لأسلوب البناء الموسيقى .

ونلاحظ أن هذا الشكل النادر له ما يبرره . فالتكرار الكامل للجملة الاولى (المكونة للجزء الاول) والتأكيد والاصرار منه يعد بكفاءة بالغة الانفجار التأثيرى المحزن في الجزء الثاني الذى يعتبر حالة استثنائية من الحماس الحار في هذه المجموعة .

ويقدم لنا الميلودى نموذجا آخر من تكرار استعادة النغم . فالمازورتين الاولتين متشابهتان تقريبا من ميلودى ليدة « دموعى » فيما عدا الايقاع ومقام ذات اللون الداكن .



رسم (٣٦)



رسم (٣٧)

---

(٣٦) تتفجر من عيوني
(٣٧) بكيت في أحلامي

ويعبر هذا عن ذات الأسلوب الترتيلي ، غير أنه هنا ذو معنى وقيمة تعبيرية أخرى . فعلى قدر ما كان الاول ملاطفا ومداعبا على قدر ما يبدو هذا خطابيا مع شيء من التضخيم ليس ناتجا عن الغرور وانما عن ألم عميق . ويرجع هذا الاحساس الى أسلوب التدرج اللوني يعززه بنطق واضح يبين لون اللفظ فيزيد التعبير عمقا (لوزج (١) في الرسم) . ثم اصرار شومان على العودة الى الثلاث نوتات ، تلك التي يتكون منها النغم الرئيسي Sib - Soib - mib واستعمالها في نظام تنازلي بهذا الاحساس الذي يتملكنا بحرص شومان على هذا التصرف ينقل التعبير بزيد من الحزن المثير للعواطف .



رسم (٢٨)

(٢٨) لقد بكيت في منامي ، رأيتك ترقدين في القبر ، وصحوت والدموع لاتزال تنهمر على وجنتي .

وتقوى المصاحبة هذا الاحساس من ناحية بتركها الميلودي في فراغ مطلق ، وتصمت حتى لا تحجب حدة التعبير عن الأسى . ويزداد هذا الشعور بفعل نغم جماعي من خمس نوتات وكأنه يسمع من أبعاد عميقة في قرع متخلخل مهيب بالغ التأثير . ولا يمكننا بالكلمات التعبير عن التأثير الانفعالي لتلك الدفة الموسيقية التي لا تنتظر انتهاء البيت الشعرى وانما تكسره عند منتصفه معطية بذلك الاحساس بنوع من القلق اللاهث والعميق .

كل هذه النواحي الفنية بطبيعة شومان تصل الى ذروتها في الجزء الثاني من الليدة . ويظهر موضوع البداية بادىء ذي بدء في المصاحبة بمجموعات مليئة هادئة وعميقة (I) وهي فترة خمود مؤقت كالسكون الذى يسبق العاصفة . سكون ذو عمق عنيف . فهو يحوى بذور الانفجار القادم .



رسم (٢٩)

وتتوقف المصاحبة برهة على وقفة طويلة في النبر الاساسي حتى تعود نفس الميلودى هادئة متمهلة في رقة . غير أنها لا تتبع الصيغة الخطابية التي تميزت بها في الجزء الاول من الليدة . ثم ترى وقد هبت تصاعديا بروح تنم عن سخط مثير وألم نفسي عميق يتفجر في صرخة مدوية fab . وهذا بعد الاصرار على تكرار نوتة واحدة reb اربع عشرة مرة على التوالي مستندة على مصاحبة في تكرار صارخ النشاز . ربما كان الوحيد في أعمال شومان . وآخر نبرات الليدة هو هذا الصمت الرهيب وعودة القرع المنخفض المهيب بنفس مجموعة النغم .



رسم (٣٠)

ان العلاقة الوثيقة التي تربط الغناء والبيانو في هذه الليدة لا مثيل لها ، فشومان هنا يظهر بكل ذاتيه الفريدة بدون منافس . ولذلك استحق بحق اسم تلك الليدة . ليس فقط لأن انفعاله كان اكثر الاحاسيس عمقا ، ولكن لأن أسلوبه الفنى كان أكثرها منطقية وكمالا في تحقيق اندماج رنين النغم مع الرنين اللفظي . فبهذا الاسلوب دفع فن الكتابة بالصوت الى درجة اتقان غير مألوفة ، يحمل خاصية طبيعة شومان . ويلاحظ أن هناك تنوعا في مجموعتى شوبرت « الطحانة الجميلة » و « رحلة الشتاء » اكثر منه في أعمال شومان الذى لا يغنى الا بذاتيه ، فيتناول بشاعرية رومانتيكية خالصة الحب في مختلف مراحله ومن ثم يزيد نضارة وينبض بالحياة .

وكل حلقة غنائية لشومان هى مجموعة درامية موجزة . وغالبا ماتوحى بانفعال مفاجيء سريع لم يتهيأ له الجو بعد ، فيترتب على ذلك أن يهتز المستمع وتتأثر الاعصاب ، ولم يكن قد تنبه الذهن . وهذا ما تتميز به أغنية شوبان من روعة . وفي أن واحد كان الباعث على عدم افتتان جمهور الحفلات بها . ففي أغلب الاحيان تغنى هذه الاغنيات منفصلة بعضها عن بعض في الاجتماعات الخاصة . وهذا ما يشوه القصيدة من حيث الوحدة السيكلوجية . وعلى ذلك فمن الاحق ان تغنى مجموعة شومان في حفل واحد حتى لا تصبح هذه القطع الصغيرة بدون معنى . وقد توقع بيتهوفن ذلك من قبل لمفهومه كموسيقى سيمفوني . ففي

مجموعته « الى حبيبتى البعيدة » لم يفصل بين الليدة والليدة بل جمعها في تتابع متصل يصعب معه فصل جزء من العمل المتكامل . ولا يجب ان نغفل هنا أن بيتهوفن كان اول من فكر في ربط مجموعات الليدة وجمعها حول موضوع شعرى واحد كعقد من الزهور .

---

(٣٠) بكيت في منامي ، فظنت انها لاتحبيني ، صحوت والدموع لاتزال تنهمر .

عرض الكتب

سياسة واجتماع

الأصول الاجتماعية للنظم التعليمية

عرض وتحليل : ابراهيم وجيه

تمهيد :

زاد الاهتمام باجتماعيات التربية زيادة كبيرة منذ الحرب العالمية الثانية ، في الوقت الذى لم تقدم فيه الابحاث والدراسات التي تمت خلال هذه الفترة إجابة شافية عن الكيفية التي تنمو بها النظم التعليمية وتتغير .

وفي هذا الكتاب تتعرض مارجرت آرثر لصميم المشكلة بقصد الاجابة على السؤال المطروح .

وتتلخص المشكلة في تحديد العوامل التي أثرت تاريخيا على نظم التعليم في مختلف الدول ، ووضع عدد من الافتراضات التي يمكن أن تفسر هذه النظم !

وليست هناك نظرية بذاتها أو اتجاه علمي محدد يسير على ضوئه الكتاب ، إنما يعتمد في المقام الأول على عدد من الافتراضات المنهجية التي تنصب على الاهتمام بدراسة الجماعات والمؤسسات أكثر مما تهتم بالدراسات الوصفية لسلوك الأفراد والمواقف .

ومن ثم يوجه العناية الى دراسة العلاقات بين أجزاء البناء الاجتماعي ويحلل هذه العلاقات تمهيدا لتوضيح أنواع التفاعل الموجودة داخل الجماعات ، بدلا من أن يبدأ بدراسة سلوك الأفراد مستطردا منها الى دراسة التنظيم الاجتماعي .

هذا المنهج يقوم على الاعتقاد بأن خصائص الابنية والنظم الاجتماعية يجب تناولها كما هي عندما نحاول دراسة العمليات والتفاعلات الاجتماعية التي تتضمنها . وهذا ينطبق على أية محاولة لضبط طبيعة واتجاه أى تغير اجتماعي .

واستخدام هذا المنهج لوضع استراتيجية عملية لاحداث تغيرات اجتماعية معينة ، يقوم على تحديد هذه التغيرات بأبعادها المختلفة وأيضا على درجات الحرية الفردية داخل المجتمع المعين قبل البدء في تناول هذه التغيرات .

ويشمل تحديد التغيرات المعينة تحديد المناطق الأكثر والأقل مقاومة للتغير في البناء الاجتماعي والعلاقات الموجودة

Margaret S. Archer, Social Origins of Educational Systems, SAGE Publications Ltd, London and Beverly Hills, 1979.

بينها . أما تحديد درجات الحرية الفردية فيشمل توضيح المؤثرات التي تؤدي الى الثبات والاستقرار وأيضا المؤثرات التي تساعد على التغير داخل المجتمع . وكلا النوعين من العناصر له أهميته الاستراتيجيه البالغة .

وتتمثل فوائد هذا المنهج من ثم في قدرته على التمييز بين العلاقات الموجودة بين أجزاء النظم والتي تتسبب في إحداث التغير من تلك التي تؤدي الى الثبات والاستقرار . أكثر مما يفترض عدم وجود علاقات داخلية بين هذه الاجزاء وتوازنها في عملها معا ليسير كل شيء على ما يرام .

وقد استخدم هذا المنهج لدراسة نظم التعليم والتغيرات التي طرأت عليه في النظامين المركزى واللامركزى : المركزى كما تمثله فرنسا وروسيا واللامركزى الذى تمثله انجلترا والدانمارك .

التغير التعليمي :

لنتجه الآن الى دراسة التغير الحادث في نظم التعليم منذ أصبحت الدولة مسئولة عنه وهذا النوع من التغير يختلف اختلافا متباينا عنه في المرحلة السابقة لمسئولية الدولة عن التعليم . فقد كان نوع التغير الوحيد الحادث في هذه المرحلة هو التغير الناتج عن المنافسة بين أصحاب المدارس والمعاهد والمؤسسات الخاصة . وهو تغيير لا يمس جوهر التعليم بقدر ما يمس بعض مظاهره الشكلية . وانما حدث التغير الجوهرى نتيجة ازاحة سلطة جماعة اصحاب المدارس والمؤسسات الخاصة . وانتقال مسئولية التعليم الى الدولة وارتباطه بسياستها العامة .

ومع نمو نظم التعليم الخاضعة للدولة . ظهرت ثلاثة أنواع من العمليات التي يتم عن طريقها التغير . هذه الانواع الثلاثة غير ممكنة لكل الجماعات . ولذلك فان دراستها تستدعي التعرف على ثلاثة أنواع من العلاقات بين التعليم والمجتمع .

النوع الاول : اولى داخلي ويلعب الدور الأكبر فيه أصحاب المهنة المتخصصون . فمع زيادة حركة التعليم وزيادة موارده أصبح المتخصصون من رجال التعليم أصحاب الكلمة العليا في تصريف هذه الموارد واستخدامها لتحقيق أنواع الخدمات التعليميه التى يحددونها . وأصبحت زيادة الموارد التعليمية معناها تحقيق اهداف تعليمية أكثر تخدم النظام التعليمي .

وبمعنى أخر فان هذا النوع من التغير انما يتصل مباشرة بالمدرسة والكلية والجامعة . ويمكن ان يحدث بدرجة بسيطة بطريقة أولية سهلة وبين الداخل مستقلا عن اى جهة . كما يمكن أن يحدث بدرجة أكبر عن طريق تجمع جهود أصحاب المهنة .

ونوع العلاقة الهام في هذا النوع من التغير سواء صورته البسيطة او المتجمعة . هو الذى يحدث بين المتخصصين من رجال التعليم من جهة وبين المسيطرين على مصادر التمويل من جهة اخرى . ولما كانت مصادر التمويل الأساسية عادة تأتي عن طريق الدولة . فان التفاعل بين اصحاب المهنة وبين الدولة سيكون هو العامل الأول في أى تغير . وفي نفس الوقت يجب ألا نهمل تأثير المجموعات الممولة الاخرى والعلاقة بينها وبين التعليم . فبعض التغيرات في التعليم تأتي مباشرة عن طريق هذه العلاقات .

النوع الثاني : ويتم فيه التغير عن طريق الاجراءات الخارجية ويتضمن العلاقات بين الجماعات المهتمة بالتعليم من الداخل والخارج . وتبدأ هذه العلاقات عادة من خارج حدود التنظيمات التعليمية عن طريق جماعات تبغي خدمات اضافية .

وكما هو الحال في النوع السابق فان رجال التعليم يكونون طرفا في هذه العلاقات . ولكن ما يميزه عن هذا النوع هو الثقل الذى تدخل به هذه الجماعات الخارجية وتأثيرها الكبير الذى لا يمكن اغفاله في التعليم . بينما كان تدخل الجماعات الخارجية في النوع الاول (الاولى الداخلي) عن طريق التطوع وكمصدر لتمويل التعليم من غير تأثير مباشر على اغراضه وما يقدمه من خدمات .

وبزيادة استقلال التعليم ، اصبحت مؤسساته أكثر قدرة على الاتصال بالخارج والتفاعل معه . وأصبح في الامكان الاتصال بالجامعات الخارجية على نطاق أوسع ووضع خطط مشتركة وتبادل المنفعة فيما بينهم .

هذه الانماط من العلاقات والاتصالات بين مؤسسات التعليم والمؤسسات الخارجية كان لها تأثيرها الكبير في تغيير الكثير من نظمه وبرامجه .

ومن هنا يبدو أن هذين النوعين من التغيرات سواء الداخلية منها أو ما يتم عن طريق الاجراءات الخارجية انما تحدث عن طريق العلاقات بين رجال التعليم وبين الجامعات الخارجية ، وان اختلف الواحد منهما عن الآخر في حجم هذه العلاقات ومدى تأثيرها . وهما يختلفان في ذلك عن النوع الثالث الذى يمثل نمطا آخر من العلاقة بين التعليم والمجتمع ، ويأتي التغيير فيه عن طريق الممارسة السياسية .

ولعل أهم مسببات هذا النوع الثالث من التغير الذى يأتي عن طريق الممارسة السياسية ، هو أن المصدر الاساسي لتمويل التعليم في الوقت الحالي كما ذكرنا هو الاموال العامة . وبالتالي فأن جماعات كثيرة ذات الصلة بهذا المصدر يكون لها تأثيرها في تشكيل السياسة التعليمية ، مما يشجع الجماعات العامة على مختلف أنواعها لتستخدم حقها السياسي في غياب المختصين من رجال التعليم .

فعن طريق الحقوق السياسية المكتسبة وحرية الرأي ، وعن طريق التصويت وحق الغالبية في فرض قرارها تأتي كثير من القرارات في صف إحداث تغيرات معينة في النظم التعليمية أو في صف تثبيتها ودعم استقرارها مما يمثل نوعا من أهم انواع التغير في النظم التعليمية .

هذه الانواع الثلاثة تزيد من تعقيد عملية التغير بشكل يختلف كثيرا عن نوع التغير الذى كان يحدث قديما نتيجة المنافسة فحسب .

فلتحليل عملية التغير على ضوئها يتطلب الامر دراسة التفاعل بين الجماعات على مستوى المدرسة والمجتمع المحلي والوطن كله والعلاقات المتداخلة بين هذه المستويات الاجتماعية . ذلك لأن الانواع الثلاثة من التغيرات لا تعمل بمعزل الواحدة عن الاخرى . فالممارسة السياسية تؤثر على العلاقة بين الحكومة والمتخصصين من رجال التعليم ، ولهذا تأثيره بدوره على حجم ونوع التغير الاول الداخلي الذى قد يحدث ويساعد أيضا على تحديد طبيعة الاجراءات الخارجية جزئيا بسبب قدرة الممارسة السياسية على إيقاف أى اجراء تتخذه جماعة ما وجزئيا ايضا لأنها تساعد على تحديد اى الجماعات يمكن أن يشترك في أحداث التغير المطلوب .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الاجراءات الخارجية التي يقوم بها المتخصصون تزيد موارده وتؤثر بالتالي على مدى وطبيعة التغيرات التي تحدث عن الطريق الاول الداخلي . والتغيرات التي تحدث عن طريق هذين النوعين تؤثر بدورها على مفاهيم ووجهات نظر بعض المراكز السياسية التي تعمل بدورها على اقرار هذه المفاهيم أو وجهات النظر التي قد تكون مفيدة لبعض الجماعات وضارة بالنسبة لجماعات أخرى .

ومن ثم يتبين أن عمل كل نوع من هذه الأنواع له تأثيره على الأنواع الاخرى ويرتبط بها دائما .

وأن تحليل أى تغير في النظم التعليمية لابد وأن يعتمد على التركيب المعقد لتأثيرات هذه الانواع الثلاثة والتفاعل المستمر بينها .

والأن لنحاول تفسير ما يحدث في نظم التعليم المركزية على ضوء هذه الدراسة لانواع التغيرات والعلاقات بين التعليم والمجتمع . ولنبدأ بما يحدث في النظام المركزى ثم النظام اللامركزى .

أولا : النظام المركزى :

اذا أخذنا فرنسا كمثال لنظم التعليم المركزية ، نجد أنها ومنذ الجمهورية الثالثة والرابعة قد خضعت للتأثيرات السياسية . حيث كان للانفتاح السياسي وعدم اتفاق الحكام وسوء تنظيم وانقسام المهتمين بشئون التعليم أثره على النتائج التى وصل اليها نظام التعليم في هذه البلاد . وفي مثل هذه

الظروف ونتيجة لهذا الوضع المتردي الذي دام فترة طويلة يجب ان نكون متنبهين لأي افتراض نفترضه أو نتيجة نخلص بها وألا نعمم ما نصل اليه .

وفي مثل هذه الظروف أيضاً يحسن الرجوع الى أمثلة أخرى لسياسات أكثر تفتحا وعلاقات حاكمة أكثر اتفاقاً ومؤسسات تعليمية أكثر انفتاحا وتنظيما حتى تكمل الصورة وحتى تكون الافتراضات المستخلصة أكثر دقة وايجابية .

وفي غياب مثل هذه الصورة يجب ألا تغفل الجوانب السلبية في الافتراضات التي نصل اليها . ومن هذه الافتراضات :

- ان استقرار نظام الدولة يسمح لمطالب التعليم ان تصل الى الساحة المركزية صاحبة القرار . وأن جماعات كثيرة يمكن أن تعمل في ظل هذا النظام لتحقيق هذه المطالب . وعلى العكس فان عدم الاستقرار يساعد على بعثرة الجهود لتحقيق مطالب التعليم .

- أن عدم اتفاق الرأي في السياسة غير المستقرة لا يساعد على معالجة قضايا التعليم والوصول الى قرارات سليمة بشأنها بقدر ما يساعد على تثبيت الوضع القائم . مما يخيب آمال الحكومة والمعارضة في نفس الوقت . ويوقف الحركة نحو أي تغيير في التعليم .

ويمضي الوقت تصبح السياسة السائدة هي الرجوع الى السلطة في كل شيء .

وعلى العكس فان استقرار السياسة يؤدي الى مشاركة الحكومة والمعارضة في اتخاذ القرارات مما يساعد على التغيير وحل كثير من مشكلات التعليم .

- ان اتفاق رجال السياسة مع العناصر الحاكمة يشجع مختلف العناصر المهتمة بالتعليم لأن تتحرك وتحاول الاصلاح والتغيير . هذا إذا اتحدت هذه العناصر واستفادت من الوضع القائم ومن استقرار سياسة الدولة . أما اذا انقسمت هذه العناصر (المهتمة بالتعليم) على نفسها ، فان عدم اتفاقها لا يشجع السياسة أو الحكومة على تأييد محاولات هذه العناصر نحو تطوير التعليم ، والنتيجة النهائية هي سلبية الجميع نحو قضايا التعليم .

- ان أصحاب المهنة (من رجال التعليم) يمكن ان يكون لهم دور كبير في رسم سياسة الدولة نحو التعليم بقدر ما يبذلونه من دفاع عن قضاياه الاساسية وبقدر مثابرتهم على التعبير عن رأيهم باستمرار ونصح الدولة فيما يتصل بهذه القضايا .

وفي هذه الحالة يجب أن يخرجوا عن حدود المجال الخاص بعملهم الى مجال الرأي العام والسياسة العامة لدفع حركة التغيير وللتغلب على كل صعوبة تواجهه . فمكان المعلمين والعلماء يجب ألا يكون باستمرار داخل المدارس والمعاهد والكليات وانما يجب أن يخرجوا الى النطاق العام ، وأن تسمع اصواتهم كلما دعت الضرورة ، وكلما كان لهذا الصوت تأثيره لتغيير وضع قائم أو لحل مشكلة تتصل بعملهم وتساعد على تطويره وتحسينه .

- هناك واجب على رجال التعليم وعلى المهتمين بقضاياه من خارج المهنة هو أن يعملوا لكي تتحد جهودهم باستمرار ، وأن تخضع هذه الجهود لتنظيمات معينة تعمل بقوة ضاغطة ومحركة للاحداث في مجال التعليم .

وعلى المدى الطويل فان هذه التنظيمات سيكون لها وضعها الثابت وتأثيرها الواضح على سياسة الدولة نحو التعليم .

ثانيا : النظام اللامركزي :

هناك اعتباران هامان بالنسبة لهذا النظام يتحكمان في علاقة العمليات الثلاثة التي يتم عن طريقها التغيير (الأولية الداخلية ، الاجراءات الخارجية ، الممارسة السياسية) كل منها بالأخرى . اولها مباشر والثاني غير مباشر .

الاول : هو أن أغلبية الناس يشتركون في العمليات الثلاث وبعض الناس يشتركون فيها على أدنى مستوى (بأعطاء اصواتهم فحسب) . وعدد قليل منهم يشترك في العمليات أو الانواع الثلاثة بدرجة أكبر (كأعضاء عاملين

في تنظيمات سياسية ، أو كأعضاء في مجالس الآباء المعلمين ، أو في الغرف التجارية) ، بينما يوجد بين هاتين الفئتين بعض الناس الذين يشتركون فيها بدرجات متفاوتة . ولسنا في حاجة الى القول بأن الخبرة المستمدة من الاشتراك في هذه الأنواع من العمليات أو العلاقة لها اهميتها وسرعان ما تنقل لتدعم الممارسات وأوجه النشاط التي تؤدى الى التغيرات المطلوبة وأن ما يحدث عن طريق احداها سرعان ما يؤثر على الاخرى . فهناك باستمرار أكثر من طريق لتحقيق ما تريده . وهذا يؤدى بنا الى الاعتبار الثاني .

الثاني : فكما تبين فان النتائج المترتبة على إحدى العمليات التي يحدث عن طريقها التغير تؤثر في النتائج التابعة للعمليات أو الانواع الاخرى . وتتكامل تأثيرات هذه الأنواع لتعمل معا بدرجة أو بأخرى . ومن ثم لا يمكن فصل أحد هذه الانواع لدراسة تأثيره بمفرده بعيدا عن تأثيراته في الانواع الاخرى .

ويمكن ابراز هذه الصورة بتقديم عدد من الافتراضات التي توضح كيف انه عندما يكون أحد الانواع أكثر تأثيرا من النوعين الآخرين بعض الوقت ، فإنه لا يعمل بمفرده وانما يرتبط بشكل أو بآخر بالنوعين الآخرين :

ـ اذا زاد مثلا تأثير الممارسة السياسية فأن هذه الزيادة تؤدى الى زيادة ارتباط أي تغير يحدث في التعليم بنتائجها ، وينتج عن ذلك ضعف قدرة المتخصصين من رجال المهنة في احداث تغيرات أولية داخلية كما يقل ايضا حجم الاجراءات الخارجية .

ويترتب على هذا أن تقل الموارد المالية التي تأتي عن طريق المهنة . ويقل ايضا تأثير الخدمات التي تقدمها الجماعات الخارجية . ويعتمد التعليم بالتدريج على المصادر السياسية في سد احتياجاته . ومن ثم يفقد بالتدريج ايضا حريته واستقلاله . والنتيجة النهائية أن تصبح العلاقة بين التعليم والمجتمع كمثيلتها في النظام المركزي .

أما اذا زاد تأثير الاجراءات الخارجية فان العملية التعليمية تصبح أكثر استجابة للمؤسسات الاجتماعية كما يصبح التحكم في التغيير والتطوير في أيدى قادتها . وينتج ذلك نقص قدرة الممارسة السياسية في التحكم والضغط أو بمعنى أخر كلما زادت الاجراءات الخارجية أصبح التعليم أكثر قدرة على الحركة خارج تحكم الدولة ورجال السياسة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فانه عندما يزداد اعتماد التعليم على الموارد الخارجية يفقد بالتدريج قدرته على التحكم في شئونه ما اتصل منها بالطلاب ودرجاتهم العلمية أو بالمعلمين واختيارهم واعدادهم . ويصبح التحكم في ايدى مؤسسات خارجة عنه (كالمؤسسات الدينية ، الاتحادات ، المكاتب التجارية .. الخ) ولايتمكن من ثم من تحقيق اهدافه على ضوء الصالح كما يراه وعلى ضوء قيمه الأكاديمية .

وكلما تردى الوضع أصبح المتخصصون من رجال التعليم أقل قدرة على احداث تغيرات أولية داخلية وربما جاء الوقت الذي يأسفون فيه على عدم تمتعهم بالحماية المستمدة من التحكم السياسي في علاقتهم بالمجتمع .

هذه هي النتائج المترتبة على العمليات التي تستمد قيمتها من الثروة (المتمثلة في الجماعات الخارجية) أكثر مما تستمدها من الخبرة (المتمثلة في المتخصصين من رجال التعليم) والقوة (المتمثلة في رجال الحكم والسياسة) .

انه كلما زاد تأثير العمليات الأولية الداخلية اصبحت مهنة التعليم وأصحابها هم السادة في بيتهم الخاص . وكلما سمح ذلك للتغير التعليمي بأن يحدث وفقا للقيم الخاصة به ، سواء تم ذلك التغير وفقا لاغراض التعليم نفسه أو استجابة لمطالب خارجية .

والموارد التي تأتي عن هذا الطريق لا تقوى المعلمين تجاه تدخل الدولة فحسب ، بل تدعم ايضا مختلف اوجه نشاطهم المتعلق بالمهنة وعلى سبيل المثال تحسين المهارات الخاصة بعملهم وزيادة التخصص الأكاديمي وتسهيل ظروف العمل وتوفير الامكانيات التي يحتاجها .

وتمثل هذه الظروف قوة دعم لزيادة مكانة المهنة تساعد بدورها على تقديم خدمات تعليمية أفضل . وكلما زاد دعم الجماعات المهتمة بالتعليم ، ساعد ذلك على نجاح العمليات

الداخلية التي تتم عن طريق رجال التعليم أنفسهم المختصين بشئونه .

هذ العوامل من شأنها أن تضعف من نظام التعليم الموحد ، وتؤدى الى أنواع من التعليم أكثر تخصصا وأكثر اتصالا بأغراض التعليم الأكاديمية . وهي لا تظهر الا اذا تنشط رجال التعليم للدفاع عن موارده المالية ضد قوة السياسيين ورجال الحكم وايضا ضد ثروات المؤسسات الخارجية .

●●●

إن تحليل عمليات التغيير التي طرأت على النظم المركزية واللامركزية يقودنا الى نتيجة محددة تتلخص في أن كلا منها قد خضع لعدد من التنظيمات المتطورة اتت بالتدريج جنبا الى جنب منذ ظهور هذه الانظمة .

فهل يعني هذا ان نوعا من التقارب قد حدث بينهما ؟

قد تكون الاجابة ان هذا ما يحدث بالفعل ، ولكن الى حد ما ، وليس الى الدرجة التي تجعلنا نقول بأختفاء الخلافات بينهما .

فمنذ البداية خضعت النظم المركزية لعدد من الضغوط حتى تقلل من تقنينها للتعليم ولتقابل المطالب المتعددة للمجتمع بادخال انواع من التخصصات الجديدة وبتنويع التعليم . ولما بدأت هذه التغيرات تأخذ مكانها نتيجة للضغوط السياسية وغيرها ، عملت السلطات المركزية على اقرارها وتنظيمها لتنتقل من أعلى الى أسفل .. الى المؤسسات التعليمية المتنحية وتأخذ في طريقها الى تلك المؤسسات اشكالا أكثر تخصصا وأكثر ارتباطا بمتطلباتها المتنوعة ، سواء كان ذلك في شكل أنواع متعددة من الخدمات التعليمية الخاصة أو في مقررات دراسية أكثر صلة بالبيئات المحلية .

وبالنسبة للنظم اللامركزية فان الظروف التي أدت الى وجودها لم تنته بعد . فعمليات التغير الاولية الداخلية أو التي تحدث نتيجة الاجراءات الخارجية لازالت مستمرة في عملها لتؤدى الى انواع جديدة من التعليم أكثر تخصصا تتفق مع متطلبات المهنة ومتطلبات الجماعة الخارجية المهتمة بالتعليم .

ولكن هذه التغيرات لا تحدث تماما بمعزل عن السلطات المركزية ، التي تحاول من جهتها أن تجمع شتات هذه المتغيرات وتوفق بينها لتقلل من الاختلافات بينها ، ولتؤكد التكامل بين مختلف الخدمات التي تقدمها ، وتسير في النهاية قدر الامكان على الخط الذى يمثل اتجاهات السلطة المركزية .

وهكذا فان الاتفاق بين النظامين المركزى واللامركزى انما يكمن في حركة النظام نحو التقسيم والتخصص وحركة النظام اللامركزى نحو التناسق والتكامل .

ولكن هذا لا يعني تشابه النظامين أو اتفاقهما بل على العكس فان القوى التي كانت تحكم هذين النظامين في أول نشأتهما لا زالت تعمل وتدعم بقاءهما .

وبمعنى آخر يمكن أن نؤكد أن التقسيمات والتخصصات التي اتجه الى الاخذ بها النظام المركزى لا تعني القضاء على المركزية ، بل على العكس فان هذه التقسيمات والتصنيفات سرعان ما يعمل هذا النظام على تجميعها وتنظيمها مما يقوى مركز هذا النظام كسلطة قائمة .

وبالمثل فان عمليات التناسق والتوفيق بين أنواع التعليم المختلفة والمتخصصة التي بدأت تتجه الى الاخذ بها النظم اللامركزية ، انما تحدث عن طريق المؤسسات التي تتلها والتي سرعان ما تستعيد قدرتها على الحركة مستقلة عن السلطات المركزية .

وتتمثل بما يحدث في روسيا وفرنسا اللتين تأخذان بالنظام المركزى ، والدنمارك وانجلترا اللتين تأخذان بالنظام اللامركزى .

ففي روسيا هناك بعض علامات تدل على ان السلطة السياسية تبدو أكثر لينا وأكثر ميلا لترك بعض اختصاصاتها للسلطات الاقل ولكن ليس الى الحد الذى يسمح لهذه السلطات بأن تهمل على الاستقلال . بل على العكس فان

ماتراه هذه السلطات الاقل يجب ان تنظم ويوجد ويخضع للسلطة المركزية .

وفي فرنسا ليس هناك حتى الآن ما يدل على وجود علامات مشجعة للحركة في اتجاه اللامركزية بل على العكس هناك ما يؤكد تشبث السلطة الحاكمة بسياسة مركزية التعليم . ولن يتغير هذا الوضع حتى تسمح الممارسات السياسية بتخفيف قبضة السلطة المركزية على التعليم .

وبالنسبة للنظم اللامركزية نجد أن التغير في التعليم في الدنمارك أصبح أقل تأثرا بتوجيهات السلطة السياسية وأقل خضوعا للتنظيمات الموحدة والمقننة . فنجاح الاجراءات الخارجية يعني أن التحكم في التعليم أصبح مشاركة بين الجهات التي تستخدم مواردها المالية للحصول على خدمات تعليمية متخصصة ومتنوعة وذلك عن طريق مؤسسات تعليمية تنشأ وتحول لتنفق على هذه الاغراض ولتقدم الخدمات التي تريدها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان المتخصصين من رجال التعليم قد خطوا خطوات واسعة للتحكم وليصبحوا هم السادة في مكان تخصصهم . وذلك بصفة خاصة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . مما يعني نظما تعليمية أكثر تخصصا وأكثر اتفاقا مع القيم العلمية والتعليمية وقيم المجتمع كذلك .

وفي نفس الوقت يجب الا نبالغ في هذا الاتجاه الذي تسير فيه النظم اللامركزية . ففي كلتا الدولتين اللتين تأخذان بهذا النظام (الدنمارك وانجلترا) واللتين تمثلانه في هذا العرض ، لازالت الانواع الثلاثة من العمليات التي يتم عن طريقها التغير تخضع لعوامل تختلف باختلاف الوقت وان بدت في الفترة الاخيرة أكثرا ميلا للتعادل بصفة عامة .

فعلى سبيل المثال عندما أصدرت انجلترا عام ١٩٤٤ قانونا يهدف الى محاولة تنظيم التعليم وتوحيده ، فان صدور هذا القانون لايعني سيادة الممارسة السياسية بل على العكس فإن الفترة التالية للحرب العالمية الثانية كانت اغنى الفترات بعمليات التغير الاولية الداخلية . ففيها اصبحت السيادة للمعلمين في وضع المناهج وتطويرها وايضا لعمليات الاجراءات الخارجية وبصفة خاصة عند نقط النهاية التى تتصل بالاعداد المهنى وبالتعليم العالي والمستمر .

حقا إن السلطات المركزية في الدولتين (انجلترا والدنمارك) لازالت ترغب في الوقت الحاضر في اكتساب سلطات أكثر وبصفة خاصة فيما يتعلق بالتعليم العالى . ولكن الرغبة شيء وتحقيقها شيء آخر . فلم يحد ث في وقت من الأوقات أن كانت السلطة المركزية غير راغبة في الحصول على سلطات أكبر فوق المستويات الاخرى لتغير من اتجاه نشاط هذه المستويات . وما يمكن تأكيده هو أنها لم تحقق ماتريد . فحقوق المعلمين المكتسبه وحقوق الجماعات المهتمه بالتعليم لازالت مصانة وباقية ..

والنتيجه التي يمكن أن نخلص بها أن كلا النوعين من النظم لازالا يمارسان تأثيراتهما على العملية التعليمية في بلادهما ، بغض النظر عن التغييرات التي طرأت على كل منهما . فهل يعني هذا انهما سيستمران في عملهما بنفس الكيفية ؟

لايمكن الاجابة على هذا السؤال بشكل قاطع . فليس هناك سبب منطقى لذلك وليس هناك مايمنع صانعى القرار في كلا النظامين المركزى واللامركزي من أن يغيروا تركيب النظام الذي يسير عليه التعليم في بلادهم .

فمن حيث المنطق ليس هناك ما يمنع السلطه الحاكمه من إصدار قانون يغير النظام المركزي الى نظام آخر ، وان كان الواقع يقول انه لم يحدث في الفترة المعاصرة ان اتخذت السلطه الحاكمة قرارا من هذا النوع مما يجعلنا اكثر توقعا لأن تستمر سياسة التعليم في النظام المركزي على ماهي عليه .

ونفس الشيء بالنسبة للنظام اللامركزى . فمنطقيا ايضا يمكن لصانعى القرار (وهم هنا أصحاب المهنة من رجال التعليم والجماعات الخارجية المهتمة به) من وضع حد لاستقلال قراراتهم . وقد تحقق هذا بالفعل في بعض الحالات ، اذ كفت بعض الجماعات عن أنشطتها بسبب نقص الموارد المالية أو بسبب عدم التشجيع والاحباط .

ولكن هذه الامثلة لا ترقى لمستوى الظاهرة العامة ، ولا يمكن الاعتماد عليها ولتحليل واقع النظام المركزي على اساسها .

او بمعنى آخر فان التركيب الاساسي لهذا النظام لا زال مستمرا ، ولا زال يسمح لنظم التعليم المحلية بأن تجرى التغييرات التي تراها ، مما يساعد على دعم هذه التغييرات وانتشارها خلال المجتمع بعيدا عن يد السلطات المركزية . وعلى ضوء هذا يصعب افتراض امكانية وصول السلطات المركزية الى موقع القيادة في المستقبل القريب . ولا زالت الاختلافات في تركيب كلا النوعين من النظم التي تجعلنا نميز بينها .كنظامين لكل منها مقوماته الخاصة تعنى أنها موجودان ومستمران ، ولا زالت التفاعلات التي تحدث داخل كل منها غير متشابهة ، ومن ثم فلنا أن نتوقع أن تحدث نتيجة لهذه التفاعلات تغيرات غير متشابهة تحمل صفات أحد النظامين المركزي أو اللامركزي وتدعم بالتالي بقاءها .

وقد يرد على هذه النتيجة انها تهمل العوامل الثقافية التي تشجع تغير نظم التعليم ، وهي حقيقة لها اهميتها بدورها . فمما لا شك فيه ان فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية شاهدت لو اهتمامات عالمية بثقافة التلميذ وبالعلوم التربوية ، وأنه بسبب هذا الاهتمام بالتلميذ والعلم والتربية أن اصبحت نفس الكتب تعالج نفس الموضوعات وتستجيب لنفس القيم ، مما يمثل قوة دافعة لاحداث التغير ، وهي تدفع الانظمة الدولية لتعالج نفس المشاكل وتستخدم نفس الوسائل لتصل الى نفس الحلول والنتائج .

ومع ذلك ، فان هذه القوى الثقافية بالرغم من اتجاهها الى مؤثرات عالية ، لا زال عليها ان تناضل ضد نظم التعليم الموجودة ، وضد القوى التي تدافع عن وجود هذه النظم واستمرارها .

وقد يكون من المفيد بالرغم من كل هذا ان تعمل هذه المؤثرات الثقافية في الاتجاه المطلوب بدلاً من ان تعمل ضده حتى يأتي الوقت الذي تختفي فيه الاختلافات بين النظم المركزية واللامركزية .

***

التفرقة العنصرية

دراسة تحليلية للفرد والمجتمع *

تأليف: كريستوفر باجلي
وجاجندرا فيرما
عرض وتحليل: فاروق محمد العادلي

هذا الكتاب الذي بين أيدينا، يعالج قضية من أهم القضايا التي ما زال يعاني منها عالمنا المعاصر، رغم ما يقعه من شأو حضاري ضخم، وتعني بها مشكلة التعصب العنصري، كما انه يعد واحدا من الكتب الحديثة والهامة التي تتصدى لتحليل هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة من زاويتي المجتمع والفرد، داخل الاطار التحليلي والمنهجي لكل من علمي الاجتماع والنفس.

وقد أنجز هذه الدراسة اثنان من العلماء الانجليز، أولهما هو الدكتور كريستوفر باجلي أستاذ الاجتماع المشارك بجامعة سيري Surrey منذ عام ١٩٧٢، وله مؤلفات عديدة أهمها علم النفس الاجتماعي للطفل المصاب بالصرع، المجتمع المولندي متعدد الأجناس ـ دراسة مقارنة في العلاقات بين السلالات البشرية. كما أن الدكتور باجلي يعد واحدا من المتخصصين الانجليز القلائل في دراسة موضوعات التعصب والتمييز العنصري، وله فيها بحوث متعددة نشرت في المجلات العلمية المتخصصة منذ عام ١٩٧٠، ومن هذه البحوث التعصب العرقي والشخصية المحافظة، العلاقة بين الدين والتعصب العرقي في أوربا، أنماط الزواج العرقي المتبادل في بريطانيا، الدين والتمييز العنصري والطبقة الاجتماعية: دراسة من منظور أوربي. كما اهتم بدراسة الاتجاهات العرقية المتبادلة والسلوك في مدارس بريطانية متعددة الأجناس. أما المؤلف الثاني لهذا الكتاب فهو جاجندرا فيرما المحاضر الاول لعلم النفس في مدرسة الدراسات العليا لبحوث التعليم التابعة لجامعة برادفورد Bradford. وقد حرر وساهم في كتاب نحو اصدار حكم: تقديم مشروع منهج الانسانيات. كما شارك في تأليف كتاب مشاكل وآثار التعليم المرتبط بعلاقات العرق أو السلالة.

وقد ساهم كل من دكتور باجلي ودكتور فيرما معا في التحرير والكتابة في عدد من الكتب أهمها: السلالة والتعليم عبر الثقافات، السلالة والتعليم والهوية.

(*) الكتاب: Christopher Bagley & Gajendra K. Verma, Racial Prejudice, the Individual and Society, Saxon House, Hampshire, 1979.

كما ساهما مع كانكامالك ولوريتا يونج Kanka Mallick and Loretta Young في تتمة كتاب الشخصية وتقدير الذات والتعصب . كما قاما معا بالاشتراك مع كانكامالك في تأليف كتاب عن اصلاح التعليم في المرحلة الثانوية في الهند ، نشر تحت عنوان : الوهم والحقيقة في التعليم الثانوي الهندي .

ولعل موضوع العلاقات العرقية بصفة عامة قد اجتذب لدراسته علماء من تخصصات مختلفة وعديدة ، منها علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والنفس الاجتماعي . ولا شك ان طبيعة العلاقات القائمة بين المجموعات البشرية التي تنتمي الى أصول عرقية مختلفة يمكن تمييزها ، او يفترض ان يكون تمييزها ممكنا على أساس الخصائص الفيزيقية ، هي مسألة أثارت الاهتمام بين عدد كبير من المفكرين والعلماء ، اذ نجدهم يتساءلون عما اذا كانت تلك الاختلافات الفيزيقية لها ما يقابلها على الصعيدين العقلي والاخلاقي . كما يتساءلون عما اذا كانت هذه الاختلافات تجعل التعايش السلمي بين الشعوب المختلفة غاية في الصعوبة . ويطرح هذه الأسئلة أناس يهمهم قيام علاقات اكثر مودة وصداقة بين الشعوب المختلفة في ألوان بشرتها كما هو الحال الآن . ويهتم الناس في بريطانيا بالمصاعب التي يخلقها المهاجرون من دول الكومنولث ، والعنف الذي ينفجر أحيانا بينهم وبين جيرانهم . اما في أمريكا فتشغل فكرهم سياسة دمج الزنوج والبيض والمقاومة التي تواجهها هذه السياسة .

ولقد اختلطت وتضاربت منذ عشرينات هذا القرن المفاهيم والظواهر التي تدور حول مصطلحات التعصب Prejudice ، التمييز Discrimination الاتجاه Attitude ، الحكم النمطي Stereotype والصورة Image . وهي مفاهيم لا زالت تحوق حتى الآن الوضوح النظري والتدقيق العلمي في هذا الصدد .

وقد قام المؤلفان بكتابة مجلدين يعالجان فيها الاتجاهات المتعصبة ، وبصفة خاصة ظواهر التعصب ضد الاقليات العرقية في بريطانيا ، وتم بحث ظواهر التعصب العنصري من زاوية تكاملية تأخذ في اعتبارها المدخل الثقافي ، ومدخل النسق الاجتماعي ، ومدخل الشخصية . وقد استفاد الكاتبان في تطبيقهما للطريقة التكاملية في معالجة ظواهر التعصب من مؤلفات جوردون البورت Gordon Allport عن التعصب وطبيعته ، وكذلك مؤلفات تالكوت بارسونز وادوارد شيلز Talcott Parsons & Edward Shills ولا سيما كتابهما الأشهر « نحو نظرية عامة للفعل الاجتماعي » . وفي المجلد الاول (*) من دراسة التعصب تركز الاهتمام على المتغيرات الثقافية والنفسية لدراسة التعصب في بريطانيا والاراضي المنخفضة Nether Lands . وقد أوضحت الدراسة ان اتجاهات التعصب أقل شيوعا في الاراضي المنخفضة عنها في بريطانيا .

أما المجلد الثاني الذي نتناوله هنا بالعرض والتحليل والنقد ، فقد ناقش المؤلفان فيه بالتفصيل عوامل التعصب الراجعة الى النسق الاجتماعي ، والتي تتوسط بين التعبير عن الرأي المتعصب والممارسة الواقعية للتعصب . وتأخذ الدراسة في اعتبارها مركبا من المقامات المختلفة كالسن والتعليم والطبقة الاجتماعية التي تؤدي بالناس الى الميل الى التسامح او التعصب . كما تأخذ في اعتبارها عوامل خاصة بأحوال السكن ومستوياته ، والحرمان النسبي ، وتأثير الجماعة المرجعية ، والاتصال ، والحركة الاجتماعية ، وغير ذلك من العوامل التي يمكن ان تسهم في تنمية الميل نحو التعصب . كما اهتم المؤلفان كذلك بابراز الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيري في تنمية الاتجاهات المتعصبة .

وتحدد الدراسة التعصب على النحو التالي : « اتجاه سالب موجه نحو الجماعات العرقية او جماعات الاقلية (كبرهان على المعارضة) المرتبطة بدرجات ومستويات مختلفة من الظهور والتفصيل العرقي ، وبمختلف المظاهر المعرفية والتأثيرية والاستعدادات السلوكية المتضمنة في

(*) : راجع ـ C. Bagley, G. Verma, K. Mallick and L. Young, Personality, Self-esteem and Prejudice, Farnborough, Saxon House, 1979.

الاتجاه . وهذه الاتجاهات يمكن التعبير عنها بشكل ضمني على المستوى النمطي والسلوكي المنظم . او بشكل واضح وصريح من خلال سلوك سالب أو معاد تجاه الجماعات العرقية المعنية » .

وفي هذه الدراسة تم تعريف الجماعة العرقية بأنها « الجماعة التي تبدو للغالبية العظمى من السكان أنها تمتلك خصائص ثقافية وسلالية ودينية وقومية ولغوية مميزة » . كما يدخل في مجال الدراسة أيضا مظاهر التعصب ضد بعض جماعات الاقلية مثل الملونين . والذين لا يمكن تصنيفهم بطبيعة الحال بين الجماعات الاثنية .

أما عن المنهج الذي طبق في هذه الدراسة فهو المنهج الاحصائي بمعاملات الارتباط الاحصائية الخاصة بمقاييس الاتجاهات التي ثبتت صلاحيتها الامبيريقية في دراسات سابقة . ثم تفسير تلك الارتباطات في ضوء الاشكال المتعددة للتحليل . ويذكر المؤلفان أنهما قد استخدما ما يمكن تسميته باسم « المنهج التعددي » الذي يجمع بين مناهج بحث يكمل كل منها الآخر . وإن كان المدخل المنهجي الرئيسي هو التحليل الاحصائي المبني على الطرق التقليدية في علم النفس الاجتماعي . وقد اهتم المؤلفان بتطبيق ما أسماه البورت المدخل الفينومينولوجي (التحليل الظاهراتي) وهو يمثل المرحلة الاخيرة في التوفيق بين مستويات مختلفة من التحليل التاريخي ، والسوسيوثقافي ، والموقفي ، والنفسي ، وكل مستويات التحليل عند تالكوت بارسونز وهي مستويات تحليل الشخصية والنسق الاجتماعي . وهي المستويات التي يمكن ان تستخدم في دراسة التعصب .

القضايا الاساسية التي يثيرها الكتاب

(١) الاتجاه والسلوك كمدخل لدراسة التعصب والتمييز العنصري

ان المعلومات الخاصة التي يمكن ان نعرفها بخصوص اتجاه فرد من الأفراد حيال موضوع ما ، يمكن ان تسمح بالتنبوء بالطريق التي سيتصرف بها بالنسبة لهذا الموضوع .

ومع ذلك فان الاعتقاد السائد بأن الفرد يميل عادة لأن يجعل اتجاهه يتمشى مع سلوكه لا تؤيده الدراسات الامبيريقية تماما بل ان الدراسات تؤكد على ان السلوك هو وظيفة الاتجاه . ومن هنا يجب رؤية السلوك على أساس أنه ينبىء عن الاتجاهات . وليس العكس . فالاتجاهات ماهي الا أفعال افتراضية فحسب . وليست حقيقية كما هو الحال في السلوك . ومن هنا تنشأ مشكلة الربط بين الاتجاه ـ السلوك أو بين التعصب ـ التمييز .

ولعل أبسط حل لتلك المشكلة هو اعتبار الاتجاهات التي يعبر عنها كسلوكيات في حد ذاتها . فالاستجابة للمثير الذي يخلقه الشخص القائم بعملية المقابلة او الاستبيان الاستخباري للمجيب او المبحوث الذي يعبر لفظا او كتابة عن اتجاهاته . يمكن ان تعطينا دليلا واضحا . بمعنى أن الاتجاهات المتعصبة هي شكل من أشكال العداوة اللفظية . وهي على حد تعبير فيرنون Vernon « أفعال مصغرة » actions in miniature .

ويمكن التغلب على تلك العقبة أيضا بالقيام بمقابلات عدة وتوجيه أسئلة مفتوحة النهاية عن اتجاهات الافراد حيال الأقليات العرقية . ففي بداية المقابلات يعطى الافراد الذين تتم مقابلاتهم آراء مضطربة ومتعارضة . ولكن بعد مرور بعض الوقت على المقابلة تترابط وتتسق آراؤهم . ثم في النهاية عند حثهم على التعبير عن آرائهم فانهم يعدلون معتقداتهم من أجل ايجاد نوع من الاستمرار المنطقي بين مشاعرهم وقدرتهم على فهم الحقائق واستعدادهم للسلوك بطريقة معينة في مواقف خاصة . وحيث أن رأى الفرد يعبر عن معتقد معين ينعكس في شكل اتجاه يجب ملاحظته بدقة وادراك التأييد الاجتماعي له في مواقف افتراضية وفعلية .

ويعتبر إنوك بويل Enock Powell ، وهو زعيم بريطاني من أقصى اليمين ، أول من قام بالقاء حديث جد معاد في ميدان العلاقات العنصرية عام ١٩٦٨ ، أعقبه حركة اجتماعية قوية ومعادية للاقليات العنصرية التي تختلف من حيث اللون ، اللغة ... الخ . فقد أظهر السكان البيض على سبيل المثال مزيدا من اتجاهاتهم العدائية في وسائل المواصلات العامة ، حيث ابتدأوا يعبرون بطريقة صريحة

وواضحة عن آرائهم العنصرية في حضور السود ، تلك الآراء التي كانوا يبقونها لأنفسهم او يعبرون عنها في مواقف خاصة . وأحاديث باول التي هي عبارة عن أفعال لفظية قد أظهرت للعيان مظاهر العدوان اللفظية نحو الاقليات العرقية نيابة عن كثير من السكان البريطانيين . وهذا السباب او القذف اللفظي له طبيعة الفعل التمييزي .

لقد أثبتت استطلاعات أجريت للرأي العام في دول عديدة عن طريق التصويت أو الاستفتاء الشعبي أن للاتجاهات دورا هاما في ميدان العلاقات بين السلالات البشرية . وفي انجلترا على سبيل المثال قام معهد جالوب Gallup ومركز بحث الرأي العام بدراسة لموضوع العلاقات العرقية . وقد أخذت وزارة الداخلية البريطانية ببعض نتائج تلك الدراسات . ولعل هذا قد يفسر لنا التحكم في معدلات الهجرة الى بريطانيا في الستينات والسبعينات عموما .

وعلى ذلك فالاتجاه هو مؤشر نتفهم به الموقف للفرد بالنسبة للقيم الاجتماعية . ولذلك فان الاتجاه هو ميل الفرد لفعل معين او استعداده لنوع من أنواع النشاط . بمعنى آخر أن الاتجاه هو استعداد ذاتي للفعل أو لرد الفعل بطريقة معينة ، وهو شكل من أشكال السلوك له نتائج سياسية واجتماعية . والمشكلة الحقيقية تكمن في ذلك التعارض الذي قد يوجد أحيانا بين الاتجاه ـ السلوك ، بمعنى لماذا نفشل في بعض الاحيان السلوكيات اللفظية Verbal behaviours أي (الاتجاهات) في التنبؤ بالسلوكيات غير اللفظية (الافعال) والعكس بالعكس ؟ .

ويرجع الفشل المصاحب لعملية التنبؤ هذه الى عدة عوامل أهمها :

(أ) الفاصل الزمني Time lag بين الوقت الذي يستطلع فيه رأي الفرد وممارسته الفعلية للسلوك ، اذ قد يمر وقت طويل يجعل الفرد يغير من اتجاهه وبالتالي سلوكه . فالمشكلة تكمن هنا في تغير الاتجاهات ، وأيضا في اتساق واستمرارية ثنائية الاتجاه ـ السلوك ، التي تتأثر بمرور الوقت تحت تأثير الجماعات المرجعية ، الضغوط الموقفية ، غموض القيمة ..... الخ .

(ب) تكمن صعوبة تنبؤ السلوك المحتمل من دراسة الاتجاهات في عملية قياس الاتجاهات ذاتها . فالادوات المستخدمة في قياس الاتجاهات عادة ما تكون عرضة لعدد من الاخطاء ، كما أن قياس السلوك ليس عملا هينا ، فما قد يبدو على أنه سلوك تمييزي أو اضطهادي (كالعداوة الشخصية المتبادلة) يتطلب بعض مقاييس الملاحظة الموضوعية الدقيقة .

(جـ) من الاهمية بمكان قياس الاتجاهات المرتبطة منطقيا بالسلوك ، وما يدعو لدهشة أن هذا لا يتم دائما . فهناك اتفاق عام بين علماء النفس الاجتماعي ان الاتجاهات تتكون من عناصر ثلاثة : معرفية (المعتقدات) ، تأثيرية (المشاعر) ، سلوكية (نوايا الفعل أو التصرف) . والمشكلة تتركز في العنصرين الاولين ، لأنه يمكن التنبؤ بصورة أفضل من خلال الاتجاهات التي تقيس النوايا والأهداف السلوكية بعكس العنصرين الآخرين . هذا الى أن العلاقات بين المعتقدات والمشاعر والمقاصد السلوكية قد تكون ضعيفة الى حدما .

(د) كما ان الادوات المستخدمة في قياس الاتجاهات قد تعطينا مقاييس غير دقيقة ، وقد اتضح ذلك كثيرا . وعلى سبيل المثال وجهت نفس الاسئلة في قياس للاتجاه قدره جوتمان Guttman ثم قدره بعد ذلك ليكرت Likert عن طريق وسائل بحث كل منهما . وقد دلت النتائج على أن الاتجاهات كانت مؤيدة للهدف المقصود منها حينما تم قياسها بأسلوب جوتمان .

(هـ) وأخيرا يوجد عدد من الاخطاء في المقاييس التقليدية والتي قد تقيس التعصب بدرجة أقل مثل الاجابة بنعم بغض النظر عن محتوى الموضوع ، أو اختيار المواقف المتطرفة ، او اختيار الموضوع أو الموضوعات التي ذكرها الشخص الاول ، او اختيار الرقم ٣ في المجموعة المكونة من أرقام (٤،٣،٢،١) وهذا تحيز مركزي أو توسطي لاحظه باجل في السلوك الانتخابي . ومن هنا يقترح فيشبين Fishbein اللجوء الى مقياس شامل للاتجاه على أساس التدرج بعدد من الخصائص (المعتقدات) التي تجعل الفرد

يختار بعض الميول السلوكية التي تكشف عن درجة التمييز أو الاضطهاد العنصري . كما ينبغي أن تتنوع الاسئلة عن المشاعر والمعتقدات والخبرات والميول او النزعات السلوكية . وكيف يفكر ويشعر الافراد حول مختلف الموضوعات والقضايا المطروحة . ويجب أيضا التمييز بين الاتجاهات نحو الموضوع عامة (الرجل الاسود) ونحو الموقف الفعلي (موقف العمل مثلا) . ويؤيد ماكينل Mckennel ضرورة أجراء مقابلات استطرادية ذات نهايات مفتوحة حول الموضوعات المقترح بحثها قبل تصميم أى مقياس للاتجاهات .

ويجدر الاشارة بأن الاتجاهات قد لا تكون وسيلة ناجعة للتنبؤ في مجال التعصب والتميز ، لأن بعض الناس لديهم القدرة على التعبير او الوصف اللفظي للآراء التي تتفق مع القيم المعلنة او المصرح بها للغالبية العظمى ، مع أن الاتجاهات السلوكية لجماعاتهم الحقيقية وكذلك سلوكهم الفعل الحقيقي تختلف تماما عن سلوك الغالبية العظمى من الناس . ومن هنا يجب ملاحظة تأثير عوامل الضبط الاجتماعي المختلفة وأثرها في قيم الافراد وسلوكهم في مواقف متعددة ، وكذلك تغير قيم الناس نتيجة عمليات التغير الاجتماعي والاقتصادي ، ولا سيما في المجتمعات الصناعية .

كل هذه مشكلات ينبغي أن نراعي بدقة لحل مشكلة التناقض بين الاتجاه والسلوك الفعلي ، لكي يمكن ان تتسق وتترابط الاتجاهات المتعصبة مع السلوك التمييزي او الاضطهادي .

وقد اوضحت الدراسة الحالية أن هناك تشابها ملحوظا في النتائج بين سكان كل من انجلترا وويلز بخصوص الآراء المتعصبة ضد الاقليات العنصرية . وتبلغ نسبة غلاة المتعصبين من المبحوثين حوالي ٢٠٪ طبقا لمستوى تقييم الدراسة . وأوضحت الدراسة كذلك أن مجالات التمييز العنصري تتركز أساسا في مجال الاستخدام والسكن . وقد غطت أسئلة الاستبيان مجال المشاعر والمعتقدات والاستعدادات السلوكية للمبحوثين بالنسبة للاقليات العنصرية . وأخذت الدراسة في اعتبارها قدرة الافراد على الممارسة الفعلية للاضطهاد او التمييز العنصري عن طريق تصور مواقف افتراضية ، لأن بعض الافراد قد لا يكون في امكانهم وقدرتهم ممارسة عملية التمييز رغم اظهارهم للتعصب . وقد قسمت مستويات التعصب الى مرتفعة ومتوسطة ومنخفضة في نموذج افتراضي لمختلف مستويات التعصب في بريطانيا . ويحتوى النموذج على مجموعات ثلاث تشكل الاولى نسبة ١٥٪ والثانية نسبة ٧٠٪ والثالثة نسبة ١٥٪ من السكان على التوالي . وأخذت الدراسة بثلاث خصائص أو سمات بارزة للاتجاهات كمتغيرات تم اهمالها في بحوث الاتجاهات ، وهي على حد تعبير بترسون Peterson ودتون Dutton : التمركزية centrality ، والتطرفية Extremity ، والكثافة (القوة) Intensity والتي تعد من وجهة نظر هذه الدراسة عوامل هامة في حلقة الاتجاه ـ السلوك . إذ كلما زادت درجة مركزية « الموضوع » بالنسبة للاتجاهات التي يتم تكوينها لدى الفرد زادت درجة تطرف الفرد في التعبير عن اتجاهه ، وكلما زادت بشكل متعاظم قوة اقتناعه بالنسبة للموضوع موضع التساؤل ، زاد بالتالي رجحان أن يسلك بطريقة تتسق مع اتجاهاته .

لذا فان اتجاهات المجموعة المتطرفة في التعبير عن ارائها المتعصبة تنبىء بشكل طيب بالسلوك التمييزي المتوقع ، كما ان اتجاهاتها التي يتم التعبير عنها تستمر ثابتة لفترة طويلة من الوقت . أما بالنسبة لاتجاهات أفراد المجموعة الوسطى ، فان الشخص المعتدل في اتجاهاته يتمسك بأرائه بشكل أقل قوة من أفراد المجموعة الاولى ، كما أن أراءه تتغير بشكل اسرع بمرور الوقت . وبالتالي لا تترابط اتجاهاته المعرفية والتأثيرية واستعداداته السلوكية . وترجع الدراسة الاختلافات في الاتجاهات المتعصبة خلال السنوات العشر الاخيرة في بريطانيا الى الاتجاهات المتغيرة في تلك المجموعة . ومن المحتمل أن توجد صعوبة في التنبؤ بالسلوك المرتقب من خلال اتجاهات هذه المجموعة ، نظرا للتضارب بالقيم المناسبة والمستويات المعيارية والافتقار للوضوح فيما يختص بالجماعات المرجعية . كما أن المواقف الفعلية قد تغير اتجاهات أفراد تلك المجموعة ، وبالتالي فان السلوك في مواقف فعلية يختلف عن ذلك الذي يكون قد تم التنبؤ به . وعلى ذلك فأفراد هذه المجموعة يمارسون التمييز

العنصري حينما تسنح الفرصة لذلك . كما تخضع اتجاهات أفراد هذه المجموعة لتأثير الصحافة والاذاعة المسموعة والمرئية . وكذلك لتأثير الزعماء السياسيين . ولتأثير التعليم أيضا الذي يلعب دورا اساسيا في تخفيف حدة التعصب بين أفراد تلك المجموعة كما أثبت ذلك كل من فيرما وباجلي عام ١٩٧٩ في دراستهما عن « التقدير الذاتي والتعصب بين المراهقين الانجليز » . ويشكل أفراد هذه المجموعة المعتدلة الاتجاه « جماعة تابعة » بمعنى ان اتجاهاتهم من المحتمل ان تتغير كلما تغيرت اتجاهات جماعتهم المرجعية . وقد أثبتت الدراسة بشكل واضح ان استقلال معايير الجماعة ترتبط في الواقع بكل من التعصب المتطرف والتسامح المفرط .

وقد تناولت الدراسة عددا من المؤشرات المحتملة لظاهرة التعصب من خلال الاستجابات المختلفة لأسئلة الاستبيانات المستخدمة في مسح اجتماعي لهذه الظاهرة في خمس مدن انجليزية لها ممثلون في البرلمان . واختبرت هذه المؤشرات لمعرفة مدى ترابطها في مجالات اجتماعية وسيكولوجية متعددة . حيث طبقت في مجريات الدراسة في المدارس وبين المراهقين وكبار السن وأفراد الطبقة العاملة بمختلف مستوياتهم . كما دعمت الدراسة ببعض المقارنات الاحصائية المفيدة المستمدة من دراسة التعصب والتمييز في بلدان أخرى .

(٢) الاطار الاجتماعي للتعصب العنصري

تناولت الدراسة بالتفصيل علاقة النسق الاجتماعي بمستويات التعصب العنصري . وحددت أهم العوامل الاجتماعية التي تجعل الافراد يميلون الى اختيار الاتجاهات المتعصبة مثل الطبقة الاجتماعية . السن . التعليم . المكانة الاجتماعية . الحرمان النسبي . الحراك الاجتماعي . وكان الاهتمام الرئيسي موجها الى العلاقات الترابطية للتعصب العنصري أكثر مما هو موجه الى المستويات المطلقة للتعصب . وأثبتت الدراسة أن معدلات التعصب في تزايد مستمر . كما وجدت أن أفراد الطبقة العاملة عموما يميلون الى أن يكونوا أكثر تعصبا من أفراد الطبقة المتوسطة الذين تم بحثهم . وعلى أية حال فقد كان العمال المهرة أكثر تعصبا من معظم الافراد الذين يعانون من الحرمان . ومع أن مستوى التعصب يزداد عامة مع ازدياد السن . فان الافراد المستجيبين الاصغر سنا الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الثانوية الحديثة كانوا أكثر تعصبا . وكان أقل الافراد تعصبا هم أولئك الذين تلقوا مزيدا من التعليم او تلقوا تعليما عاليا . والذين يتميزون بصغر السن وبانتمائهم للطبقة الوسطى . ومع ذلك ففي هذه الجماعة المميزة . أبدى حوالي عشر المبحوثين درجة عالية من العداء العنصري .

وبالنسبة للطبقة الاجتماعية اتضح شيوع وانتشار التعصب بين أفراد الطبقة العاملة . ولا سيما هؤلاء الذين ما زالوا يحتفظون ببعض بقايا المكانات الاجتماعية التقليدية . وتذهب الدراسة الى أن عملية المغالاة في التعصب الاجتماعي التي تعد مقبولة من أقسام ضخمة من الطبقة العاملة البريطانية خلال نصف القرن الاخير . تتضمن عنصرا قويا من عناصر الاهتمام بالسلطة وقيم السلطة الامبراطورية وسيطرتها التي تعزز وتدعم الاتجاهات والنظم العنصرية . وحددت الدراسة نوعا من أنواع التعصب الايديولوجي ، الاول يمثل وجهة النظر الرسمية او التقليدية التي تنظر للتفوق العنصري البريطاني كنظام طبيعي للامبراطورية يؤدي الى تدبير دقيق وحكيم لصالح من هم أول من البشر . أما الشكل الثاني فيمثل العنصرية السوقية أو المبتذلة التي تؤكد النقص والاحساس بالدونية للسود والآسيويين . والتي تتخذ شكل تعبيرات نابية تكشف بصراحة عن التعصب والتمييز العنصري . ومن المحتمل أن الاغلبية العظمى من الانجليز يؤيدون النوع الاول من التعصب العنصري . بينما أقسام من الطبقة الوسطى الدنيا والطبقة العاملة يقرون كذلك الشكل الثاني من أشكال التعصب العنصري . وتذهب الدراسة الى أن التعصب السوقي في المجتمع البريطاني الحديث يمكن أن يصبح (كما هو الحال في المجتمعات في أزمنة مبكرة) مقبولا الى حد بعيد . وبالتالي يمكن أن يؤثر بسهولة على سياسة الحكومة .

وترتبط مظاهر المكانة الاجتماعية الراجعة الى السن والتعليم والطبقة الاجتماعية بالتعصب بنسب متفاوتة ، وتعد العلاقات بين هذه المظاهر والتعصب معقدة ، كما تتسم بعدم

الثبات . ويستثنى من ذلك التعليم فقط ، حيث تجد العلاقة بينه وبين التعصب علاقة مباشرة وواضحة المعالم . فالفرد الاكثر تعلما بصفة عامة يكون أقل تعصبا ، ويتميز هذا الموقف بقدر كبير من الثبات . ومع ان العمال اليدويين (ذوو الياقات الزرقاء) هم عموما أكثر تعصبا من العاملين في المهن الادارية والكتابية (ذوو الياقات البيضاء) ، فان أكثر فئات العمال تعصبا هم فئة العمال من كبار السن الذين لا يمارسون اعمالا يدوية ويوجدون عادة في المهن الادارية والكتابية الدنيا ، وتلقوا تعلما أوليا فقط .

ومن المحتمل ان يرتبط التعصب الذى يبديه بعض كبار السن بأنواع متعددة من الاغتراب ، كما أن المستويات العليا من التعصب غالبا ماتوجد بين المراهقين ، حيث يرتبط تعصبهم بنوع مختلف من الاغتراب . وقد حاولت الدراسة تقديم تفسير للمستويات العليا من التعصب في الطبقة العاملة البريطانية (بما في ذلك الذين صوتوا في صالح حزب العمال) ، فأرجعت ذلك الى انتشار القيم الخاصة « بالشوفينيه » أو التعصب الوطني الذى يمثل قوة تعمل على تكامل المجتمع البريطاني . وفي ضوء البناء الطبقي القائم أوضحت الدراسة أن هؤلاء الذين يقومون بالاعمال اليدوية لاسيا الدنيا منها ، لايعدون داخل الطبقة العاملة الحقيقية ، اذ أن هؤلاء يمثلون البشر المستغلين من المستعمرات السابقة ، والذين هاجر بعضهم الآن الى العاصمة . ولقد اختفى الآن بقايا المكانة التي طالما تمتع بها العمال البريطانيون ، حيث ان المستوطنين السود والآسيويين يحاولون الآن الحراك الى أعلى . وهذا الامتعاض والاستياء الراجع الى المكانة قد يكون هو سبب بعض الميول المتعصبة التى أظهرها العمال البريطانيون البيض . ولاشك أن وضع الاقليات العرقية في منزلة اجتماعية أدنى من البيض ، قد يكون طريقا لتعزيز مكانة الافراد من البيض . وقد أظهرت دراسات متعددة أن مشاعر الحرمان النسبي تلعب دورا هاما في التأثير في الاتجاهات العنصرية . فالأفراد المحرومون ذاتيا قد يكونون أكثر تعصبا من الآخرين .

وقد اثبتت الدراسة أن الهيئة الاجتماعية والرضا الذاتي المرتبطين بمختلف المكانات ، واتساق المكانات ، تجعل الافراد يميلون الى الاتجاهات المتعصبة تجاه الاقليات العرقية . ولعل الكراهية التي تظهر تجاه الاقليات قد تكون طريقة للتعبير عن الاحباط (الذى تستخدم فيه جماعات الاقلية من الملونين بوصفها كباشا للفداء) . كما ان الكراهية قد تستند الى الحقيقة القائلة بأن جماعات الاقلية تشغل مكانات يمكن ان تهدد المكانة الاجتماعية التى تتمتع بها بعض الجماعات التقليدية ، مثل جماعة الطبقة العاملة من البيض الاصليين .

وللأفراد عدد من المكانات ، منها ما يتعلق بما تلقاه الفرد من تعليم ، او بما يشغله من مهنة ، او بما يحصل عليه من دخل ، وكذلك نوع الجماعة العرقية التي ينتمي اليها . ولاشك أن الهيبة المرتبطة بمستويات تلك المكانات تبدو على جانب كبير من الاهمية لكثير من الافراد . ولذلك فان فقدان الاثابة والتقدير الاجتماعي الراجع الى الاستحقاق ببعض المكانات المرتبطة بالأصول العرقية للآخرين ، يؤدى الى الحرمان النسبي الذى يعاني منه الافراد المتوقعون لبعض المزايا الاجتماعية مثل الاثابة والتقدير . وهذا الحرمان قد يكون من طبيعة ذاتية أو أنانية ، ولكن كلا النوعين من الحرمان يرتبط بازدياد مستويات التعصب .

واستنادا الى بيانات المسوح البريطانية ، فقد تم اختبار الفروض المشتقة من القضايا التى صاغها دوركيم حول السلطة وحرية الافراد في الانتقال داخل المكانات غير المتسقة ، كالمكانات التي تتحدد في ضوء العمر والجنس والزواج والتعليم ... الخ . كما أوضحت هذه الفروض عاملا هاما أسهم في تحديد الاتجاهات المتصلة بالتعصب وهو ما يمكن ان يطلق عليه « بالعزلة عن المكانة الاجتماعية » . ففيما يتعلق بصغار السن تجد ارتباطا ملحوظا بين وجود هذه المكانات غير المتسقة من ناحية ، والتسامح من ناحية أخرى . بينما تجد بالنسبة لكبار السن أن جماعات المكانة غير المتسقة غالبا ماترتبط بالتعصب .

وقد فسرت الدراسة النتيجة التي مؤداها أن جماعات يمكن ان تتحرك بطريقة طوعية نحو مكانات خاصة ، وذلك في ضوء تصورات ماكس فيبر السوسيولوجية عن جماعات

لمكانة . تلك الجماعات التي تتخذ وجودا مستقلا نسبيا عن الطبقات الاجتماعية الاساسية المستندة الى علاقتها بوسائل الانتاج .

كما أوضحت البيانات المتعلقة بالمجتمع البريطاني ارتباطا ملحوظا بين الحراك الاجتماعي والتعصب . فالحراك الاجتماعي الصاعد الى المهن الفنية العليا والادارية يرتبط بانخفاض ملحوظ في مدى قوة اتجاهات التعصب . بينما يرتبط الحراك الاجتماعي الهابط بقوة ملحوظة في الاتجاهات نحو التعصب العنصري . اما العوامل المؤثرة على هذا الحراك فهي مستقلة تماما عن عوامل اخرى مثل العمر ومستوى التعليم والمستوى المهني ، بل وعدم الاتساق في المكانة الاجتماعية كأن تكون المكانة التعليمية أعلى من المكانة المهنية مثلا . أما العزلة عن المكانة فقد ارتبطت أيضا بالتعصب . فالافراد الذين ينتمون الى مكانات غير متسقة وفئات عمرية شابة ، هم أقل ميلا للتعصب من الافراد الآخرين . غير أن هذه العلاقة أقل وضوحا بالنسبة لمتوسطي العمر . ولكن العلاقة ما تلبث أن تتخذ اتجاها معاكسا بالنسبة لكبار السن . وهنا نجد أن الانتماء الى مكانات غير متسقة يرتبط بالتعصب . وقد فسرت الدراسة هذه النتيجة في ضوء مفهومي « المكانة المكتسبة » ، و« المكانة المفروضة » التي ترجع لعوامل وراثية او عنصرية . وبالنسبة للفئة العمرية الشابة نجد أن المكانات غير المتسقة تكون نتيجة لبعض الانجازات الطوعية ، بينما تكون بالنسبة لكبار السن نتيجة للعزو ، بمعنى أن عدم اتساق هذه المكانات يكون مفروضا عليهم . أما النمط النهائي لنسق المكانات فيظل مؤشرا هاما بالنسبة للتعصب ، خاصة اذا ما ثبتنا جميع العوامل الاخرى المتصلة بهذه القضية .

وأخيرا يجب أن نلاحظ أن العوامل المختلفة مثل السن ، والمستوى التعليمي والمهني ، والتركيبات المتعددة للمكانة ومشاعر الحرمان النسبي ، يمكن عند ضمها معا أن تشرح لنا جزءا من الاختلاف في مقياس التعصب الذي استخدمته الدراسة . ومن الواضح ان تنوعا اكثر لمقاييس النسق الاجتماعي يجب أن يستخدم ، بالاضافة الى مقاييس الثقافة والشخصية ، قبل أن نبدأ في تقدير أو حساب التعصب بطريقة احصائية مرضية . وكما ثبت من دراسة التعصب في المجلد الآخر ، فان كثيرا من الافراد الذين لم يبدوا أي ميول اجتماعية أو نفسية تدل على التعصب ، أظهروا رغم ذلك قدرا كبيرا من التعصب . وقد يكون سبب ذلك اختزانهم ذاتيا لتعصبات طبيعية من خلال عمليات التنشئة المعتادة سواء في نطاق الأسرة أو جماعة النبلاء ، أو من خلال الأنساق التعليمية ووسائل الاتصال الجماهيري .

(٣) التعصب وعلاقته بكل من الاتصال ووسائل الاتصال الجماهيري

أوضحت الدراسات السابقة التي استعانت بها الدراسة أن الاتصال ومزاملة الاقليات العرقية يرتبط ايجابا وسلبا بالعداوة العنصرية ، وذلك طبقا لنمط أو نوع الاتصال أو المزاملة . كذلك أشارت الدراسات البريطانية الى أن العلاقات السائدة بين الجماعات العرقية القائمة تؤدي الى تخفيف حدة التعصب بدرجة محدودة ، وان كانت الجماعات التي تعيش على مقربة من الاقليات العنصرية قد تكشف عن تعصب مرتفع إزاء السكان البيض . ومع ذلك فقد لوحظ في المدارس أن الاتصال بالاقليات العرقية لم يؤد الى تناقص حدة التعصب أكثر مما تزيد من مدى التسامح وذلك بسبب نسق التدرج الاجتماعي داخل النظام التعليمي وما يرتبط به من رموز المكانة .

وفيما يتعلق بجماعات الجيرة ، فقد أوضحت الدراسة أن الافراد المرتبطين بهذه الجماعات يكونون أكثر تعصبا من غيرهم . اذ أن هؤلاء الافراد قد يكون لديهم توجهات جماعية . بينما الافراد الذين يحصلون على توجهاتهم من جماعات مرجعية أخرى خارج نطاق المجتمع المحلي ، هم أولئك الذين يشغلون مكانات اجتماعية غير متسقة . وهؤلاء الافراد يكشفون عن اتجاهات أقل تعصبا . كذلك أوضحت الدراسة أن الافراد الذين يحققون اكتفاء ذاتيا (في ضوء بيانات الاختبار النفسي الذي تناول المدارس الثانوية) يكونون أكثر توجها نحو الجماعات الثانوية (اللاشخصية) التي تتجاوز في نطاقها المجال المحدود الذي يعيشون فيه .

أما بالنسبة لتأثير وسائل الاتصال الجماهيرى ، فقد قامت الدراسة بالتركيز على تأثير وسيلتين اعلاميتين هامتين هما الصحافة والاذاعة المرئية (التليفــزيون) ، حيث أوضحت أن التلفزيون يعمل على تشكيل اتجاهات الافراد ، لاسيا وأنه عبارة عن منظمة قوية ينظر اليها بتقدير لأنها تقدم شخصيات نمطية يحتذيها الافراد . وبذلك يمكن أن يساهم التلفزيون في « ثقافة التعصب » ، حيث يقوم بتقديم قيم يمكن أن يقبلها كثير من الافراد الذين يشاهدون برامجه دون أى تساؤل أومناقشة ، أو بشكل ضمنى على الاقل .

وتؤثر برامج التلفزيون في الاتجاهات بشكل خاص حينما تكون الرسالة المنقولة « سلبية » تصور الانماط العامة الثابتة التي لاتتغير للاقليات العرقية ، ويقوم بالتعبير عن هذه الرسالة شخصيات عامة محبوبة ذات ميول وآراء عنصرية . ومثل هذه الرسالة ـ كما أثبتت الدراسة ـ يكون احتمال نجاحها أو تأثيرها كبيرا جدا مما يؤدى الى زيادة حدة التعصب العنصرى .

أما بالنسبة للصحافة ، فالدور الذى تقوم به يمكن ان يعضد الاتجاهات المتعصبة القائمة . فالصحافة قد كثيرا من الناس « بمخرج » هام كى يعبروا به عن اتجاهاتهم العنصرية المعادية في شكل خطابات مطبوعة يقومون بارسالها الى المحرر (كما حدث مثلا بعد أن ألقى أنوك باول خطابه المعادى) وهذه الخطابات قد تؤثر في سياسة تحرير بعض الصحف ، ويكون من أثرها تعبئة الرأى العام صوب التعصب ، الذى قد يترتب عليه بعض النتائج السياسية مثل وضع قيود جديدة على الهجرة بغية تضييق نطاقها الى أقصى درجة ممكنة .

خاتمة :

يذكر مؤلفا الكتاب في نهايته أن الهدف الفعلى منه هو تقديم فهم شامل لظاهرة التعصب العنصرى ، اكثر منه وضع برنامج للعمل الاجتماعي . ومع ذلك يهتان بصفة خاصة بابراز دور التعليم لما له من أثر فعال في تخفيف حدة الميل الى التعصب والتمييز . وكحل على المدى الطويل يديشان دور التعليم في اعاقة الاتجاهات المتعصبة ، لاسيا تلك الاتجاهات ذات الطبيعة العرقية والانفعالية . فالتعليم والتعصب يرتبطان عكسيا ، ومن الممكن تحسين التعليم كما ونوعا لجميع السكان . وهذا يتطلب عدة تغييرات جوهرية يجب ان تطرأ على منهاج الدراسة التعليمى ، ذلك المنهاج الذى يجب ألا يكون عنصريا في جميع مراحل التعليم ، لاسيا وأن « ثقافة التعصب » ـ على حد قولهما ـ تتخلل كثيرا التفكير البريطاني ، مما يستلزم تغييرا أساسيا يجب أن يطرأ على قيم المجتمع البريطاني ذاته . ولن يكون للتعليم أثره المرجو في التخفيف من التعصب مالم يلازمه تعضيد سلوكى يستهدف تغيير الآراء والمعتقدات ، على أن يصاحب كل هذا تغييرات في الأنماط والنظم الاجتماعية .

نظرة نقدية شاملة

مما لاشك فيه ان الكتاب يعد اضافة لها قيمتها في مجال دراسة ظاهرة التعصب من وجهة النظر الامبيريقية على الاقل ، اذ أنه يبرز لنا نموذجا واقعيا لدراسة هذه الظاهرة في المجتمع البريطاني ، وبالتالي تثرى هذه الدراسة الامبيريقية مجال البحوث التي تجرى على ظاهرة التعصب عموما . الا أننا ونحن في مجال تقويم الدراسة ، تبرز عدة ملاحظات شكلية وموضوعية ومنهجية ، ولامندوحة ، من عرضها ومناقشتها على النحو التالي :

(١) عدم التمييز بشكل واضح منذ البداية بين التعصب والتمييز ، وعدم ايراد تعريفات كافية ومناقشتها . لم تميز الدراسة بشكل واضح على مستوى التحليل النظرى بين كل من التعصب (التحيز) والتمييز (الاضطهاد) ، ورغم تعريف الدراسة للتعصب منذ البداية تعريفا دقيقا ، الا أنه لم تجر عملية التمييز تلك رغم ان المؤلفين كانا واعيين لتلك التفرقة على المستوى الامبيريقى . وهناك فرق كبير بين التعصب العنصرى وبين التمييز العنصرى . فالاول حالة عقلية شخصية ، بينما الثاني عمل ايجابى ضد أفراد من العناصر الاخرى ـ سواء أكان هذا العمل فرديا أو جماعيا . ووظيفة التعصب هي وظيفة نفسية ، بينما التحيز العنصرى وضع اجتماعي يؤثر كثيرا في المجتمع . ووظيفة التمييز العنصرى الرئيسية هي فرض وضع اجتماعى خاص

لكل عنصر من العناصر المختلفة . وبواسطته يمكن للمجموعات التي تملك النفوذ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي أن تحكم سيطرتها على الجماعات المستضعفة وهي جماعات الاقلية .

وتختلف العلاقة بين أية مجموعتين عرقيتين باختلاف النسبة العددية لكل منها ، ونفوذ كل منها الاقتصادى والاجتماعي والسياسي . ففي المجتمعات التي تسودها المساواة بين الاجناس والطبقات ، لابد أن يكون للمجموعة الاكثر عددا نوع من النفوذ والقوة ، لأن هذه المجموعة هي التي تمثل العدد الاكبر من أفراد الشعب . ولكن مثل هذه المساواة لاوجود لها في جميع المجتمعات : ولذلك فقد تكون الاقلية في وضع مساو للاغلبية ، أو في مركز ممتاز عنها ـ كما هو الحال في المستعمرات مثلا ، أو كما هو الحال في النفوذ الاقتصادى لليهود في بعض دول العالم . وهو وضع يشعر معه أفراد جماعة الاقلية بالخوف من انقلاب هذا الوضع الاجتماعي غير الطبقى .

أما بالنسبة للمشكلة التي يتصدى الكتاب لعلاجها وهي مشكلة التعصب (بسبب اللون أساسا) . فمؤداه اعتقاد البعض بأنهم عرق أرفع شأنا من غيره من الأعراق نتيجة لصفاتهم الجسمية والعقلية الممتازة . ويطلق علماء النفس على هذه الظاهرة اسم توكيد العرق أو التمركز السلالى Exhnocentrism . وقد سبب هذا التمييز العنصرى الكثير من المشاكل العنصرية مثل الفاشية (Fascism) ومعاداة السامية (Anti—Semitism) وكراهية الاجانب (Xenaphobia) وغيرها من الظاهر التي لم يناقشها الكتاب . وفي جميع الحالات يتحيز الفرد لكافة الافراد من نفس الأصل العرقى أو العنصرى . وقد يكون التحيز العنصرى ضد مجموعة عرقية واحدة ، أو ضد جميع السلالات الأخرى المختلفة عنها ، أو ضد جميع البشر كما فعلت المانيا النازية .

وعلى ذلك فان مصطلح التعصب هو عبارة عن اتجاه عداء ، وربما كان المضمون الحقيقى لهذا الاتجاه هو الخوف في بعض الاحيان ، كما قد ينطوى في حالات أخرى على النفور والاحتقار . وليس من الضرورى بطبيعة الحال أن يتحول هذا الاتجاه الى اجراءات عملية فعالة للتمييز بين جماعة الاغلبية من ناحية وجماعة أو جماعات الاقلية من ناحية أخرى . اما عندما تحرص الاغلبية على الحفاظ على تفوقها على جماعات الاقلية ، وابقاء تلك المجموعات في منزلة أو مكانة أدنى ، فاننا نكون هنا بصدد عملية تمييز عنصرى لابد وأن يستند بالضرورة لبعض الاجراءات العملية التي تحقق هذا الهدف .

ويمكن الاشارة في هذا المجال الى المعنى الخاص لكلمة تمييز في اللغات الاوربية ، فهي وان دلت على القدرة على تبين الفروق والتمييز عن الانواع المختلفة ، الا أن هذا المعنى ليس هو المقصود من استخدام الكلمة في مجال العلاقات بين الجماعات . فالتمييز او الاضطهاد هو حرص أفراد جماعة الاغلبية على منع أفراد جماعة الاقلية من

الحصول على نفس الفرص التي يحصلون هم عليها باعتبارهم أعضاء في الاغلبية .

(٢) عدم نقد الاساس غير العلمى الذى تنهض عليه مشكلة التعصب والتمييز العنصرى .

تفتقر الدراسة الى نقد الأساس غير الموضوعى وغير العلمى الذى تنهض عليه تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة . وهى نقطة هامة في تقديرنا ، اذ أن الدراسة تقر بوجود المشكلة وبخطورتها على المستوى الواقعى أو الظاهراتى فحسب ، وتبدأ بعد ذلك في تحليل المشكلة من هذا المنطلق ، دون أن تحاول مناقشة الأسس غير الموضوعية التي يقيم عليها دعاة العنصرية والتمييز دعائم المشكلة . وقد اكتفت الدراسة بمحاولة اقتراح بعض الحلول للتخفيف من حدة تلك المشكلة بشكل عام جدا ، دون أن تولى اهتمام بمحاولة هدم الاساس الذى تنهض عليه دعاوى المتعصبين .

والغريب أن الدراسة تذهب الى أن المستويات العليا للتعصب التى أبدتها الطبقة العاملة البريطانية - حتى أولئك الذين صوتوا مع حزب العمال - ترجع الى انتشار القيم الخاصة بالتعصب الوطنى أو الشوفينية « Chauvinism » والتى تعمل كقوة لدمج وتكامل المجتمع البريطانى .

والواقع أن هذا المنطق التبريرى منطق غير موضوعى ، لانه من السهولة بمكان تبرير التعصب العنصرى الوطنى في المجتمعات التي تعانى من مظاهر التعصب والتمييز ، واتخاذ ذلك كتكئة لاستمرار هذه المظاهر او تبرير وجودها .

ومع ذلك تعود الدراسة الى توخى الدقة والموضوعية حينما تقدم تفسيرها بخصوص التعصب الحاد الذى أظهره الشباب المتعلمون من العاملين في المهن الادارية والكتابية ، حيث ترجعه الى التراث الثقافي للتقاليد الامبريالية العتيقة في بريطانيا كما سبق أن أشرنا .

ان المفهوم الشائع للعرق رغم أهميته كحقيقة اجتماعية ليس وثيق الصلة بالمعرفة التى أثبتها البحث العلمى . ولعله من المفيد ان ننظر في أمر التقسيم الشائع لعلماء السلالات والقائم كليا على الخصائص التى يمكن ملاحظتها حين يكون الناس في كامل لباسهم ، ونقصد بذلك لون البشرة ، وشكل الوجه والرأس . فلماذا يفترض ببساطة على حد قول لوسى مير Lucy Mair أن هذه الخصائصالظاهرة هى أهم الخصائص الفيزيقية العديدة التى تهم البيولوجيين ؟ واذا كانت الخصائص العقلية والاخلاقية المتباينة ناجمة عن الاختلاف العرقي ، فلماذا اذن يفترض أن العمليات الذهنية ترتبط بشكل ما بلون البشرة ؟ وهل يبدومثل هذا الافتراض معقولا ؟ وهل يبدو هذا الحكم منطقيا اكثر من حكمنا على شخص بسبب ركوبه دراجة نارية أو عجلة ؟

هذه كلها أسئلة كان يجب مناقشتها من خلال هدم الاساس النظرى الذى تنهض عليه دعاوى العنصريين ، اذ درج الناس فيما يتداولون من تصنيفات ان ينسبوا كل أنواع السلوك السيئة لسلالات مختلفة عنهم أو تختلف عنهم في اللغة والثقافة .

وقد نظرت هيئة الأمم المتحدة نظرة جدية الى واجبها نحو منع التفرقة العنصرية ، وكلفت لجنة حقوق الانسان المتفرعة عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، بأن تتولى هذا الموضوع بكل عنايتها . ورأت لجنة حقوق الانسان أن يكون لديها هيئة مستقلة تضم أشخاصا متخصصين في شئون حقوق الانسان ، فعينت لهذا الغرض لجنة خاصة منذ

عام ١٩٥٠ وسمتها لجنة منع التفرقة وحماية الاقليات . and Prevention of Discrimination, Protection of Minorities كما اختارت الجمعية العمومية لهيئة الأمم في قرارها الصادر في ١١ ديسمبر ١٩٦٠ عام ١٩٧١ لتكون السنة العالمية لمناهضة العنصرية والتمييز والاضطهاد العنصري .

ان التباين الوراثي في خصائص الافراد وسماتهم من أهم ملامح الجنس البشري . ولو لم يكن هذا التباين موجودا ، وأصبح جميع افراد الجنس البشري متشابهين لكان الوضع غريبا حقا . ولا يمكن ان يطمح البشر في عالم متشابه الافراد ، فان لكل جماعة أو سلالة أو شعب نصيب في الاسهام لاشاعة البهجة في عالمنا المتنوع الأشكال ، ولكن بالرغم من هذا التنوع والتباين ، علينا ألا ننسى جميعا بأننا ننتمي الى عنصر واحد وهو الجنس الانساني .

(٣) اغفال أهمية البعد التاريخي والانثروبولوجي في تحديد الاطار السليم لبحث مشكلة التعصب والتمييز .

أغفلت الدراسة أهمية البعد التاريخي والانثربولوجي عند بحث مشكلة التعصب والتمييز العنصري ، وكان يجب تضمين نتائج الدراسة بعض البحوث التاريخية والانثربولوجية التي أجريت بالنسبة لتلك المشكلة ، لا سيما وأنها تبحث وتعرض من زاوية مدخل النسق الاجتماعي وليس من منظور سيكولوجي بحت مثل الشخصية . وعلى سبيل المثال فيمكن للمرء ان يتساءل : أي الجماعات العرقية تكون موضعا أكثر للعدواة والبغضاء ؟ ولماذا ؟ وهل هناك تفاوت في درجات الكراهية والعداوة والبغضاء ضد هذه الجماعات ؟ ولماذا ؟ وهذه بطبيعة الحال مسائل تحتاج لبحث تاريخي وانثروبولوجي معا .

ولعل أهتام الدراسة بأسس التحليل الاحصائي والارقام الاحصائية وولعها البالغ بذلك ، قد عاق النظرة الاجتماعية التكاملية المتعمقة التي تغوص وراء تلك الارقام لتعكس لنا الدلالة التاريخية والاجتماعية لتلك النسب والارقام الاحصائية الصماء . والتاريخ كالمجهر الذي يستعين به عالم الطبيعة في تحليله لمظاهر المادة . وأهمية التاريخ ترجع الى أن كل نظام اجتماعي تكون بالتدريج من اجزاء تركيب بالتالي وتولد بعضها عن البعض الآخر . فاذا تتبع الباحث نشأتها ومراحل تجمع عناصرها وتطورها ، ظهرت أمامه واضحة جلية . وبهذا يقوم التتبع التاريخي مقام التجريب الطبيعي وخاصة اذا كان هدف الباحث التجريد والتعميم والوصول الى القانون العام الذي يحكم تطور النظام أو الظاهرة موضع الدراسة . ويفسر تشكل النظام ويحدد وظائفه ، مستعينا في ذلك بالحقائق الاثنوجرافية والوثائق التاريخية ، بل وأيضا بالروايات المتوارثة والاحاديث الشائقة والاساطير المتواترة والقصص الشعبي والحكم والامثال السائرة والاشعار والاغاني .... الخ .

(٤) المنظور الضيق الذي عالجت به الدراسة موضوع التعصب العنصري .

نظرت الدراسة الى موضوع التعصب العنصري من زاوية جد ضيقة ، اذ حصرته في التعصب ضد الاقليات ، وتمت البرهنة على وجود مثل هذا التعصب عن طريق قياس اتجاهات الافراد . وهذه قضية هامة في حاجة لبعض المناقشة . فالواقع أنه لايمكننا مطلقا اختزال بحث مشكلة التعصب كما تم في هذا الكتاب الى مجرد العلاقة بين أغلبية وأقلية أو أقليات عرقية . حيث تعتبر الاغلبية هنا هي الاغلبية من حيث العدد ومن حيث القوة في آن واحد . وقد يكون التبرير الوحيد لذلك أن هذه مجرد دراسة محلية تجرى على مجتمع معين ، ولكن يتبقى بعد ذلك أنها تفتقر الى اطار

نظرى شامل كان يمكن ان تبدأ به على الأقل ، ثم تركز بعد ذلك على احدى جوانب هذا الاطار . هذا الى أنه لايمكن بحث مشكلة الاقليات منفصلة عن الموقف الهامشى الذى توجد فيه تلك الاقليات العنصرية ، فحيث توجد صراعات بين الالوان - كما هو الحال فى بريطانيا وكما أكدت الدراسة الحالية - تظهر بعض المواقف التى تشبه الموقف الهامشى .

وقد حظى مفهوم الهامشية باهتمام بالغ من جانب علماء الاجتماع ، وخصوصا دراسة مظاهر الصراع التى ترجع الى اسباب عنصرية وقومية أساسا . كما أن تمثل ثقافتين متباينتين يؤدى الى خلق نوع من الصراع الداخلى الذى يميز الوجود الهامشى بسماته المختلفة ، مثل الاحساس بالنقص والاعتزاز الشديد بالنفس والقلق والاغتراب الى غير ذلك من ألوان الصراع التى تكشف عن حالة الانفصام التى يعانى منها الفرد . وهكذا يمكن ان يؤدى تحسن مكانة الزنجى او الملونين فى بريطانيا من النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الى اثارة الاحساس لديه بالقرب من الابيض والبعد المتزايد مع ذلك .

وقد اعتمد الكتاب بشكل واضح على دراسة الاتجاهات التى تحتل مكانا بارزا فى دراسات التعصب بصفة عامة ، والتي تمثل فى الحقيقة هروبا من المشكلة أكثر منها محاولة لتوضيحها . فمن المعروف ان دراسات الاتجاهات تعترف وتقر بوجود اتجاهات ايجابية سلبية عند التصدى لوضع نظرية معينة فى ميدان التعصب . ويعترف جوردون البورت وهو واحد من الباحثين الثقاة فى مجال دراسة الاتجاهات بوجود أحكام قبلية ايجابية وسلبية فى نفس الوقت . وهذا الوضع ينطوى على قصور منهجى فى تحليل المشكلة من أجل محاولة التلاؤم مع الأنساق القيمية الايديولوجية الموجودة فى المجتمع الذى يعيش فيه الباحث .

كما أدى الحرص البالغ على بلوغ درجة عالية من الدقة الاحصائية والاحكام فى هذه الدراسة ، الى ضيق مجال صدق النتائج التى يمكن ان تنتهى اليها . وهى مشكلة يعانى منها ميدان دراسة التعصب بصفة عامة . فقد اتجهت بحوث التعصب الى وضع أساليب تزداد دقة واحكاما على الدوام . وهى بذلك تساير الاتجاه السائد فى دراسة الاتجاهات . غير أن هذا الاتجاه وان كان تطورا مشروعا للبحث الامبيريقى ، الا أنه يتطلب الاخذ باستراتيجية عامة للبحث ، حتى لاتكون هناك هوة بين فلسفة البحث العامة وبين وضع أساليب وتقنيات محدودة تختلف تبعا لكل مجال من مجالات البحث .

(٥) اغفال معالجة قضية الوعى العنصرى .

لم يعن الكتاب - من منظور نظرى على الاقل - بمناقشة قضية هامة ترتبط بالتعصب العنصرى ، ونعنى بها قضية الوعى العنصرى وأثره على البنية الاجتماعية والوحدة الوطنية . اذ قد لايكون هناك تفاوت عنصرى ملحوظ السمات فى مجتمع ما من المجتمعات ، ومع ذلك يظل الوعى سببا فى التوترات بين الفئات الاجتماعية المختلفة فى أصولها العرقية . وتظهر الآثار الاجتماعية لهذا الوعى فى الازمات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال نجد أن فنلندا تعانى انقسام مواطنيها الى مجموعتين بشريتين : المجموعة السويدية والمجموعة الفنلندية . وفى بلجيكا هناك انشقاق ملحوظ أيضا بين الفلمنكيين Flemish والوالون Walloons وخاصة فى الازمات السياسية . وقد اتخذ الوعى العنصرى تبريرا لضم الاقليات التي تنتمى الى أصل عرقى واحد فى دولة كبرى موحدة ، وهذا ما اتبعته المانيا النازية فى عهد هتلر . وهذا أيضا ما مارسته السلطة البريطانية فى السودان لعزل شماله عن جنوبه تحت ستار الاختلاف العرقى .

وقد يؤدي الوعي العنصري الى استنهاض الجماعات المغلوبة على أمرها، ويحفزها على القيام بحركات تحررية بفضل ما يسمى بالقومية العنصرية. فالشعور بالقومية العنصرية بين السود يجعلهم يكرهون البيض وينفرون من التعاون معهم، لاسيما اذا وضعنا في الاعتبار الاجراءات التعسفية التي تلجأ اليها بعض الدول في مغالاتها في استنهاض عوامل ومحفزات الكراهية والتعصب بين مواطنيها الى حد سن التشريعات التي تعمل على اقامة الحواجز اللونية بين المواطنين الذين تجمعهم وحدة سياسية واحدة. ولعل أبرز ما تكون هذه التشريعات صرامة في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية وفي اتحاد جنوب افريقيا.

***

النظرية الماركسية السياسية

تأليف : جون ماجوير
عرض وتحليل : عبد الرحمن خليفة

يبدو ان الفكر السياسي الماركسي ما زال يلقى المزيد من الدراسة ما بين مادح وقادح . ليدعي كل واحد أنه توصل الى بيت القصيد بعد طول عناء . الا أن قلة فقط هي التي تعرضت له بصورة موضوعية ومن بينها هذه الدراسة التي نعرض لها الآن ، والتي قام بها جون ماجوير John Maguire استاذ السياسة في جامعة دبلن بايرلندة ، وقد ضمنها مؤلفه بعنوان « نظرية ماركس في السياسة » . ويحتوي على ثمانية فصول بخلاف المقدمة والخاتمة لتصل كلها الى ما يقارب المائتين وخمسين صفحة .

وينوه الكاتب في مطلع مقدمته الى انه انما يحاول أن ينفذ الى وجهة نظر ماركس تجاه السياسة ، وان كانت منطلقة في سياق نظريته عن المجتمع والتاريخ ، ويجدر بنا أن نشير الى ما يقصده ماركس بالمجتمع ـ وان كان قد فات على المؤلف أن ينص على ذلك صراحة ـ اذ هو عنده فترة تاريخية كاملة بكل مكتسباتها الحضارية ، وقد حاول علماء السياسة منذ القدم وضع تعريف محدد لها ، فذهبوا مذاهب شتى طبقا لخلفياتهم الثقافية ، الا أنهم اتفقوا جميعا على أن السياسة هي علم الدولة ، ويبدو أن ماركس كان يدرك ذلك جيدا حيث أن المحور الذي دارت حوله كتاباته السياسية لا سيما المبكرة منها (وذلك هو جوهر الفصل الأول من الكتاب) كان هو الدولة ، ويظهر ذلك واضحا في نقده لفلسفة هيجل (١٨٤٣) ، اذ تتأرجح الفكرة لديه ـ وهو يعالج العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني ـ بين القول بأن الدولة تتحكم في المجتمع ، وأنها في نفس الوقت ليست سوى مجرد انعكاسات للظروف الاجتماعية السائدة التي لو تحررت من قيود البيروقراطية لتطور المجتمع في الاتجاه الصحيح .

وفي عام ١٨٤٥ كتب ماركس « خطة لعمل الدولة الحديثة » ليسجل فيها ـ كما يقول المؤلف ـ شعور الدولة بالسمو والتعالي ازاء المؤسسات الأخرى التي تؤلف المجتمع (وما الدولة في حقيقة أمرها الا الوحدة السياسية الكبرى في المجتمع) ، ولذلك يجعلها ماركس الشمس التي تستمد منها تلك المؤسسات اشعاع الحياة ، ومن ثم فهي تقع في المركز

ويدور الجميع في فلكها ، ولذلك فهو يسخر من رجال مثل روبسبيير Robespierre وسان جست Saint — Juste حيث في الوقت الذي يحاولان فيه اقامة مجتمع جديد متحرر من سيطرة الدولة ، فانهما سارا على نهج الاقدمين في ذلك .

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليروي لنا كيف كان ماركس يعتبر نابليون الأول مرحلة من مراحل الكفاح الثوري ضد المجتمع البورجوازي حيث كان يدرك بالفعل جوهر الدولة الحديثة التي تقوم على التطور المستمر لهذا المجتمع ، بيد أنه كان يعتبر الدولة هدفا في حد ذاتها ، ومثلما اطاح بحرية هذا المجتمع البورجوازي ، فانه لم يكن يبدي اي اعتبار بمصالحه المادية الأساسية اذا ما حدث وتعارضت وأهدافه السياسية الخاصة به .

والحياة السياسية الحديثة هي التعبير السكولاستي [1] للحياة الشعبية ، وتلك حالة من الاغتراب تكون الملكية هي قمة التعبير عنها ، والجمهورية هي الجانب السلبي لها ، ولن نتمكن من التغلب على هذا الاغتراب حسبما يرى ماركس طالما كان هناك مجالان متميزان هما المجال الاجتماعي والمجال السياسي ، الا اننا نرى المؤلف وهو يستعرض بناء المجتمع البورجوازي يذهب الى رأي آخر وهو اننا لا نستطيع ان ندرك المغزى الحقيقي للنظرية السياسية اذا لم نستطع ان نستوعب سياقاتها الاجتماعية .

واصطلاح **المجتمع المدني** عند ماركس لم ينشأ الا خلال القرن الثامن عشر فقط ، حينما تخلصت علاقات الملكية من المجتمعات القديمة ومجتمعات العصور الوسطى ، وتلك هي الفكرة الرئيسية لتحليل ماركس للظروف الاقتصادية الحديثة .

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن سنة الثورات الأوربية : ١٨٤٨ ، وانعكاساتها على ماركس خصوصها منها الفرنسية والالمانية ، وكيف توصلت البورجوازية الى مراكز القوة والسيطرة ، والبورجوازيون هم سلالة المواطنين الذين كانوا يتمتعون ببعض المزايا ومن بينها قدر من الحكم الذاتي ، وكانوا عادة من سكان الطبقات الوسطى التي لعبت دورا في القضاء على النظام الاقطاعي ، ومقاومة فكرة الحق الالهي للملوك وارساء أنظمة الحكم على أساس من الدستور والمساواة بين الافراد ، والبورجوازية عند ماركس هي من خلق الانسان الذي لم يعد يستطيع السيطرة عليها ، وطالما كان الحديث عن نشأة البورجوازية فلن نستطيع اغفال الثورة ١٧٨٩ في فرنسا ، ويجدر بالذكر هنا ان ماركس حين كان يتعرض للتاريخ فانما كان يستخدمه كعامل مساعد لتفسير نظرياته والتدليل على أرائه ، هذا في الوقت الذي كانت فيه كتابات انجلز زميله ورفيق عمره وكفاحه تاريخية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ويسوق المؤلف بعد ذلك بعض الأدلة التي يسردها باحثون في ذلك المجال للدلالة على أن الثورة كانت من صنع الطبقة البورجوازية المالكة ، الا أن ماركس يعتبر أن الثورة ليست سوى ثمرة لتعاظم القوى البورجوازية السياسية التي ينبغي في الحقيقة أن تستغل للسيطرة على المجتمع ، وقد جسد **البيان الشيوعي** Communist Manifesto [2] الخطوات التي سارت فيها البورجوازية في الطريق الى القوة ، وهي في ذلك انما كانت تزيد من قوة وتعداد طبقة البروليتاريا دون ان تقصد .

---

(١) فلسفة نصرانية سادت القرون الوسطى وبدايات عصر النهضة ، قامت على منطق أرسطو وتفسيره لما وراء الطبيعة ، الا أنها أخذت طابعا مغايرا في أوربا في تلك الأونة حيث اتسمت باخضاع الفلسفة للاهوت ، ولعل توما الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) هو أبرز مفكريها ، وقد اتجه اتجاها أرسطيا صرفا ومزجه بتيار مسيحي ، وحاول بناء صلة عقلانية بين العقل والدين .

(٢) بيان قام بصياغته ماركس بالاشتراك مع انجلز ، صدر عام ١٨٤٨ عشية الحركات الثورية التي اجتاحت اوربا في ذلك العام ، ويعتبر احد الوثائق الهامة لاحتوائه على مبادىء الفكر الماركسي ازاء القضايا التي شغلت اذهان ماركس وانجلز ، مثل الصراع بين الطبقات ، واستغلال الطبقة العاملة من قبل الرأسمالية التي يتنبأ ماركس بانهيارها وقيام طبقة البروليتاريا العاملة وسيطرتها على المجتمع ، وكان ماركس يهدف الى ان يكون ذلك البيان الضوء الذي تستنير به الطبقات العاملة في أوربا وهي تزحف نحو تحقيق اهدافها ولذلك فقد ذيله بندائه المعروف « ياعمال العالم اتحدوا » .

ويستمر المؤلف في التأكيد على الثورات الأوربية لعام ١٨٤٨ حيث بدأت بالانتفاضات الايطالية في يناير لتنتقل الى فرنسا وتحدث أثرها في فبراير ولتخترق الحدود بعد ذلك الى المقاطعات الالمانية التي عايش ماركس فيها الأحداث عن كثب والتي رأى فيها انحسار قوات الملكية أمام قوات الشعب. وهكذا أو بناء على هذه الخبرة التي عاشها في المانيا توصل ماركس الى مفهوم التغير الاجتماعي الذي ينتج عن عدم التوازن بين القوى وعلاقات الانتاج، والذي ادى به الى افتراض نوع من الصراع من جانب القوى ضد العلاقات التي تحد وتعوق من تقدمها.

وهنا يؤكد المؤلف على ايمان ماركس بمبدأ الدساتير على أساس أن الدستور هو الوثيقة التي تنظم العلاقة بين مختلف المؤسسات السياسية، وذلك هو الطريق الى بناء الدولة الصالحة. علما بأن المبدأ السياسي السليم الذي يجب أن يتبع هو جعل الشعب نفسه الأساس الذي يقوم عليه الدستور، وبناء على ذلك فان الوضع القائم في المانيا عام ١٨٤٣ هو وضع ديموقراطي راديكالي، ثم ان الدستور السليم ينشأ فقط حين تصبح السياسة الوظيفة الحيوية للمجتمع وليس قوى مجردة تعكس نقائص المجتمع وعيوبه. وهنا تبدو قدرة ماركس وحنكته السياسية حين تصدر منه بعض التنبؤات فيما يختص بالوضع في المانيا. وتصدق تلك التنبؤات وان كانت تجيء متأخرة بعض الوقت. وعلى سبيل المثال الانقلاب الذي قام به فردريك وليم الرابع في برلين وذلك بعد أن أوشك عام ١٨٤٨ على الرحيل.

وعلى غير ما كان يتوقع ماركس وانجلز ظهر هناك عامل جديد على المسرح السياسي تمثل في الشعور بالقومية التي وقفت في طريقهما مما أعاق وضع نظرياتهما موضع التنفيذ. وكان من أول إنعكاسات هذا الشعور أن بدأت الوحدة الالمانية تظهر الى الوجود. ويبدو أن كلا من ماركس وانجلز ذهبا في تفاؤلهما الى حد بعيد مخالف للواقع حين ادعيا في البيان الشيوعي أن القومية شيء ينتسب الى الماضي ولم يعد له وجود في حاضرهم. حيث أن أحداث المانيا خلال عام ١٨٤٨ أثبتت الخطأ الذي انحدر اليه البيان حين ذهب الى أن الشعور بالقومية يتناقص اذا ما حدث وتطور المجتمع البورجوازي.

ويترك المؤلف المانيا ليحل بفرنسا بعضا من الوقت في محاولة لاستعراض تحليل ماركس للأحداث في الفترة فيما بين ثورة فبراير ١٨٤٨ وانقلاب لويس نابليون بونابرت في ديسمبر ١٨٥١. وان كان ماركس قد اكد على الدستور وهو يعالج أحداث المانيا فانه في فرنسا اهتم بعمليات الثورة وتطورها بعد ذلك. ولعل من أهم ما مهد لثورة ١٨٤٨ - على حد اعتقاد ماركس - الازمة الاقتصادية التي طحنت الطبقات الدنيا. اذ على الرغم من تحسن الأوضاع قليلا فقد قامت الثورة فعلا في فبراير ١٨٤٨ وذلك بسبب القلق الاقتصادي الذي صاحب تلك الازمة. وحين يتعرض ماركس لبعض التحليل فانه يرفض ما ذهب اليه الديمقراطيون من ارجاع الموقف السياسي عبر القارة كلها الى عامل واحد يتلخص في كلمة رد الفعل الذي يحدثه الحكام الاوربية، وهو في ذلك يتهمهم بالقصور حين يرجعون ذلك التطور المعقد الى سبب واحد فقط.

الا أن ماركس كان يرى في فرنسا وضعا مختلفا بالنسبة للبورجوازية فقد كان يعتقد بعدم وجود ثورة بورجوازية بل مجتمعا بورجوازيا يمر بتحول سياسي.

ومما لا شك فيه اننا نستطيع القول بأن أحداث عام ١٨٤٨ قد خيبت آمال ماركس وأجبرته على تغيير فكره بعد ذلك. حيث أن الوضع في ألمانيا كان على غير ما توقع ماركس من أن البورجوازية تستطيع أن تستحوذ على القوة السياسية. وبالمثل حدث نفس الشيء في فرنسا حين اعتقد ماركس أن البورجوازية كان في إمكانها الاحتفاظ بالقوة السياسية. ويمكن لنا أن نعود الى ما قبل سنة الثورات حين ذهب ماركس الى أن البورجوازيات الانجليزية والفرنسية احرزت انتصاراتها السياسية الحاسمة على الأنظمة التقليدية خلال عامي ١٨٣٠ ـ ١٨٣٢. إلا أن الأحداث لم تجر على ما كان يهوى بعد ذلك.

ويحلل لنا جون ماجوير بعد ذلك كيف أن ماركس، بعد أن فشل في توقعاته كما ذكرنا، بدأ يطور من فكره ليتخذ

مدخلا جديدا لتفسير الحدث السياسي . اذ يبدو أن ماركس اخفق ان يدرك ـ أو أنه تجاهل ذلك تماما ـ وجود توترات وصراعات بين البورجوازية وحلفائها الثوريين . حيث أنه ظل حبيس افتراضات ثابتة الى أن أجبرته أحداث ١٨٤٨ على تغييرها . بمعنى انه بدأ يغير من مفاهيمه عن نوع المشكلات التي يواجهها الشعب وكذلك الطريقة التي بها ينجز ذلك . فالشعب عند ماركس يسعى الى تحقيق ما يعتقد أن فيه صالحه بالنسبة للموقف الراهن وعليه فانه يذهب الى أن أطراف الصراع في فرنسا فشلت لأنها لم تكن على يقين من قدرتها على انجاز ما تريد . ولذلك فلم تكن على استعداد لتحمل المخاطر المفروض وجودها .

وينتقل المؤلف ليتحدث عن القضية التي اشتهر بها ماركس عبر السنوات التالية . والتي تتصل بنظرية الفعل لديه ويتساءل فيها عما اذا كانت الدوافع مادية أم اقتصادية . او هي مجرد عرض لجوهر اقتصادي . ولعل افضل مثال هو تفسير ماركس لولاء البورجوازيين الوطنيين في فرنسا للجماعة الشرعية . وولاء البورجوازيين الحضريين لجماعة اورليانز . اذ يدعي ماركس انه ليست المبادىء هي التي فرضت هذا التقسيم ولكنها الظروف الاقتصادية الناتجة عن نوعين متميزين من الملكية اوهو العداء التقليدي بين المدينة والريف . أوهي المنافسة القديمة بين رأس المال في المدن والملكية الزراعية في الريف . ويذهب ماركس الى أبعد من ذلك ليعتبر أن الدوافع ليست سوى مؤشرات لاهتمامات اقتصادية كامنة لا تدركها هذه الدوافع . او انها لا تريد أن تعترف لها . ومن ذلك كله نصل الى ان الفعل السياسي هو أيضا يصدر عن دوافع اقتصادية .

ويحاول الكاتب ان يلخص لنا رأيا يصل اليه الانسان بعد قراءة أفكار ماركس السياسية مفادها أن البروليتاريا في الاقتصاد الرأسمالي الناضج ليست سوى طبقة ترعى مصلحتها الخاصة بدون أي تردد أو احجام . بل أنه تعرض للبحث الموجز الذي كتبه انجلز عام ١٨٦٥ عن القضية العسكرية البروسية وحزب العمال الألماني وذلك في غضون الصراع الدستوري الذي نشب بين البورجوازية التقدمية الألمانية وبسمارك . لكي يثبت لنا التغير الذي طرأ على فكر ماركس وانجلز في الفترة بعد عام ١٨٤٨ (ويظهر ذلك في الفصل الأخير من البحث) والذي يمكن التعبير عنه بأنه فقدان للثقة في البورجوازية التي فشلت في دورها التاريخي . فالألمان لم يستطيعوا المحافظة على سيطرة البورجوازية وكذلك الفرنسيون . وكم كان يأمل أن يجد العرض في البورجوازية البريطانية الا أنها فشلت أيضا في اقامة نظام متكامل لها في مواجهة حزبي التورى والهويج (الحزبين الرئيسيين في بريطانيا تلك الآونة) .

وهنا يبدأ ماركس فترة أخرى من حياته الفكرية التي تظهرها كتاباته فيا بعد ١٨٤٨والتي وصل فيها وبها الى أغوار النظام الرأسمالي ليضع يده على أوجه الضعف التي كانت تعتبر مدخلا لمن يريد أن ينتقده . ومن أهم تلك الكتابات كان انتقاده **للاقتصاد السياسي** (١٨٥٩) . **ونظرية فائض القيمة** (١٨٦١) . **ورأس المال** (١٨٦٣) وفيها يتعرض ماركس للمشكلة الرئيسية لفكره السياسي المتأخر وفيها تساءل ماركس عن السبب من بقاء الرأسمالية على الرغم من قيامها على الاستغلال . بل أنه يتعجب أيضا لأن هذه الرأسمالية تقوم ليس على أساس فرض قوانين ولكن بناء على المواقف ـ السلبية ـ للعاملين .

وفي تحليله لمعنى السياسة لا يعترف ماركس بوجود تعريف اجرائي محدد لها . ولذلك فهو يقول أن جو المجتمع يصبح سياسيا حين يتوقف العاملون فيه عن النظر اليه كمعطيات لا تقبل التغيير ويبدأون في تحليله وتحدي ظروفه القائمة . ولانجاز ذلك لابد من الانتقال من العزلة الفردية الى الارتباط الجماعي ثم الى التنظيم التنمي على المستوى القومي . والرأسمالي لا يسعى الى شيء من ذلك اذ أن دافعه الاساسي هو المزيد من المكسب ناظرا بعين الاعتبار الى شيئين هامين فقط أولها مستوى الاجور وثانيهما ما يحدد التكاليف التي يتطلبها العمل ويتحملها صاحب العمل ثم ساعات العمل اليومي والتي تحدد قيمة فائض القيمة .

وفي مجال الحديث عن الثورة البروليتارية يتحدث ماركس عن اطماع البورجوازية وكيف بدأت تتكشف مما أدى الى حتمية الصراع . ومن هنا بدأت البروليتاريا

وطريقها الثوري وهو النتيجة المحتومة . وهكذا تصبح الثورة ضرورة حتمية على أساس أنها حركة اجتماعية سياسية . ويحذرنا ماركس هنا من أنه لا ينبغي ان نعتقد أن الحركة الاجتماعية تهدف الى القضاء على الهدف السياسي حيث انها متلازمان فلا يوجد هناك حركة بروليتارية سياسية الا ويصاحبها حركة اجتماعية في نفس الوقت . والثورة عنده والتي تقوم بها الطبقة العاملة تهدف في النهاية الى أن وجود الطبقات مرتبط بتطور الانتاج في المراحل التاريخية المعينة ولابد وان يصل المجتمع الى اللاطبقية . حيث لن تكون هناك سوى طبقة واحدة هي البروليتاريا ، التي يعتبرها ذروة التطور الاجتماعي ، وكم تطلع الى زحف تلك الطبقة لتشغل مكانا مسيطرا في المجتمع الحديث .

ويستمر **المؤلف في مصاحبة** ماركس فيتعرض **لكتاباته السياسية المتأخرة** ويدعي أنه على الرغم من الفشل النسبي للتوقعات التي جاء ذكرها في البيان الشيوعي الا أنه ما زال يعتبر المصدر لكل الآراء السياسية التي تنسب الى ماركس حيث هناك ارتباط معين هو الذي يسوغ وحدة الفكر الماركسي ، وهو الارتباط بين الرأسمالية الصناعية والسياسة البورجوازية .

وقد كان ماركس يعتقدان ان الدول الثلاثة التي كان يتحدث عنها دائما ، وهي بريطانيا وفرنسا والمانيا ، سوف تضطر الى تصنيع انفسها الا أن بريطانيا بما انها بدأت العملية فعلا فسوف تكون السابقة في هذا المجال وانها سوف تلقى الكثير من العناء اذا لم تظل محتفظة بتلك الاسبقية وذلك سوف يؤدي الى الاهمية الاجتماعية المتزايدة للبورجوازية التي سوف تصبح هي الطبقة الحاكمة ولكن ذلك التنبؤ فشل نسبيا ايضا حيث سيطرت البورجوازية في بريطانيا تقريبا عام ١٨٧٠ وليست نتيجة لقوانين الاصلاح التي صدرت عام ١٨٣٢ كما ادعى ماركس . اما عن البورجوازية الفرنسية فقد ظلت موجودة لمدة عقدين كاملين في ظل الامبراطورية التي تحولت الى جمهورية بسبب هزيمتها خارجيا فقط . والبورجوازية الالمانية نالها الكثير من التساؤل ايضا عما اذا كانت قد احرزت قدرا من القوة عام ١٩١٨ او عام ١٩٤٥ . وعلى كل حال فكما يرى المؤلف اننا يمكن ان نتفق الى اساس الادعاءات الماركسية لو توصلنا الى تقسيمها الى قسمين ، يتصل اولها بالشخصيات السياسية وينتهي الى انه لان البورجوازية سوف تصبح مسيطرة اجتماعيا فسوف تسعى الى التحكم في السياسة لصالحها الشخصي . والجزء الثاني يذهب الى انه مهما كانت الشخصيات السياسية فان النظام السياسي سوف يخدم المصالح البورجوازية بسبب مطالب التطور الاجتماعي .

ويختتم المؤلف بحثه بحديث عن المادية التي يقسمها الى ثلاث : المادية الأنطولوجية التي تذهب الى ان المادة هي اصل كل حقيقة . ثم **المادية المنهجية** وترفض القبلية في البحث العلمي . واخيرا **المادية السيولوجية** وترفض كذلك امكان تفسير **المجتمع عن طريق افكار** الناس عن انفسهم ، وفي رأي المؤلف ان ماركس كان يعتقد في المفهوم الاول للمادية بصورة اكبر والذي كان ماركس يعتقد ازاءه ان التطور الاجتماعي **يتوقف على تطور قوى** الانتاج المادي او الاقتصادي وكان ماركس يذهب في اعتقاده بالمادية الى مساواتها بالعلمية . ومن ثم فهي صيغة يمكن تطبيقها على اية فترة من فترات التاريخ ، وكان اعتقاده في المادية هو الذي اوحى اليه بامكان قيام ثورة جديدة اكثر عمقا وابعد مدى من الثورات السابقة ، والى المادية يرجع أيضا اصل التفاوت الاجتماعي حيث هو اقتصادي في أساسه . ولذلك فان اي اصلاح سياسي لن يؤتي ثماره ما لم يعالج الناحية المادية . واذا كنا نهدف الى احداث اي تغيير في المجتمع فعلينا ان نعمل على الغاء الملكية الخاصة اولا .

وبالنسبة للتوقعات التي كان يتحدث عنها ماركس دائما والتي كان يسميها تنبؤات يقينية من انها لابد واقعة ، والتي كانت تتصل بانهيار النظام الرأسمالي وحتمية قيام الحكم العمالي . والتي تعود في رأيه الى الفجوة التي تتسع بازدياد تراكم رأس المال في أيدي أرباب العمل . وازدياد بؤس وشقاء الطبقة العاملة . نقول انه بالنسبة لهذه التوقعات لم يحدث منها شيء اطلاقا وان كان البعض يرجعون الثورة الروسية عام ١٩١٧ الى تحقق تنبؤات ماركس الا اننا يمكن

الرد عليهم بأن الشرط الاول الذي وضعه ماركس لهذا الانفجار الشيوعي لم يكن متوفرا في روسيا قبل الثورة وهو بلوغ الرأسمالية حد التخمة مما يستلزم الثورة عليها ، لقد كانت روسيا القيصرية دولة زراعية من الدرجة الاول تخطو اول خطواتها نحو التصنيع ثم ان الدافع الاساسي لتلك الثورة لم يكن سوى استبداد القياصرة وتحكمهم مما اشاع البؤس والحرمان بين صفوف الشعب جميعه وليس بين طبقة معينة بالذات .

ذلك هو عرض موجز لبعض الآراء التي نادى بها كارل ماركس والتي ما زالت اصداؤها تدوي حتى عصرنا هذا ، ولكن ليس معنى هذا أنها مثالية ، أو أنها صالحة للتطبيق في كل مجتمع ، حيث انها وجدت اصواتا معارضة شديدة من فلاسفة كثيرين بل من مواطنيه وحوارييه فهناك العالم الالماني برنشتين يعارض ماركس ويذهب الى خطأ الفكرة التي تنادي بسيادة العوامل الاقتصادية وتحكمها في التطور الاجتماعي . وقد اخذ كل من كاوتسكي ولورنز فون شتين على ماركس اهماله للناحية الاخلاقية . وكذلك استبعدوا ان يقوم العمال بالثورة على حكومة تبذل جهدها لصالحهم باصدار التشريعات اللازمة لعلاج المساوىء الاجتماعية ، ثم انهما نادیا بأن الوسيلة الوحيدة لسيطرة البروليتاريا على شئون الدولة هي في تثقيف وتعليم الطبقة العمالية نفسها حتى تكون قادرة على التصرف السليم في الانطلاق نحو الاهداف التي حددها ماركس .

***

أدب

الحركة: الشعر الانجليزي والرواية في الخمسينات *

تأليف : بليك موريسون
عرض وتحليل : أمين العيوطي

في تاريخ الآداب والفنون ترتبط الحركات الفنية بالظروف التاريخية التي تنشأ فيها . وقد شهد القرن العشرون العديد من هذه الحركات في الأدب الانجليزي . ففي العقد الاول ظهرت الدعوة الى إحياء الكلاسيكية في الشعر عند هيوم وإليوت . وفي العقد الثاني استمرت حركة التحديث في الشعر عند فراي وبيتس ، وكانت حركة التجريب في الرواية عند لورانس وجويس وفيرجينيا ولف . في الثلاثينيات ظهر جيل أودن وسبندر . وفي الاربعينيات عادت الرومانسية النغمة التي يعزف عليها ديلان توماس وإيديث سيتويل من الرومانسيين الجدد . لكن جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية في الخمسينيات كان جيلا يختلف في بنائه الفكري والفني . كان هذا هو جيل الحركة التي يتناولها بليك موريسون بالرصد والتحليل ، من خلال أشعار وروايات مجموعة تضم دونالد ديفي ، فيليب لاركن ، كينجزلي ايمس ، جون وين ، جون هولواي ، اليزابيث جننجز وروبرت كونكويست . وهو يحاول تحديد هوية الحركة الفنية والفكرية من خلال تحليل أصولهم الاجتماعية ، والظروف السياسية التاريخية التي ظهروا فيها ، والاتجاه الفني الذي يحتطونه .

أصول الحركة :

بدأت الحركة في جامعة أكسفورد في أوائل الأربعينيات بين مجموعة لاركين وايمس ووين ، وفي جامعة كيمبريدج بين ديفي وجن وازايت . ولعل ظاهرة الصداقات التي تنشأ عنها حركة فنية جديدة هي ظاهرة متكررة في الادب الانجليزي . كانوا جميعا نازحين من الاقاليم ، خرجوا من الطبقة الوسطى الصغيرة ، وأصابوا منحة تعليمية لمواصلة تعليمهم . وكانت صداقتهم حافزا لخلق حركة فنية يضمها جيل فني واحد ، فبدا أثرها في وضع أسس الحركة ، وتحديد برنامجها الفني . وفي ظهور أعمال فنية تحمل بصمة متميزة في تاريخ الأدب الانجليزي .

* Blake Morrison, The Movement : English Poetry and Fiction of the 1950's

اتصلت المجموعتان من خلال أشعارهم وكتاباتهم في المجلات الجامعية والادبية التي أصبحت تشكل بديلا عن مراكز الالتقاء. وأسهم هذا في تشكيل جماليات حركة جديدة التقى كتابها على السخرية من شعراء العاصمة، من الحركة الحديثة في الشعر عند فراي وييتس واليوت وباوند، من الرومانسيين الجدد أمثال سيتويل وتوماس، ومن التجريب عند لورانس وجويس. كان هؤلاء يمثلون في نظرهم شعراء الطبقة الوسطى المرفهين العاجزين، بينما هم مجموعة خشنة تشرب الجعة.

بدلا من كل هذا طرحت الحركة برنامجا فنيا يحقق نوعا من الخشونة في الشعر تختفي معه الجمل الناعمة الضخمة، الكلمات المنسوجة بحذق، الصورة الفنية البارعة، والاستجابة العاطفية. هكذا يبرز في ديوان اميس «وضعية المقهى» (١٩٤٧) صوت الضابط الذي عجمت الحرب عوده في مواجهة تأملات الجند الرومانسي الشاب في الحب والموسيقى والزهور، حين يؤكد له حاجته الى أن يكون رجلا والى اتخاذ موقف عملي من الحياة. هكذا أيضا نرى الصور الفنية في قصيدة الزايت عن الاسكندرية (١٩٤٨) صورا تجعل الطبيعة مألوفة، فنجد الموجة في شعره «تتفادى سرطانات البحر الصفراء العصبية وتسرع بالتراجع، ثم تعود بعد قليل لتلتقط مسافريها المنهكين.» ونجد النخلة «يتدلى البلح من وجناتها مثل حبات عرق.» كذلك تهجر البزايت عجز الشعر المنطقي الغامض وتنشر أشعارا تتضمن صورا من الواقع اليومي، وتبدي صرامة أكبر في الالتزام بالأوزان والقوافي، وتتوخى الوضوح في الشعر. ويحدد ديفي ملامح الشعر الجديد في أنه يجمع بين الحجة العقلية، والصورة الفكهة الساخرة، ويتجنب الشعر المرسل فيستخدم الاوزان المحكمة والقوافي، بلا مبالغة في الاستعارات والصور، لكنه يستخدم لغة نبيلة تنأى به عن النثر.

من أكسفورد وكيمبريدج شقت الحركة طريقها الى لندن، من خلال أشعارها ورواياتها وتصريحات شعرائها ونقادها. وفي برنامج إذاعي أدبي كان جون ليمان يقوم بتقديم أشعار الحركة، ليبرز جيلا جديدا يزيح بعض الشعراء المشهورين، ويقول أن جيلا جديدا يشق طريقه في التاريخ الأدبي لأول مرة من خلال الاذاعة. كانت الأسماء التي قدمها مألوفة لدى القراء قبل تقديمهم في البرنامج، لكنه اجتذب اهتمام القراء بالشعراء الجدد بصفتهم أساتذة بجامعات اقليمية، ينظرون الى العاصمة وكتابها بشك وسخرية.

وأسهمت الصحافة الادبية في تأسيس الحركة، ففتحت مجلات سيكتيتور وليستر، ونيوستيتسمان صفحاتها لأشعار الحركة، والقراءات النقدية، وخطابات القراء. وساعد النشر الأسبوعي على ازدهار هذا الاتجاه الجديد، وخلق الذوق العام الذي تقبل أشعارهم وكتاباتهم، مما دفع هذه الحركة الى الأمام في الملحق الادبي لجريدة تايمز ومجلة لندن.

وبعث سلسلة فانتاسي نشر هذا التيار بطبع الدواوين والروايات، فظهرت قراءات نقدية لروايتي اميس ووين جيم المحظوظ، وأسرعا بالهبوط بصفتهما روايتين تقفان ضد التجريب، بأقلام والتر ألن، وس. ب. سنو، وج. ب. بريستلي. قال ألن في احدى هذه القراءات ان بطلا جديدا قد ظهر في الرواية يتميز بالخشونة الفكرية والحساسية ضد الزيف، يسخر من كل شيء حتى من التعليم الجامعي التقليدي رغم أنه تخرج من جامعة مشهورة.

كانت السخرية في الموقف هو ظهور مجموعة من الشبان ضد القيم الفكرية والفنية التي تسود في لندن العاصمة، وتؤسس نفسها من خلال أجهزة المدينة الثقافية ذاتها. لكن لندن كانت المنفذ الرئيسي لهذه الحركة التي كانت السمة الأساسية فيها هي ارتباطها بعالم ما بعد الحرب، وتعبيرها عن الملامح الانسانية والفكرية لهذه الفترة. ولعل موقف كتاب الحركة من العاصمة يعبر عن موقف طبقي ثقافي تتبين ملامحه فيما يلي.

٢ ـ الطبقة والثقافة :

كان للحركة هوية اجتماعية متميزة ، مثلما كان لها هوية فنية متميزة . فكتابها يتناولون التغيرات الاجتماعية في التركيب الطبقي في انجلترا فيما بعد الحرب . هذا هو ما دعا سبندر الى أن يطلق عليهم تسمية « مثقفو الطبقة الوسطى الصغرى » ، وما جعل سومرست موم يسمى جيم ، بطل ايمس ، « نفاية » .

ولعل هذا يفسر موقف الحركة من كتاب العاصمة ، فيصورهم ايمس في جيم في شخصية برتراند ويلسن : وهي شخصية شاب ثري ، متأنق ، أرسله والده الى لندن حيث يقيم بفرده ، وينظر الى الاقاليم نظرة متعالية . هكذا يبدو نفس النموذج في اهبط بسرعة ، ويتعرض لسخرية الشخصية الرئيسية وتهكمها . بل ان دينى وجد سندا لهذا الموقف من « العاصمة الفاسدة » أثناء دراسته للشعر في أواخر القرن ١٨ ، حيث لبرت الشيرة التي عاش فيها ويردزورث وكوبر باغتراب الفنان الجاد عن لندن . ووجد وين في ماثيو آرنولد سابقة أخرى . لكن المؤثر الفعال في هذا كله كان أستاذهم ف . ر . ليفيس الذي علمهم بأن العالم الأدبي في لندن قد أفسده تشابك العلاقات الشخصية والاجتماعية . لهذا كان اعتزازهم بالحياة الادبية في ليدز وليفربول ومانشستر ، وأصبح ميدان عمليات الحركة في البلدان الجامعية .

على الرغم من ذلك ، كانت الحركة تتحرك باتجاه لندن في الاعتماد على ناشرين لنشر هويتها الاقليمية ، وفي تصويرها لأبطال نزحوا من الاقاليم الى لندن ليحققوا طموحاتهم . ولعل هذا يشير الى تناقضات داخل الحركة . فاذا كانت القيم الجمالية للحركة تستمد من القيم الاقليمية ، فان أعمالها لا ترفع من شأن الحياة في الاقاليم . واذا كانت قيم الحياة البوهيمية البراقة موضع سخرية ، فان لندن تظل تحتفظ ببريقها . ويؤكد هذا ان الحركة لم تكن تمثل في الواقع تحديا للقيم الراسخة .

يتضح هذا التناقض أكثر في تناول الحركة لفكرة الطبقة . فأهم ما تؤكده رواياتها فكرة مرونة الانتقال من طبقة الى أخرى في إطار التغيرات الاجتماعية بعد الحرب . هكذا تدور حبكات جيل لاركين ، وجيم ايمس ، واهبط لوين حول صراع البطل لكل يتلاءم مع قيم طبقة أخرى . البطل دائما من الطبقة العمالية أو المتوسطة الصغرى يلتقي بامرأة جذابة اجتماعيا وجنسيا . ويصل الحدث الى ذروته إما بوصول الرجل الى المرأة ، أو بانسحابه بعد وصل جنسي قصير حين يترك عمله في المدينة ليعود الى طبقته العاملة . وفي محاولته التلاؤم مع قيم طبقة أخرى ، يعاني البطل نوعا من الضغوط . فهو يصطدم باعتراض أبناء طبقته لأنه متسلق لا يعرف مكانه ، ويدعونه الى التماسك مع أفراد الطبقات الدنيا . ففي تلك الفترة كانت مرونة الانتقال بين الطبقات موضوع الساعة في مجتمع أصبح التسلسل الطبقي فيه أقل صرامة مما كان عليه قبل الحرب .

رغم هذا يحاول الكتاب إقناع النقاد بأن أعمالهم لا تنطوي على وعي اجتماعي أو استجابة للتغيرات الاجتماعية ، بل قال لاركين ان دافع الحركة كان التقليل من الفروق الطبقية لا المبالغة في تصويرها . ولعل هذا يرجع الى نفور الكتاب من الحكم على أعمالهم على أساس النظرة الاجتماعية . لكن اعترافهم بمحاولة التقليل من أهمية الفروق الاجتماعية دليل على وعيهم بالمشكلة . لهذا كان التناقض في أعمالهم بين التقليل من هذه الفروق وجعلها محورا لأعمالهم . في حين تبدو القيم القديمة ـ مثل عدم المساواة الطبقية ، والثقافة للصفوة ، وحماية العاصمة للاقاليم ـ موضع هجوم ، الا أنها تتأكد في النهاية . فالأبطال يجدون في نجاحهم دليلا على عدالة المجتمع البريطاني . فهم يعارضون « النظام القديم » ، الا أنهم يحترمون مؤسساته التي سمحت لهم أن يكملوا تعليمهم ، وأن يصبحوا مثقفي الطبقة الوسطى الصغيرة .

لذلك كانت الحركة تقوم بنقد الجوانب غير المقبولة من « النظام القديم » ، في حين تحتفظ في أعمالها باحترام للكثير من قيمه . هكذا كان هجومهم على الثقافة التقليدية ـ التي

وسع دينيس مفهومها بحيث تشمل السينما والرواية العلمية وموسيقى الجاز والرواية البوليسية ـ هجوما على التعالي الذي يحيط بالثقافة لا على مفهوم الثقافة ذاته . كما ان هجومهم على الثقافة البرجوازية لم يؤد بهم الى هجوم على امتيازات هذه الطبقة . فانتهى الأمر بهم الى تمرد شكلي دون محاولة تغيير البناء الاجتماعي الذي يجعل ثقافة الصفوة أمرا ممكنا . وهذا تنطوي أعمالهم على احترام الأنماط التقليدية للطبقة البرجوازية مثل جون ايركهارت في جيم ، وبرونفيلد وبليامز في ذلك الشعور ، وستزنر في أحب هذا المكان ، وجوليان أوربمورد في خلدي فتاة مثلك . ولعل هذا يفسر موقف آرثر في قصة ايمس القصيرة إنني أشم رائحة أغراب حين يقف موقفا وسطا بين اليسار المتطرف وحزب المحافظين . وهو نفس موقف ايمس ورفاقه الذين يرتبطون بين أنفسهم والقيم الجديدة المتداولة عقليا . لكنهم يرتبطون عاطفيا بالقيم البرجوازية القديمة . ويفسره أيضا موقف ايمس الذي مر « برحلة الماركسية القليلة الخبرة التي كانت حتمية بالنسبة لجيل » ، وانتقاله الى تبني وجهة النظر التي تمجد المصلحة الذاتية . كان الجميع خاضعين للتقليد الذي يشجع على التلاؤم مع المجتمع لا على تعديله . هذا الموقف الوسط تتضح ملامحه أكثر في موقفهم من قرائهم .

الاحساس بجمهور القراء :

كانت العلاقة بين الشاعر وقرائه محور تفكير شعراء الحركة . عبر عنها ديفي في كتابه نقاء اللغة الشعرية في الشعر الانجليزي . حيث يقول انه كانت هناك علاقة بين الشعراء وقرائهم حتى نهاية القرن ١٨ ، وأن انهيار هذه العلاقة أدى الى اختلافات بين شعراء القرنين ١٨ ، ١٩ . ففي القرن ١٨ كان الشاعر يتحرك في مجتمع أكثر استقرارا واتفاقا على التلاؤم الاجتماعي . لكن تفكك المجتمع بفعل الثورة الصناعية دمر قواعد السلوك الاجتماعي الراسخة . فافتقد الرومانسيون الثقة بالقراء واستبدلوا بها ثقتهم بأنفسهم . في حين أضفى هذا على شعرهم ثراء وطاقة ، الا أنه حرمهم من بعض تأثيرات التجاوب الاجتماعي . ولهذا يوصي ديفي بالتخاذ شعر القرن ١٨ نموذجا لشعراء الخمسينيات .

غير أنه مع هذا لا يأمل في أن يصل الا الى قراء من الصفوة المثقفة . كما أكد ايمس أن الشاعر لا يجب أن يتوقع جمهورا عريضا ، فقراؤه « دائرة الأصدقاء المقربين » . كذلك أكد الفاريز على ضيق دائرة قراء الشعر بالنسبة لقراء الرواية . ورأى وين أن الكتابة لجمهور محدود تجعل الشاعر قادرا على فهم مشاعر جمهوره . هكذا يلتقي الجميع على أن تكون دائرة القراء ضيقة ، مع الحنين الى الظروف التي سادت في القرن ١٨ بحيث يصلون الى دائرة أوسع من القراء العاديين .

كان شعرهم اذن يخاطب الصفوة المثقفة . فهو يتطلب من القارىء تركيزا واهتماما يعادل اهتمام الشعراء . لذلك يحفل شعرهم بأزمة الشاعر المعاصر ، وكيف يجب أن يكتب الشعر . هناك أيضا العديد من القصائد عن فن الرواية . وفي هذه القصائد لا يشاركهم الا المتخصصون في الاهتمام بأهمية القافية ، وضرورة النغمة الموضوعية المحايدة ، ومخاطر الغموض والبلاغة . هذه الصفة الاكاديمية تتضح في براعتهم في التلاعب بالمعنى والالفاظ .

لكن لاركين يمثل اتجاها مختلفا . فهو حريص على الوصول الى دائرة أوسع من القراء . وفي هذا يقول ان الشعر مرتبط بالمتعة ، واذا فقد الشاعر الجمهور العريض الذي ينشد المتعة في الشعر ، لا مجرد الدراسة ، فانه بهذا يفقد الجمهور الوحيد الذي يستحق أن يكتب له . وكان هولبروك من مؤيدي هذا الرأي ، فيرى أن الشعر أصبح لعبة تعرف قواعدها دائرة ضيقة ، ويتساءل اذا كان القبال الاقلية عليه يستحق الاهتمام .

هكذا تراهم بنزعتهم احساسهم بالانتماء الى الصفوة المثقفة ، وموقفهم ضد كل ما هو مكتوب لهذه الصفوة . فهم

يؤكدون أهمية الأستاذ الجامعي ثم يسخرون من وظيفته ، ويعلنون أن الكتابة لجمهور عريض مدمرة ، ثم يرون هذا ضروريا مفيدا .

وهذا يرجع الى صراع الشخصيات داخل الحركة : ديفي مثل اتجاها نحو الاكاديمية ، اترايت يمثل اتجاها معاكسا ، بينما يقف ايمس ووين موقفا وسطا . والسبب الجوهري في هذا يكمن في هويتهم الاجتماعية والسياسية . كانوا يمثلون الصفوة المثقفة ويكتبون نوعا من الشعر يعجب دائرة المثقفين ، لكنهم أيضا كانوا « الرجال الجدد » في مجتمع ما بعد الحرب حيث كان ينظر الى ارستقراطية المثقفين على أنه معلومة قبيحة وكان التأكيد على أهمية الانسان العادي . لكن يظل التناقض قائما في شعرهم بين الاكادمية وبين محاولة الوصول الى جمهور عريض . وهي معادلة فشلت أعمالهم في تحقيقها .

٤ ـ ضد الرومانسية :

رغم موقف هيوز والبوت من الرومانسية قبل الحرب العالمية الأولى ، الا أن الاربعينيات شهدت جيلا من الرومانسيين الجدد . وحين جاءت الحركة أدانت في الرومانسية بروز الذات السفلى ، وأعتبرت فرويد أثرا ضارا على الشعر . هكذا يقف كونكويست ضد صور الجنس والعنف التي تنبعث من اللاشعور عند الرومانسيين ، كما يقف ضد الصور التي تعبر عن سذاجات الطفولة والحنين اليها ، وضد الاهتمام بجرس الكلمات لا بالمعنى والبناء المنطقي للجملة . كان جيلا يؤمن بالفلسفة الوضعية المنطقية التي تنكر الفكر الغيبي وتدعو الى اثبات الشيء بالتجربة العملية والتحليل ، وتؤمن بأن التجارب الحسية فقط هي التي تتضمن دلالة حرفية .

وبعض أشعار الحركة تبدو ثورة ضد الرومانسية كلها ـ كما في قصيدة ايمس « ضد الرومانسية » . في هذه القصيدة يقلل ايمس من شأن تقليد يصور حيوانات اسطورية ، ويتنبأ بعالم من الشعر لا تطأه حوافر وحيد القرن . القصيدة بيان يبدأ بتحليل لتطور الرومانسية ، ويبرز جوانب ضعفها ، ثم يطرح برنامجا مستقبليا للشعر . فالرومانسيون ـ كما يقول ـ لا يجدون الحياة اليومية مثيرة ولذلك ينشدون عالم الخيال . والرومانسية تتمثل فيها رذائل الفوضى وانعدام المنطق والفوران العاطفي . أما شعر القرن ١٨ فتتمثل فيه فضائل النظام والعقل والاعتدال وروح الفكاهة . ويقارن ايمس بين عالم الخيال الرومانسي ، وبين العالم الذي يصوره بوب في « غابة وندسور » بشبه التنسق ، وبساتينه النظيفة ، وطرقاته الممهدة ، ويجد عالم بوب نشطا ، منظما ، يشكل بديلا مقبولا عن عالم الرومانسية البحري .

لكن القصيدة ليست دفاعا عن شعر القرن ١٨ ، بقدر ما هي دعوة الى الواقعية ، والأمانة في تصوير الاشخاص والاحداث ، أي الواقع اليومي الذي يتقاسمه الجميع . ولهذا تنتمي روايات ايمس ووين الى تقليد واقعي كوميدي ، كما في روايات فيلدنج وجين أوستن . والتفصيلات الواقعية في أشعارهم ـ مثل السرير ، المقعد ، المصباح ـ تحمل وزنا عاطفيا ، وكذلك تأكيدهم للواقع اليومي ومحتويات المحلات من أوان ، وأدوات مطبخ ، وأحذية ، وثلاجات كهربائية ، وغسالات ، وملابس ـ رخيصة ، الخ .

موقفهم من الرومانسية ، اذن ، يجد تعبيرا عنه في الواقع الحرفي ، ويبدو واقعيتهم في عدم ادانتهم لتدمير الصناعة للطبيعة وتلويثها ، فهم الصوت المعبر عن عصر الآلة الذي يدين عبادة الطبيعة ، والطبيعة عندهم لا تحيط بها هالة من الغموض تثير مشاعر سامية ؛ بل هي هناك من أجل متعة الانسان بما فيها من طعام وشراب . وبدلا من تصوير الطبيعة الخارجية أو العالم الداخلي للانسان ، يركز الشعراء على وصف البيوت من الداخل والحانات والمقاهي .

ويرتبط بهذا موقفهم من جو الرهبة الذي ينسجه الرومانسيون حول الأبطال والفنانين . فأبطال الرواية

الجديدة لا يتميزون عن غيرهم بشيء . تنقصهم اللباقة والخلق . متلائمون مع مجتمعهم : بل جبناء . هكذا يصور ازايت كوريولانوس على أنه مرشح للخدمة العامة يفشل في اختيار بسيط . ويصور هولواي عوليس رجلا عجوزا . والهدف من هذا هو اسقاط الأسطورية عن الابطال وابرازهم على شاكلة البشر . فكتاب الحركة لا يريدون لأبطالهم ان يتمردوا على المجتمع ، بل أن يتلاءموا معه . لهذا كانت سخريتهم من أبطال الرواية الحديثة عند لورانس وجويس وفيرجينيا ولف . في رفضها للبطل الرومانسي المتمرد كانت الحركة ترى ان كل فرد في المجتمع على نفس القدر من الأهمية ، وأن لكل دوره في بناء المجتمع . وكان ذلك يتلاءم مع فكرة ديمقراطية مجتمع الرفاهية التي سادت بعد الحرب .

ويرجع هذا الموقف من الرومانسية الى رؤية جديدة لها تقوم على أساس أن هناك علاقة بين أيديولوجية الرومانسية وظهور النازية والفاشية . عبر عن هذا بوعي الشاعر الامريكي بيتر فيريك في كتابه من الرومانسية الى هتلر (١٩٤١) . فهو يتعقب الايديولوجية التي تتضح في النظرية الرومانسية الالمانية ، والتي استمرت في أعمال فاجنر ونيتشه ، وتحققت بوصول هتلر الى السلطة . ورومانسية فاجنر هي منبع الافكار والمثل النازية . ولعل هذا هو أحد أسباب فشل تشرشل في انتخابات ١٩٤٥ . كان الناس يرفضون الفرد الفذ .

لذلك كان البطل في رواياتهم شخصية لا بطولية تمثل العصر . الشاعر أيضا لا يتميز عندهم بشيء عن معاصريه . وفي رواياته يسخر ايمس من الفنان الذي يعلن عن نفسه بمظهره أو سلوكه . فليست هناك ، في رأي الحركة ، علاقة بين الرسالة الشعرية وبين الاستعراضية وتضخم الذات . بل ان الشاعر عندها ليس من يرفض قيود الوظيفة التقليدية ؛ بل إنه رجل أعمال يعرض سلعته من الشعر على الجمهور .

في هذا الاطار نجد رفضهم لأسلوب لورانس في تصوير الجنس على أنه تجربة صوفية غامضة . فالجنس في رأيهم متعة بسيطة لا سر مقدس . لهذا يتناولونه باسلوب خفيف مثل لا يخلو من دعابة . هكذا نرى مشهدا يطرد فيه ديكسون من غرفة توم مارجريت ، أو نحلة تلدغ لويس فتضع حدا للقاء جارزت مع ستيورينا ، أو عجز ستانديس الجنسي عقب افراطه في الشراب .

وربما نجد حالة مختلفة في توماس جن الذي يؤمن بأفكار مثل الطاقة وفلسفة الوجودية التي ترتبط بالفردية الرومانسية . فهو يجمع بين الميل الى الرومانسية والعزوف عنها ، يمجد الاختيار والارادة الحرة على عكس إيمس ولاركين التي تصبغ القدرية كتاباتها . غير أنه حتى هذه القدرية هي في حد ذاتها رومانسية تكتنفها خيبة الأمل ، وتكشف عن ايمان بالخرافات لا يتمشى مع الدعوة الى المنطق والعقل . لكن موقفهم من الرومانسية ساعد على تحديد الاهداف الفنية للحركة ، مما جعل الشعر عندهم شيئا ديموقراطيا . كان هذا هدفهم الأول . وبعد ذلك لم تكن كل عناصر الرومانسية ضارة .

٥ ـ التراث والعقيدة :

يقول لاركين في مقدمة شعراء الخمسينات ان الشاعر يجب ان لا يؤمن بالتراث أو الأساطير . في هذا الضوء يهاجم الارض الخراب لاليوت لما تحفل به من اشارات أدبية واستشهادات من التراث . كما يهاجم « التراث والموهبة الفردية » لاعتمادها على التراث . وعوليس لجويس وبرج بابل والرؤية ليتس . وفي قصيدته « سوناتا من أورفيوس » يصور لاركين اورفيوس غاضبا من الكتاب الذين استغلوا أسطورته ليتخذوه بوقا لترديد نظرياتهم واقامة رموزهم وتحويله الى « ماتيكان » . وهو في هذا كله يعكس اتجاه الحركة الى رفض استخدام شعراء الاربعينات للأساطير الكلاسيكية والمسيحية . فالحركة ترى أن مثل هذا

الاستخدام لاسقاط مفهومات معاصرة لا يفسر شيئا . وإن استخدام ديفيد جاسكوين لصورة صلب المسيح للتعبير عن محنة الانسان المعاصر لا يؤدي الى رؤية جديدة . والواقعية تتطلب رفض الأسطورة .

لكن الكثير من كتابات الحركة لا تخلو من الاشارات الادبية عند ديفي ، أو تستغل الأسطورة عند جن في « لازاروس لا يبعث » ، « اغتصاب هيلين » ، « ميرلين في الكهف » ، و« المسيح وأمه » . بل إن لاركين نفسه لا يستبعد الاشارات الادبية من قصيدته « الاسيرة » التي تعتمد على قصيدة تنيسون ، ويشع « ١٩١٤ » على غرار الاساطير . فعلى الرغم مما تحفل به « ١٩١٤ » من تفصيلات الفترة ـ الكوكا كولا ، الاعلانات عن العلبات ، رقصة التويست ، والحانات ـ الا أنها صياغة جديدة لأسطورة السقوط . القصيدة تستدعي « براءة » انجلترا قبل الحرب ، والحرب هي المعادل للحية التي أغوت آدم بالسقوط ، وحرمته البراءة . والقصيدة بعد هذا ، واحدة من تقليد انجليزي خاص بالكتابة عن فترة ما قبل ١٩١٤ ، فهي ضمن كتابات تعالج التراث الاجتماعي والشعري معا . المهم في الأمر ، في رأي كتاب الحركة ، الا تتطلب هذه الاشارات من القارىء الالمام بالاصل . ولعل هذا له صلة بتوجههم الى نوعين من القراء ، المثقفين والعاديين . الواقع أنهم كانوا ضد المغالاة في استخدام التراث والاشارات الادبية .

غير أن الحنين الذي تعبر عنه القصيدة الأخيرة هذه ليس فقط حنينا الى نظام اجتماعي مستقر ، بل هو حنين الى أشكال الشعر المستقرة المنمقة ، الى شعر توماس هاردي وروبرت جريفز قبل أن يظهر اليوت وباوند وييتس . ولعلنا نلمح في اعتزازهم بشعر هاردي اعتزازا بنوع من المحافظة في آرائهم السياسية . ففي هذا الضوء يمكننا فهم دفاعهم عن استمرار المؤسسات الاجتماعية الارستقراطية والبرجوازية بصفتها تمثل استمرار المجموعة من المواقف والاتجاهات الانجليزية من الماضي باتجاه المستقبل . ويرجع هذا الى تأثرهم بتأكيد ليفس ، ومن قبله اليوت ، على استمرار التقليد الادبي من خلال الاضافة ، وعلى توجيه الماضي للحاضر ، وتغيير الحاضر للماضي . لكنهم في هذا أيضا كانوا منقسمين بين مؤيد ومعارض لهذا التصور الآلي للتقليد . ولعل هذا التفاوت في الآراء هو الذي أدى الى نهاية الحركة في الستينات .

كان هذا هو ما جعل ايمس ووين يستعيدان في رواياتهما روايات بينيت وأورويل وويلز لما فيها من احساس بالنظام المفتقد في روايات فيرجينيا ولف وجويس وبروست ولورانس . لهذا يهاجم ايمس التجريب في الرواية ، ويصور بطل أحب هذا المكان بعد يقوم بزيارة قبر فيلدنج ، وهو من أبرز الروائيين في القرن ١٨ . وفي الشعر بدا شكل السوناتا والرباعية يعود ثانية ، وعاد الاهتمام بالأوزان والقافية والأشكال البسيطة . ولقد دفع هذا بعض نقاد الحركة الى اعتبارها رجعية ، مما حمل ديفي يتبرى للدفاع عن هذا الاتجاه بقوله ان الأوزان الشعرية جزء من الطبيعة الانجليزية .

ويبدو دفاع ديفي سلفيا ، وهو ما يتأكد في نقاء اللغة الشعرية حيث يقول ان مراعاة قواعد التركيب اللغوي التقليدية في صالح النظام الاجتماعي ، وأن الالتزام بها يعني التقيد بالتقليد الشعري الأصيل . بل يذهب الى حد ربط الحداثة في شعر باوند ، واعتماده على الصور الفنية ، بدعمه لموسوليني والفاشية . فقواعد التركيب اللغوي ، في رأيه ، تعكس القوانين الاجتماعية ، وأي تهديد لهذه التراكيب هو تهديد لسيادة القانون في المجتمع المتحضر . ولهذا كان ارتباطهم بهاردي ، لا بلورانس أو ييتس أو ويندهام لويس ، فالشكل المحكم عند هاردي ، وتخمته المادئة ، يعنيان إمكان الاعتماد عليه سياسيا بصفته يمثل موقفا ليبراليا .

٦ ـ الحركة بعد ١٩٥٦ : خطوط متشعبة :

تمثل سنة **١٩٥٦** نقطة تحول هامة في تاريخ الحركة . ففي تلك السنة ظهرت مجموعة أبيات جديدة ، وهي تضم قصائد لكل كتاب الحركة ، جمعها كونكويست وصدرها بمقدمة . وكان انرايت قد أصدر مجموعة أخرى في طوكيو ١٩٥٥ ، وما أن ظهرت المجموعتان حتى أصبحتا موضع دراسة في المجلات الادبية ، بل انها جذبتا الاهتمام في الخارج . عن **أبيات أدبية** قال أنتوني هارتلي ان المجموعة تتويج لبرنامج أدبي . ان الحركة قد نجحت في اقتلاع جذور غموض شعر الاربعينيات . لكنه رغم اقتناعه بضرورة الحركة ، الا أنه أعرب عن أمله في أن تتمكن من تحقيق شيء أكثر طموحا ، ربما في مجال رومانسية جديدة لا تتضمن هراء رومانسية الاربعينيات . كان يعني أن الحركة قد حققت أهدافها ، وان عليها أن تجرب شيئا أكثر طموحا .

لكن ظهور المجموعتين شهد تحلل الحركة ، فحتى عام **١٩٥٦** كان يجمع كتابها شعور واحد بأنهم ضد « عصابة الابتزاز الادبية » في لندن ، وبضرورة الدفاع عن بعضهم البعض . والآن لم تعد هناك حاجة لهذه الحماية . ثم ان أفراد المجموعة كانوا يتألفون في أوائل الخمسينيات من أكاديميين جامعيين . لكن ما أن حل عام **١٩٥٦** حتى كانوا جميعا قد هجروا الجامعات الى أمريكا واليابان وألمانيا وتايلاند . كذلك تغير موقفهم من كتاب العاصمة « الفاسدة » بحيث تلقى ايمس جائزة سومرست موم الذي كان قد هاجم جيم ايمس . بل ان ايمس كتب بعدها **أحب هذا المكان** التي تصور البطل الذي « يأتي من الطبقة الوسطى الصغرى يدافع عن النظام جنبا الى جنب مع السيد المهذب ضد المتمردين عليه .

وباختصار فقد أصبحت الحركة تمثل القيم التي كان على جيل الكتاب التالي أن يتمرد عليها . فظهرت كتابات عدد من المحررين الشبان يهاجمون الحركة . وظهرت محاولات شعرية ذات طابع جديد . وفي **١٩٥٧** ظهر ديوان تيد هيوز الاول **الصقر في المطر** ، وهو ديوان يكشف عن طاقة رومانسية خشنة ، حتى حدثت مقارنات بين هيوز ولورانس وديلان توماس . وانضمت الى هيوز سيلفيا بلاث ، بيتر ردجريف وآخرون . وظهر اتجاه جديد في الشعر نحو الوحشية والعنف . لم يعد شعر الحركة شيئا جديدا .

وفي الرواية لم تعد الواقعية الكوميدية هي السائدة ، بل ظهرت أسماء مثل وليام جولدنج ، ميوريل سبارك ، لورانس داريل ، دوريس لسنج ، أنتوني بيرجس ، وأيريس ميردوك . كانوا يكتبون رواية تعتمد على الخيال والغرابة والتجريب والمجاز . وأصبح رفض التقليدية التي تميزت بها الحركة أمرا واقعا .

كذلك أدى ظهور جيل « الشباب الغاضب » الذي كان يمثله جون أوزبورن وكولن ويلسون الى أن تثور ثائرة ايمس الذي رأى في لامنتمي ويلسون « اضافة مزعجة الى الحالة المزاجية السائدة ضد العقلانية . » ولم يرض كتاب الحركة عن تأكيد أوزبرن على العاطفة واعلانه أنه يريد من القراء أن يحسوا ويشعروا . أزعج شعراء الحركة روح التمرد لدى الشباب الرافض . لكن كاتبا مثل جين أثار انتباهه البطل الرومانسي عند ويلسون فكتب ، كما كتبت اليزابيث

جنتجز، أشعارا لا تتفق مع رأي ايمس. وفجرت الاستجابات المختلفة الخلافات الخفية بين أفراد الحركة.

وكان من الممكن ان تمر ظاهرة الشباب الغاضب بهدوء لولا أزمة السويس عام ١٩٥٦ التي كانت فرصة لتوجيه الغضب وجهة ايجابية. كان للأزمة نتائج مهمة بالنسبة للحركة. ففي حين كان المناخ السياسي في الخمسينات هادئا، أثارت أزمة السويس مناقشات سياسية تدين قرار ايدن بارسال قواته الى مصر، وأثارت شعورا بأن الازمة أنهت محاولة بريطانيا أن تبقى قوة عالمية بفضل قيادتها الخلقية. في هذا المناخ أصبح مفهوم الحياد السياسي، الذي كانت الحركة تدين به، موضع هجوم.

أعلن احد النقاد اليساريين أن عهد جيم المحظوظ السياسي قد أنهته حرب السويس، ومعه نهاية الوفاق السياسي بين المحافظين والاشتراكيين، وضرورة رفض سياسة ايمس السلبية. وهكذا انعزل كتاب الحركة عن معاصريهم.

وكان من نتيجة غزو روسيا للمجر في نفس السنة ان أعلن كتاب الحركة عن اداناتهم للماركسية والاتحاد السوفيتي. وكلما زاد عداؤهم للسوفيت مالوا أكثر بالاتجاه اليمين في مواقفهم المحلية، وباتجاه أمريكا في الامور الدولية. وبهذا اتضحت هويتهم وانعزلوا عن المثقفين. وأحد الأمثلة الصارخة على هذا موقفهم من حرب فيتنام، حين أعلن ايمس وكونكويست تأييدهما للسياسة الامريكية، وأوصيا بارسال قوات بريطانية لتصعيد الحرب.

من ناحية أخرى أعلن جن واترايت وديفي اداناتهما للسياسة الامريكية في فيتنام. بل ان ايمس وديفي اشتبكا في جدل حول صحة أو خطأ التدخل في الامور الدولية.

لكن الخوف من اليسار كان جزءا من ايديولوجية الحركة في الستينات. وفي حين كانت كتاباتهم قبل سنة ٥٦ موزعة بين الرغبة في الاصلاح الاجتماعي والرغبة في الابقاء على الاوضاع الاجتماعية على حالها، بدأ العنصر الرجعي يتحكم فيها.

وربما أمكننا ملاحظة هذا العنصر الرجعي في كل روايات ايمس التي تصور شخصية تحاول التلاؤم مع عالم البرجوازية. أما في عام ١٩٦٦ فتبرز أنماط أخرى في حلف ضد الموت التي تصور الجو الكابوسي في عام ١٩٨٤، وتتخذ من البيئة العسكرية مشهدا، ومن استحواذ فكرة الموت على الشخصيات محورا تدور حوله الاحداث. فالشخصيات هنا منهمكة في عملية معقدة ضد الصينيين تعكس قلق ايمس من النظم الجماعية. وفي فتاة في العشرين (١٩٧١) تختفي البيئة الاقليمية، وتبرز بيئة العاصمة الثرية.

نفس التغير في المنظور نلمسه في اعمال لاركين. ففي حين كان يحلم بنوع من الاشتراكية تشرف على تطبيقه الطبقة الوسطى المستنيرة، نجده في الستينات والسبعينات يكتب ضد تمرد الطلبة ويبدي خوفه من مد سوفيتي، ويأسف لأن انجلترا فقدت امبراطوريتها. ونفس المسار نلاحظه في تحول ديفي الى حزب المحافظين حين يصطدم، بعد عودته من أمريكا، بالاتجاه اليساري لدى طلبته في الجامعة.

هكذا لم تعد الجماعة مرتبطة بانجلترا بعد عام ١٩٥٦. وظهرت امارات التحلل في موقفهم من الحركة الحديثة ومن الرومانسية. بدأ ديفي والزابيت جننجز يبديان مرونة في اعترافهما بمواطن القوة في الرومانسية، واعتبار العملية الشعرية شيئا أكثر من مجرد عملية واعية لدى الشاعر. وذهب وين الى اعتبار الشعر عملية تستمد منابعها من

اللاشعور . فلم يعد « العقل ملجأ أمنا ، أو بيتا مرتبا » كما تقول اليزابيث جننجز في احدى قصائدها .

في حين كان الجميع يضمهم حلف واحد في مبدأ الأمر ، بدأ البعض يشعرون أن هذا الحلف عبء على مشاعرهم واهتماماتهم التي تشعبت وتفرقت . وحتى اليوم لا يزال كتاب الحركة يكتبون ، لكن بأساليب تختلف عن أسلوبهم الاول .

ففي ديوان ارايت تصوير الجثة (١٩٥٨) نجد الانشغال بالنعاب الى الكنيسة . ويبدي ايمس في روايته الاخيرة شيء يتملكه جيك قلقا جنسيا متزايدا . وسوف يتزايد هذا الاتجاه كلما تقدم السيد بكتاب الخمسينيات . ربما لم يكتمل بعد مسار الحركة ، لكن كل كتاباتها الآن مؤشر الى ما يمكن ان يصدر عنها فيما بعد .

***

حياة غريبة

ادوارد مورجان فورستر وعالمه الغريب *

اعداد: احمد محمود صبري

تشغل الكتب الخاصة بتاريخ حياة الأدباء والفنانين والكتاب والمفكرين ومذكراتهم وذكرياتهم ومراسلاتهم مكانا بارزا في الآداب الغربية ، بحيث لا تكاد نجد واحدا من هؤلاء الأدباء أو الفنانين أو المفكرين الا وقد كتب عنه الشيء الكثير ، فضلا عن نشر رسائله ومذكراته ويومياته الخاصة . وتعتبر هذه الكتابات مصدرا هاما من المصادر التي يستمد منها القارىء الكثير من المعلومات الدقيقة التي تلقي كثيرا من الأضواء على صاحبها ، كما تساعد مساعدة فعالة على فهم العصور التي وجد فيها هؤلاء الأدباء أو الكتاب أو الفنانون ، والتيارات الادبية والفكرية التي كانت تسود في هذا العصر والتي كان لها اثر كبير في توجيههم وفي كتاباتهم . كما أنها تكشف للقارىء وللباحث عن جوانب خفية في تاريخ حياة هؤلاء الكتاب يمكن الاستعانة بها في فهم كتاباتهم بطريقة أفضل وأعمق . وتفسير الكثير مما قد يغمض على القارىء الذي لا يعرف هذه النواحي أو الجوانب الخفية . وعلى الرغم من أن الآداب الغربية كانت تهتم دائما اهتماما كبيرا بهذا النوع من الانتاج الأدبي فان السنوات العشرين الأخيرة بوجه خاص شهدت اقبالا هائلا على نشر مثل هذه الكتب . وربما كانت فرجينيا وولف Virginia Wolf أكثر الكتاب والأدباء البريطانيين حظا في هذا الاهتمام ، فقد نشرت مذكراتها الخاصة وعدة مجموعات من رسائلها ، كما ظهر عدد كبير من الكتب التي تتناول تاريخ حياتها وتحليل أعمالها ، كما أعيد طبع كل رواياتها في طبعات غالية أو رخيصة حتى تكون في متناول الجميع . وبذا يمكن القول ان السنوات العشر الاخيرة كانت بحق هي سنوات فرجينيا وولف . لكن هذه الفترة ذاتها شهدت نشر مجموعة رائعة من الكتب والدراسات التي تتناول حياة أدباء أفذاذ من أمثال سومرست موم ، و د . هـ . لورانس ، وادوارد مورجان فورستر ، وجورج اليوت ، وكذلك نشر رسائل ومذكرات ويوميات كثير من الادباء ، ولعل آخر ما ظهر في هذا الصدد هو تلك المجموعة الضخمة من رسائل ايفلين وو Evelyn Waugh التي تضم أكثر من ثمانمائة

* P.N. Furbank : E.M. Forster : A Life; Harcourt Brace Jovanovich, N.Y. 1975 · Francis King; E.M. Forster and his world, Charles Scribner's Sons; N.Y. 1978.

رسالة تكشف عن كثير من علاقاته ونظراته وآرائه في الحياة والادب والحياة العائلية وفي غيره من رجال الأدب ورجال السياسة . بل ان هذا الاهتمام في الغرب يتعدى نطاق رجال الادب والفكر الى السياسيين والفنانين الذين يحرصون على تدوين مذكراتهم ويومياتهم بشكل منتظم بحيث تصبح بعد نشرها وثائق وشواهد على آراء أصحابها ، وعلى العصر الذي عاشوا فيه . وربما كان من أهم هذه المذكرات التي شهدها المجتمع المثقف في انجلترا أخيرا مذكرات بربارة كاسل Barbara Castle الوزيرة الشهيرة ، وقد كتبت يومياتها بتلقائية فيها كثير من الرشاقة والعمق والقدرة على النقد . ومن الطريف حقا أن كل هذه الكتابات لا تتورع عن أن تعرض لأدق تفاصيل الحياة والعلاقات والآراء بما في ذلك الحياة الخاصة أو ما يمكن تسميته بالحياة السرية لأصحابها . كما أنها تكشف درجة عالية جدا من الأمانة في تحليل الشخصية والنوازع والعواطف والانفعالات والأحاسيس ، بما في ذلك المشاعر التي قد لا تجد قبولا أو تعاطفا من المجتمع . بل ان هذه الكتابات لا تجد أية غضاضة في أن تذكر الأشخاص بأسمائهم الحقيقية وتعرض لهم بالنقد والمحاكمة ، وتحليل شخصياتهم وأفعالهم ، وكشفها أمام القارىء دون أن يشعر الكاتب بحرج أو أنه خرج بعمله هذا على تقاليد المجتمع وأخلاقياته ما دام يلتزم في كتابته بالأمانة ، ويرتبط بالحقائق والوقائع ، ويحاول أن يكون منصفا في تفسيراته وتأويلاته .

ومما يؤسف له حقا أننا في العالم العربي لا نعطي مثل هذا الاهتمام الكبير لهذا النوع أو اللون من الادب والكتابة الادبية على الرغم من أهميتها لفهم الأدباء والكتاب والفنانين والمفكرين ، فضلا عن ان مثل هذه الكتابات لا تخلو من عنصر التشويق والاثارة ، علاوة على كونها تسجيلا دقيقا لآراء الكتاب أنفسهم وخلجاتهم وعواطفهم ونظرتهم الى الحياة والى غيرهم من الناس . وصحيح أن بعض كتابنا العرب اهتموا الى حد ما بهذا اللون من الكتابة مثل توفيق الحكيم ويحيى حقي . كما أن بعض رجال السياسة تركوا لنا مذكراتهم التي رأى بعضها النور سواء في صورتها الاصلية أو بعد ادخال تعديلات عليها . وربما كان أشهر كتاب في هذا المجال هو كتاب طه حسين « الأيام » حيث يسجل لنا نشأته وجانبا كبيرا من حياته وتكوينه الفكري ونظرته الى الحياة . ولكن هذه الكتابات في اللغة العربية كثيرا ما يلفها الغموض . كما أنها تفتقر الى التفاصيل الدقيقة التي تتميز بها الكتابات المماثلة في الآداب الغربية . فكتابنا العرب الذين أتيح لهم أن يكتبوا عن حياتهم أو أن يكتبوا سيرتهم الذاتية يترفعون في الاغلب عن ذكر تفاصيل حياتهم وعلاقاتهم ، وبخاصة علاقاتهم العائلية والعاطفية ، ويعتبرون ذلك أمرا خاصا بهم يجب ألا يعرض على الآخرين ، مع أن عرض هذه الحياة وعرض تلك العلاقات ، وبخاصة العلاقات التي كان لها أثر مباشر في تكوين فكر الكاتب وتكوين نظرته الى الحياة يجب أن ينظر اليها على أنها الى حد ما « أمور عامة » من حق القارىء أن يعرف الكثير عنها لكي يتوغل في فكر ذلك الكاتب ، ولكي يفهم مكونات تفكيره وعناصر أدبه ... وصحيح أيضا أن بعض كتابنا وأدبائنا يستمدون عناصر كتاباتهم من البيئات التي عاشوا فيها ، ويعرضون لبعض العلاقات التي كانوا أطرافا فيها كما هو الحال في كتابات وروايات نجيب محفوظ ، ولكن هناك فارقا كبيرا بين أن يستمد الكاتب من تلك البيئات او العلاقات مادة كتابته وأدبه ، وان يقوم بتسجيل حياته الخاصة مبينا بالتفصيل العناصر التي دخلت في تكوينه ويحلل لنا من وجهة نظره هو علاقاته مع الآخرين ، وأن [illegible] لنا رأيه في الكتاب والأدباء والساسة بل والأشخاص العاديين الذين أتيح له ان يحتك بهم أثناء حياته والتأثيرات المتبادلة بينه وبينهم ؛ كيف تأثر بهم ، وماذا أخذ منهم دون أن يلجأ الى الرمز في معالجة هذه الامور . ولا بأس في أن يعرض في كتابته لأخص خصوصياته اذا كان يعتقد أن هذا الجانب الخاص كان له أثر واضح في تكوينه الادبي .

ـ والذي أريد أن أخلص اليه هنا هو أننا نفتقر الى حد كبير الى هذا اللون من الادب والى هذا النوع من الكتابة ، أي ترجمة الكاتب الاديب أو الفنان او المفكر لحياته الخاصة في صدق وامانة ، ونشر المذكرات واليوميات بكل ما فيها من دقائق وبكل ما فيها من تفاصيل ، وكذلك نشر المراسلات الخاصة مع الأصدقاء ، وبخاصة تلك الرسائل التي تتصل

بأعماله الادبية أو الفنية أو الذهنية ، والتي تتصل برأيه في رجال العصر الذين أتيح له أن يحتك بهم وأن يتعامل معهم . وليس من شك في أن اثارة الرغبة في التعرف على مثل هذا النوع من الادب قد يتطلب في أول الأمر منا أن نهتم بترجمة بعض هذه الاعمال من اللغات الاوروبية الى اللغة العربية . وقد يكون من الافضل ان نبدأ بترجمة السيرة الذاتية او الكتابات التي تتناول تاريخ حياة الادباء والكتاب الذين لهم علاقة بالعالم العربي والشرق عموما من ناحية ، أو الذين ذاع اسمهم وانتشر صيتهم عند القارىء العربي .

ويحضرني هنا من الفريق الاول إي . إم . فورستر E.M. Forester الذي عاش فترة من حياته في الشرق وجال فيه ثم كتب كتابه : «A passage to India» وذلك علاوة على كتابه القصير عن مدينة الاسكندرية . وعلى الرغم من أن الكثيرين ينظرون الى هذا الكتاب الاخير على أنه دليل أدبي الا أنه يكشف عن نظرات عميقة عن مصر وتاريخ الاسكندرية القديم وفنون العمارة في مبانيها واتجاهات الفن التشكيلي المتمثل في بعض تماثيلها ، مما يخرج بالكتاب عن أن يكون مجرد دليل للسائح ويدخله ضمن كتب الادب والرحلات . ويحضرني من كتاب الفريق الثاني الذين طبقت شهرتهم الآفاق في العالم ، والذين يعرف الكاتب العربي عنهم وعن أعمالهم الكاتب الروسي الشهير تولستوي Tolestoy الذي ترجمت بعض أعماله الى اللغة العربية ، ولقد ذكرنا أن المطابع أخرجت في السنتين الاخيرتين عددا من الكتب حول كل من Tolestoy و E.M. Forester ولقد لقيت هذه الكتب رغم حداثة ظهورها رواجا هائلا في الغرب ، وقوبلت بقبول حسن من النقاد سواء في أوروبا او في أمريكا ، واحتلت بذلك مكانة عالية بين كتب السيرة وتاريخ حياة الادباء والفنانين . وربما كان هذا النجاح الباهر الذي لقيته معظم الكتب الذي تدور حول حياة فورستر من ناحية ، والصلة الوثيقة التي تربط فورستر بالشرق عموما ، وبالهند ثم بالاسكندرية بوجه خاص هما السببان الرئيسيان اللذان يدفعانني الى اختيار اثنين من هذه الكتب الحديثة عن هذا الكاتب الروائي العظيم لتقديمها الى قراء (عالم الفكر) على أمل أن أقوم بتقديم بعض الكتب الاخرى التي تدور حول تولستوي في مقال آخر .

وربما كان من أهم الكتب التي ظهرت عن فورستر اثنان ، أحدهما هو كتاب فيربانك P.N. Furbank بعنوان : إي . ام . فورستر ، تاريخ حياة E.M. Forester : A life ، وهو كتاب شديد التفصيل يضم ٦٧٢ صفحة من الوقائع والاحداث التي يسردها المؤلف في أسلوب رشيق بحيث يمكن اعتبار الكتاب نوعا من الدراسة الوثائقية التي تزود القارىء والدارس والباحث معا بكثير من المعلومات عن حياة ذلك الكاتب الفذ . اما الكتاب الثاني فقد كتبه Francis King وعنوانه إي . ام . فورستر وعالمه "E.M. Forester and his world" وهو كتاب أقصر بكثير جدا من كتاب فيربانك Furbank اذ يتألف من ١٢٨ صفحة فقط ، تضم مجموعة هائلة من الصور التي يزيد عددها على المائة وكلها صور مختارة ، ذات مغزى وتكشف عن جوانب معينة من حياة فورستر والمجتمع الذي عاش فيه والعالم الذي يحيط به مع تعليقات وشروح وتفسيرات تحليلية على جانب كبير من العمق . وبذلك يمكن اعتبار الكتابين متكاملين الى حد كبير ، أحدهما يزودنا بالوقائع والاحداث عن الكاتب وحياته ، والثاني يقدم لنا تحليلا عميقا لذلك العالم الغريب الذي حياه وعاش فيه وتنقل وتأثر به كما تكشف عنه الصور . وظهور هذين الكتابين في وقت واحد (١٩٧٨) دعا الأستاذ بيتر ستانسكي Peter Stansky أستاذ التاريخ البريطاني بجامعة ستانفورد في أثناء عرضه وتحليله لهذين الكتابين أن يتساءل عن الأثر الذي سوف يتركه ظهور الكتابين على اسم فورستر وشهرته . فالمعروف ان فورستر توفي وهو في الحادية والتسعين من عمره عام ١٩٧٠ . وخلال السنوات الثماني التي انقضت بين وفاته وظهور هذين الكتابين تضاءلت سمعته واهتزت مكانته في عالم الأدب الى حد كبير وانصرف الكثير عن قراءة أعماله ، فبينما كان اسم كاتبة روائية مثل فرجينيا وولف Virginia Wolf يلمع وينتشر ويرتفع طيلة الوقت كان اسم E.M. Forester ينزوي ويتضاءل ويقل الاهتمام بكتاباته فهل يا ترى يؤثر

ظهور هذين الكتابين في اعادة الاهتمام بفورستر في تاريخ الادب الانجليزي ؟، وهل تعود شهرته الى ما كانت عليه أثناء حياته ؟... هذا هو السؤال الذي لابد أن يتبادر الى ذهن دارسي الادب الانجليزي الحديث وبخاصة الذين يعجبون بكتابات فورستر ويقدرونه .

ولسنا هنا في مجال المفاضلة بين فيرجينيا وولف وفورستر على الرغم من أن هذين الاثنين يعتبران في تاريخ الادب الانجليزي أهم شخصيتين برزتا بعد وفاة الكاتب الروائي العظيم د . هـ . لورنس D.H. Lawrence ، وكانا يتقاسمان الشهرة واعجاب القراء واقبالهم على أعمالهما ، فلما ماتت فيرجينيا وولف ، وجه الكتاب والنقاد كل اهتماماتهم لدراسة أعمالها وكتابة سيرة حياتها ، كما اهتم الناشرون باعادة نشر رواياتها وأعمالها الكاملة كان ذلك على حساب فورستر الذي انزوى الى حد كبير وعانى اسمه من انصراف القراء عنه . ويرى فيربانك على أي حال أن ثمة ما يبرر ذلك كله ... ذلك أن فيرجينيا وولف كانت دائما أقدر من فورستر على معايشة المجتمع الانجليزي المعاصر المتغير ، والتعبير بصدق وعمق عن الحياة الانجليزية ، وذلك فضلا عن تعضيدها لحركات التمرد النسائي في انجلترا سواء في أفكارها وكتاباتها أو حتى في سلوكها الشخصي . لقد كانت فيرجينيا وولف تؤمن بحرية المرأة في الحياة الجنسية وتمارس العلاقات الجنسية المثلية على الرغم من زواجها ، ومع أن E.M. Forester هو نفسه كان يعاني من هذا الانحراف في علاقاته الجنسية الا أنه كان يمارسها في شيء من الاستحياء ولا يجاهر بالدعوة اليها ، وهو الأمر الذي يختلف فيه اختلافا كبيرا عن فيرجينيا وولف .

على الرغم من كل ما قلناه عن الكتابين اللذين ظهرا في وقت واحد عن حياة فورستر وعالمه فان كتاب Francis King رغم قصره واعتماده اعتمادا كبيرا على التعليق على الصور التي تعبر عن مواقف معينة في حياة فورستر فان القارىء ذا البصيرة النافذة يمكنه أن يستخلص منها الكثير من المعاني ، ولذا فان الكتاب يعتبر في رأي النقاد في الخارج الذين تعرضوا له بالعرض والنقد والتحليل كتابا رائعا لا يمكن لأي قارىء يهتم بكتابات فورستر أن يستغني عنه ، نظرا لما يلقيه من أضواء على حياة ذلك الكاتب المؤلف الروائي العظيم . ولكن يبقى بعد ذلك كتاب فيربانك الذي يضم كما ذكرنا أكثر من ستمائة صفحة يملؤها بالأحداث والوقائع والبيانات والحقائق ، ويلم فيه الماما شاملا وكاملا الى حد كبير بحياة فورستر . ومن هنا نجد أن الكثيرين من النقاد في الخارج أيضا يعتقدون ان ذلك الكتاب سوف يظل هو الكتاب المعتمد عن حياة وأعمال فورستر لسنوات عديدة قادمة .

ومما يزيد كتاب فيربانك أهمية بالنسبة للقارىء أن المؤلف هنا كان صريحا في كتابه الى أبعد حدود الصراحة فلم يحاول أن يخفي شيئا على الاطلاق عن حياة فورستر ، ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر أنه في صفحة العنوان يقتبس جملة من أحد خطابات فورستر أرسلها الى صديقه ت . ا . لورانس T.E. Laurence عام ١٩٢٨ ـ وهذه الجملة تقول : « وحين أموت ويكتبون تاريخ حياتي فانهم يستطيعون أن يقولوا على ما يشاؤون » . فهذه الجملة تبين منذ البداية الأسلوب الصريح الامين الذي أخذ فيربانك به نفسه وهو يعرض لنا حياة فورستر .

ولكن ذلك لا يعني أبدا أن فيربانك ابتذل في كتابه ... فعلى الرغم من صراحته ، وعلى الرغم من أنه تناول بالكتابة أدق تفاصيل حياة فورستر الخاصة بما في ذلك حياته الجنسية والسرية الا أنه ككاتب كبير أمكنه أن يقدم للقارىء كل هذه الحقائق بأسلوب رفيع يبتعد كل الابتعاد عن الاسفاف ، ولا يخدش حياء القارىء ... انه كتاب صريح يمتاز باللياقة مثلما يمتاز بالدقة ، واذا كان هناك نقد أو اعتراض يمكن أن يوجه الى ذلك الكتاب بصورة عامة فهو أن الكاتب في سبيل ابرازه لحياة فورستر بدقائقها وتفاصيلها أغفل التعرض لرواياته وأعماله الادبية بالنقد . فلم يقف من هذه الكتابات موقف الاديب الناقد . والواقع أن هذه المشكلة كانت دائما مشكلة الكتاب المؤلفين الذين يعرضون في كتاباتهم لحياة مشاهير الادباء والفنانين والمفكرين . وقليل من هؤلاء المؤلفين هم الذين أفلحوا في أن يوازنوا في كتاباتهم بين عرض تفاصيل حياة هؤلاء الادباء والفنانين .

وتحليل ونقد أعمالهم . ولكن هذا النقد أو هذا الاعتراض العام الذي يوجه الى كتاب فيربانك لا يقلل أبدا من أهميته ومن جديته ، بل ربما كان الاسلوب الذي اتبعه فيربانك في كتابه هو الأسلوب الافضل الذي يوصل الى النتيجة التي كان يريدها والتي تحقق الخطة التي يبدو أنه وضعها لنفسه منذ البداية في كتابته عن حياة فورستر الغريبة ، فالكتاب لا يتبع في تبويبه الأسلوب او الطريقة المعتادة في التأريخ لحياة الادباء والكتاب والمؤلفين ، ولا يقسم هذه الحياة الى مراحل محددة ، ويعرض في كل مرحلة للأعمال التي أنجزها ، وانما يبدو أن فيربانك كان يريد أن يبين بعض الملامح الاساسية في حياة اي . ام . فورستر وبخاصة حياته الجنسية وعلاقاته الحميمة ، والاحباطات التي تعرض لها أثناء ذلك ، والى أي حد انعكست هذه العلاقات في رواياته وفي كتاباته . وعلى أي حال فان الحقائق التي تتعلق بحياة فورستر تعطينا الشيء الكثير عن انجازاته في مجال الادب . كما تعطينا صورة واضحة عن المجتمع الانجليزي في هذا القرن ، وبخاصة في بدايات هذا القرن . وعن تلك الصلات الحميمة التي كانت تتخذ طابعا جنسيا واضحا بين الكثير من الكتاب والأدباء المشهورين .... ولكن المشكلة الأساسية التي تصادف الكاتب الذي يريد أن يؤرخ لحياة فورستر هي الطابع الهادىء نسبيا الذي يطبع تلك الحياة التي تجذب اليها الكاتب والقارىء على السواء ، ثم انحصار نشاطه الابداعي الذي يتمثل في كتابة الروايات المهمة في فترة زمنية محددة في بداية اشتغاله بالكتابة والانتاج الادبي . على الرغم من أنه عاش أكثر من تسعين سنة كانت مليئة بالكتابة والتأليف . والواقع أنه يمكن رد رواياته الكبرى الى فترتين قصيرتين ومبكرتين نسبيا تفصل بينهما سنوات قليلة اتجه فيها الى الانتاج غير الروائي . وتقع الفترة الاولى بين عامي ١٩٠٥ و ١٩١٠ وفيها نشر معظم رواياته الهامة وهي رواية « Where Angles FEAR To Tread » رواية « The Longest Journey » ورواية « A Room with a View » ثم رواية « Howard s End » ـ وفي عام ١٩٢٤ ـ وهي الفترة الثانية ـ نشر آخر أعماله الروائية وهي روايته « A passage to India » وهي الرواية التي يبدو أنه خصصها بالذات لمعالجة مشكلة العلاقات الجنسية المثلية بين الذكور فقد كتبها في عام ١٩١٣ حين كانت معرفته بهذه المشكلة لا تزال معرفة نظرية الى حد كبير . ولم تنشر هذه الرواية الا في عام ١٩٧١ . ويرى معظم النقاد أن هذه الرواية قيمة سيكولوجية تفوق قيمتها الادبية بكثير . فهي لا تحتل على العموم الا مكانا ثانويا نسبيا في مجموع أعماله وانتاجه واسهامه وانجازاته .

لقد ولد اي . ام . فورستر عام ١٨٧٩ في عائلة تنتمي الى الطبقة فوق المتوسطة ، فمن ناحية أبيه ينتمي فورستر الى عائلة Thornton التي اشتهر كثير من أفرادها باشتغالهم بأمور الكنيسة ومحاولة اصلاحها ، فضلا عن اهتمامهم عموما بالحركات الاصلاحية الاجتماعية مثل حركات مقاومة تجارة الرقيق ، وساعدها على ذلك الغنى والثروة اللتين كانت تتمتع بهما . ولكن فورستر لم يبد الكثير من الاهتمام بمشاركة عائلته في هذا النوع من النشاط الاجتماعي والديني . وان ظل سلوكه مع ذلك يعكس كثيرا من القيم الاخلاقية التي تميز بها آل ثورنتون . أما عائلته لأمه فكانت تنتمي لأهل أكثر تواضعا وتعرف باسم عائلة Whichlo . وهو اسم مغمور الى حد كبير ويشتغل معظم أعضائها من الذكور بالاعمال الكتابية في دواوين الحكومة . بينما يشتغل معظم النساء كمربيات لأطفال العائلات الكبيرة الغنية .

ويدين كاتبنا الى عمة أبيه ماريانا Mariana بالفضل الكثير بالنسبة لنجاحه في الحياة الادبية . فقد تركت له ثمانية آلاف جنيه بعد موتها . فاستعان بهذا المال في القيام برحلاته الكثيرة وفي تطلعاته الادبية بعد أن انتهى من دراسته بجامعة كمبردج عام ١٩٠١ . ولقد رد فورستر الى عمة أبيه هذا الدين بطريقة فذة . اذ كتب عام ١٩٥٦ كتابا عن تاريخ حياتها وبذلك خلد اسمها في مجال الادب . ولقد كانت العمة ماريانا أو موني Mony كما يسميها ، هي التي رتبت لزواج أبيه ادوارد مورجان Edward Morgan من

احدى ربيباتها وهي ليلي ويشلو Lilly Whichlo التي كانت تلك العمة تحوطها بعنايتها ورعايتها ، وكان ادوارد مورجان ، وهو والد فورستر الكاتب يعمل في ذلك الوقت مهندسا ، وتم الزواج عام ١٨٧٧ . وقد مات الطفل الاول من ذلك الزواج أثناء الولادة . . ثم جاء الطفل الثاني الذي أصبح فيما بعد الكاتب الفذ . وكان مولده في اليوم الاول من يناير عام ١٨٧٩ . وسجل اسمه على أنه هنري مورجان فورستر Henry Morgan Forester . ولكن بعد ذلك بشهرين وأثناء حفل تعميد الطفل في الكنيسة حدث شيء من الارتباك والاضطراب حول تسمية الطفل .

وهو ارتباك او اضطراب يصفه الاستاذ ستانسكي بأنه يمثل حادثا رمزيا فذا في تاريخ كاتب عرف فيما بعد أنه يخصص جزءا كبيرا من كتاباته لحل ارتباكات واضطرابات الحياة اليومية . ففي أثناء حفل التعميد سئل الوالد عن الاسم الذي اختاره لابنه . ويبدو أن الأب كان شارد الذهن في ذلك الوقت . وبدلا من أن يذكر الاسم الذي سجل به الابن وهو هنري مورجان فورستر Henry Morgan Forester ذكر اسمه هو ادوارد Edward . وبذلك أعطى الابن ذلك الاسم الذي اشتهر به طيلة حياته الادبية وهو اي . ام . فورستر أو ادوارد مورجان فورستر . ويبدو أن تلك الحادثة أو الازمة لم تمر

بسهولة . اذ أصبحت فيما بعد تشغل حيزا كبيرا من تفكير الكاتب . فظهرت في أكثر من موقف في كتاباته واتخذت أشكالا مختلفة . وقد توفي الاب في اكتوبر عام ١٨٨٠ حين كان الابن قد بلغ من العمر اثنين وعشرين شهرا فقط . وكان لهذه الازمة الجديدة بغير شك دخل كبير في تشكيل حياة الطفل الذي أصبح كاتبا . واعني بذلك حياته اليومية وحياته الاجتماعية . ثم بعد ذلك حياته الادبية ... فعلى الرغم من أن أمه التي كانت في مقتبل العمر كانت تستطيع أن تتزوج بعد أن توفي الزوج فانها اختارت أن تكرس حياتها لابنها . فارتبط الابن ، وبخاصة في سني حياته المبكرة بأمه . وبعمته الكبرى أو عمة أبيه ماريانا . وبالتالي بالمجتمع النسائي بوجه عام . وكان لارتباطه واختلاطه بمجتمع النساء خلال سني نموه العاطفي أثره في توجيه نموه

الجنسي فيما بعد . وان كان أتاح له فرصة رائعة لأن يلاحظ عن قرب سلوك النساء في الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها . وأن يعبر فيما بعد في كتاباته تعبيرا دقيقا قائما على الملاحظة عن هذا النمط من السلوك .

لقد كانت فترة طفولته فترة سعيدة حقا وسط هذا الجمع الكبير من النسوة . ولكن هذه السعادة أو المتعة لم تلبث ان انقضت حين أدخل الفتى الى احدى المدارس الاعدادية التقليدية وهي مدرسة Kent House ثم بعد ذلك الى المدرسة العامة أو المدرسة الثانوية وهي مدرسة Tonbridge . وتعتبر مرحلة التلمذة من أتعس مراحل حياة فورستر . وقد ذكر هذه التعاسة طيلة حياته لدرجة أنه كتب في عام ١٩٣٣ أي بعد حوالي نصف قرن من عهد التلمذة يقول : « لقد كانت المدرسة هي أتعس فترات حياتي . ودخل بعد ذلك الى جامعة كمبردج والتحق بكلية الملك King's College . ويبدأ فترة أخرى من السعادة أو المتعة . ولكنها سعادة من نوع مختلف . كان يستمد متعته أثناء طفولته المبكرة من حياته في مجتمع من النساء فأصبح الآن يستمد متعته وسعادته في مجتمع من الرجال لا يكاد يتصل بأي امرأة على الاطلاق . ولكنه التقى في الجامعة بعدد كبير من الشباب المتألق الذي يتمتع بدرجة عالية من الذكاء ومن اللباقة بالاضافة الى الشخصية الجذابة . كما التقى بعدد من الأساتذة والمشرفين الذين أبدوا نحوه كثيرا من الفهم ومن التعاطف . والذين أثروا في حياته وتفكيره تأثيرا عميقا . وأسهموا جميعا في تطوير قدراته الذهنية . ولكن يبدو أن فورستر تعلم أكثر ما تعلم عن طريق الملاحظة والاستماع للآخرين . ولقد أفادته هذه فائدة كبيرة فيما بعد في تطوير فنه . اي الكتابة الادبية . وفي مجتمع الجامعة الذي يعتبر صورة مصغرة من العالم تفتحت أعين فورستر وتفتح ذهنه ومداركه على حياة الرجال وأدوارهم في المجتمع . وعرف

الكثير منهم باعتبارهم كائنات اجتماعية ، كما عرف باسهاماتهم في الدفاع عن حقوق الانسان واقرار الأمن والسلام وفي توجيه السياسة . ولكن كانت هناك أشياء أخرى لم يتح له أن يعرفها في مجتمع الجامعة ومجتمع كليته الذي يتألف من الذكور . ونعني بذلك حقيقة الحياة الجنسية وطبيعة العلاقات السوية بين الرجل والمرأة . فقد كانت هذه المسائل تناقش فقط على المستوى النظري . ولم تتح له او للكثيرين غيره من طلاب كليته فرصة للدخول في علاقة عاطفية مع انسان من الجنس الآخر . وحتى الثلاثين من عمره لم يكن فورستر يعرف شيئا عن معنى العلاقة الجنسية الواقعية بين الرجل والمرأة . وقد استطاع فورباناك أن يستخلص من هذا كله موضوعين أساسيين سيطرا على بقية كتابه ، وهما اكتشاف فورستر لميوله الادبية وسيره في هذا الطريق ، واكتشاف فورستر أيضا لطبيعة ميوله ونزعاته الجنسية التي اتجهت نحو نفس الجنس الذي ينتمي هو اليه . وبعد أن غادر فورستر كمبردج قام برحلة كبيرة مع أمه الى ايطاليا ، وفي أثناء زيارة لرافيللو Ravello سار فورستر بين الأحراش الكثيفة الصاعدة الى Vallone Fonata Caroso وهناك مر بتجربة حاسمة في حياته كفنان . فقد بعثت في ذهنه أثناء ذلك التجوال فكرة قصة قصيرة عكف على كتابتها حين عاد الى الفندق وأتمها في نفس اليوم وهذه القصة هي قصة The story of a Panic ـ ولكن الاهم من ذلك هو أنه عرف في نفس ذلك اليوم عمق ملكته على التخيل وقدرته على الاستجابة لعظمة الحياة وصمتها . لقد أدرك ، كما يقول فورباناك في كتابه ، أنه سوف يصبح بالتأبيد كاتبا ، وعمل منذ ذلك الحين على أن يحقق تلك الرغبة . وعلى الرغم من أنه كان يمر من حين لآخر بفترات من الشعور بالاحباط واليأس ـ وأن هناك كثيرا من الامور الهامة التي ينبغي عليه أن يكرس نفسه وجهده لها الا أنه كان يدرك طيلة الوقت أنه لا رجعة اطلاقا من ذلك الطريق الذي سلكه وهو طريق الكتابة . في الفترة من عام ١٩٠٤ الى ١٩١٢ أخرج فورستر أربعا من رواياته ومجموعة من القصص القصيرة ، وقدرا هائلا من الكتابات الصحفية التي كان يكتبها على فترات متباعدة والتي ظلت رغم مرور ما يزيد على ستين عاما على كتابتها تتمتع بقيمة عالية ولا تزال تثير الاهتمام . وتدور أحداث اثنتين من الروايات في ايطاليا ، أو على الاقل يسيطر عليهما جو وروح الحياة الايطالية ونعني بهما رواية « A Room with a View » ورواية « Where Angled Fear to Tread » ، ففي هاتين الروايتين تجد ملكة فورستر على الملاحظة وعلى رواية التفاصيل والقدرة على تسجيلها ، وهذا معناه أنه أفاد فائدة كبيرة من رحلته مع أمه في ايطاليا . أما الاثنتان الأخريان فهما رواية « The Longest Journey » ورواية « Howard's End » فانهما تدوران في بريطانيا أو على الاصح في انجلترا وتعكسان الاجواء والروح الانجليزية . وعلى أية حال فان هذه الروايات الاربع المبكرة تعكس كلها قدرة فورستر على الملاحظة الاجتماعية ، وقدرته على التعبير بصورة شعرية عن تلك الملاحظات . وليس من شك في أن روايته « Howards End » التي نشرت عام ١٩١٠ هي أفضل الروايات الاربع وأعظمها ـ وفي رأي بيتر ستانسكي Peter Stanfsky فان هذه الرواية تعتبر أفضل ما كتب على الاطلاق من حيث أنها تصور بدقة بالغة نوع الصراع بين ما يسميه « عالم البرقيات والغضب » ، وبين « النزعات المثالية والتقليد الليبرالي » الذي كان قد بلغ مداه في بريطانيا حينذاك ـ وبصرف النظر عن قيمة هذه الرواية من الناحية الادبية فان هذه الرواية تظل الى حد كبير بمثابة « وثيقة » عن الحياة في انجلترا الادواردية . لقد نشرت هذه الرواية عام ١٩١٠ كما ذكرنا وكان فورستر قد بلغ الحادية

والثلاثين من عمره ، وأثارت الرواية كثيرا جدا من الاعجاب وبلغ اسم فورستر مجالات واسعة وعريضة من الشهرة ، وأصبح المتحمسون لأدب فورستر ينتظرون الكثير منه . ولكن مضى خمسة عشر عاما دون أن يكتب شيئا جديدا ـ ويرد فيربانك ذلك الى ما يسميه خوف فورستر من « الجدب الادبي » بعد نجاح « Howards End » ـ ويزعم فيربانك أن هذا الخوف ظل مسيطرا عليه طيلة حياته . كذلك كان فورستر يعاني في نفس الفترة من القلق الجنسي ، وهو نوع من القلق يصفه ستانسكي بأن له « طبيعة لا يمكن حلها » . ويرى ستانسكي أن العاملين معا ، أي الخوف من الجدب وعدم القدرة على الانتاج الادبي ، وذلك القلق الجنسي هما المسئولان معا عن هذه الفترة من عدم الانتاج . وعلى أية حال فان « Howards End » حققت لفورستر بشكل حاسم ما كان يصبو اليه من شهرة وقناعة ورضا عن النفس في مجال الكتابة الادبية ، ولكنه حتى تلك السن المتقدمة نسبيا لم يكن قد تمكن من أن يرى طريق الحب الذي كان يتعين عليه أن يسلكه والذي كان كفيلا بأن يربطه بما يسميه « الصديق المثالي » الذي كان يصبو اليه بكل عواطفه وانفعالاته وأحاسيسه ومشاعره . لقد اكتشف فورستر ، وهو لا يزال طالبا بكمبردج ، ميوله الجنسية المثلية ، ولقد عبر عن هذه الميول بشكل أو بآخر في روايته موريس Maurice التي كتبها عام ١٩١٠ والتي لم تنشر كما ذكرنا الا عام ١٩٧١ ـ ويبدو أن فورستر كتبها بعد أن مر في عام ١٩١٠ بتجربة سريعة مع أحد أصدقائه القدامى في جامعة كمبردج ، وان كانت هذه التجربة لم تبلغ مداها ، ولكن الواقع أن فورستر كان قد أبدى اعجابه ورغباته قبل ذلك ومنذ عام ١٩٠٦ بشاب هندي ارستوقراطي كان فورستر يشرف عليه في الجامعة ويدعى سيد روس مسعود . ومع أن مسعود رفض هذه العلاقة وانتقل بعد ذلك الى جامعة اكسفورد فقد ظلت علاقة الصداقة والمودة بينهما قوية ومتصلة . كما أن ذكرى هذه الصلة ورغبات فورستر في أن يطورها الى علاقة جنسية ظلت تسيطر على تفكيره ، ولم يلبث ان عبر عنها في تلك العلاقة بين شخصيتين من شخصيات روايته « A Passage to India » وهما عزيز Aziz وفيلدنج Fielding ، ولم يتح لفورستر ان يحقق رغباته الا في عام ١٩١٦ حين كان يعمل في خدمة الصليب الأحمر خلال الحرب العالمية الاولى ، وبذلك فان التهيؤات والتخيلات التي كتبها في روايته موريس « Maurice » تحققت بالفعل في أواخر الثلاثينات من عمره ، وبذلك يكون قد ربط لأول مرة في حياته كما يقول ستانسكي بين طريق الفن وطريق الحب ... وذلك الربط الذي أفلح في أن يثري انتاجه الادبي وان يضيف الكثير الى حياته الادبية .

لقد كان فورستر كاتبا غزير الانتاج طيلة حياته على الرغم من الانطباع الذي تركه لدى البعض بأنه كان خاملا ، وفي أواخر حياته عادت اليه القوة الدافعة على الخلق والابداع مرة أخرى ، وتمثل ذلك في ظهور عدد من القصص القصيرة ـ ولقد نشر مجلدين يضمان عددا من المقالات المختارة كما نشر سيرتين للحياة . وذلك فضلا عن كتابته للنص الادبي لاوبرا « Billy Bud » التي ألف موسيقاها « Benjamin Britain » وقد اشترك فورستر في كتابة النص الادبي للأوبرا مع ايريك كروزير

Eric Crozier كذلك ظهر له بعض الكتب التي تضم أعمالا غير روائية . وذلك بالاضافة الى عدد كبير من المقالات وعروض الكتب التي لم تجمع حتى الآن ، ومع ذلك فانه خلال السنوات الستين التي انقضت منذ تأليف رواية « Howards End » لم يكتب فورستر سوى رواية أخرى واحدة هي روايته المشهورة (A Passage to India) ـ ولقد نشرت روايته « الطريق الى الهند » عام ١٩٢٤ . ومنذ ظهورها احتلت مكانة مرموقة باعتبارها عملا روائيا ضخما ـ والواقع ان معظم النقاد يضعونها في المحل الاول ضمن انجازاته كلها ، كما ان الكثيرين يعتبرونها من أفضل الروايات التي تسجل الحياة في الهند أثناء حكم الامبراطورية البريطانية وحين كانت تدخل الهند ضمن هذه الامبراطورية ، والرواية الاخرى التي تحتل مثل هذه المكانة هي رواية Kim المشهورة ،

ويذكر لنا فيربانك في كتابه رأي فورستر من أنه توقف عن كتابة الروايات لأنه كان يشعر بالاحباط نتيجة لعدم قدرته على أن يعالج في رواياته وأعماله مشكلة الحب الجنسي المثل بصراحة ، ولكن اذا أخذنا في الاعتبار رواية موريس Maurice فاننا نشعر أن هذا التبرير يجب ألا يؤخذ على علاقته لأن فورستر يعتبر في حقيقة الأمر واحدا من الكتاب القلائل الذين يستطيعون الكتابة والتعبير عن مثل هذا اللون من الحب بطريقة سامية لا تخدش الشعور أو الحياء ،

ويرى ستانسكي في مجال عرضه لهذه النظرية أن فورستر في حقيقة الأمر كان قد نضب معينه وقدرته على معالجة الموضوعات الخيالية في شكل روائي ، ولذا لجأ الى هذا العذر الذي يرى ستانسكي أنه عذر غير مقبول ـ ويبدو أن فيربانك Furbank نفسه انتبه الى ذلك حيث يذكر لنا أن فورستر كان أسير الافكار والآراء والبيئة والجو العام التي كانت تسود انجلترا الادواردية ، وأنه لم يفلح في أن يتخلص من هذه التأثيرات ـ كما أنه لم يفلح في أن يذهب في كتاباته الى أبعد من عام ١٩١٤ بل أن روايته « A Passage to India » ذاتها كانت تعكس في نظر الكثيرين ملامح الحياة في الهند قبل الحرب العالمية الاولى على الرغم من الأمانة والاخلاص لنفسه ولقارئه بحيث التزم بقدراته ، ولم يحاول ان يتظاهر كما يفعل غيره بالقدرة على الابداع الفني في مجال الرواية والخيال .

وخلال السنوات الست والاربعين التالية من حياته أفلح فورستر في أن يتحول من مجال الخلق والابداع الادبي الى مجال الكتابة غير الابداعية ، أي انه انتقل من دور الاديب الفنان الى دور الحكيم المعلم ـ ويبدو أنه اضطر على الرغم منه في أن يقتبس ويتبنى كثيرا من الآراء والقيم التي يدين بها المجتمع البريطاني ، وان كان هو نفسه لا يعترف بها ، ولكن الاوضاع العامة في بريطانيا كانت تفرض عليه أن يعبر عنها في ثبات ـ وعلى أية حال فان فورستر يعتبر من الكتاب الذين يستحقون الاعزاز والتكريم بصرف النظر عن مساوئه وحسناته وفضائله ـ وليس ثمة ما يدعونا لأن ننسب الى فورستر ما ليس فيه أنه كاتب يستحق أن نعجب به لأنه رجل نادر في كل زمان وفي كل مكان ـ ويذكر لنا فيربانك انه حين كان فورستر يحتفل بعيد ميلاده الثمانين

أرسل اليه الشاعر الامريكي أودين Audin برقية يصفه فيها بأنه « صديق قديم شهير وحبوب ولكنه لم يصل بعد الى أن يكون بقرة مقدسة ». والواقع ان فورستر رغم كل شيء لم يكن بعيدا تماما عن الطريق الذي سلكه أسلافه آل ثورنتون ، فلقد عمل بطريقته الخاصة على تحسين الحياة ، كما حاول مؤازرة النزعات التحررية العامة والخاصة ... لقد قدم لنا فورباناك صورة متكاملة للكاتب الفنان والاديب والانسان بكل نقائصه وانجازاته ... وفي كل الأحوال كان فورستر يظهر على أنه انسان خليق بالاعجاب ، ولابد للقارىء من أن يشعر بالرضا والامتنان لمؤلف هذا الكتاب وللأديب وللفنان على السواء ـ لقد أفلح الكاتب في أن يعيد لفورستر مكانته وسمعته وصيته الحسن .

***

الانسان والمجتمع

سيريل بيرت خلف القناع

ألفت حقي

من سوء طالع ميدان علم النفس أن يكتشف العالم أن رجلا مرموقا مثل سير سيريل بيرت ، صاحب المنجزات العلمية الضخمة ، لم يكن سوى أفاق اعتمد على التزييف في معظم ما أخرجه للعالم على أنه حقائق علمية شريفة . وحيث أن ما ورد على لسانه وقلمه ، طوال ثلثي قرن ، كان ركيزة الانتاج العلمي لآخرين ، فان ما أصاب كثيرا من الباحثين من زعزعة وتبلبل شيء لن يزول أثره سريعا . ولحسن الحظ ، فان انجازات سيريل بيرت لم تتعلق بعلم النفس التجريبي مثلا ، ولا بفروع السيكولوجيا ذات الأسس الحيوية مثل علم النفس الفيزيولوجي أو علم النفس المفارق ؛ بل تركزت على المداخل الأكثر نظرية مثل السيكولوجية الفردية وعلم نفس الشخصية . وهذه في حد ذاتها فروع لم يتفق الرأي العلمي على كل نظرياتها بعد .

ما الذي يجعل رجلا ذكيا (حاصلا على العديد من المزايا الفطرية والمكتسبة ، والمكافآت المادية والأدبية) يتحجر بحيث يشوه ما يقدمه على أنه حقائق ، مرة تلو المرة ، بدون خجل ، وبكل ثبات ؟ الاجابة السليمة على هذا السؤال تتطلب ، في المقام الأول ، بحثا خاصا يتناول كل العوامل التي أدت في النهاية الى الصورة الأخيرة لموقف الرجل من أخلاقيات العلم .

اذا افترضنا أولا أن نسبة احتمال وجود فرد مريض باضطراب الشخصية يكون واحدا في كل مائة من الأفراد في مجموعة عشوائية ، فان عدد هؤلاء المرضى يرتفع الى أربعة في كل مائة ممن يمارسون مهنتي الطب النفسي وعلم النفس رجوعا الى احصاءات هيئة الصحة العالمية . ولكن على اعتبار أن الدراسات النفسية تستهوي عددا أكبر من المرضى النفسيين تبدأ أصلا كمحاولة لفهم أو علاج أنفسهم . تكون قد أصبنا الظن لو قررنا مبدئيا بانتماء سيريل بيرت الى هذه المجموعة من الشخصيات الخاصة . أي أنه ، تكوينيا ، فرد غير سوي الشخصية ، وان كان مرتفع الذكاء . ولكن كيف يكون مريضا ولا يفطن الى مرضه العلماء المحيطون به ، وكلهم على دراية اكلينيكية كافية به ولا شك ؟ هل كان من المرونة بما فيه الكفاية ، بحيث خلق حول نفسه بعدا اجتماعيا يكفل تغطية اضطرابه ؟ أم أنه بعد نجاحه أحاط نفسه

بآخرين على نفس شاكلته ، بحيث صدق العالم العلمي سلوك وأقوال المجموعة كلها ؟

يوجهنا هذا التساؤل الى فرض آخر ، هو احتمال تأثير البيئة على شخصيته . والبيئة هنا تعني ما تعرض له من مؤثرات اثناء سنين الطفولة ، ثم اليفاعة ؛ واخيرا عوامل الجذب والشد أثناء الرشد من مغريات مفسدة ، الى طموح بأي ثمن ، الى تحول أخلاقي مسبب أو غير مسبب .

يبدأ هذا النوع من التشخيص النفسي عادة بفحص عميق لتاريخ الحالة ، يستدل عن طريقه على اسلوب التطور الذي مرت به الشخصية ، وتتابع عن طريقه أيضا المتغيرات التي تعرض لها الفرد والتي قد تساهم في فهم تفكيره ودوافعه وسلوكه . يحامل بيرت بنفس الطريقة هنا اعهذا على ما جاء بكتاب Hearnshaw المسهب عن حياته واعماله واقوال الآخرين عنه [١] .

عندما ولد سيريل بيرت يوم ٣ مارس ١٨٨٣ كان أول طفل في العائلة . وكان بيرت الأب طبيبا مكافحا ، لم ينل حق الممارسة إلا بعد ست سنوات من ميلاد ابنه ، وظل أثناءها يجاهد بين هدفه العلمي وبين الصعوبات المالية الملحة ، التي تحايل عليها بفتح صيدلية يتناوب البيع فيها مع زوجته ، علاوة على تأجير حجرات في منزله لايواء طلبة الجامعة . وبعد ثماني سنوات ولدت ثانية أطفال بيرت الأب فأسماها ماريون ، لم يرزق بعدها الزوجان بأطفال أخر .

عاشت عائلة بيرت في لندن اثناء سنوات طفولة سيريل التكوينية . وانتقلت بعدها الى الريف لرقة حالة الأب الصحية . وظل الأب الطبيب يمارس مهنته عاما ، يتقاضى اثناءها أتعابا متواضعة . وعرفه أهل قريته وما جاورها بالبعد عن الجشع . بل كثيرا ما تناسى بيرت الأب أتعابه التي دان بها عديد من مزارعي المنطقة المعوزين . مما أثر على مستوى العائلة الاقتصادي . وهنا بدأت أولى العوامل التي تركت بصماتها على حياة سيريل بيرت : الضيق المالي . لأنه سيخبر من أول حياته الدراسية الى آخرها الحاجة الى حل مشاكله المالية عن طريق التفوق الأكاديمي للحصول على الامتيازات المالية المخصصة للمتفوقين . وكان دخوله الى الجامعة بفضل احدها .

نجح سيريل في دراساته الكلاسيكية بكلية اليسوع (احدى الكليات المكونة لجامعة أكسفورد العريقة) ، لأنه كان قارئا متعمقا ، أو بالأحرى لأنه لم يعر غير القراءة وقته واهتمامه ، مع أنه كان ضعيف الابصار . فلم يمارس الرياضة كما فعل معظم الشباب البريطاني آنئذ ، بل ظل زائرا مستديما للمتحف ومعارض الفنون ، بالاضافة الى تصميمه على كتابة ملخصات لكل ما يقرؤه أو يراه . نجح سيريل أيضا لأنه كان طموحا بمعنى الكلمة ، مع ان منهج الدراسات الكلاسيكية (المكون من لغات قديمة وفلسفة قديمة وحديثة ، حيئذ ، ومنطق) كان شديد القسوة في ذلك الوقت ، حتى في كلية أصغر شأنا كتلك التي تخرج منها (Jesus College) . ولم تتوقف اكسفورد على كونها مهد علمه ، ولكنه انتهز كل الفرص التي عرضتها حياتها العلمية والاجتماعية . فاستمع الى العديد من المحاضرين . بل وقرأ أوراقه الأولى أمام بعض تلك الاجتماعات . ثم أشار عليه ماكدوجل في صيف ١٩٠٨ بالالتحاق بجامعة فورتزبورج بألمانيا لصقل مادته . وهناك تعلم طريقتهم في التحرر من قيود العمل الصارمة التي فرضها فوندت على البحث النفسي آنئذ . وعند رجوعه الى انجلترا بعد انتهاء الصيف انخرط في أول مركز جامعي له بجامعة ليفربول ، مع أنه لم يكن مؤهلا تماما أو حاصلا على درجة خاصة في علم النفس . هل كانت هذه بداية سيئة ؟ وهل كان لبيرت أن توجه خطاه الى طريق آخر في مستقبله العملي لو قدر له أن يدرس في كيمبريدج بدلا من اكسفورد ليتأثر بتعاليم ريفرز ومايرز بدلا من ماكدوجل ؟ أم هل كان من الأفضل أن يبقى في حقل التعليم المدرسي الذي كان مؤهلا أصلا لممارسته ؟

Hearnshaw, L.S. (1979). Cyril Burt, Psychologist. Hodder and Stoughton. London. (١)

عندما عين سيريل بيرت سنة ١٩٠٨ في جامعة ليفربول كان علم النفس متفجرا نابضا بكل ما هو جديد ، خاصة بعد « تأويل الأحلام » لفرويد سنة ١٩٠٠ ، ثم « متنوعات في الخبرة الدينية » لوليام جيمس في ١٩٠٢ ، ثم أوراق بافلوف عن التعلم الشرطي سنة ١٩٠٣ ، و « التحليل العاملي » لسبيرمان في ١٩٠٤ ، ثم « مقياس الذكاء » لبينيه سنة ١٩٠٥ . وأخيرا « التكامل الوظيفي للجهاز العصبي » لشيرنجهون سنة ١٩٠٦ . هذا بالرغم من ان كلا من رجل الشارع ورجل العلم لم يكن واثقا تماما بعد من ماهية علم النفس ، بل ولم يكن مستعدا لتقبله . ولابد ان بيرت أحس بضحالة معلوماته الخاصة بصلب عمله ، لأنه لم يأل جهدا بعد ذلك في متابعة اعمال جالتون (في معاملات الارتباط) وتلميذه كارل بيرسون (في الارتباط الثنائي والمتعدد واختبار كاي تربيع للدلالة الاحصائية) . واستشف من مخالطتها ضرورة جديدة هي الحاجة ، لا الى معرفة الاحصاء سطحيا فقط ، ولكن الى التعمق لفهم أسسه الحسابية . وبذلك تعلم للمرة الأولى ، كل ما يلزمه كقاعدة فيما بعد لتعضيد نظرياته ، سواء كان على حق أو لم يكن .

أثرت أفكار جالتون على اسلوب بيرت اكثر من تأثير افكار ماكدوجل عليه . لأنه تمسك في كل ما أخرجه للعالم العلمي بعد ذلك بفكرة « تحكم الوراثة » في كل مظاهر السلوك الانساني ، سواء كان ذكاء أو شخصية . ومع ان اتصاله بماكدوجل كان أطول وأعمق ، الا أنه لم يقتف أثره ، بل ولم يقترب من تعاليمه في السيكولوجيا الفيسيولوجية أو الاجتماعية . فاكتفى بالتمسك في البحث في الفروق الفردية في الانسان ، منذ أول حياته العلمية (١٩٠٨) الى احالته للمعاش (١٩٥٠) وحتى مماته (١٩٧١) ، منتجا على مدى ثلثي قرن ٣٧٤ عملا علميا منشورا ، بالاضافة الى اشرافه على ١٦٨ رسالة دراسات عليا للعديد من مرموقي علم النفس اليوم في أوروبا والشرق ومصر خاصة (القوصي وبرتي وأيزنك وفرنجان ..) : بمعدل ست اوراق علمية وخمس رسائل سنويا .

نشر سيريل بيرت ستين ورقة وكتابا علميا ما بين ١٩٠٨ و ١٩٣٢ (عندما عين رئيسا لقسم علم النفس في University College , London) ، كانت كلها جمعا لمعلومات تخص القدرات العقلية « الموروثة - العامة » كما سماها بيرت . لأنه بعد نقطة التحول هذه ، اتجه وجهة أخرى هي تحليل تلك « الحقائق » التي جمعها . ولم يثنه عن عزمه على « اثبات » حتمية العامل الوراثي أو ثبات الذكاء شيء ، حتى مهاجمة عدد من الدوائر العلمية لتلك النظريات . واستمر في كتاباته وابحاثه لمدة طويلة ، بدون أن يساور أحدا شك فيما حصل عليه من معلومات عن ذكاء المتخلفين والتوابغ والتوائم .

ساعدت بيرت ظروف كثيرة للوصول الى مكانته الخاصة التي تمتع بها اثناء حياته العلمية . أولها انتهاء رئاسة سبيرمان لقسم علم النفس بجامعة لندن (اعلى الكليات شأنا) ، مما لم يترك سوى بيرت وريثا لها . ثم اتفاق خلفية ذلك القسم وخلفية بيرت العلمية . لأن القسم تحول من دراسات فلسفية اصلا الى دراسات عملية للنمو على يد سولي أولا (١٨٩٧) ثم معملية على يد ماكدوجل (١٩٠٠) وأخيرا الى دراسات تحليلية منطقية بفضل سبيرمان (١٩٠٧) . أي أنه على حد قول بيرت عند تنازله عن العمل (١٩٥٠) فان قسمه تمتع بمركز فريد في تاريخ علم النفس البريطاني ، ألا وهو دراسة الفرد من كل الجوانب .

وفي نفس الوقت حدثت تغيرات أخرى في حياة بيرت الخاصة ، لأنه ، الأعزب الغامض - « قليل الصديقات » ، قرر أن يتزوج وهو في التاسعة والأربعين (١٩٣٢) من احدى الطالبات وهي تصغره بستة وعشرين عاما ، مع أنه لم يكن تواقا للزواج ، ومع اختلاف شخصيتها تماما ، مما أدهش المحيطين به . وسرعان ما دب السأم بينهما ، ولكنهما استمرا كل في عمله (لأنها تخرجت طبيبة امراض نساء اثناء زواجهما) الى أن قامت الحرب العالمية الثانية . وعندما هجر قسم علم النفس بأكمله الى ريف ويلز رفضت زوجته جويس وجز اللحاق به . ولكن الانفصال الحقيقي تم بعد

احالته الى المعاش (١٩٥٢) عندما تركته لتعيش منفردة في لندن أيضا . ومع أنه لم يشأ أن يطلقها ، الا أنه أزالها من وصيته . وعاشت هي ثلاث سنوات بعده .

ومن التغيرات الأخرى ، ظهور نوع جديد من المرارة والحقد في معاملات بيرت . لأنه ، حتى قبل خروج سيبرمان من منصبه ، بدأ بيرت حملة شك مستترة للنيل من منجزات سيبرمان خاصة من تحليله العاملي ، محاولا نسبته الى نفسه ، ثم أفصح عن ذلك في خطابات تبودلت بين الرجلين . ولكنه لم يجهر علانية بعدائه المريض لسيبرمان الا بعد وفاة الرجل ؛ متبنيا أسلوبا قهريا غير متزن ، فيه كثير من الخيلاء وقليل من الثقة . والحقيقة اننا اذا رجعنا الى خصائص البارانويا ، لوجدنا في بيرت كثيرا من دلائلها ؛ الذكاء المفرط ، الزهو والاعتداد بالنفس ، الحط من الآخرين ، الانطواء وقلة الصداقات ، حب الذات ، الدوافع القهرية"؛ علاوة على احتمال معاناة المريض من ضعف السمع ، وكان بيرت يعاني فعلا من مرض مينير Meniere's disease بالاذن . هل كان بيرت مضطربا نفسيا ؟

من دلائل حب النفس واستغلال بيرت للآخرين تلك الشكوى الرسمية التي تقدم بها طلبة قسمه في الثلاثينات من قلة محاضراته ، وانعدام المراجع الخاصة بها ، علاوة على استغلاله لهم للقيام بأبحاثه الخاصة . ولم يعن ذلك تفاهة مادة محاضراته بتاتا . لأنه باعتراف طلبته أيضا ومساعده فلوجيل (أحد مخلصيه القلائل جدا) ، كان الفاوه يشد الحاضرين بمعلوماته الغزيرة ودعابته الحاضرة . "أما طلبته بالدراسات العليا فكانوا احسن حظا معه ، حتى وان اكتشف بعضهم التواء أسلوبه وسقامته . وبما أنه ظل فترة طويلة سيد الموقف السيكولوجي في بريطانيا ، فان استجاباته العدوانية الشاذة تجاه آخرين في نفس الحقل لم تتبلور الا عندما بدأت مدارس أخرى في الظهور بحيث بدأت تهدد كيانه العلمي الأوتوقراطي . وهنا بدأت فأسه تهوي على كل من جرؤ على الارتفاع ، فحارب بشدة مثلا منح دبلومات اكلينيكية من معهد مودزلي الذي أنشأه

أيزنك . بل وذهب الى اكثر من ذلك . فقد اضطر بروفيسور كلارك وزوجته مثلا ، اثناء دراستهما العليا ، الى تسجيل رسالتيهما تحت اسمه . ومع أن بحثهما كان في معهد مودزلي تحت اشراف ايزنك ، الا أن أيزنك لم يكن استاذا بالجامعة حينئذ . وقد جرؤ بيرت على تغيير نصوص بأكملها عند نشر ملخص الرسالتين بالمجلة البريطانية لسيكولوجية التعليم ، بحيث أصبحت هجوما حادا على أيزنك . ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي اتصف فيها بيرت بعدم النزاهة ، لأنه كثيرا ما تلاعب في محاضر جلسات أو مقالات معدة للنشر ، بحيث أصبح لقبه الجديد بالنسبة لمن احتك به في أمثال هذه الوقائع : « المنحرف العجوز» أو The Old Delinquent .

ومع ذلك فلم تظهر شخصية بيرت على حقيقتها في العالم خارج جامعته . وكل ما عرفته المحيطات الأخرى كانت كتاباته عن ابحاثه الغزيرة . وبذلك فلد لقب فارس سنة ١٩٤٦ ، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة ريدنغ ١٩٤٨ في نفس الوقت الذي منحتها لرئيس الوزراء أتلي ، ثم انتخب زميلا بالأكاديمية البريطانية . وأخيرا منحته الجمعية النفسية الأمريكية جائزة ثورنديك قبل وفاته بسنة ، وهي جائزة لم ينلها غير أمريكي بعد .

والمدهش حقا أن نشاط بيرت لم يخف بانتهاء مدة خدمته القانونية في University College بلندن سنة ١٩٥٠ . وكل ما توقف كان اشرافه على العدد الهائل من الرسائل العلمية في قسم الدراسات العليا . فقد ظل بيرت يكتب بغزارة بعد احالته الى المعاش ، واستمر في النقد الفني للكتب والمقالات ، وفي التحرير بمجلة الجمعية النفسية البريطانية ، وفي القاء المحاضرات العديدة بالجمعيات العلمية والاذاعة . ومع أنه قاسى من صحة متعبة ، الا أنه ظل ثاقب البصيرة متأجج النشاط الفكري حتى آخر أيام حياته التي أودى بها تليف بكبده ، وهو في الثامنة والثمانين .

●●●

بعض المتناقضات

لم تثر معارضة جدية ضد سيريل بيرت الا أثناء الحقبة الأخيرة من عمره . فقد تمتع ، حتى بعد احالته الى المعاش ، بقدر كبير من الاحترام والتبجيل ، خاصة من دوائر التعليم ، الى حد تسمية مدرسة خاصة بالمتخلفين العقليين باسمه ؛ علاوة على تلقيبه « عميد السيكولوجيين العالمي » .

لم يعن ذلك أن افكاره واستنتاجاته لم تكن هدفا للنقد منذ البداية ، ولكن قوة النقد لم تأخذ شكلا جديا الا بعد أن تجاوز السبعين ، لأنه قلما حاول أحدهم انتقاده الا وانقلب عمله لعنة عليه . لأن بيرت كان مولعا بالنقاش والجدل ، مما وضع ناقديه دونه في المهارة ، وان كانوا فوقه في القضية . لذلك فشل برايان سايمون سنة ١٩٥٣ (٢) عندما طرح موضوع اختبارات الذكاء للنقد ، وكونها فيصلا عقيما في تقييم استعدادات الطفل الدراسية ، ويرجع فشله في الحقيقة الى الرد اللاذع الذي ناله من بيرت آنذ . ولكن مجرد اثارة الموضوع علانية لاقت صدى في أفكار آخرين بدأوا حملة أوسع . وكان أولهم عالم تخصص في علم الاجتماع التعليمي باسم هالسي ، الذي اثبت التواء بينات الذكاء في الفرق الدراسية الواحدة (٣) . ثم تلاه آخرون أمثال هايم وسكوت وغيرهما ، مما أرجع بيرت الى بداية طريقه مرة أخرى ، محاولا الدفاع عن آرائه ، منقبا عن دلائل وبراهين جديدة تثبتها .

ومع أن الشك بدأ يساور الكثيرين في آراء بيرت ، الا أن أحد لم يستطع حتى نهاية الخمسينات أن يجد برهانا على أي تزوير بعد . وكل ما ظهر على بيرت أثناء الستينات كان رد فعل عارم للهجوم الذي شن عليه . فاتهم ماكليش بالتشهير بعد صدور كتابه « علم السلوك » (٤) ورد عليه بمقال خاص عن التوائم الصنوية (٥) للمرة الثانية . ونشرت بعد ذلك مقالات متعددة تهاجم بيرت العالم وبيرت الرجل ، أهمها ما نشرته جريدة الصاندي تايمز في ١٢ اكتوبر ١٩٦٩ ، حيث وصف بالتطرف والتزمت ، علاوة على اتصاله بالجناح اليميني وبعض فئات التفرقة العنصرية . وكما سبق ان ذكر ، فان بيرت بقي صامدا داخل تلك الأعاصير لانه كان متحدثا عنيدا وكاتبا لبقا .

والعجيب أن رد فعل الاتهامات لم يوقف بيرت عند الدفاع عن نفسه فقط ، ولكنه استدار حوله ليصب جام غضبه على أشياء أخرى أكبر وأوسع . لأنه في عام ١٩٦٩ نشر مقالا في المجلة الأيرلندية للتعليم (٦) يرثي فيه لحال التعليم ويرجع تدهوره الى رفض أولي الأمر لفكرته الأصلية حول وجوب تحديد الفصول حسب ذكاء أطفالها . ثم نشر مقالا آخر أسماه « الورقة السوداء » حيث أضاف معلومات أخرى اعتبرها ادانة لنظام التعليم المتطور (المغاير لأفكاره) الذي أبى أن يلتزم بذكاء الطالب ولكنه جاراه في مقدرته وسرعته على الاستيعاب . ونشر بيرت ورقة سوداء ثانية (٧) فيها جدول لمعاملات ارتباط الذكاء والتحصيل

---

(٢) Simon, B. Intelligence Testing and the Comprehensive School. Lawrence and Wishart. London. 1953.

(٣) Halsey, A.H. and Gardner, L. Selection for Secondary Education. Brit. J. Sociol., IV, 1953, 60-70.

(٤) Mclaish, J. The Science of Behaviour. Barrie and Rockliff. London. 1963.

(٥) Burt, C.L. The Genetic Determination of Differences in Intelligence. Brit. J. Psychol. LVII, 1966, 137-53.

(٦) Burt, C.L. Intelligence and Heredity. Some Common Misconceptions. Irish J. Educ., III, 1969, 75-94.

(٧) Burt, C.L. The Mental Differences Between Childrenin : Cox, C.B. and Dyson, A.E. (eds.). Black Paper II. The Critical Quarterly Society. London. 1969.

الدراسي لأطفال زعم أنه اختبرهم منذ ١٩١٤ الى ١٩٦٥ ، حيث اثبت بأرقامه هبوطا واضحا للارتباط بين العاملين . ولكن معظم التربويين والعلماء أبوا تقبل نتائجه ، خاصة وأنه لم يصف اختبارات الذكاء التي استعملها ، ولا نوع ومنهج اختيار عيناته ، الى غير ذلك من المحكات التي تقيم البحث السليم .

وقبل مضي عام على وفاته ، أفاقت الدوائر العلمية الى حقائق جديدة ، أماط عنها اللثام عدد من الباحثين ، كان أهمها لمحقق فاده في جامعة برنستون الدكتور ليون كامين ، وتلاه آخر في جامعة بنسلفينيا . ثم تتالت بعد ذلك المناقشات الحامية حول نزاهة بيرت العلمية ، التي أدت - خطأ - الى تصديق العلماء لاكتشافات بيرت عن وجود ارتباط قوي بين الذكاء والوراثة بناء على دراساته على التوائم وعلى الآباء وأبنائهم . ثم ظهر في اثر ذلك كتاب كامين [A] ملخصا لأوراق وكتب بيرت في هذا الموضوع ، موضحا الأخطاء الفادحة التي أدت الى انهيار نظرياته . فقد أوضح أن بيرت لم يعط أي تفاصيل عن مكان أو أوصاف العينات في أبحاثه ، ولا عن منهجه في اختيارها . ثم أثبت وجود تناقضات شديدة بين أوراقه عن الموضوع نفسه ، مع الثبات المريب لمعاملات الارتباط في كل المجالات حتى وان تغير حجم العينة ، بحيث ذهب بيرت الى توحيد بعض المعاملات ، في أوراقه المتباعدة السنين ، حتى الرقم العشري الثالث ......

وفي ١٦ اكتوبر ١٩٧٦ ظهر اعلان في عدد ذلك اليوم من التايمز طالبا من مارجريت هاوارد وج . كونوي ، أو من يعرفهما ، الاتصال - خالص الاتعاب - بأوليفر جيلي ، معطيا رقم تلفونه . وبعد عشرة أيام ظهرت الصانداي تايمز وعلى صفحتها الأولى فضيحة بيرت مكتوبة بقلم جيلي ، مراسلها الطبي ، الذي اكتشف ان هاوارد وكونوي ، مساعدتي بيرت في أبحاثه عن التوائم وغيرها ، لم يكن لهما في الحقيقة وجود . وأنه بالرغم من وصف بيرت بأنهما طالبتا ابحاث عليا ، الا أن شئون طلبة الجامعة لم تجد لاسميهما أي اثر في السجلات ، ولم تكونا في أي من كشوف الرواتب في اي من الهيئات التي عمل معها بيرت .

ومع ذلك فقد وقف كثيرون للدفاع عن بيرت ، مثل ايزنك ، الرجل الذي تطاول عليه بيرت بالقذف في البداية لأنه لم يكن استاذا جامعيا بعد . فقد كتب ايزنك الى أخت بيرت ، ماريون ، مدافعا عنه وعن أخطائه الاحصائية واضعا اللوم على عناصر سياسية في فضيحة الوقت . والحقيقة أن اهتزاز سمعة بيرت هز دعائم علوم بأكملها ما زال الجدل جاريا بينها ، فنوقش مثلا كل ما يتصل بعلمي الوراثة والبيئة . لذلك نجد من السهل وقوف الكثير للدفاع عن الرجل ، حيث أن في ذلك حفاظا على كيان قوائم أخرى كثيرة لا دخل لها في سمعته الشخصية . أي ، على الأصح ، يكون فيه ابقاء لماء وجه الكثيرين ، واستمرار لشيء من مدرسة قوية كانت .

من موقف الحكيم المحايد

اذا محصنا الاتهامات والأدلة السابقة ، فاننا سنجد أن بيرت مذنب عند ثلاث نقاط منها على الأقل ، يواجهها معها ولا جدال فيها . أولها أنه غير تاريخ التحليل العاملي ليخدم مصلحته الشخصية بحيث يمكن نسبة التقييم الاحصائي الجديد الى اسمه . وثانيها أنه زيف المعلومات التي قدمها عن دراساته للتوائم الصنوية . وثالثها أنه قدم جداول من نسج خياله عن نتائج اختبارات ومعاملات ارتباط الذكاء بالتحصيل الدراسي ، لكي يثبت تدهور مستوى التعليم بالذي لم يرق له .

ولا يعني هذا ان الرجل مفرغ من أي عمل ذي قيمة ، لأنه ترك فعلا في ميدان علم النفس بعض الأثر ، أو بعض الأفكار التي يبحث فيها عدد كبير من علماء اليوم . هذا علاوة على أنه من المستحيل أن « يؤخذ » هذا الحشد الكبير من السيكولوجيين في وقته ، بحيث يصدق كل ما جاء على لسان وقلم « الفرصان الذكي » ، حتى وان لم يكن في

Kamin, L. The Science and Politics of I.Q. Lawrence Erlbaum, Potomac, Md. 1974. (A)

الحشد من عرفه عن كثب . لأنه من المستحيل ألا يجد بعضهم في نتائجه تضاربا مع نتائج بيرت اذا كانت احدها أمينة . ويكون التغاضي عن الحقائق في نفس موقف الزيف لها تماما . لابد اذن من وجود شيء ذي قيمة في أعمال بيرت ، أو أنها لم تكن كلها شائنة .

هل كان بيرت يتأرجح بين شخصيتين ؟ وهل عملت داخله نقاط ضعف ونقاط قوة بحيث استطاع ان يدير رؤوس العلماء وتلامذته احيانا ويثير سخط آخرين أحيانا أخرى ؟

بيرت الرجل

مما لا شك فيه ان سيريل بيرت كان فردا خارق الذكاء واسع المخيلة قوي البصيرة . هذا علاوة على قدرته الفائقة على التحصيل والاسترجاع ، مما دل عليه تفوقه في الدراسة منذ سنواته الابتدائية واستمراره على نفس المنوال حتى بعد تخرجه من الجامعة . ولم تتوقف المزايا الفردية التي تمتع بها بيرت عند ذكائه ، ولكنها تعدته الى روح الدعابة والمرح الذي عرف به بين مقربيه القلائل ، وبين جمهور محاضراته العلمية والعامة .

أما وجهه الآخر ، الذي لم يره أو يعرفه سوى قلائل يعدون على الأصابع ، فكان لفرد يحب العزلة ، ونادرا ما يخطو نحو صداقة أو مشاركة وجدانية . وكل ما أحبه كان جمهورا يستمع الى محاضراته ويقدرها . أي أنه كان يفضل من يستمع اليه بدلا ممن يخاطبه . لذلك كانت حياته الشخصية فارغة ، لا رباط فيها مع آخرين . وليس غريبا اذن ان تتركه زوجته لتعيش في منزل آخر في نفس المدينة .

وبما أن الفرد لا يصل الى ما هو عليه فجأة ، فان علم النفس المعاصر يرى في سنين الطفولة التكوينية أقوى المؤثرات فيما ستكون عليه الشخصية عند الرشد . وحيث ان بيرت لا يستثنى من تلك القاعدة ، فان أشياء ما تسببت فيما وصل اليه من خصائص وهو رجل . ولسوء الحظ ، لم تكن هناك مؤشرات يرجع اليها سوى آراء اخته ، التي صغرته بثماني سنوات ، والتي لم تكن من الوعي بحيث يمكنها أن تصفه اثناء السنوات العشر الأولى من عمره . وكل ما استطاع الباحثون الوصول اليه هو انحدار بيرت من مزيج من سكان ويلز (عائلة أمه) والمواطنين الساكسونيين (عائلة أبيه) . هذا علاوة على اعترافه بأنه نشأ يتخاطب « كوكني » ، وهي اللغة الفظة التي يستعملها سكان الاحياء الفقيرة بلندن . وكما سبق ان ذكر ، فان بيرت الأب الطبيب لم يكن في امكانه توفير غير الخبز لعائلته احيانا كثيرة ، في حي كثر فيه اللصوص والمتسولون .

ولابد أن التحول كان كبيرا على بيرت الصغير ، عندما نزحت عائلته الى الريف وهو في التاسعة من العمر . وبدلا من الغرف الضيقة التي عاش بها وتعود عليها ، كان عليه أن يقطن ضيعة واسعة ، وأن يقبل أحكاما جديدة في كثير من افعاله وافكاره في بلد صغير ناقد ، وأن ينسى المرح والفوضى التي اتسم بها زملاؤه القذارى العنيفون في لندن ، وأن ينتظم في مدرسة تلامذتها يعدون على الأصابع ، ويسودها جو خاص من النظام والصرامة والنظافة . هل كان هذا الاشطار في حالة طفولة بيرت اصبح في ثنائية شخصيته ؟

لم يجد جديد في حياة بيرت بعد هذا التغير . وظل مكبا على كتبه ، متمتعا بمركز دراسي جيد أهله لدخول مهنة التدريس بالجامعة عن جدارة . ولكن خارجه المشرق كان يخفي أشياء تعتمل داخله . لأن بيرت بدأ يخبر نكسات من أنواع عدة وهو يقارب الخمسين من عمره . أولها فشله في زواجه الذي لم يشأ أن يتحدث الى أحد عنه اطلاقا . وثانيها هو فقده لكل أوراقه الخاصة بابحاثه في غارات ١٩٤١ مما شكل له خسارة في الوقت والمجهود هزته ولا شك . وثالثها كان اصابته ، وهو شخص معتل الصحة أصلا ، بمرض مينير في صيف ١٩٤٦ ، مما اضطره لخوض حياة أقل نشاطا ، لاغيا أسفاره وارتباطاته التي تضطره للحركة . أما رابع هذه النكسات فكان العداء الذي قام بينه وبين قسمه بعد بلوغه سن الاحالة الى المعاش . ولأن بيرت أراد أن يعد ظل مدرسة علم النفس الفردي التي بدأها جالتون وتناولها سول وسبيرمان وبيرسون . ومع أن بيرت

كان حامل لوائها آنئذ الا أنه لم يصنع صفا ثانيا من السيكولوجيين يستطيع حمل اللواء بعده . وكانت خيبة أمله . وخامس تلك النكسات كان تنحية بيرت من ادارة المجلة الاحصائية سنة ١٩٦٣ بعد أن كانت مطيته الوحيدة التي نشر عن طريقها كل ابحاثه ، وابحاث آخرين زيف اسماءهم.وكانت آخر النكسات التي تعرض لها هي الغاء نظام التعليم المختار الذي بدأه (بتعيين الطالب في فصل يتبع مستوى ذكائه) بحيث بدأت المدارس بعد التغيير سنة ١٩٦٥ في تطبيق نظام التعليم المتطور progressive education .

فعلت كل هذه الأزمات شيئا ولا شك في شخصية بيرت ، فحولته الى محارب مدافع دائما ، معتمد على أي سلاح للنيل من مهاجميه . ولم يجد غير الغش والتزييف .

وقد وجدت أخته ماريون (وهي طبيبة) بعض السبب في التواء اساليب سيريل . لأنه كما قالت لم يكن سليما فيزيولوجيا . وكان عليه ان يتخذ احتياطات خاصة (لا يتكلم عنها) قبل ظهوره في الاجتماعات بحيث تبقى له حالته الصحية ، التي لم يمكنه الوثوق منها ، قلقا شديدا دائما . وقد لاحظت مثلا أن اصدقاءه المقربين كانوا يعانون من نوع او آخر من العجز الجسمي او الفيزيولوجي هم الآخرون . وأضافت أن سيريل كان يعاني أيضا من فوبيا الارتفاع . وقد اعفى من الخدمة بالجيش في الحرب العالمية الأولى بسبب العديد من الاضطرابات الجسمية التي لاحقته . ثم اصيب بمرض مينير الذي لم يكن له علاج بعد ، معانيا أثناءه من الغثيان والدوار والأوجاع التي تصاحبه علاوة على صمم احدى اذنيه . وقد وجد الباحثون من أطباء وسيكولوجيين ، أن هذا المرض تظهر بعده اعراض عصاب الوسواس القهري [٩] .

بيرت السيكولوجي

كل ما قيل الى الآن يشير الى مرض أو اضطراب في شخصية وفي جسم سيريل بيرت . ولكن ليست أمراضه واضطراباته كل ما تركه للقرن العشرين طوال ثلثي قرن من العمل . لأنه كان خصب الخيال عميق التفكير غزير الانتاج . وربما كان هذا هو السبب في أنه اتجه الى خلق الفروض والنظريات ، ثم تمسك بها في اصرار وبأي ثمن ، وكان مرضه النفسي . ولكن ما هي أفكاره ؟

لبيرت سيكولوجية نظرية ترتكز على أربع قوائم واضحة مستقلة : الثنائية / التطورية / الكلية / والاحتمال . فالثنائية dualism عند بيرت تعني أن لكل طرفين متضادين خصائصا لا يمكن أن تتحد . كالعقل والمادة مثلا أو ما هو موضوعي وما هو ذاتي . وهذه نظرية استخلصها من تعاليم وارد وستاوت وماكدوجل . بل وترجع الى أبعد من ذلك لأنها ظهرت في كتابات ديكارت . وليست نظريته بهذه البساطة لأنها تتناول أيضا كل طرف على حدة . فالشعور مثلا لا يعني التصور فقط بل ما قبله (بكل صفاته وتغيراته) ثم ما بعده بنفس الاسلوب . وحالة الشعور مثلا ما هي الا استعداد له خصائص معقدة وله هيكل . لم يرفض بيرت ارتباطه بأنظمة المعرفة والوجدان والدوافع ، ولكنه أضاف امكانية ايجاد أوزان توزيعها به عن طريق التحليل العاملي . وتكلم بنفس الأسلوب عن العقل الانساني [١٠] وعن مكوناته العاملية ، مبتعدا تماما عن وظائفه الفيزيولوجية التي بهرت باقي العلماء في تلك الحقبة .

أما التطورية evolutionism في نظريات بيرت فقد شكلت الركيزة العظمى للسيكولوجيا الفردية والفارقة التي تبناها من أول أيامه العلمية الى آخرها . ومع ذلك فلم يكن من السهل ادماج نظريته الثانية هذه مع الأولى في الثنائية .

---

(٩) Brightwell, D.R. and Abramson, M. Personality characteristics in patients with vertigo. Arch. Otolaryng. 1975. 364-6.

(١٠) Burt, C.L. The Structure of the Mind - a review of the results of factor analysis. Brit. J. Educ. Psychol., Xix, 1949, 176-99.

لأن العقل عند داروين (أبو النظرية التطورية الأصلي) كان يعني جسما بيولوجيا ، أو آلة لا غنى للكائن عنها ، تطورت مع باقي أجزاء جسمه في محاولة للبقاء ومجاراة التغير الحادث حوله وداخلها . ومع ذلك فقد قبل بيرت آراء داروين وسبنسر . ورجح أن التفسير الأساسي للعمليات العقلية الانسانية هو ما يدفعها من الحاجات البيولوجية . ومن متغيرات التطور هذه استخرج فروضه في الفروق الفردية وفي اثر الوراثة . وأهم من هذا وذاك استطاع أن يستنبط هيكلا هيرارقيا في نظام التطور تشكله الدوافع من ناحية والذكاء من ناحية أخرى . ولكن كيف استطاع اذن ان يوفق بين تفكيره الأصلي عن ثنائية الاشياء وبين هذه النظرية الأحادية الجديدة ؟ فعل ذلك باتباع نفس ما نادى به استاذه ماكدوجل[١١] من أن التطور ليس عملية ميكانيكية بحتة . وأن الذكاء والغرض لهما دورا أساسيا في عمليات التطور منذ البداية . على عكس ما نادى به برجسون والكساندر من أن العقل جاء من المادة أو « انبثق » منها . وبلاء التطور بعد ذلك في عمليات « عمياء » لا دخل فيها للاختيار أو الصلاحية .

واذا عرفنا الكلية holism على أنها اشارة الى أن خصائص الكل لا تتبع بالضرورة خصائص الأجزاء المكونة له ، فاننا نقترب من منطق الجشطلت . وللمرة الثانية كان لكل من وارد وستاوت وماكدوجل أثر كبير في توجيه بيرت نحو هذه النظرية التي بدأها الجشطلتيون عام ١٩١٢ . وقد احب بيرت مفهومين بالذات لتلك المدرسة . أولهما هو الوصف الدقيق للظواهر القابلة للملاحظة ، وثانيهما هو اعارة نتائجها للتحليل الكمي . وحكم على نظريات الجشطلت عند بدء دراسته لها على أنها « اكثر فروع علم النفس التجريبي جدارة » ، حيث أنها أدخلت مفهوم « العقل » لأول مرة لمتتاليات الظواهر النفسية ، فامكن ربطها عدديا ، وامكن ايجاد صلاتها وأبعادها المكانية من أخريات حسابيا . والكلية عند بيرت (وعند الجشطلتيين قبله) ترتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم التكوين . فأي حقل له تنظيم ظاهري وسلوكي ، وأي كائن له هيكل وله تنظيم يتفاعل عن طريقه . ونجمت عن هذه النظرية آراؤه المعروفة في تكوين العقل (التنظيم الهيرارقي) التي أخضعها للتحليل العاملي (شغفه الأكبر) . فاقترض بيرت من السيكولوجيا الكلاسيكية فكرة التفريق بين الدوافع والمعرفة ، ومن نظريات سبنسر في التطور فكرة الرتب الهيرارقية ، ثم أضاف دقائقه العاملية ليلحم مجموعة المفاهيم ببعضها . ولكن فكرة الهيرارقية قد تصح اذا تكلمنا عن التطور من ميكروب الى رجل أو من خلية الى أجناس . ومع ذلك فهي غريبة اذا اتصلت بحقل معقد لا تكبر فيه الأشياء الأعلى بتتابع اتحاد أشيائه الأدنى . فكيف استطاع بيرت أن يربطها (الهيرارقية) بالذكاء والانفعال وبالقدرات اللفظية والمكانية والجمالية في خريطة رياضية واحدة ؟

وليست نظريته في الاحتمال probabalism في نفس صرامة نظريته في التطور . لأنه أضاف بأن قوانين الطبيعة لا تخضع لسببية حاسمة ، ولكن تحكمها « احتمالات » حدوث . وقد تحول بيرت ، الذي كان عديم الالمام أصلا بالعلوم الفيزيقية والرياضية ، الى دارس متعطش اليها . ويرجع ذلك الى ما أحدثه ظهور نظرية الكوانتام لماكس بلانك Plank التي طورت الى ميكانيكا الكوانتام على أيدي بورن Born ديراك Dirak وآخرين ، بحيث أطلت على معظم ميادين العلم في أواخر العشرينات وتركت ظلها لمدة طويلة . وتعلم بيرت الفيزيقا والرياضة متأخرا ، ولكنه أجادها بفضل ذكائه وطموحه . وخضعت أفكاره للجديد مما تعلم في الثلاثينات عن وجود احتمال (يمكن معرفته احصائيا) لحدوث الأشياء أو لسببياتها ، تماما كما يجري في الأحداث الذرية الميكانيكية . وتبع سلمة كارل بيرسون في أن منطقا متناسبا على الاحتمال وعلى الأساليب الاحصائية يمكن أن يضفي على العلوم الحيوية والانسانية نفس الدقة القاطعة التي وصلت عليها العلوم الفيزيقية . وكان أن تبنى بيرت النظام الجديد في المنطق النفسي المرتكن الى التحليل

---

(١١) Mcdougal, W. Modern Materialism and Emergent Evolution. Methuen, London. 1929.

متعدد الأبعاد للفراغ (الذي كونه الرياضيون) ، مقربا ميكانيكا الموجات الفراغية واحتمالاتها من الجذور والأبعاد النفسية الكامنة واحتمالاتها أيضا . وبذلك أصبحت العمليات النفسية عند بيرت : كل لا يمكن تقسيمه ، حيث يتعين فيه وجوب الملاحظة طالما كانت هناك ظواهر ، وحيث يحتمل تواجد قيم متقطعة تتبع قانون الكل أو لا شيء تحت سطح الكل المستمر ، وحيث لا وجود للحتمية أو الميكانيكية في حدوث الظواهر أو سببيتها .

واذا أردنا أن نعنون سيكولوجية بيرت العامة بطريقة أفضل ، فيمكننا ان نسميها السيكولوجية الانسانية . لأن الانسان عند بيرت انسان يسبق مجموع اجزائه . وهو كائن حي لوجوده في محتواه الانساني بكل أبعاده . وكائن له شعوره (الواضح والخفي) الحيوي بالنسبة لاستمراره . وله القدرة على الاختيار وعلى تكوين الهدف . أما اذا أردنا أن نحلل سيكولوجية الفردية أو الفارقة . فاننا نخطيء لو قدمنا تزييفه قبل كل شيء أو وضعنا صدق أبحاثه في الصدارة ، لأن بيرت أخرج نظريات سيبقى مكانها مرموقا في تاريخ علم النفس ، سواء صدقت براهينها أو لم تصدق . وكل ما يمكن أن يقال : هو انه فكر بصوت عال فحسب ، وليته لم يجر وراء اثبات افكاره عمليا . لأن هناك فروقا فردية بين الانسان فعلا ، ولأن هناك عوامل مختلفة تحكم متغيرات الذكاء ومتغيرات الشخصية فعلا ، ولأن الوراثة احدى هذه العوامل حقيقة .

مفارقة

كان هذا بيرت الرجل ، وهذا بيرت السيكولوجي . ولم يكن وحيدا في اخطائه لأن غيره فعلوا ما فعل ، بل واختلقوا أقاصيصهم كالصغار . ففي عام ١٩٥٣ مثلا ، نشر فاينر وكلارك كتابها الشهير « اكذوبة بلتداون The Piltdown Forgery » . وفيه فضحا دوسون Dawson الذي زعم أنه عثر على جمجمة امرأة من العصور البدائية (١٢) وعاونه بعد ذلك في حفرياته العالم البريطاني سير وودورد Sir Woodword « ليجترا » معا على بقايا أخرى لحيوانات منقرضة في نفس المنطقة بمقاطعة Sussex بانجلترا . واكتشف بعدها علماء التاريخ الطبيعي خدعتهم . وليس من المنتظر أن يتوقف هذا النوع من الأفراد . لأننا سنسمع عن غيرهم من وقت لآخر ولا شك ، بما أن بين كل مجموعة أمينين من هم منحرفون ، حتى من العلماء .

وفي الختام ، ترى صاحبة المقال مكانا مناسبا لتساؤلاتها الخاصة . هل كان لبيرت أن يحيا ويموت أحسن صيتا لو لم يولع ببرهنة نظرياته بأي ثمن ؟ هل كان له أن يتفادى التردي في عثرات الضمير لو لم يهو الرياضيات على كبر ليتأبطها في كل مناسبة ؟ ثم في كل رقة لحاله : هل كان لبيرت أن يظهر بشخصية أقل مرضا لو لم يكن متبولا لا ـ إراديا طول عمره ، أو أصما نصف عمره ، أو طفلا معوزا في أول عمره ؟

***

(١٢) د. احمد ابو زيد ، « ملفا بحث في علوم الانسان والمجتمع » . عالم الفكر ـ المجلد الثامن ـ العدد الأول ـ ١٩٧٧ .

منع التلوث

دى. أم. أيه ديامانت

عرض وتحليل: عبد العزيز أمين

تقديم للكتاب

إن الانسان يعمل دائما على تحسين أحواله وتيسير سبل عيشه . وقد اهتم بصفة خاصة في السنوات الأخيرة بالبيئة أملا في أن يعيش حياة أمتع صحة وأكثر نظافة وأوفر راحة لنا جميعا . فالمعاناة التي نقاسيها من تلوث البيئة ، قد دفع العالم الى الاهتمام ببحث الموضوع من كل جوانبه ، وعقد المؤتمرات وإجراء البحوث ونشر المقالات والكتب ووضع التقارير عن تلوث البيئة .

وبين يدي كتاب قيم وحديث باسم « منع التلوث » نشرته دار بطن بلندن سنة ١٩٧٤ لمؤلفه آر. ام. ايه ديامانت R.M.E. Diamant المحاضر في الكيمياء التطبيقية في جامعة سالفورد ، والحاصل على درجة ماجستير في العلوم ودبلوم في الهندسة الكيمياوية . والذي أعجبني في هذا الكتاب هو أهمية الموضوع ، ووفرة ما فيه من معلومات ، وحسن العرض والتعبير ، وبساطة الموضوعات العلمية وتقريبها الى أفهام العام والخاص . فالمؤلف يبسط أحيانا ويوجز أحيانا أخرى . ويطيل ويدقق حينا تحسن الاطالة . ويستحب العرض الدقيق بشيء من التفصيل الذي يهم المهتمين بموضوع التلوث .

ويتدرج ديامانت في الفصول الثمانية الأولى من البسيط السهل الى شيء من التفصيل العلمي والفني ، ثم الى الاكثر تخصصا وتفصيلا ، فينقل القاريء في يسر دون أن يشعر بأي ملل حتى آخر الكتاب . ويختم كتابه بالفصل التاسع الذي خصصه لموضوع الضوضاء وهو فصل خفيف ورقيق فيه الكثير من التبسيط .

من آراء المؤلف :

ويرى ديامانت ، مؤلف الكتاب ، أن الناس يتمسكون في دعاياتهم المنشورة بالكتب والمقالات في الصحف وفي الاذاعة والتليفزيون ، بالاشارة الى تفاصيل عديدة عن التلوث وما يصيبنا من جرائه من أهوال ونكبات . ولا يذكرون اطلاقا أن التلوث هو نتيجة حتمية لتفاعلنا مع

البيئة ، وطبيعة مجتمعنا التكنولوجي الحديث . ويؤكد انه من الممكن أن نفيد من مزايا التكنولوجيا للتغلب على « مشكلة التلوث » . وهو يؤمن بإمكان محاربة التلوث بالعلم والتكنولوجيا الحديثة . ويبرز أهمية العلم والتكنولوجيا في كل فصول الكتاب . ويقول أيضا أننا لو أنفقنا القليل من تكاليف الانتاج في أغراض مكافحة التلوث لربحنا الكثير من المال والانتاج والصحة العامة والرفاهية لبني الانسان .

الغرض الأساسي من وضع الكتاب :

وفي الكتاب قدر كبير من المعلومات الكيميائية والفيزيائية والهندسية علاوة على ما جاء به من نواح اجتماعية وقانونية . ويقول المؤلف ان الكتاب مخصص لفائدة الدارسين بالكليات والمعاهد التكنولوجية وكليات الهندسة ، والمشتغلين في مراقبة البيئة وفي تخطيط المدن ، والمعنيين في الصحة العامة ، وكذلك لجميع الهيئات الصناعية .

عرض عام لأبواب الكتاب :

١ ـ يشير المؤلف في مقدمة كتابه الى الغرض الذي وضع الكتاب من أجله ، والى أن مصادر وأخطار ومراقبة التلوث والتحكم فيها واسعة جدا ، بحيث لا يمكن أن تعالج في مجلد واحد . ولذلك يجد القارىء في الكتاب مراجع مختارة بذكرها في آخر كل فصل للمطالعة . ثم يجيء في الفصل الأول بمقدمة قوية عن التلوث متسائلا هل يمكن أن نمنع حدوثه ؟ شارحا اثر زيادة سكان العالم في المشكلة ، وتاريخ التلوث ، ثم أثره في الاصابة بالأمراض . واهتم بموضوع تلوث المياه وتغيير طبيعة الأرض بسبب ما ينتابها من تغير في طبيعة الجو والضباب والاشعاعات من المواد ذات النشاط الاشعاعي ، والتلوث بالزيوت والمخلفات المنزلية الزراعية والصناعية ، وعوادم السيارات والطائرات التي تنفث في الهواء حاملة مواد سامة .

٢ ـ يوضح في الفصل الثاني النواحي القانونية التي تنظم وتتحكم وتراقب التلوث ، وبخاصة في المملكة المتحدة ، فيتناول في بحثه تلوث الهواء ، ويهتم بدخان المداخن المنزلية والأفران والمراجل الصناعية . ويشير أيضا الى قانون الهواء النظيف ، وقانون الاسكان لسنة ١٩٦٤ والقوانين التنظيمية للعلم في المصانع الكيماوية . ثم يعالج في نفس الفصل موضوع التلوث في المياه والقوانين المتعلقة بالقمامة . ثم يذكر أيضا القوانين الخاصة بالتلوث في الولايات المتحدة ، وفي اوروبا .

٣ ـ وقد خصص المؤلف الفصل الثالث لشرح موضوع المخلفات الصلبة ، ويشرح فيه طرق التخلص من القمامة بواسطة الأفران الصغيرة . وطرق معالجة القمامة قبل حرقها ، وكذلك التخلص من المخلفات الصناعية والآلات والسيارات القديمة ، وطرق التحليل العضوي للقمامة .

٤ ـ ويخصص الباب الرابع لتفاصيل حرق القمامة ويشرح تفاصيل عن المعدات الصغيرة والكبيرة المستخدمة في حرقها ، وما تتعرض له العملية من مشاكل . وبالكتاب في هذا الفصل المخططات الهندسية للمحروقات المختلفة . ثم يستعرض أيضا المحروقات المركزية واستخدام طاقتها في التدفئة . كما يبين محطات التدفئة المركزية كوسيلة للاقلال من استخدام الوقود في المنازل في التدفئة وللاقلال من تصاعد الدخان بالمدن .

٥ ـ اما الفصل الخامس فقد كرسه لتلوث المياه وتبعه بالفصل السادس الذي خصصه للطرق التطبيقية المتطورة لتنقية المياه . وهما أهم فصلين بالكتاب لما تناولاه من عناية ودقة في العرض وقدرة على التبسيط دون الاخلال بالمعلومات الفنية او التفاصيل العلمية .

٦ ـ وينتقل في الفصل السابع من تلوث المياه الى تلوث الهواء من المصادر المنزلية ومن المركبات . ويعالج هذا الفصل المواد الصلبة الدقيقة والقطرات السائلة الصغيرة التي تلوث الهواء ، وكذلك الغازات السامة والكريهة الرائحة التي تتسرب الى الجو من المركبات والآلات ودخان الافران المنزلية والسيارات والمصانع .

٧ ـ ويهتم في الفصل الثامن بالتلوث الذي تسببه المصانع في الهواء . ويشرح المعدات الفنية المتطورة التي

تستخدم لتنقية الهواء من التلوث ولتنظيف الغازات قبل طردها من المصانع الى الهواء .

٨ ـ ويختم كتابه بالفصل التاسع الذي خصصه لمعالجة مشكلة الضوضاء ويشرح فيه قياس شدة الصوت ووحداته العلمية ، وتأثير الضوضاء على حياة الناس ، وضوضاء المرور ، وضوضاء الطائرات ، وضوضاء الانشاءات المدنية والاعمال الهندسية .

وفيما يلي خلاصة لكل ما جاء في الكتاب :

●●●

هل يمنع التلوث ؟

إن الأتربة والجراثيم والمخلفات التي تلوث البيئة تؤدي الى انتشار الأوبئة فتهلك الحرث والنسل ، وتزحف الصحراء على الأراضي الخصبة ، ويهاجر سكانها الى أماكن أكثر خصبا وأرغد عيشا . ولما تزايد السكان في العالم بمعدل يبلغ ٧٥ مليون نسمة في العام الواحد ظهرت مشكلة الغذاء واهتم الكل بها . ويعتقد ديامانت مؤلف هذا الكتاب أن الطرق التكنولوجية الحديثة سوف تحد من التلوث في مصادره الاصلية ، وأن القوانين والقرارات تستطيع التحكم في التلوث ومراقبته ومعاقبة المخالفين . ويشير المؤلف الى القرون الوسطى بوضع المحاولات التي اتخذها الحكام لتنظيف البيئة ، والتحكم في المياه التي كانت تلقى في الطرقات من المنازل ، وأهل الحرف إبان تلك السنين . وتدخل الحكومات في مشكلة الدخان ومنع تصاعده قبل تخليصه من المواد الضارة ، أو صرف المياه القذرة بالمجاري العامة والأنهار والبحار .

ان التلوث يخل بالتوازن الديناميكي الطبيعي بين مختلف الكائنات من نبات وحيوان ، وهو توازن شديد الحساسية لأي تغيير في ظروف الطقس . ويعرف التاريخ كيف تفاعل الانسان مع بيئته فأتلف فيها الكثير . فهو يزرع الأرض ، ويجني المحصول ويحرق المخلفات بالحقول فتضعف خصوبة الأرض عاما بعد عام . ونعرف في القصص الديني رحلة ابناء يعقوب الى أرض مصر بحثا عن الغذاء ، بعدما أجدبت الأرض التي كانوا يقطنونها . اننا نعرف ايضا التحول الذي أصاب الأرض ما بين النهرين وأرض قرطاجنة من إجداب بعد خصوبة ، بما كان فيها من مزروعات وحقول وبساتين . ونعرف أن الاهالي بتلك البلاد أهملوا أصول الزراعة حتى أجدبت الأرض ، وتحولت الى صحراء . كما أن قطع أشجار الغابات لافساح مساحات الارض لزراعة المحاصيل يخل أيضا بالتوازن الديناميكي في البيئة ويحول الأرض الى صحراء بالتدريج .

كما أن تزايد السكان يزيد البيئة تلوثا . فالانسان منذ كشف النار واستخدمها طوال مئات القرون يعمل على زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء ، وهذا يساعد على تصاعد الغبار من مواقد النار في الهواء فتتكون السحب ، وتهطل الامطار . ويتساقط من التراب حوالي ١٦٠٠ مليون طن سنويا على الارض من جسيمات ، منها ٦٠ مليون طن يتحول الى كبريتات ، و ١٥ مليون طن الى هيدروكربونات و ٤٠٠ مليون طن الى مواد كربونية كنتاج . وتستفيد الارض من الكبريتات والنترات لانها تخصبان الأرض . اما حرق مخلفات الحقول في أماكنها فهي وبال على الفلاح لأنها تتلف أرضه ، وكذلك يتلوث الهواء من الدخان .

ان العصر الحديث وتكنولوجيا الطاقة النووية يعرضان الجو للتلوث بمواد ذات نشاط اشعاعي من مخلفات المفاعلات النووية ، التي تستخدم اليورانيوم المطعم ٣٥ المشع والمفاعلات النووية أنواع ، منها ما يبرد بالماء ، ومنها ما يبرد بالغاز . وكلها شديدة الخطورة لما يتسرب منها من مخلفات تحمل نشاطا إشعاعيا ضارا ، منها القوي ومنها المتوسط أو الضعيف ، وذلك حسب اختلاف نصف عمر العنصر المشع ، مثل نظائر الزركونيوم والنيوبيوم والسيريوم التي أنصاف أعمارها سنة أو أقل . اما السيزيوم المشع وأيضا الاسترنشيوم المشع فيسببان خطورة شديدة . فمثلا الاسترنشيوم المشع يتمثل في جسم الانسان أو الحيوان مثل الكالسيوم في نخاع العظام . ولكن الاسترنشيوم عندما

يدخل نخاع العظام حيث تتكون كرات الدم الحمراء يؤثر فيها باشعاعه . وقد تحدث طفرات فيها تجعلها خلايا سرطانية .

ان البترول يتسرب دائما من شقوق في ناقلات البترول ويلوث مياه البحار والمحيطات وهي مشكلة نقاسي منها ، لأنها تضر أيضا بحياة الكائنات البحرية وتؤثر في الثروة السمكية . كما ان المخلفات الصلبة التي يرميها الانسان بعد الاستغناء عنها تلوث البيئة في الريف والحضر من المساكن والمصانع . وتفقد في هذه المخلفات مئات الملايين من الاطنان من مختلف المعادن كالحديد والمنجنيز والنحاس والزنك والنيكل والرصاص . وأيضا بعض المعادن النفيسة . وهذه يمكن ان نستخلصها من المخلفات بحسن استخدام العلم والتكنولوجيا . ونذكر على سبيل المثال كمية الحديد في المخلفات اذ تبلغ ٣٤٥ مليون طن سنويا والنحاس ٤.٨ مليون طن .

ان الزراعة الحديثة تتطلب استخدام كيماويات لزيادة انتاجية الارض . ومهما كانت لها من مضار فإننا لا ننكر اهميتها لفائدة الانسان لتوفير ما نحتاجه من غذاء . ومع ذلك تؤدي الطرق المستخدمة الآن في الري والصرف الى وصول المبيدات الحشرية والعشبية والفائض من الاسمدة الكيماوية الى مياه الانهار والبحار والمحيطات مع مياه الصرف . كما أن المصانع تصرف مواد سامة كالمنظفات والفينولات والاصباغ والمواد المتخلفة عن المجازر والمدابغ وغير ذلك ضمن مياه الصرف وتصل هذه في أغلب الاحيان الى مياه الانهار والبحار . ان النباتات والحيوانات تركز هذه المواد الضارة بأجسامها احيانا . ومن هذه المواد مادة ال . دي . دي . تي . الذي قررت الولايات المتحدة منع استعماله لما ثبت ضرره وتأثيره السيء في أجسام الحيوانات . وقد ثبت كوارث معروفة في طيور تتغذى على الاسماك حول شواطىء بريطانيا أهلكت مئات الالاف من هذه الطيور بسبب تلوث أجسام الاسماك بمثل هذه المبيدات الحشرية والكيماويات الضارة . التي وجدت سبيلها مع مياه الصرف من الحقول ومن المصانع الى الأنهار ثم الى البحار . وتنتقل من مياه البحر الى الاسماك ومنها الى الانسان .

ان الغازات التي تلفظها السيارات من محركاتها وكذلك من الطائرات تنطلق في الجو وتلوثه . وليس هذا التلوث أقل مما يحدث من الالآت الحرارية الحديثة التي تسير بالبنزين او بالديزل مثل مركبات النقل والشاحنات الكبيرة التي تنفث سمومها في الهواء حاملة اليه مختلف انواع السموم العضوية الناتجة عن الاحتراق غير التام بآلاتها . ومن بين هذه الغازات الضارة بالصحة هديروكربونات مشبعة وغير مشبعة مختلطة بأول أكسيد الكربون . المعروف أنه يفسد كرات الدم الحمراء ويمنعها من نقل الاكسجين من الرئتين الى مختلف خلايا الجسم . ان الحل الأمثل للتغلب على التلوث الناتج عن هذه المركبات سوف نجده في استعمال السيارات الكهربائية التي تسير بالقوة الدافعة المخزونة في مراكم كهربائية . تسيرها حتى اذا نفذ جهدها عن اللازم يمكن تغييرها ببطاريات تامة الشحن ، ثم شحن البطاريات الأولى لاتمام جهدها باعادة شحنها . ان السيارات الكهربائية لا تزال في طور التجريب فهي تسير بالبطاريات مسافة ٨٠ كيلومترا بسرعة أقصاها ٨٠ كيلومترا في الساعة . ومن عيوبها أنها تحتاج الى تزويدها بالطاقة الكهربائية كلما تسير فقط مسافة مقدارها خمس المسافة التي تسيرها السيارة العادية بما في خزانها من بنزين أرخص كثيرا من الكهرباء .

وقد أصبحت الآلة النفاثة سمة أساسية في النقل بالطائرات في أيامنا هذه . وهي تعمل بكفاءة احتراق عالية ومشاكل تلويثها للهواء ضئيلة . ويمكن اعتبارها عديمة الاثر وبخاصة لأن أي هيدروكربون يخرج مع غازات العادم تتأكسد الى ثاني اكسيد الكربون وماء قبل وصولها الى سطح الارض . ولكن مشكلتها الأساسية قبل قيام الطائرة وعند هبوطها .

التلوث والقانون :

ان القوانين في بريطانيا العظمى التي تختص بتلوث الهواء ذات تاريخ طويل . واول قانون بهذا الشأن يرجع الى عام ١٢٧٣ عندما كان استعمال الفحم ممنوعا في لندن

باعتباره يسبب موت الناس . كما وضع في سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ قوانين إنقاص الدخان في المدن الكبيرة . وبعدها قوانين عديدة حيث أعلن في سنة ١٩٥٥ أن مدينة لندن خالية من الدخان . وفي سنة ١٩٦٨ صدر آخر ملحق لقانون الهواء النظيف .

ان قانون الاسكان لسنة ١٩٦٤ في بريطانيا يضع حدود السماح لنسب التلوث بالدخان وبخاصة نسبة السناج ومدة اطلاق الدخان وزمنه من النهار والليل . ويشير ايضا الى مصانع الأحماض والقلويات وما تحدثه من سموم ونسبها من المواد التي تطرد في غازات او سائل من المصانع الى الخارج . ويبين المؤلف بالرسوم البيانية العلاقة بين ارتفاعات المباني في المصانع وارتفاعات المداخن وابعادها في الريف والحضر .

ان صناعة حامض الكبريتيك الآن لم تعد مصدرا للتلوث مثل ما كانت في الماضي عندما كانت طريقة غرف الرصاص هي المستعملة . ففي سنة ١٩٦٣ لم يبق سوى مصانع قليلة تستخدم تلك الطريقة القديمة لا يزيد انتاجها عن ٣ في المائة فقط من مجموع انتاج الحامض . اما كل الباقي فيصنع في مصانع بطريقة العامل المساعد (الملامسة) حيث لا تتصاعد أبخرة ضارة . أما صناعة حامض النتريك ، وكلوريد الهيدريك ، وحامض البكريك ، فلا تزال تلوث الهواء قليلا . وتحدد التعليمات بعدم تجاوز الغازات الضارة ٤,٦ جراما في المتر المكعب من الغاز الخارج من المصنع في شكل ثاني أكسيد الكبريت .

تلوث المياه :

ان خطوات عظيمة قد خطتها الدول المتخلفة طوال السنين لتحسين حالة المياه في القرنين الماضيين . وعندما كان عدد السكان لا يزال صغيرا . كانت كمية الاكسيجين الطبيعي الذائب في مجاري المياه كافيا للتخلص من المخلفات العضوية التي تتدفق في مجاري المياه . وكانت اجمل المياه تصلح الى حد معقول للشرب . ولكن لما زاد عدد السكان وجد أن الاكسجين الذي بالمحلول لا يستطيع بعد ذلك أن يكفي لأكسدة الكميات المتزايدة من مياه الصرف والتي تلوث الترع والانهار . وكان هذا هو السبب في انتشار الامراض والأوبئة كالطاعون الذي اكتسح القارة الاوربية . ان المياه يمكن أن نناقش موضوع تلوثها حسب الأغراض التي تستعمل من أجلها وأن نقسمها الى أربعة أنواع .

(١) مياه الشرب .

(٢) مياه للاغراض الصناعية .

(٣) مياه التبريد .

(٤) مياه الري والرش .

فمن ناحية مياه الشرب فقد اتبعت بريطانيا المعايير القياسية لمياه الشرب التي توصي بها هيئة الصحة العالمية والتي تحدد الحد الاقصى بالاجزاء في المليون من الشوائب الضارة والشقات الحامضة في الماء كالآتي :

الرصاص	٠,١	السيانيد	٠,٠١
الفينول	٠,٠٠١	الحديد	٠,١
الزرنيخ	٠,٢	الفلور	١,٥
النحاس	٠,٠٥	الخارصين	٥,٠
السيلنيوم	٠,٠٥	النترات	٥٠
المنجنيز	٠,١	المغنيسيوم	٣٠
الكروم	٠,٠٥	الكلور	٣٥٠
الكدميوم	٠,٠٥	الكبريتات	٢٥٠

ويحدد أيضا ما يسمح بوجوده في الماء كحد أقصى من مواد ذات نشاط اشعاعي بمقدار بيكوكوري واحد في اللتر لجسيمات ألفا ، و ١٠ بيكوكوري في اللتر للمواد التي تتبع إشعاعات بيتا . ويوصي بأن نسبة أيون الامونيوم في الماء لا تتجاوز ٠,٥ جزء في المليون ، وألا تقل نسبة الاكسيجين الذائب عن ٧٠ في المائة من قيمة التشبع التي تبلغ عادة ٧ أجزاء في المليون . وأن يكون العسر بنوعية يتراوح بين ١٠٠ جزءو ٢٠٠ جزء في المليون . والا تتجاوز نسبة الكلوريد ٧

أجزاء في المليون . على أن يكون الماء خاليا من البكتريا والفيروسات ، مع التأكد من خلوه من بكتيريا التيفود والباراتيفود والتسمم الغذائي (السلمونيلا) وفيروس الالتهاب الكبدي الوبائي وفيروس شلل الاطفال . كما يجب ألا يتجاوز مقدار المواد القابلة للتأكسد البيوكيميائي ما تلزمه ٤ اجزاء في المليون من الاكسيجين لمدة خمسة أيام عند ٢٠° مئوية .

القوانين المتعلقة بالقمامة

ان اهم قانون متعلق بالقمامة هو قانون سنة ١٩٣٦ الذي يقسم القمامة الى ثلاثة أقسام .

(١) قمامة المنازل .

(٢) قمامة حرف وصناعات .

(٣) قمامات أخرى متنوعة .

وقد منحت السلطات المحلية صلاحيات للتدخل وارغام الاهالي على اتباع اساليب صحية وإزالة القمامة الخاصة بهم اذا كانت تعوق المارة .

المخلفات الصلبة والتخلص منها :

ان أفضل طريق للتخلص من المخلفات الصلبة المتنوعة هي الحرق ، وتشمل هذه المخلفات أتربة ورماد المواقد ومواد الخضر المتعفنة وورق ومعادن ومنسوجات وزجاج ومواد أخرى متنوعة .

ومن أهم هذه المكونات التي بالقمامة هي اللدائن (البلاستيك) . فقد قدر ما يرميه كل مسكن في الاسبوع بمائة جرام من اللدائن . والمشكلة في ذلك عدم امكان تعفن اللدائن على خلاف اغلب المواد بالقمامة . ومع ذلك يمكن حرقها . ولكن لدائن البوليفنيل كلوريد عندما تحترق يتصاعد منها حامض الهيدروكلوريك ، الذي يتلف معدات المحرقة . كما أنه ضار بالتنفس . وفي درجة الحرارة العالية يمكن ان يتفاعل مع مواد فوسفورية مكونا غاز الفوسجين السام للغاية (فو أ كل ٣)

طرق رمي القمامة :

ويمكن تلخيص هذه الطرق في استعمال محرقات صغيرة ، وهي منتشرة . اما استعمال وحدات القمامة في المطابخ فقد يؤدي عادة الى حرق حوالي ١٠ في المائة من وزن القمامة الناتجة في بيت ما . ومن أفضل طرق التخلص منها دفنها بالأرض وتركها للتحلل بفعل الكائنات الحية الدقيقة كالبكتريا . اما المخلفات الكبيرة الحجم مثل الأثاث القديم والآلات التالفة وبخاصة السيارات فلها طرق خاصة تنقص حجومها وتطحنها . ولها مكابس ومقصات آلية تهشمها ، وتكبس الخردة المعدنية وغير المعدنية وتحرقها ثم تستخلص ما فيها من المعادن .

الانحلال العضوي للقمامة :

وبعد جمع القمامة وفصل ما فيها من المواد غير القابلة للانحلال العضوي كالمعادن والزجاج واللدائن ، يعالج الباقي في أجهزة ومعدات تفككها وتقطعها شرائح صغيرة . ويتم خلطها جيداً واضافة كميات محسوبة من التراب لتحديد ما فيها من نسبة وجود الكربون الى النتروجين وترفع درجة الحرارة . ودرجة الحرارة المناسبة تتراوح بين ٦٠° و ٧٠° مئوية . ولكن الواجب ان يكون على أي حال أعلى من ٥٠° مئوية للقضاء على البويضات والاكياس الجرثومية كالأسكارس . ويجب تهوية المواد العضوية كي تتحلل بواسطة الكائنات الحية الدقيقة تحللا ميكروبيولوجيا هوائيا .

أفران حرق القمامة :

إن الافران الصغيرة والمتوسطة الحجم المستخدمة في حرق القمامة لها مشاكل عديدة ، لأنها تعرض الصحة العامة لتأثير الغازات المتصاعدة منها المحتوية على كبريتيد الهيدروجين وكلوريد الهيدروجين وروائح كريهة وتتلف الاجهزة والمعدات ايضا . وفي الكتاب بعض الرسوم لهذه المعدات .

وتستعمل أيضا حارقات مركزية كبيرة تولد الطاقة الحرارية بوفرة وتدفيء المناطق المنشأة فيها وتدير توربينات . وبذلك تدر بعض الاموال ، ثمن الطاقة الحرارية المتولدة وثمن بيع المواد الناتجة غير القابلة للاحتراق . وفي الحارقة حزام مغناطيسي يلتقط الحديد ومعدات تفصل المحتويات المعدنية والزجاج .

ومن بين هذه الانواع من معدات الحرق جهاز ألماني يعرف باسم جهاز سلدروف يستخدم في المملكة المتحدة فيه أفران متدرجة منزلقة الحركة عددها ستة أو سبعة على شكل درج السلم ، بطيئة الحركة أثناء الاحتراق حتى يتم بكفاءة طيبة .

وبدراسة اقتصاديات المحرقات نجد ان مشروع روزنهايم قد تكلفت معداته ١٤,٥٣ مليون مارك وعمليات التشغيل السنوية لحرق ١٥٠٠٠ طن من القمامة تكلفت ثلاثة ملايين مارك في عام ١٩٦٤ ، منها ٥٠٧١٩٦ مارك أرباح رأس المال .

تلوث المياه :

وباستعراض تلوث المياه الطبيعية في المجتمع الصناعي الحديث ، نجد أننا امام موضوعين هما مياه المصارف المائية العامة الى مجاري البلديات ، ثم مياه صرف المياه المتخلفة من المصانع .

وأغلب شوائب المصارف العامة هي مواد عضوية ، ومياه الغسيل المنزلي المحتوية على المنظفات الحديثة التي تشكل صعوبة ومشكلة كبيرة ، لأنها لا تتحلل تحللا بيولوجيا ولأنها كذلك تتعب تكنيك تنقية المياه قبل طردها في البحار ، او اعادة استخدامها في غرض مناسب .

ان أغلب شوائب المياه يمكن فصلها بالترسيب والتركيز ثم الترشيح . وأخيرا تعالج المياه بالشب او مواد مخثرة لازالة الفيروسات . وقد شرح المؤلف أجهزة ومعدات تنقية المياه في محطات المجاري بالحضر وبينها برسم تخطيطي بسيط . فالمياه تجمع في خزان كبير ثم تمر الى عملية فصل المواد الصلبة التي تتم على مرحلتين . ثم الى معدات فصل الزيوت والاتربة ، ثم تروق المياه ويطرد ما فيها من غازات . اما الرواسب فتجفف وتحرق . وتعقم المياه بالكلور او الاروزون او الاشعة فوق البنفسجية .

أما المياه الصناعية المتخلفة من الصناعات الكيماوية ومصانع الحديد والصلب فتعالج لتنقيتها مما فيها من أحماض وسموم عضوية وغير عضوية . وتشمل عملية التنقية فصل المواد الصلبة والغازية ، ثم تنقية السائل من السموم . فالسيانيد مثلا يزال بالاكسدة بالكلور في محلول قلوي . وتعالج المياه لضبط تأثيرها الحامضي او القلوي ومعادلتها وضبط تركيز أيون الهيدروجين بها عند حالة التعادل فيها . وتزال المواد العضوية كالأصباغ والمنظفات ، كما تزال بالمواد المؤكسدة جميع ما فيه بالمياه من فينولات وتربينات والدهينات وكحولات فتتحول الى مواد غير ضارة ، أو تعالج معالجة بيوكيائية .

وتحتوي المياه الخارجة من المفاعلات النووية وصناعات الطاقة النووية للتخلص مما فيها من حموضة ومن أيونات الحديديك . وتستخدم وسائل تكنولوجية واسعة النطاق لتنقية مياه مصانع انتاج الوقود الذري من اشعاعات ومواد سامة .

الطرق المتطورة لتنقية المياه :

(١) لقد تطورت طرق تنقية المياه المتخلفة من الاستعمالات المنزلية والصناعية وابتكرت طريقة استعمال الكربون المنشط لمعالجة المياه فيمتص الكثير مما فيها من غازات وسموم . وفي كليفورنيا أنشئت محطة في ليك تاهو سنة ١٩٦٨ تؤدي عملها في تنقية مياه المجاري بكفاءة . ويمكن استعادة نشاط الكربون بعد الاستعمال بأن يجمع من قاع أعمدته بالمحطة ، ويجفف ، ثم يسخن الى ٩٣٠ مئوية بمعزل عن الهواء ، وفي جو من البخار ، فتتطاير المواد الملتصقة بالفحم ، وتمرر الغازات المتطايرة في أجهزة غسل وتطرد . اما الفحم النظيف فيبرد في الماء ، وتصنع منه عجينة رقيقة يعاد استخدامها . ويفقد أثناء عملية التنقية لمياه المجاري حوالي

خمسة كيلو جرامات فقط من الكربون لكل ١٠٠٠ متر من الماء المعالج .

(٢) وتستخدم أيضا معدات حديثة ترشح مختلف الانواع من المواد العالقة بالمياه على مرشحات دقيقة مصنوعة من منسوج ضيق المسام تفصل على سطحه الكائنات الحية كالورق والالياف والدبال وما يتطاير من مواد صلبة ورماد من محطات توليد الكهرباء . وتحتوي المواد الحية الدقيقة التي تفصل انواعا متعددة من الطحالب الخضراء والدياتوم .

(٣) وتستخدم ايضا مواد حديثة تجمع الشوائب بالتخثير ثم ترسبها بقاع وعاء خاص . وتتجمع الشوائب على شب الالومنيوم البوتاسيومي او على مبلمرات عضوية اصطناعية اثناء هبوطها الى قاع الوعاء حاملة الجسيمات العالقة .

(٤) وبدلا من فصل الرواسب عن السائل باستخدام الكيماويات ، تعالج المياه بالتسخين تحت ضغط الاتزان عند ٢٠٠° ، فتتكون الرواسب وتتجمع المواد العالقة وتترك نصف ساعة لتهبط الى القاع ثم تفصل .

(٥) وفي طريقة أخرى تعالج المياه الصناعية بتيار من الهواء فتختلط المياه بالمواد الصلبة خلطا جيدا وتتشبع بغاز الاكسيجين ، الذي يساعد على الانحلال العضوي للمواد العضوية . ومن أمثلة الاجهزة المستعملة في هذه المعالجة الحديثة « جهاز سمبلكس الكهربائي » . وفي السويد تستعمل طريقة أخرى اساسها عملية التقطير . وفي التكنولوجيا الكيماوية عدة طرق حديثة أخرى للغرض نفسه مثل استخدام الطاقة الشمسية ، والتبادل الايوني ، والمذيبات وازالة الملوحة بالتبريد الشديد ، واستخدام الضغط الأسموزي المنعكس وطرق الانتشار الغشائي الكهربائي .

(٦) ويمكن ايضا استخدام المبادلات الايونية لفصل جميع ما في المياه من أيونات قاعدية مثل أيونات الفلزات ، وكذلك الايونات السالبة الشحنات وهي الشقات الحامضية ، وبهذه الطريقة تنقى المياه من الفلزات السامة كالنحاس والزرنيخ والرصاص والخارصين ، فهي شديدة السمية للكائنات الحية من انسان أو نبات أو حيوان .

تلوث الهواء من المصادر المنزلية ومن المركبات :

ان الاسباب الرئيسية لتلوث الهواء تنحصر في الاجسام الصلبة الدقيقة والجسيمات السائلة العالقة بالهواء . وهي جسيمات تظل عالقة بالهواء بسبب ما تحمله من شحنات كهربائية . وكذلك يتلوث الهواء بغازات ضارة مثل ثاني أكسيد الكبريت وكبريتيد الهيدروجين وأول أكسيد الكربون وأكاسيد النتروجين : هيدروكربونات .

وتعتبر نيران المواقد والأفران المنزلية من أهم مصادر التلوث . ويليها حرق القمامة ، ثم المركبات الآلية بمختلف انواعها كالسيارات والقطارات والسفن والطائرات ، وأخيرا المصانع والمحطات الحرارية لتوليد القوى .

إن أول أكسيد الكربون ينتج عن الاحتراق غير الكامل للوقود . وثاني أكسيد الكبريت ينتج عن حرق الفحم أيضا أو المواد البترولية . ويتفاعل هذا الغاز الاخير مع رطوبة الجو مكونا كبريتات ، سرعان ما تتفاعل مع الهواء وتعطي حامض الكبريتيك ، وهو حامض شديد النشاط ، اذ يتفاعل مع ما يصادفه من مواد المباني والمنشآت المعدنية ، ويحدث بها تآكلا شديدا ، وبخاصة في الحديد . وعلى الرغم من صغر نسبة الكلور في الفحم (١,٢ بالمائة) فهي تتحول الى كلوريد الهيدروجين الذي يذوب في الرطوبة في الحال مكونا حامض الهيدروكلوريك المتلف للمباني وللمعدات ايضا . وكثيرا ما يضايقنا في المصانع استخدام الزيت الثقيل (المازوت) ، بسبب النسبة العالية من الكبريت (٣,٥ في المائة) التي يحتويها .

وللتغلب على تلوث الهواء بهذه الغازات ، يجب أن تتجه تكنولوجيا العصر الحديث الى تطوير التدفئة ، باستخدام التدفئة المركزية بالبخار او بالكهرباء ، وان تحدث تغييرات كبيرة في تصميم المركبات بمختلف أنواعها ، لتتم عملية تفحيم الوقود وحرقه مع عوامل حفازة تساعد على اتمام عملية الحرق ، حتى يكون الغاز العادم خاليا تماما من أول أكسيد

الكربون ، أو من الهيدروكربونات غير المحترقة . وأخيرا يجب إحكام تبريد الغاز العادم قبل خروجه من المركبة .

واختزال أكاسيد النتروجين أمر سهل اذا استعملت العوامل الوسيطة ، فتتحول الى ماء ونتروجين . ويؤثر وجود الرصاص تأثيرا سيئا على الصحة . وهو يوجد في وقود السيارات كاضافات عضوية لضبط الاحتراق في المحرك . فيتواجد بالعادم كشوائب رصاصية سامة . وتضاف أيضا بعض مركبات البريليوم لنفس الغرض ، وهو أيضا عنصر سام .

ان تسرب الوقود الحي وزيوت التشحيم من السيارات القديمة وعدم اتمام الاحتراق بها يلوث الهواء في المدن الكبيرة بشيء أصبح لا يطاق . فالدخان يخرج من السيارات حاملا كميات من مواد سامة مثل البارين والفلورين العضوي والفلوروانترين . ويسبب هذا الاحتراق الناقص هو تحميل المركبات بأكثر من حمولتها المناسبة ، وايضا بسبب سوء صيانتها .

ان النتائج التي حصلت عليها الحكومة الفيدرالية في كاليفورنيا من البحوث والانشطة المركزة التي تعاون في القيام بها رجال الصناعة (شركات البترول ومصانع السيارات) تبشر بأمل كبير في الوصول الى تصميم جيد يمنع تكوين السناج . وقد استمرت هذه البحوث طوال السنوات من ١٩٥٠ الى ١٩٦٢ وقد أسفرت عن خفض نسبة الهيدروكربون وأول اكسيد الكربون وأكاسيد النتروجين في الغازات العادمة بالمركبات .

السيارات الكهربائية :

ويرى ديامانت ان السيارة الكهربائية التي تم بالفعل اختراعها تسير في طريق التحسين ، وسوف تحل مشكلة من أهم مشاكل تلوث هواء المدينة بسبب استخدام البترول وقودا في السيارات والمركبات الحالية . لكن السيارة الكهربائية لا زالت كبيرة الحجم لكبر حجم بطارياتها . ويحتاج تغيير وشحن هذه البطاريات زمنا غير قصير . وتقوم شركة جنرال موتورز بانتاج سيارة هجين من استخدام البترول والكهرباء تتغلب على اغلب عيوب السيارة الكهربائية فقط . وسرعة هذه السيارة أربعون ميلا في الساعة وتتسع لشخصين ، وطولها ١,٧ مترا ، ووزن ٥٦٠ كيلو جراما فقط ، وهيكلها من الالومنيوم ، ولها اطارات اسطوانية من الصلب ، وتزود هذه السيارة بالكهرباء من بطارية قدرتها ٧٢ فولت ، مع بطارية اضافية قدرتها ١٢ فولت .

وتعمل هذه السيارة إما بطريقة كلها بالكهرباء ، او تعمل بآلة بترولية تستعمل عندما تبلغ سرعة السيارة أكثر من عشرة أميال في الساعة . اما الوقود البترولي فيستعمل لدفع السيارة بسرعة منتظمة .

الدخان من البواخر والطائرات :

ان السفن تلوث جو الموانيء والمباني القريبة منها بالأدخنة . وأهم وقت يكون فيه الدخان شديد التلويث للهواء هو عند بدء تشغيل المحركات . أو عند إطفاء المراجل . ودخان البواخر فيه نسبة عالية من الكبريت . اما وقود الآت الديزل فتلويثه للهواء هين اذا ما حملت الآلات بأحمال لا تتجاوز الذي صممت عليه .

كما ان تلويث الدخان المنبعث من الطائرات للجو محدود ، لأن الطائرات تطير على ارتفاعات عالية ، الا عند الاقلاع او الهبوط . ويتأكسد ما ينبعث منها من ثاني أكسيد الكبريت في الهواء وأول أكسيد الكربون الى ثاني أكسيد الكربون . اما الطائرات فوق الصوتية فتعمل على تحليل غاز الأوزون الموجود في الطبقات العليا والذي يمتص الاشعة فوق البنفسجية ، وبذلك تصل الى الارض مقادير أكثر من اللازم من هذه الأشعة وتتعرض الاحياء الى طفرات او الى الاصابة بالسرطان .

الصناعة وتلوث الهواء :

ان المصانع تلوث الهواء بدخانها الذي يحتوي على جسيمات عالقة ، لأنها تحمل شحنات استاتيكية . ويمكن

تقسيم الطرق الفنية التي تستخدم لفصل هذه الجسيمات الصلبة والقطرات الدقيقة من السوائل الى ستة أقسام هي :

(١) الترسيب في غرف بتأثير الجاذبية .

(٢) الفصل بالقصور الذاتي .

(٣) استخدام الدوامات (سيكلونات) .

(٤) المرشحات .

(٥) الترسيب الكهربائي .

(٦) الغسل بالسائل .

وهي عمليات تعرف عادة في صلب الهندسة الكيماوية بالعمليات الطبيعية الموحدة . وقد أصبحت تنقية الغازات بالمصانع قبل خروجها الى الجو من الفروع الهامة في التكنولوجيا .

ان استخدام اجهزة الفصل الكهروستاتيكية في غاية الكفاءة . فقد بلغت كفاءتها في فصل المواد الصلبة من دخان مصانع الاسمنت مثلا ٩٩,٩٩ في المائة . وفي مصانع الحديد والصلب ٩٩,٤ في المائة . ولم تترك في الغاز النظيف سوى بضعة أجزاء من ألف من الجرام في المتر المكعب .

ويتضافر العلم البحت مع الفن التطبيقي لابتكار الطرق التي تزيل غاز ثاني اكسيد الكبريت من الغازات العادمة في مختلف الصناعات . ففي احدى هذه الطرق يحقن مسحوق الحجر الجيري او الدولوميت الذي يتفاعل مع مالا يقل عن ٣٠ في المائة من ثاني اكسيد الكبريت في الغازات العادمة . وفي احدى الطرق الامريكية تستخدم البيكربونات الطبيعية بدلا من الجير . ولا يقال أنها تستطيع التفاعل في هذه الطريقة مع ٧٠ في المائة من ثاني اكسيد الكبريت . ويستلزم في هذه الطريقة تركيب جهاز يفصل الجسيمات الصلبة .

وقد ابتكرت عدة طرق اخرى لا تزال في الطور التجريبي على نطاق نصف صناعي تستخدم فيها مواد كيماوية تتفاعل مع ثاني أكسيد الكبريت . وأساس هذه الطرق المستحدثة تفاعلات معروفة ولكنها كانت تنتظر التطبيق . مثل تفاعل مادة معدنية تعرف باسم (دوسونايت) وهي مركب مزدوج من كربونات وهيدروكسيد الالومنيوم والصوديوم يتفاعل مع ثاني أكسيد الكبريت . كما يستعمل أيضا خامس أكسيد الفناديوم فيتأكسد ثاني أكسيد الكبريت الى ثالث أكسيد الكبريت . وهذا يتفاعل مع النشادر فينتج كبريتات الامونيوم بتركيز يبلغ ٩٧,٥ في المائة . وهو ملح له أهمية معروفة كسماد كيمياتي .

وفي طريقة ثالثة يستعمل ثاني أكيد المنجنيز كعامل مؤكسد مكونا ثالث اكسيد الكبريت أيضا الذي يتفاعل مع ثاني أكسيد المنجنيز فيصير ملحا يتفاعل ايضا مع النشادر وتعطي كبريتات الامونيوم .

وتعرف عدة طرق اخرى كيميائية مناسبة مثل طريقة مونسانتو التأكسدية مع العامل الوسيط . وطريقة المعالجة بالجير . وطريقة الغسيل في الماء . وطريقة لورجي التي تعالج فيها الدخان . بعد فصل ما فيه من مواد صلبة . بامراره خلال طبقة من الكربون فيتأكسد ما فيه من ثاني أكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت الذي يغسل بالماء فيذوب مكونا حامض الكبريتيك بنسبة ١٠ في المائة . الذي يركز الى ٢٨ في المائة . وأخيرا الى ٩٨ في المائة . ويباع بهذا التركيز العالي .

وهناك طرق أخرى كثيرة مثل الطريقة اليابانية التي تعالج فيها الغازات الباردة بالنشادر ثم يتأكسد الملح الناتج مكونا كبريتات الامونيوم الذي يبلور ويجفف ويباع كسماد كيمياتي .

تلوث الهواء في الصناعات الكيماوية :

تتخذ التحوطات للتخلص من المواد التي تلوث الهواء في مناطق الصناعات الكيميائية والتي تحتاج الى تحوطات وقائية لمنع تلوث الهواء . ويتم التحكم فيها والتغلب عليها بالتفاعلات التي تغير طبائعها وخصائصها . وتحولها الى مواد غير ضارة . فمثلا النشادر يتفاعل مع الاحماض ويكون

الاملاح التي تذوب في الماء ، وتبلر وتفصل وتجفف ، وتباع منتجات ثانوية للمصنع . كما ان غاز البروم وحامض الهيدروبروميك يستخدمان في معالجة البترول . ويستعمل الكلور في طرد البروم من أملاحه . والكلور ذاته ملوث للهواء ، وضار جدا بالصحة وسام . وقد تزايدت كميات ما ينتج منه في العالم . ففي الولايات المتحدة بلغ انتاجه ٦ ملايين طن ، واغلبه بطريقة التحليل الكهربائي للملح الطعام . ويتسرب هذا الغاز كثيرا في مصانع الصودا الكاوية ، وفي عملية إسالته وعند تخليص المحاليل الملحية الضعيفة من الكلور ، وعند حدوث اخطاء في التشغيل . ويجب ان تعد المصانع باجهزة تهوية قوية للمحافظة على صحة العاملين والتخلص من أي تسرب منه في الحال . ومن أضر ما يلوث الريف استخدام المبيدات الحشرية ورشها في الحقول ، فقد يبيد المركب الكيميائي الآفة ويؤثر ايضا في الانسان . وكثيرا ما حدثت أحوال تسمم في القرى بسبب تلوث المياه والخضر والفاكهة بمبيدات حشرية مثل المبيد المسمى « ٢ ، ٤ ـ ثنائي كلورور فينوكسي حامض الخليك » . ويتلوث الهواء أيضا بالروائح الكريهة الناتجة في بعض الصناعات الغذائية لا سيما المجازر ومصانع الجمة والمدابغ . لكن التكنولوجيا كفيلة بحل المشاكل وتنظيف الهواء دائما بغسله في محلول مؤكسد قوي مثل برمنجنات البوتاسيوم المحمض .

الضوضاء :

ليس من السهل أن نقدر الازعاج الذي تحدثه الضوضاء في مجتمعنا وفي البيئة التي نعيش فيها مثل تقديرنا للتلوث من المصادر الأخرى . كما توجد اختلافات شاسعة بين حساسيات الافراد المختلفين الى الضوضاء . ويمكن معرفة أنواع الضوضاء التي تضايق أغلب الناس ، وذلك باجراء مسح اجتماعي على عدد كبير من الناس . وتعرف المنظمة الدولية للتوحيد القياسي شدة الصوت بمعادلة رياضية ، تشمل ضغط الصوت وشدة الصوت وهما يختلفان من شخص الى آخر . وقد وضعت المنظمة مقياسا معياريا لكل من الضغط والشدة ، كأساس للقياس . واعتبر عندها مستوى الشدة للصوت يساوي صفرا بوحدة يسمونها ديسيبل (د ب) . ولكن الصوت لا تسمعه أذن الانسان على مدى مختلف ترددات موجاته ، ومن ثم حددت أيضا حدة الصوت بوحدات تسمى الواحدة منها « فون » عند مستوى التردد ١٠٠٠ ذبذبة في الثانية يكون عدد وحدات الفون لصوت ما تساوي عدد وحدات ديسيبل . وعندما تنخفض حدة الصوت ينخفض أيضا عدد الفونات . فاذا كانت حدة لرتفاع الصوت تقاس بوحدات تسمى الواحدة منها « سون » وكان مستوى الصوت الصحيح هو ض فان مستوى حدة الضوضاء يعبر عنها بالمعادلة الرياضية :

لو ١٠ س = ٠,٠٣ (ض ـ ٤٠)

بينما عدد الفونات يعطي مستوى الصوت معبرا عنه بالديسيبل مصححا عند التردد ١٠٠٠ ذبذبة في الثانية .

واذا صوت جسم بصوت تردده يتراوح من ٢٥٠ الى ٨٠٠٠ ذبذبة في الثانية يكون الفرق صغيرا بين القيمة بالديسيبل والقيمة بالسون . اما اذا كان الصوت أعلى بكثير أو أقل بكثير من هذا المدى فاننا يجب أن تأخذ في الاعتبار ايضا تردد الصوت .

وقد وجدت بالتجارب أن مستويات الضوضاء البيئية الآتية مقبولة عند أغلب الناس :

(أ) بالقرب من المستشفيات وبيوت كبار السن :

٢٥ ديسيبل ليلا ، ٤٥ ديسيبل نهارا ، ٥٥ ديسيبل كحد أقصى

(ب) محلات الاقامة المنزلية :

٤٥ ديسيبل ليلا ، ٥٥ ديسيبل نهارا ، ٧٠ ديسيبل كحد أقصى

(جـ) المناطق التجارية :

٦٠ ديسيبل في المتوسط ، ٧٥ ديسيبل كحد أقصى

(د) المناطق الصناعية :

٦٥ ديسيبل في المتوسط ، ٨٠ ديسيبل كحد أقصى .

ان الضوضاء تؤثر في حياتنا . وهي تضايق المستيقظ والنائم وتتداخل في وسائل اتصالاتنا وتفاهمنا ، كما تؤثر على الصحة النفسية والبدنية وعلى كفاءاتنا الانتاجية . ان أغلب الناس يفضلون الهدوء . والصوت المنتظم الرتيب مثل دقات الساعة يضايق الأعصاب . وقد يضايقنا صوت منخفض مثل همسات الجيران . ومع ذلك هناك من الناس من يفضلون العمل ومن حولهم ضوضاء خفيفة وغير منتظمة . أو موسيقى خفيفة .

وبالمدن يمكن حصر الضوضاء فيما يأتي :

(١) ضوضاء آلات النقل .

(٢) أصوات خروج الغاز العادم من المركبات .

(٣) ضوضاء اغلاق ابواب السيارات .

(٤) اصوات الفرامل عند سرعة ايقاف المركبات

(٥) ضوضاء آلات التنبيه بالسيارات .

وقد قدرت شدة ضوضاء مختلف المركبات بالديسيبل (د ب) في سنة ١٩٦١ فوجد أن اعلاها قيمة ضوضاء الدراجات البخارية (٩٤ د ب) واقلها السيارات الفاخرة ليموزين) اذ بلغت ٧٧ د ب فقط .

ومن أشد انواع الضوضاء اصوات المركبات الهوائية بالقرب من المطارات عندما تطير طيرانا منخفضا عند الاقلاع والهبوط ، وفي عمليات التدريب ، وفي الاغراض الحربية . وتستخدم كاتمات الصوت وانقاص دفع الاقلاع في الطائرات وكذلك زيادة استهلاك الوقود والسحب والوزن كوسائل لخفض الصوت .

وان الضوضاء الناشئة عن الأعمال المدنية والهندسية الانشائية لأعظم وأشد من ضوضاء المصانع . كما أن الجرارات والحفارات وكسارات الخرسانة المسلحة والمناشير التي تقطع الاشجار والمكابس الدوارة الكبيرة وخلاطات الخرسانة التي تعمل بالديزل كلها مصادر ازعاج في المدينة ، وهي شر لابد منه في العصر الحاضر .

ان المصانع أيضا تحدث الكثير من الضوضاء من عمليات تصادم أجزاء الالآت او اهتزاز واحتكاكات دوامات هوائية وتيارات غازية . ومع ذلك لا تقوم أغلب المصانع بجهود خاصة للاقلال من تلوث البيئة بالضوضاء ، وبخاصة لأن القوانين المطبقة عمليا ليست صارمة وهذا مجال فسيح للدراسة والعناية .

فاذا لم نستطع منع حدوث الضوضاء عند مصدرها مثل الضوضاء التي تصل من الطارات الى المنازل او من الأسواق التجارية او المصانع فاننا نلجأ عادة الى اقلال شدتها ، او الى تركيب اشياء لتمص الاصوات ، مثل الحواجز والأرضيات الطاقية والجدران المزدوجة المعزولة وبينها خيوط من صوف الزجاج .

***

من اجل تقدم كوكبنا الصغير

تأليف : بربارا وورد
عرض وتحليل : ياسر الفهد

تتناول « باربارا وود » في كتاب (من اجل تقدم كوكب صغير) الصادر باللغة اللانكليزية في لندن عام ١٩٧٩ جملة من القضايا الهامة التي تستحوذ على اهتمام العلماء ورجال الفكر والاقتصاد في عالمنا الصغير الذي أصبح يئن تحت وطأة الصعوبات والمشكلات المتراكمة وهي تحاول رسم الطرق التي يمكن في تصورها أن تؤدي الى تحقيق التقدم في بقاع الأرض قاطبة بحيث يعم الخير في كافة الربوع وترفرف الرفاهية على كل بيت ويرفل الجميع ، لا البعض ، بجلابيب الرخاء . وكل من تتاح له الفرصة لقراءة المؤلفات السابقة لباربارا وود ومنها (موطن الانسان) و (أرض واحدة فحسب) لا يمكن أن تفوته ملاحظة اهتمامها الفريد بالأزمات البيئية والتوترات الدولية . وتدور معظم افكار الكتاب الحالي في المدارات الثلاثة التالية :

١ ـ ضرورة وضع حد للأسراف في استهلاك الطاقة والغذاء والماء والمصادر الاخرى .

٢ ـ تطوير تكنولوجيا جديدة لمكافحة تلوث البيئة ولتحويل الفضلات والنفايات المنزلية والصناعية الى مواد مفيدة .

٣ ـ تحقيق التطور في البلدان الفقيرة (النامية) وتوسيع التعاون بينها وبين الدول الغنية (المتقدمة) .

وتذكر المؤلفة في المقدمة ، انها استقت المعلومات الأولية التي تشكل لبنة الكتاب من مصادر (المعهد الدولي للبيئة والتطوير) و (برنامج الأمم المتحدة للتطوير) و (البنك الدولي) فضلا عما قامت به من ابحاث واسفار وتنقلات واستشارات ومراسلات ، وكذلك من مراجعة للمعلومات وربط للاحصاءات ، مما يشهد بأهمية المصادر التي ارتشفت المعلومات من مناهلها وبمدى ما بذلت من جهد وصرفت من وقت . وهذا كله يضفي على عملها قيمة علمية خاصة .

يقع الكتاب في (٣٠٥) صفحات من القطع المتوسط وأهم ما يميز محتوياته اتسامها بالجدة والابتكار . فقد عالجت المؤلفة المشكلات الأساسية التي تجثم على كاهل الانسانية بمناظير جديدة وارتادت آفاقا اقتصادية لم يسبق ارتيادها الا لماما ، وحلقت في اجواء علمية وتكنولوجية نادرا ما تم

التحليق فيها . فكان حصيلة ذلك رسم استراتيجية مبتكرة تقوم على مبدأ الجمع بين الوقاية والعلاج وتنهض على اساس الحصول على الكثير من القليل .

فجوات الطاقة :

لما كانت الطاقة هي المشكلة الأولى التي تقض مضاجع الغرب وتهز استقراره الاقتصادي وتعصف بمستقبل صناعاته ، فليس من الغريب ان تستهل المؤلفة كتابها بحديث مسهب مستفيض عن الطاقة وما تثيره من شجون وأشجان ، فتشير الى مفهوم جديد لم يتم طرحه على بساط النقاش والجدل إلا مؤخرا وهو مفهوم « فجوات الطاقة » الذي نشأ عن العلاقة المتبادلة بين الرخاء الاقتصادي واستهلاك الطاقة . فالتطور الاقتصادي لا يمكن تحقيقه الا باستعمال المزيد من الطاقة .. ولكن مصادر الطاقة آخذة بالاضمحلال والنضوب ، مما يستدعي الحد من استهلاكها . وهذا التعارض بين الاتجاهين هو الذي يخلق ما نطلق عليه اسم « فجوات الطاقة » . والسؤال الذي يلح على الأذهان : كيف يمكن التوفيق بين الاتجاهين المتعارضين وبالتالي ملء فجوات الطاقة ؟

ترى « باربارا وود » ان هناك حلين للمشكلة :

أ ـ الحل الأول يتمثل بتطوير بدائل الطاقة وأولها الطاقة النووية التي اخذت تستهوي عقول العلماء وتخلب ألبابهم لسببين : اولهما توافرها بكثرة . وثانيهما وجود وسائل عديدة لاستخدامها والتحكم فيها . وهذا ما جعلهم يؤمنون بقدرتها على ملء ثغرات الطاقة وعلى تحقيق حلم الانسان في السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لأغراضه .

ـ وكانت الذرة قد بدأت تلفت الأنظار وتكتسب الشهرة منذ استخدامها لالحاق الخراب والدمار بمدينتي « هيروشيما وناغازاكي » .. فمنذ ذلك الحين اخذ الحديث عن الذرة واهوالها يتردد على كل شفة ولسان ، فأصبح العلماء توّاقين إلى البرهنة على ان للذرة وجها آخر ناصعا ومشرقا يتمثل بامكانية استعمالها في المجال السلمي . وهناك مصدران للطاقة النووية : ١ ـ الانشطار fission ٢ ـ الانصهار fusion ولكن هنالك مشكلات كثيرة متعلقة بها مثل الحاجة الى ابقاء تفاعل الانشطار المتسلسل « fission chain reaction » ثابتا حتى يبقى انطلاق الأحزمة الحرارية للطاقة منتظما إذ بدون هذا الانتظام ستنشأ اخطار هائلة . وهناك أيضا مشكلة ضرورة تجنب تشكل الحرارة الزائدة التي يمكن أن تسفر عن إطلاق مواد شعاعية مميتة .

وكذلك مشكلة التخلص من النفايات الذرية التي قد تكون مهلكة . وتعيد مؤلفة الكتاب الى الأذهان الانفجار الكبير الذي وقع منذ عشرين عاما في احد المفاعلات السوفييتية بسبب النفايات الذرية ، مما أدى إلى تلويث مساحات شاسعة بالمواد الاشعاعية الضارة وإلحاق الأذى بعدد كبير من السكان .

ـ ناهيك عن مشكلة « البولتونيوم » الذي يطلق ذرات قد ينطوي استنشاقها على خطر الاصابة بالسرطان .

ـ ويضاف الى كل ما سبق معضلة التكاليف . فالتخلص من النفايات الذرية مثلا يستلزم نفقات كبيرة . ومن جهة أخرى لا مناص من تفكيك كل مفاعل ذري بعد عشرين او ثلاثين سنة من استعماله ، مما يستدعي التخلص من آلاف الاطنان من المواد الشعاعية .

وعلى الرغم من الصورة التجارية القاتمة للطاقة الذرية والتي تخفف من غلواء المتحمسين لها وتحبط آمالهم المتطرفة ، فإن « باربارا » تفتح منافذ جديدة للأمل فتبشر بمفاعلات الاستيلاد السريع « fast breeder reactor » التي ما زالت قيد التجربة وتكمن ميزتها في قدرتها على رفع قدرة « اليورانيوم » على انتاج الطاقة بمقدار ستين ضعفا .

ـ وبتعبير آخر فإن استعمال هذه المفاعلات يؤدي الى تخفيض كمية اليورانيوم اللازمة لانتاج قدر معين من الطاقة بمقدار ستين مرة . وهذا يعني ان الدول التي تستخدم مفاعلات الاستيلاد لن تكون بحاجة الى استيراد اليورانيوم . وترنو ابصار العلماء ايضا الى طاقة الانصهار

النووي التي لا تخلف الا نفايات سمية ضئيلة . وهذه الطاقة ما زالت في طور التجريب . ومن البدائل الأخرى المعروفة طاقة الرياح وتقدر منظمة الارصاد الجوية بأن الطواحين الهوائية اذا ركبت في المناطق ذات الرياح الثابتة ، فان بوسعها انتاج الكهرباء بكميات تجارية . اما الطاقة الشمسية ، فأنها من اكثر المصادر غزارة ولكن المشكلة ان اشعة الشمس لا تسطع بصورة دائمة . ويقترح بعض المختصين لحل هذه المشكلة استغلال اشعة الشمس الى اقصى الحدود في الأيام الدافئة مع استعمال مصادر الطاقة التقليدية في الأيام الغائمة أو الماطرة فقط . ويستفاد اليوم من المجمعات الشمسية القادرة على تحويل اشعة الشمس مباشرة الى كهرباء ، يمكن استخدامها للأغراض المنزلية والتجارية . وتجري الآن التجارب على ما يعرف « بالمزارع الشمسية » « Solat farms » إذ توضع على مساحات واسعة من الأرض عاكسات تقوم بتكثيف ضوء الشمس في أنابيب تحتوي على أملاح وغازات . وعندما تصل السخونة الناجمة عن تفاعل اشعة الشمس بالاملاح والغازات الى (٦٠٠) درجة ستنفراد تنقل الطاقة المتولدة عن هذه السخونة الى صهاريج لتخزينها . ويمكن استخدام المزارع الشمسية لانتاج البخار اللازم لتوليد الكهرباء . أما بالنسبة للطاقة المائية فان الدول المتقدمة قد استثمرت فعلا معظم مواقعها المائية . ومن الضروري ان تحذو الدول النامية حذوها وتعمل على الاستفادة من شلالاتها وسدودها بشكل كامل . وتقام اليوم في الدول المتطورة عنفات مائية على السواحل لاستثمار حركات المد والجزر . ويتوافر في فرنسا والاتحاد السوفييتي عدد كبير من المحطات المد جزرية . وتجري هناك التجارب ايضا لاستخدام قوة الامواج في توليد الكهرباء في المناطق التي تكون فيها البحار عاصفة . والمشكلة بالنسبة للطاقات البديلة التي تزودنا بها الشمس والريح والامواج وحركات المد والجزر ، أنها مؤقتة . فالشمس تفيد في الأيام الدافئة ، والريح تساعد في أثناء هبوب الريح ، والأمواج تمدنا بالطاقة في اوقات اشتداد العواصف . ولهذا السبب تتجه الأبحاث الآن نحو تخزين الطاقة . ويعتقد بعضهم ان الصخور والمياه تصلح لان تكون مخازن حرارية .

ومن مصادر الطاقة الأخرى التي تنعقد عليها الآمال : الهيدروجين والوقود الكحولي (المستخلص من النباتات) ورمال القار والزيت الحجري . وهناك مشكلات فنية كثيرة تتعلق بهذه المصادر . ويرى كثيرون من الخبراء في المواد العضوية موئل رجاء جديد ، لأن من الممكن استخراج الطاقة منها في أي وقت على خلاف الحال بالنسبة لطاقات الشمس والرياح والامواج وحركات المد والجزر .

وفي السويد تستعمل اشجار الغابات ، لانتاج النفط بدلا من انتاج الورق . واذا افترضنا ان هناك اقطارا اخرى تنهج النهج نفسه ، فإن هذا قد يكون احد اسباب الغلاء العالمي في اسعار الورق .

ـ وهناك ايضا الحقول الحرارية الأرضية التي تستمد طاقتها من الحرارة الداخلية المتأججة في أعماق الأرض .

ب ـ أما الحل الثاني لمشكلة « فجوات الطاقة » فيتمثل بتقنين استهلاك الطاقة ، كما تراه المؤلفة ، وهي ترجع الفضل في نشوء الاتجاه نحو التقنين في الدول الغربية الى الحظر البترولي العربي الذي فرض عام ١٩٧٣ . (وهذه أول مرة يرى كاتب غربي في الحظر العربي نعمة لا نقمة) .. وتعتقد باربارا ان هذا الحظر قد نبه العالم ، لاسيما الغرب منه الى اخطار مشكلة الطاقة قبل ان تتفاقم هذه المشكلة الى درجة يستحيل معها حلها .. ثم اتت بعد ذلك الثورة الايرانية وما حملته من نذر لتخفيض انتاج النفط والتلويح بالحظر لتكمل الصورة وتدعم الاتجاه نحو التقنين . ومنذ عام ١٩٧٣ شرعت الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة في اتخاذ الاجراءات وسن التشريعات لتخفيف استهلاك الطاقة . ولعلنا نذكر ان الرئيس « كارتر » قد قدم مشروعات كثيرة في هذا المجال وصفت بالتشدد والتطرف . وتأسف المؤلفة لأن المواطنين في مختلف انحاء العالم قد اصبحوا يرون في الطاقة عبدا يمكن استخدامه في كل منحى من مناحي الحياة ولكن مما يدعو للأمل من جهة اخرى ، ان الصناعة بدأت الآن تستنبط اجهزة جديدة ، تستهلك القليل من الطاقة وتقدم الكثير من المردود . فهناك مثلا المضخة الحرارية التي تمتص الحرارة من الجو او الأرض فترفع

هذه الحرارة بمقدار ثلاثة اضعاف ثم تطلقها للتدفئة . وكذلك السيارات خفيفة الوزن التي لا تستهلك الا قدرا ضئيلا من الطاقة وغيرها .

ولا شك ان ما طرحته « باربارا ورد » من أفكار حول الطاقة يجب ان يكون موضع اهتمامنا . فالصورة الحالية المتمثلة بكون الدول العربية دولا مصدرة للنفط والدول الغربية مستهلكة له ، قد تتغير بعد عدة عقود . فعلى العرب اذن الا يعصبوا اعينهم عن اخطار المستقبل ويناموا على حرير اطمئنان زائف . ولنا في هذا المجال وتعقيبا على ما اثارته المؤلفة ثلاث ملاحظات :

١ ـ مهما تفننت الدول الغربية في وضع برامج تقنين استهلاك الطاقة وتطوير بدائل جديدة لها ، فإنها ستبقى خلال الثلاثين او الأربعين عاما القادمة ـ شاءت ام ابت ـ بحاجة ماسة الى استيراد النفط العربي . لذلك فأن من واجب العرب ، اذا عزموا على استخدام البترول سلاحا سياسيا واقتصاديا ، ان يفعلوا ذلك اليوم لا غدا وفي المستقبل المنظور لا في المستقبل البعيد لئلا يسبقهم الزمن ويفوتهم القطار ويأخذ معين بترولهم في النضوب . فالفترة الحالية هي الفترة الحرجة ، بالنسبة لاستخدام البترول العربي لاغراض سياسية . والقرارات المصيرية بهذا الشأن ينبغي ان تتخذ خلال هذه الفترة .

٢ ـ لابد للدول النفطية العربية ، من البدء منذ الآن بالبحث عن موارد جديدة لتسد في المستقبل البعيد مسد الموارد البترولية ، وذلك قبل فوات الأوان .

٣ ـ يجدر بالدول العربية ان تسعى منذ الآن الى تطوير صناعاتها وتكنولوجياتها لتكون قادرة على استعمال المصادر البديلة للطاقة ، لئلا تتحول في المستقبل الى دول مستوردة للطاقة بعد ان كانت دولا مصدرة لها .

استغلال الفضلات والنفايات :

من القضايا الهامة التي تعرض لها الكتاب ، استخدام التكنولوجيات الحديثة للاستفادة من الفضلات المتخلفة عن الاستعمال البشري والصناعي ، باستخلاص مواد نافعة منها .

فقد ظلت الطبيعة على الدوام تبدي التسامح ورحابة الصدر فتتولى استيعاب الفضلات من غائط وقاذورات وجثث حيوانات وبقايا ناتجة عن استعمالات الصناعة والانسان . ولكن علينا ان نلاحظ ان الطبيعة ، بعد ان ازداد حجم الاوساخ المتخلفة ، لم تعد مستعدة للقيام بعملية التطهير هذه دون ثمن .. فالثمن هو المرض . وليس الانسان وحده هو الذي يتعرض للمرض ، بل ايضا الكائنات الحية الأخرى . فالمبيدات الكيميائية المستعملة في الزراعة ، مثلا ، تخلف بقايا تتسلل الى الأنهار فتؤدي الى تسمم اصناف كثيرة من المخلوقات وابادتها . وتؤمن المؤلفة بأن (المعركة ضد التلوث) هي من اكبر المعارك التي يجب على البشرية خوض غمارها . وقد وصلت الجهود الرامية الى مكافحة التلوث إلى ذروتها في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي عقد عام ١٩٧٢ في ستوكهولم . وكان للولايات المتحدة واليابان فضل الريادة في تجريد حملة عاتية ضد التلوث . كما كان لهما قصب السبق في ركوب مراكب جديدة في التصدي للتلوث . وتتمثل هذه باستثمار النفايات بشتى انواعها واستخلاص مواد مفيدة منها بدلا من تركها تلوث التربة والماء والهواء فتهدد صحة الانسان وتضر بالبيئة وبذلك تتحقق فائدة مزدوجة : استغلال الفضلات ونظافة البيئة .

ويشكل قيام الصناعة بما كانت تقوم به الطبيعة مرحلة جديدة في النضال ضد التلوث . وتذكر المؤلفة على سبيل المثال بعض المصانع التي تستثمر الفضلات ومنها مصنع (سلف) ستراسبورغ وهو يستخلص البروتين والبوتاسيوم من النفايات المتخلفة عن انتاج بعض الخمائر .

وقد قدرت تكاليف هذا الاستخلاص بنصف تكاليف العمليات المضادة للتلوث المستخدمة للتخلص من هذه النفايات .. واكثر من ذلك فقد امكن تغطية تكاليف الاستخلاص بمبيعات البروتين والبوتاسيوم المستخلصين .. وهناك ايضا مصفاة الزيت الفرنسية (الفزين) التي تستخلص الهيدروكاربونات من الفضلات .

ـ وتدل التقديرات على ان التخلص من فضلات المصفاة كان لولا ذلك سيكلف (٢½) مليون فرنك فرنسي كل عام . وقد استطاعت الشركة تغطية تكاليف انتاج الهيدروكاربونات وتحقيق ربح سنوي بمقدار خمسة ملايين فرنك فرنسي .

وهناك معمل في بلغراد يقوم باستخلاص المعادن من بقايا الاطعمة والاسماك البالية . ويوجد في المانيا الغربية (٢٠٠) معمل لحرق النفايات وتزويد الصناعة بالحرارة الناتجة عن هذا الاحتراق . وبصورة عامة فإن الصناعة تتيح التخلص من النفايات الكيميائية التي يعتقد انها تسبب السرطان الدرجة الاولى من سلم اهتمامها .

ـ وعلى الرغم من الدور الهام الذي تستطيع الصناعة القيام به في في مجال تطهير البيئة وتحويل البقايا الملوثة الى مواد نافعة ، فان للمواطن ايضا دوره في هذا المجال .

ـ وتنحي المؤلفة باللوم على المواطنين الذين درجوا في حياتهم اليومية على اكتساب عادات سيئة تقود الى تخلف الكثير من الفضلات دون مبرر ولكنها مع ذلك تستدرك فتحمل الدولة مسؤولية توجيه المواطنين نحو عادات جديدة للتخلص من الفضلات بأقل الطرق ضررا او لتحويل هذه الفضلا إلى اشياء مفيدة .

وتشكو باربارا من جهة اخرى من عادة التبذير في استهلاك المياه وأثر ذلك في تلويث البيئة . والحال هنا يشبه الحال مع الطاقة . فقد كان الناس يقبلون على استهلاكها باسراف منقطع النظير وكأن توافرها بكثرة امر حتمي ثم انجابت الغشاوة عن عيونهم واكتشفوا ان تصورهم كان خاطئا . وهم الآن ينسجون على المنوال نفسه ويكررون الوتيرة ذاتها بالنسبة للماء الذي يبالغون في استهلاكه ويهدر الكثير منه في الصناعة والمنزل . واحد الاسباب الكامنة وراء ذلك . بالاضافة الى ضعف الوعي ، رخص ثمن الماء . فتكاليفه في المعامل الصناعية لا تتعدى ٥٪ من مجمل النفقات مع ان طنا واحدا فقط من الورق على سبيل المثال ، يستلزم استعمال (١٢٥٠٠٠) جالون من الماء تقريبا ..

ومن المعلوم ان المياه تحمل معها السموم والبقايا والنفايات الكيمياوية وتقذف بها الى الانهار والبحيرات التي تنوء أصلا بالاوساخ المتراكمة ، مما يؤدي الى تسميم منابع المياه . وتقدر المؤلفة بأن الناس يستهلكون من المياه للحاجات المنزلية اربعة اضعاف ما يحتاجونه فعلا .. وهذا ضرب من التبذير والهدر والاستخفاف بنعم الطبيعة . وكما طالبت باربارا في الفصول السابقة من الكتاب بوضع حد للاسراف في استهلاك الطاقة فإنها هنا تطالب بالمطلب نفسه بالنسبة للماء . وتسلك الصناعة في البلدان المتقدمة اليوم مسلكا تقنيا جديدا يقوم على اعادة الاستفادة من الماء بعد استعماله اي انها تستخدم الماء لعدة دورات (او مرات) لا لدورة واحدة فقط ، مما يؤدي الى توفر نسبة كبيرة من المياه ، من جهة والى تخفيف كمية الفضلات الملوثة ، التي تتسلل الى الأنهار والبحيرات من جهة ثانية . والى تهيئة الفرصة لاستغلال هذه الفضلات واستخلاص اشياء مفيدة منها ، من جهة ثالثة !

وتنتقل الكاتبة بعد ذلك من الحديث عن الماء الى الحديث عن الغذاء فتثير المشكلة ذاتها المتعلقة بالاسراف وتبين ان الانسان يستهلك من الغذاء اكثر بكثير مما يلزمه فعلا . اما المواد الفائضة التي يتناولها ، ومنها السكاكر والدهون ، فانها تشكل عبئا ثقيلا يتيخ بكلكله على أجهزة جسمه فيدنيه حثيثا من القبر ويقذف به الى مخالب المنية

قبل الاوان . ومما يزيد الطين بلة ، ان المعلبات بدأت تغزو الاسواق وتستهلك على نطاق واسع ، لسهولة استعمالها ، بدلا من الفواكه والخضروات واللحوم الطازجة . وترى باربارا ان العادات الغذائية السائدة في الغرب تؤدي الى التلويث وتهديد الصحة والضغط على موارد الطبيعة الغذائية . فاذا كان المفكرون الغربيون يقرعون نواقيس الخطر ويرفعون عقيرتهم محذرين من عواقب الاسراف في تناول الطعام ، مع كل ما عرف عن الاجانب من الاعتدال في المأكل والاستعاضة عن الأكلات الثقيلة بالساندوتش الخفيف ، كيف اذن ينبغي أن يكون موقفنا تجاه شراهة المواطن العربي ونهمه وتهافته على الأكلات الدسمة السمينة ؟..

لا شك ان ما تعرضه المؤلفة هنا ينبغي ان يشكل حافزا لنا على تغيير عاداتنا الغذائية ، والركون الى الاعتدال في المأكل . فالتخمة الغذائية ترهق اجهزة الجسم لاسيما القلب والكبد وتسمم الاعصاب وتربك المعدة وتفضي الى تشكل الكولسترول وحمض البول وغير ذلك مما له اسوأ الأثر في صحة الانسان . ونحن طبعا لا يسعنا الا ان نؤيد المؤلفة في مناداتها ليس فقط بشد الاحزمة على البطون وانما ايضا بالكف عن هدر المياه والطاقة . فالطبيعة رغم سماحتها وكرمها ليست على استعداد لتوفير هذه المصادر بحدود غير متناهية والى الأبد . ان الدولة والمواطن كلاهما مدعوان الى نهج جديد في استعمال الطاقة والماء والغذاء يتم بموجبها ايجاد توازن دقيق بين استهلاك هذه المواد وبين الحاجة الفعلية اليها ، لا يفوق الاستهلاك الحاجة ولا يزيد الاستعمال على المقدار المطلوب فتكون النتيجة هدرا ووبالا على الانسان والطبيعة .

الطقس والبيئة :

تفحص المؤلفة مشكلة البيئة والطقس بقدر كبير من الاستقصاء وتشير الى تأثر الطقس بعدة عوامل منها : تكاثف اوكسيد الكربون ، الغبار في الجو ، الغطاء السحابي ، القدرة العاكسة للأرض . وهي تبدي مخاوفها من الاخطار الناجمة عن تدخل الانسان في النظام البيئي المعقد مما من شأنه أن يفضي في نهاية المطاف الى زعزعة التوازن البيئي برمته مع ما يحمله ذلك من نذر العودة الى عصر جليدي جديد او الدخول في عصر حار وما يترتب عليه من ذوبان الانهار الجليدية وبالتالي ارتفاع منسوب المياه في البحار وتعرض أجزاء من اليابسة للاجتياح والغرق . ومن الاسباب التي تسيء الى البيئة احراق الوقود وقطع الأشجار لاستعمالها كأحطاب مما يؤدي الى اطلاق الكربون الموجود داخل الوقود ، فترتفع كمية اوكسيد الكربون في الجو . الا ان العلماء لا يستطيعون حتى الآن التكهن بالضبط بالتأثيرات الفعلية التي قد تنجم عن هذا الارتفاع ، نظرا لتداخل عوامل كثيرة شائكة في المشكلة . وتدور الآن رحى الجدل في الأوساط العلمية حول مدى تأثير البيئة الفعلي من ازدياد اوكسيد الكربون . ويتدخل الانسان ايضا في المحيطات ويستنفذ اسماكها . فقد تضاعف صيد السمك ثلاث مرات فيما بين عامي (١٩٥٠ و ١٩٧٠) ناهيك عن توسيع عمليات التنقيب عن البترول في البحار وثقب اعماقها حتى بلغت نسبة التنقيب ـ ٢٠٪ في البحار مقابل ٨٠٪ في اليابسة . وتقدر الاوساط العلمية ان هذه النسبة سوف تقفز الى ٥٠٪ في الثمانينات . ويعتقد العلماء أن لسقح البترول في اثناء التنقيب وإراقته في مياه البحر نتائج سيئة لا تحمد عقباها . وهناك ايضا عمليات البحث عن المعادن في البحار . اضف الى كل ذلك تأثيرات الصهاريج والسفن ذات الفضلات الذرية والتي تمخر عباب البحار ليلا ونهارا وتجوب أطراف المحيطات طولا وعرضا .

وعلى الرغم من التدخل البشري في البيئة ، فإن المؤلفة تعتقد ان الموقف لا يدعو الى التشاؤم .. فقد زودنا العلم وفي الوقت المناسب بأقمار اصطناعية واجهزة انذار قادرة على رسم صورة دقيقة عن الحوادث والتغيرات المرتقبة في البيئة الأرضية ، مما كان يعد منذ ثلاثين عاما نسجا من الخيال وضربا من أضغاط الاحلام . وهكذا نرى المؤلفة تعزف على

وترين فتحذر من مغبة التغيرات غير الحميدة ، التي يحدثها الانسان في البيئة ، من جهة ، وتطمئن الى توافر مخترعات حديثة تجعل من المستبعد ان يؤخذ الانسان على حين غرة وتداهمه تحولات بيئية خطرة مفاجئة ، من جهة اخرى ، وهي تشعر بالتفاؤل من جراء تنامي الوعي الدولي بضرورة نبذ العادات القديمة التي تؤدي إلى التلوث . وتتضافر الآن جهود برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) ومكتب الأرصاد العلمي (WMO) ومنظمة الغذاء والزراعة (FAO) ومنظمة الصحة العالمي (WHO) في سبيل تنظيم النشاطات المتعلقة بحماية البيئة والحد من هدر الطاقة والغذاء والماء والعمل على استغلال الموارد الطبيعية على خير وجه .

استراتيجية جديدة لتطوير الدول النامية:

ومن القضايا الحيوية التي أولتها المؤلفة كل اهتمام ، مشكلة التطور في الدول النامية وضرورة التعاون بينها وبين الدول المتقدمة . وهي تهتم بصورة خاصة بالحقل الزراعي ، فتدعو الى تحديث الزراعة ومكننتها في الدول الفقيرة وتحسين وسائل الري واستخدام الطرق الجديدة في التهجين والتوسع في استعمال الأسمدة الكيميائية الحديثة والبذور ذات الانتاجية العالية ومبيدات الحشرات . كما تطالب بالاستفادة من الاجهزة الحديثة التي تم مؤخرا تطويرها في الدول المتقدمة ومنها جهاز المرش ذو الحجم المنخفض الذي يقوم برش كمية ضئيلة جدا من المادة الكيميائية بفعالية ومردود هائلين وبدرجة من التلوث تقل جدا عما تحدثه المواد التقليدية القاتلة للحشرات . وفضلا عن ذلك فإن مادة المرش تقتل الحشرات المؤذية فقط وتبقي على الحشرات النافعة فلا يصيبها منها ضرر . وتصر باربارا ايضا على ضرورة حل المشكلات والخلافات التي يستعر اوارها بين المنتج والصانع ، كما هو الحال في الدول المتقدمة ، حيث يجري تطوير حركات تعاونية تتيح للفلاح الاشتراك في عمليات الانتاج والادارة والتوزيع . ويمثل الفلاح محور اهتمام باربارا الرئيسي ، فهي تمنح الريف الأفضلية في التطوير لانه لا يحظى اليوم في البلدان النامية على اكثر من ٢٠٪ من مجمل الاستثمارات القومية ، في حين تحصل المدن على نصيب الأسد فيخصص لها ٨٠٪ من هذه الاستثمارات مع أن ثلاثة ارباع السكان يقطنون في الأرياف . ويؤدي اهمال الريف حيث يسود الفقر والمرض والأمية سوء التغذية والوفاة المبكرة ، الى هجرة الفلاحين الى المدن ، مما يزيد مشكلة البطالة في المدن تفاقما وهي المشكلة التي تؤدي الى تعطيل الكثير من الطاقات الانتاجية .

وتحاول المؤلفة ان تضع استراتيجية ثابتة لتطوير البلدان النامية ولكنها تعترف باستحالة رسم استراتيجية واحدة لهذه الدول ، بسبب وجود تفاوتات في الدخول والثروات في مختلف انحاء العالم الثالث . ومع ذلك فإن باربارا ترى ان هناك عدة سمات مشتركة تجمع الدول النامية على مائدة واحدة :

أ ـ فقد كانت كل هذه الدول في الماضي مستعمرات غربية .

ب ـ وهي اليوم جميعها تسعى الى التحرر الثقافي والاقتصادي بعد التحرر السياسي (ونحن نشك في ان الدول النامية قد حققت فعلا تحررها السياسي !) والى اللحاق بركب الدول المتقدمة . وهذا هو فحوى الدعوة الى نظام عالمي جديد .

جـ ـ جميع هذه الدول تعاني من ارتفاع نسبة التفجر السكاني بدرجة تفوق ارتفاعها في الدول المتقدمة .

وبوجود نقاط تشابه وصفات واحدة تميز الدول النامية ، يمكن رسم بعض الخطوط الاستراتيجية العامة التي تصلح للتطبيق في جميع هذه الدول . واذا كان قد فات دول العالم الثالث ان تكون دولا رائدة في مجال التطوير في هذه الحقبة من الزمن ، على الأقل ، فإن بوسعها ان تكون دولا تابعة

وهذا يمنحنا فرصة الاستفادة من اخطاء الدول الرائدة . وتشير المؤلفة الى ان استراتيجيات التطوير التي تتبعها الدول المتقدمة تتغير باستمرار . لذلك لا يمكن القول بأن المطلوب من الدول النامية ان تهتدي بالضرورة بهدي هذه الاستراتيجيات ذاتها بل ان عليها ان تمعن النظر وتدقق في تاريخ الدول المتقدمة بما تحفل به من تحولات كبرى ومفترقات طرق حتى تعرف أي القرارات كانت خاطئة وأيها كانت حكيمة . لكي تستطيع الاستفادة من التجارب الناجحة . وتذكر باربارا من هذه التجارب التي تنصح البلدان النامية بالاقتداء بها ، تجربة الثورة الخضراء والتجربة اليابانية المتمثلة بالغاء الاقطاعية وتمليك الأرض للفلاح بدلا من تأجيرها له او استئجاره للعمل فيها ، مما يهيء للفلاح الحافز كي يعمل بكامل طاقته .

وتتضمن التجربة ايضا تنظيم تعاونيات فلاحية للشراء والتسويق وتقديم خدمات موسعة للفلاحين . وقد استخدمت التجربة اليابانية بعد اجراء بعض التعديل عليها في كوريا الجنوبية وتايوان بنجاح كبير . وتلفت المؤلفة الانظار الى بعض الأوضاع السائدة في أرياف العالم الثالث فتبين ان ٩٠٪ من الطاقة غير البشرية التي يستعملها الفلاحون هناك من اجل ان تزودهم بالطاقة الحرارية هي من الحطب . واكثر من ذلك فإنهم يحرقون هذا الحطب في مواقد غير كفوءة تؤدي الى الكثير من الهدر . ويضطر الفلاحون بسبب حاجتهم الماسة الى الحطب الى قطع الاشجار . ومع تكرار هذه العملية تتراجع الغابات وتختفي بالتدريج ، مما يفسح المجال أمام الفيضانات (اذ من المعلوم ان الغابات تقوم بدور صهاريج المياه فتحد من الفيضانات) . ومن جهة ثانية يستعمل الفلاحون من اجل التسخين مواد لا غنى عنها للتربة مثل الغائط الجاف ونفايات المحصول . وهذا يؤدي الى فقر التربة وجدبها .

وتدعو باربارا بحماس الى الحد من استعمال الحطب وقطع الاشجار واللجوء الى وسائل اخرى ، لتأمين الطاقة .

وتوصي بالاستفادة من تجربة معمل الغاز العضوي (biogas plant) وهو يقوم باستخلاص الغاز العضوي من الغائط لاستعماله بدلا من الحطب في مد الفلاح بالطاقة الحرارية . كما يقوم من جهة ثانية بتحويل ما تبقى من الغائط الى سماد صالح للزراعة . ويوجد من هذه المعامل التي تحقق فائدة مزدوجة ستون الفا في الهند واربعة ملايين في الصين . ولابد ان يكون معمل الغاز العضوي كبيرا جدا حتى يكفي القرية بأكملها ، لأن المعامل الصغيرة مكلفة جدا .

اما بالنسبة لاستعمال الفلاحين مواقد غير كفوءة فإن باربارا تنصح بتزويد هذه المواقد بمداخن ومخارج ، فتصبح اكثر كفاءة وتوفر ٢٥٪ من الطاقة المستعملة حاليا .

وهناك ايضا ضرورة توفير المياه الصحية للأرياف وتطوير المصادر المائية واستخدام انواع جديدة من السماد . وهكذا فان المحور الأساسي الذي تتمحور حوله استراتيجية التطوير التي تقترحها باربارا للدول النامية هو الحقل الزراعي . اما الصناعة فإن المؤلفة لا تعيرها ما تستحقه من اهتمام واكثر من ذلك فانها تعترف صراحة بأن الدول المتقدمة لا يمكن ان تشجع الدول النامية على تطوير صناعات تضاهي صناعاتها هي . وهذا شيء طبيعي ، فالدول المتقدمة لا يعقل أن تسعى إلى حرمان نفسها من ميزة شراء المواد الخام من الدول النامية بأسعار زهيدة وتصدير مصنوعاتها اليها بأثمان باهظة . وهذا يعني ان على الدول النامية ان تسعى بكافة الطرق . الى تطوير صناعاتها دون ان تنتظر التشجيع من الدول المتقدمة . ومع استمرار الحديث عن العلاقة بين الدول الغنية (المتقدمة) والدول الفقيرة (النامية) تطالب المؤلفة بزيادة انتقال رؤوس الاموال والمساعدات الفنية من الاولى الى الثانية . وتندد بالفجوة التي تتسع باستمرار بينهما . ونحن نرى انه مهما اغدقت الدول الغنية على الدول الفقيرة من مساعدات وقروض ومعونات فنية ، فإن الثانية لا يمكن ان تنهض على

قديمها الا اذا كفت الاول عن التدخل في شؤونها السياسية الداخلية . فعدم الاستقرار السياسي في الدول الفقيرة هو من رأينا السبب الرئيسي لاستمرار هذا الفقر ، فالمسألة سياسية اولا واقتصادية وتكنولوجية وثقافية ثانيا .

ومن القضايا الاخرى التي لم تغفلها المؤلفة ، مسألة (المعلومات) فهي تعلق على توافرها اهمية كبرى . ونعتقد ان عصرنا الحالي هو بحق عصر المعلومات . فالمعلومات الصحيحة والدقيقة هي التي تهيء لرسم سياسات واستراتيجيات التطوير الناجحة في الدول الغنية والفقيرة على السواء .

من الحاضر الى المستقبل :

تنظر باربارا الى الحاضر فلا تشهد الا الحروب والشائعات عن الحروب ، والسلب والنهب والتخريب واستثمار القوي للضعيف وغياب القيم الاخلاقية السياسية . هذا هو تاريخ البشرية ... فكيف يمكن تجاوز البقع المظلمة فيه والبدء بتاريخ مشرق جديد ؟..

كثيرا ما يتحدث الفلاسفة عن نظام اخلاقي عالمي يتم في رحابه احترام حقوق الانسان ولجم الاطماع وتصعيد الاهواء وسيادة مبدأ العدالة ولكن هذا ظل محصورا في بوتقة الخيال والأماني ولم يلق على الصعيد العملي اكثر مما يلقى الصراخ في الوديان . فلا بد للبشرية والحال كذلك من بذل محاولات جديدة والاستعاضة عن أدوات الحقد والشك والدمار بالوفاء والحكمة والثقة وبالركون الى التشاور المستمر والعمل المشترك وقبول تحمل المسؤولية . واهم ما ينبغي عمله الآن ، السعي لقطع دابر الحروب بصورة جذرية ونهائية ، لأن أي حرب تنشب اظفارها بين دولتين قد تتسع وتمتد لتشمل الدول الكبرى . ومع توافر اسلحة الدمار النووي ، فإن أي حرب قد تشتعل بين الدول الكبرى ستسفر عن تدمير الحضارة البشرية الحديثة وإلقاء الملايين من الناس في أتون الهلاك . ونحن نرى ان العالم قد ينجح جزئيا ، حتى الآن على الأقل ، في وقف الحروب بين الدول الكبرى وذلك بتأثير سياسة الوفاق الدولي . ولكن هذا غير كاف ، فالوفاق لم يسر بين الدول الصغرى ، بل انه قد تم للأسف على حسابها ، اذ ان الحروب بين الدول الصغرى والحروب الاهلية داخل هذه الدول انفسها ، قد اخذت تزداد وتستعر بعد سياسة الوفاق بين الدول العظمى . ونعتقد ان الحاجة تدعو الى تحقيق وفاق بين الدول الصغرى وعلى هذه الدول ان تسعى الى هذا بأنفسها دون ان تنتظر التشجيع من الدول الكبرى التي لا يهمها الا تحقيق مصالحها حتى لو تم ذلك على حساب الشعوب الضعيفة .

وتؤمن المؤلفة بالعمل الجماعي وتدعو الى توسيع التعاون بين دول العالم قاطبة ، الغنية منها والفقيرة ، وبخاصة في مجال مكافحة المرض والفقر . وفي مجال تطهير البيئة وهي تأسف لأن كثيرا من الناس لا يبدون استعدادا للأسهام في هذا المجال ، فهم يشعرون بأنهم غير مسؤولين عن تلويث البيئة . ومع ذلك فهناك مشروعات جماعية كثيرة يجري تنفيذها في العالم اليوم من اجل حماية البيئة ومنها على سبيل المثال : مشروع الخليج العربي الذي اسهمت فيه جميع الدول الخليجية ويهدف الى تطهير المنطقة . وقد بلغت تكاليف هذا المشروع ستة ملايين دولار .

وتشير باربارا الى الحاجة الى العمل المشترك من اجل تطهير البحر المتوسط والبحار الاقليمية الاخرى كذلك من اجل سن قوانين بيئية للبحار والمحيطات تتشكل بموجبها سلطة حكومية مشتركة للحفاظ على نظافة البحار . وهناك ايضا الحاجة الى عمل جماعي لتطوير المصادر المائية الواسعة في آسيا . وكذلك لايجاد نظام ضرائبي عالمي لتوفير المال واستثماره في حقل الحاجات البشرية الأساسية .

وترى المؤلفة أن التناقض بين الاستقلال القومي والسياسي والشعور المتزايد بعدم القدرة على الاستقلال

الاقتصادي هو الذي أدى الى الشعور بالحاجة الى التعاون والتكتل والعمل المشترك .

وهكذا كانت لنا رحلة عبر صفحات كتاب اجنبي حديث طفنا خلالها في رحاب بعض الأفكار الأساسية الهامة التي تخللته . والكتاب قيم دون ريب ويتضمن معلومات جديدة ووقفات هامة مع كثير من المشكلات العويصة التي تؤرق اذهان المعنيين بمستقبل كوكبنا الأرضي الصغير وتقدمه .

ويحسن بنا نحن العرب ان نمعن كثيرا في بعض ما طرحته المؤلفة وان نغوص ، على نحو خاص ، في اعماق الأفكار التي عرضتها ، بشأن الطاقة وهدر المصادر الطبيعية وتطوير الدول النامية ، فهنالك الكثير مما يمكننا الاتعاظ به والاستفادة منه ، في كفاحنا المرير اللاهث ، للحاق بركب الدول التي استطاعت ان تحقق لنفسها مكانة مرموقة تحت شمس كوكبنا الأرضي الصغيرة .

***

متوحشون وملوك

عرض وتحليل: حافظ الأسود

لا زال علماء الانتروبولوجيا يختلفون فيما بينهم حول عدد كبير من الموضوعات الاساسية في العلم مثل أصول الثقافات المختلفة، وظهور أشكال الانتاج المتنوعة من صيد وقنص وجمع النبات والثمار، والزراعة، والصناعة، وما يصاحبها من نظم اقتصادية مختلفة كالنظام الاقطاعي والرأسمالي والاشتراكي، ونشأة الدول والامبراطوريات وما يصاحبها من نظم سياسية استبدادية أوديمقراطية، والعوامل التي أدت أو تؤدي الى الحروب وسيادة الرجال وتبعية النساء لهم، وظهور المجتمعات الأبوية، والمجتمعات الأموية، والعوامل التي أدت الى قتل الأناث من الاطفال ووأد البنات، والظروف التي جعلت بعض المجتمعات تقدم على أكل لحم البشر، وكيف ظهرت التحريمات الاجتماعية والدينية حول أكل لحم البشر، وبعض الحيوانات، أو تحريم أكل اللحم بصورة مطلقة، والاعتماد على الاغذية النباتية، ثم كيف ظهرت المعتقدات الدينية والاخلاقية واختلافها من مجتمع لآخر، وغير ذلك من الموضوعات التي يحاول الكتاب الذي هو بين أيدينا ان يعرض لها في أسلوب واضح وشيق.

ومؤلف الكتاب هو مارفن هاريس **Marvin harris** الذي شغل منصب أستاذ ورئيس قسم الانتروبولوجيا بجامعة كولومبيا من عام ١٩٦٣ الى عام ١٩٦٦، وهو مؤلف كتاب **The Rise of Anthropological Theory** وله أبحاث ودراسات انتروبولوجية متعددة في أماكن مختلفة من العالم. والكتاب موضوع العرض والتحليل هنا يتألف من خمسة عشر فصلا بالاضافة الى المقدمة والخاتمة والببليوجرافيا، ويبلغ عدد صفحاته ٢٣٩ صفحة من الحجم المتوسط.

في المقدمة يحدد المؤلف موقفه من النظريات الانتروبولوجية التطورية السابقة التي تذهب الى أن تطور الثقافة يتجه دائما الى أعلى، وقد بدأ ذلك التطور من أدنى المستويات الى أرقاها، والذي يتمثل في الحضارة الصناعية، مارا بحياة الخوف والقلق والرعب في العصر الحجرى القديم، حيث كانت الحياة تعتمد على الصيد

Marvin Harris : Canibals & Kings. Collings & Co.Ltd., London 1978.

والقنص وجمع النبات والثمار، ثم اكتشاف الزراعة وحياة الاستقرار، ووجود فائض من المواد الغذائية ووقت فراغ كاف لابتكار الافكار الجديدة، ثم اختراع الكتابة، وتأسيس المدن والحكومات وازدهار العلم والفن، ثم مجيء عصر الآلة البخارية مصحوبا بمرحلة سريعة من التقدم والثورة الصناعية، وظهور التكنولوجيات المختلفة والتي تزيد الحياة رفاهية.

ويعترض المؤلف على تلك النظريات السابقة، ويذهب الى أن ما ينظر اليه الآن على أنه تقدم وازدهار، هو في الحقيقة استعادة للمعايير والمستويات التي كانت موجودة في عصور ما قبل التاريخ حيث عاش سكان العصر الحجرى حياة اكثر صحة ورفاهية من معظم الذين عاشوا في العصور التاريخية المشهورة بالأوبئة والأمراض والبؤس. كما أن ساعات العمل في العصر الحجرى، الذي كان قائما على الصيد والقنص وجمع النبات والثمار، كانت أقل ساعات العمل بين الفلاحين في مصر والهند والصين، وبين العمال في المصانع اليوم، كما أن هؤلاء العاملين بالصيد والقنص وجمع الثمار تمتعوا بمباهج الحياة التي لا يستطيع أن يتمتع بها اليوم الا أكثر الامريكان ثراء، وأنهم كانوا يعتمدون على الاطعمة الطازجة والغنية بالبروتينات، ولم يعتمدوا على الاغذية المحفوظة والمثلجة او على المعلبات، وان كان العلم والتكنولوجيا قد ساهما اليوم في تحسين الغذاء والصحة واطالة العمر، والتأمين ضد الكوارث، واختراع وسائل متطورة لتحديد النسل، وسهولة المواصلات، فان المشكلة الآن ليست حول ما اذا كانت المكاسب التي تحققت في المائة والخمسين سنة الماضية حقيقية، بل هي حول اذا ما كانت ستدوم وتستمر، وهل الازدهار الصناعي يعتبر أعلى قمة المنحنى الوحيد الصاعد والمستمر دائما في الارتقاء المادى والروحي، أم أنه مجرد بروز يشبه النقاط على منحنى ما يتجه الى أسفل مثلما يتجه الى أعلى؟ ويميل المؤلف الى التأكيد على الرأى الأخير، لانه يتطابق بصورة كبيرة مع الادلة والأسس التفسيرية في الانثروبولوجيا المعاصرة.

ان النقطة الجوهرية والاساسية التي ينطلق منها المؤلف في تفسير التطور الثقافي، وظهور النظم الاجتماعية والسياسية المختلفة، وتطور الاقتصاد السياسي، ونشأة المعتقدات الدينية بما تتضمنه من تفصيلات وتحريمات غذائية هي الحتمية الثقافية والتاريخية، ولكن ليس بمعنى وضع الروح الانسانية في نسق مغلق من العلاقات الآلية، بل بالعكس، فان الشكل الاعمى من الحتمية الذي حكم وحدد الماضي لا يعني انه بالضرورة سيحكم أو سيحدد المستقبل.

فالعلاقة الحتمية بين الظواهر الثقافية تعنى أن المتغيرات المتشابهة تحت ظروف مماثلة تميل الى أن تنتج نتائج متشابهة، وأن الانسان لديه القدرة على ممارسة الاختيار الأخلاقي وحرية الارادة، ولكن ليس معنى ذلك أيضا هو القول بأن التاريخ هو تعبير عن تلك القدرة فعلا، بل ان الثقافات ككل نشأت وتطورت عبر طرق وخطوط متوازية ومتقاربة والتي يمكن التنبؤ بها من معرفة عمليات وأشكال الانتاج والتناسل، وزيادة السكان، وتكثيف الانتاج وزيادته، ونضوب الموارد، ثم البحث عن شكل جديد من الانتاج، والغرض من ذلك هو التعرف على أسباب الانهيار والتدهور وليس التعرف على أسباب التطور والرقي.

●●●

(١) في الفصل الاول وهو بعنوان « الثقافة والطبيعة » يحاول المؤلف حل لغز مشكلة أنماط الحياة المختلفة في كل أنحاء العالم، قديما وحديثا، وما يرتبط بذلك من اختلاف النظم والمعتقدات والقيم، فقد وجد الانثروبولوجيون أن هناك جماعات صغيرة لا يتعدى عدد كل منها عشرين أو ثلاثين فردا منتشرين عبر مناطق شاسعة، ونمط حياتهم يشبه نمط الحياة في العصر الحجرى القديم القائم على الصيد والقنص، وهناك نمط الحياة القروية المستقرة والذي يعتمد على الزراعة، ولقد اكتشف الاركيولوجيون ان هناك مجتمعات قديمة كانت تعيش في نظم قريبة الشبه من نظام الدولة، ومجتمعات أخرى ذات نظام اجتماعي وسياسي وعسكرى على درجة عالية من التقدم مثل مصر، وبلاد ما بين النهرين، والهند، والصين في العالم

القديم وامبراطورية انكا Inca بامريكا الشمالية ، والازتك Aztec بأمريكا الوسطى Mesoamerica ، بالاضافة الى المجتمع الغربي القائم على نمط الحياة الصناعية الآن ، هذا بجانب اختلاف المعتقدات الدينية والاخلاقية في كل تلك المجتمعات .

وتفسير ذلك التنوع الكبير في أنماط الحياة الاجتماعية ، وأشكال الانتاج ، وتطور بعض المجتمعات وتبنيها لشكل معين من الانتاج وتخليها عن شكل آخر ، يرجع الى الميل الدائم نحو زيادة وتكثيف الانتاج ـ أي استثمار واستغلال الموارد الطبيعية مثل الارض أو التربة والمياه والغابات والاشجار والحيوانات والمعادن ، أو أي شكل من اشكال الطاقة وفقا للزمان والمكان ـ وما يصاحب ذلك من زيادة كبيرة في السكان ، وينتج عن تكثيف الانتاج وزيادته نضوب البيئة والموارد الطبيعية ، وانخفاض القدرة الانتاجية لتلك الموارد الذي ينتج عنه بالتالي تدهور وانخفاض في مستوى المعيشة ، وعندما تنخفض مستويات المعيشة الى الحد الادنى فان الثقافة الناجحة تخترع وسائل جديدة أكثر فاعلية وكفاءة لزيادة الانتاج ، وعندما ترتفع نسبة زيادة وتكثيف الانتاج فان ذلك يؤدي ، إن عاجلا او عاجلا ، الى نضوب البيئة مرة أخرى والبحث من جديد عن شكل آخر من الانتاج ، ولكن الثقافة لم تقف عند زيادة الانتاج بل الاتجاه الى خفض معدلات النمو السكاني وتقليل عدد السكان . فلجأ الناس قديما الى الاجهاض كوسيلة لتحديد النسل ، ولكنه لم يكن مجديا ، فلجأوا الى قتل الاناث ووأد البنات الذي كان يمثل أكثر طرق ضبط النسل انتشارا في تاريخ الانسانية ، ولكن ذلك لم يمنع المجتمعات السابقة على الدولة من اللجوء ايضا الى زيادة الانتاج وتكثيفه كوسيلة لحماية مستويات المعيشة من التدهور ، وكل ذلك يظهر محاولة الثقافة لتطويع الطبيعة والتغلب عليها .

(٢) ويواصل المؤلف في الفصل الثاني تحت عنوان « القتل في جنة عدن » تحليله لعمليات ضبط النسل ، وزيادة الانتاج أو ما يطلق عليه التوازن الديمجرافي والايكولوجي في العصر الحجري القديم الاعلى من ٣٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ ق.م ، وكيف احتفظ هؤلاء السكان بمستوى جيد من المعيشة ، حيث تدل الآثار والرسومات والنقوش الموجودة على جدران الكهوف التي اكتشفت في فرنسا واسبانيا ـ مثل كهف لاسكو Lascaux بفرنسا ـ على تقدم الحياة والفن ، بحيث اشتهر هؤلاء السكان بأنهم « سادة المشتغلين بالاحجار والصخور في كل العصور » كما أنهم تمتعوا بالحصول على غذاء غني جدا بالبروتينات ، حيث كان عملهم هو الصيد والقنص ، كما أنهم تمتعوا ايضا باللهو والتسلية ويذهب المؤلف الى أن السبب في تمتع سكان العصر الحجري القديم بحياة طيبة هو الاحتفاظ بالتوازن بين عدد السكان والموارد الطبيعية المتاحة ، ولكن عند زيادة الكثافة السكانية وتحت ضغوط اقتصادية معينة فان الناس يلجأون الى تحديد النسل ، وهناك انواع متعددة لذلك وهي : أولا ، الاجهاض ، ثانيا ، قتل الاطفال وخاصة الاناث وقتل كبار السن ، إما بالاهمال او القتل العمد ، ثالثا ، مد فترة الرضاعة ، وذلك يعتمد على تناول النساء في فترة الرضاعة كميات كبيرة من البروتينات ، فاذا كانت الطاقة الضرورية للحمل الطبيعي هي ٢٧٠٠ سعر حراري ، وان رضاعة الطفل تستهلك ١٠٠٠ سعر حراري يوميا من الأم ، فان ذلك لا يساعد على تخزين الاحتياطي الضروري من الشحم الذي يعتبر طاقة مخزونة تساعد المرأة على استرداد القدرة على التبويض ، ولذلك فان المرأة التي تستعين بالبروتين الحيواني والنباتي في هذه الفترة لتدعيم صحتها وتعويضها عن اللبن ـ بالاضافة الى عدم تكوين الشحم ـ لا تسترد القدرة على التبويض لعدم وجود الشحم او الطاقة المخزونة الضرورية للتبويض ، وذلك مثل نساء البوشمن Bushman اللاتي يطلن فترة الرضاعة الى أربعة أعوام ـ ذلك لاعتمادهم على البروتينات ـ وعدم الانجاب الا بعد فترة طويلة تمتد الى أربعة أعوام من آخر مولود لها ، وذلك بعكس المجتمعات التي تعتمد في غذائها على المواد الكربوهيدراتية والاغذية النشوية من الحبوب والنباتات الدرنية والجذرية ـ مثل المجتمعات النامية عموما ـ حيث لا تستطيع النساء مد فترة الرضاعة بسبب تخزين كمية كبيرة من الشحم ، والذي يعيد للمرأة القدرة على التبويض

والحمل السريع ، بحيث أنها تقوم برضاعة طفلين غير توأمين معا .

(٣) وفي الفصل الثالث وهو بعنوان « نشأة الزراعة » يتابع المؤلف نشأة وتطور أحد أشكال الانتاج ـ أي الزراعة ـ وكيف كان ذلك نتيجة لمحاولة جادة لايجاد شكل جديد من الانتاج بعد ان انقرضت حيوانات العصر الحجري القديم الضخمة مثل البيسون « الجاموس الوحشي » والماموث والرنة ، والتي شكلت نضوبا شديدا في البروتين الحيواني فلجأ الناس الى النبات والبروتين النباتي ، وذلك بزراعة الحبوب البرية ، ثم الانتقال الى مرحلة الزراعة بالري . ولكن يشير المؤلف الى انه بعد نهاية العصر الحجري القديم فان تطور الثقافات وتطور أشكال الانتاج في أماكن مختلفة من العالم كان مختلفا بصورة كبيرة ، ولتوضيح ذلك يعطي مثالين ، احدهما من العالم القديم وهو « الشرق الاوسط » والثاني من العالم الجديد وهو « أمريكا الوسطى » . وبالنسبة للشرق الاوسط فان الاستقرار وبناء القرى سبق مرحلة الزراعة المعتمدة على الري بألفي سنة ، حيث تم بناء تلك القرى في مرحلة الصيد والقنص وجمع النبات والثمار ، وذلك لتخزين الغلال والحبوب ، فقد اكتشف الاركيولوجيون قرى في الاردن يرجع تاريخها الى ١٢٠٠٠ سنة ق.م وفي العراق حوالي ١١٠٠٠ سنة ق.م . وكانت تلك القرى وما يحيطها من مزارع وحقول ـ فيها مختلف المحاصيل البرية من القمح والشعير والعدس ـ كانت مكان جذب للحيوانات التي تعيش على تلك المحاصيل مثل الاغنام والماعز والخنازير . وفي العصر الحجري الحديث تم استئناس تلك الحيوانات والتي ازداد عددها باستئناس الماشية والجمال والحمير والجياد ، وكان ذلك أكبر انتصار شهده تاريخ الانسانية ، لأنه بالاضافة الى أهمية تلك الحيوانات كمصادر للغذاء البروتيني الضروري ، كانت وسائل هامة ـ أو تكنولوجية ـ في تطور الانتاج الزراعي في الشرق الاوسط ، حيث أنها كانت تستخدم في الجر والسحب ، ثم اخترعت الاسطوانات ثم العجلة ـ لحمل ونقل الاشياء التي تجرها الدواب ـ التي كانت أساسا للهندسة الميكانيكية .

اما بالنسبة للمثال الثاني ـ عن العالم الجديد ـ فان سكان تهيواكان **Tehuacan** بأمريكا الوسطى لم يعرفوا بناء القرى قبل عام ٥٤٠٠ ق.م بالرغم من أنهم عرفوا الزراعة منذ ٩٠٠٠ سنة ق.م ، وسبب تأخر بناء القرى تلك الفترة الطويلة من الزمن بعد معرفة الزراعة ، هو أنهم لم يستأنسوا الحيوانات نتيجة لانقراضها بسبب التغيرات المناخية والايكولوجية ، وزيادة استهلاك تلك الحيوانات ولذلك ، وبالرغم من أنهم عرفوا زراعة الغلال والحبوب مثل الذرة ، الا أنهم لم يستقروا في القرى ، وذلك يرجع الى تجولهم المستمر بحثا عن الحيوانات ، وهذا يوضح اثر استئناس الحيوانات في الشرق الاوسط . تلك الحيوانات التي لا تنافس الانسان على غذائه حيث كانت تأكل الحشائش وما تبقى من أعواد الحصاد . ويشير المؤلف الى آن الحياة المستقرة في القرى ـ في الشرق الاوسط قديما ـ وتخزين الغلال ، ووفرة المصادر الغذائية ، قد شجع على زيادة النسل ونمو السكان السريع ، فقد كان عدد السكان عام ٨٠٠٠ ق.م حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة فأصبح ٣ مليون نسمة قبل عام ٤٠٠٠ ق.م بزيادة تبلغ اربعين ضعفا في أربعة آلاف سنة ، بهذه الزيادة أوجدت ضغوطا جديدة على مستوى المعيشة آذنة بدورة جديدة من زيادة الانتاج وتكثيفه ثم نضوب البيئة والموارد الحيوانية والنباتية ، وهبوط المستويات الغذائية ، وأصبح اللحم نادرا ، وتفشت الامراض بين الناس ، وأصبحت الحياة على حافة تحولات جديدة أخرى ، وكان الثمن أو التكلفة هي الحرب على أنواعها ، وهذا ما يعرض له المؤلف بالتفصيل في **الفصل الرابع** تحت عنوان « **أصل ونشأة الحرب** » .

(٤) فالحرب تكون نتيجة لعدم التوازن بين عدد السكان والموارد الطبيعية المتاحة ، او عدم التوازن بين العلاقات الديموجرافية (السكانية) والايكولوجية ، وبعبارة أخرى عدم مقدرة الجماعات القروية او المجتمعات السابقة على الدولة ـ سواء في شكل قبائل أو زمر او جماعات تعيش في القرى ـ على تطوير او ايجاد وسائل أقل تكلفة واكثر فاعلية في خفض الكثافة السكانية ، ولا يشترط ان تكون

الحرب قتالا بين الجماعات ، بل تأخذ ايضا شكلا غير مباشر في قتل الاطفال والبنات وكبار السن .

وينقد المؤلف النظريات السابقة في تفسير أصل ونشأة الحرب ، وهي تنحصر في أربعة تفسيرات هي :

أولا ، الحرب كتشكل من التماسك والتضامن الاجتماعي ، وطبقا لمبدأ التكلفة والفوائد فان الحرب هي الثمن الذي تدفعه الجماعة في مقابل تماسكها وتضامنها ، وهذا التفسير بالطبع خاطئ، لأن تكلفة الحرب من قتل أعضاء الجماعة تكون أكثر من الفائدة وهي التماسك والتضامن ، كما ان ذلك التفسير يفشل في تفسير لماذا تكون الحرب هي الشكل الوحيد للتنفيس عن العداوة نحو الغرباء ، بالرغم من وجود أشكال اخرى كالألعاب الرياضية والهجاء اللفظي أو الحرب الباردة .

ثانيا : الحرب لعبة ، وهذا التفسير يحاول أن يقيم توازنا بين تكاليف الحرب وفوائدها ، فالحرب وان كانت مكلفة ماديا إلا أنها ـ من حيث هي لعبة قائمة على حب المخاطرة والتنافس بين الرجال ـ تكون ذات قيمة كبيرة سيكولوجيا ، وهذا التفسير يفشل أيضا في توضيح وتحليل الظروف التي تجعل الناس يحبون الحرب أو تجعلهم يكرهونها ، وخاصة اذا كان حب القتال أو كراهيته تخضع للتعليم والتدريب أساسا .

ثالثا : الحرب جزء من الطبيعة البشرية ، ويهدف هذا التفسير تفادى السؤال حول الظروف التي تجعل الناس يحبون او يكرهون الحرب ، وذلك بادعاء أن الناس ، وخاصة الرجال ، لديهم غريزة القتال ، وهذا التفسير ايضا خاطئ، لأن الاتجاه نحو السلام ونبذ الحرب او العكس ، لا يتأثر بالعوامل البيولوجية والوراثية ، بل بالعوامل الثقافية .

رابعا : الحرب سياسة ، وهذا التفسير يذهب الى أن الحرب هي نتاج منطقى لمحاولة جماعة ما زيادة رفاهيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب جماعة أخرى ، فالحرب تعنى الاستيلاء على اراضي الغير وممتلكاته من أجل التوسع والثراء ، ويذهب المؤلف الى أن ذلك التفسير ينطبق على الدولة ، ذلك لأنها تكون قادرة على تنظيم جيش كبير يستطيع ان يأتى بالغنائم والأسرى ، وأن يفتح الاراضي والبلدان الاخرى ، ولا ينطبق ذلك التفسير على الحروب بين الجماعات الصغيرة او المجتمعات السابقة على الدولة والتي ليست بالتنظيم والحجم الضخم الذي تستطيع به ان تفعل ما تفعله الدولة . ويؤكد المؤلف على أن الحرب بين المجتمعات السابقة على نظام الدولة ليست حربا سياسية بل هي حرب تعمل على الاحتفاظ بالتوازن بين عدد الناس ومواردهم او الاحتفاظ بالنسبة المعتدلة بين العلاقات الديموجرافية (السكانية) والايكولوجية .

(٥) ويخصص المؤلف الفصل الخامس وهو بعنوان « البروتينات والشعوب الضارية » لدراسة أحد الشعوب الضارية المتميزة بالعنف والقسوة ، والتي تلعب فيها الحروب وشجاعة الرجال دورا كبيرا ، وذلك لاختبار نظرية التوازن الديموجرافي والايكولوجي ، وهذا الشعب هو شعب يانومامو Yanomamo الذي يعيش في الغابات عبر الحدود بين البرازيل وفنزويلا بالقرب من منابع نهري أورينوكو Orinoco وريونيجرو بأمريكا الجنوبية ، وهم دائما في حالة حرب مع القرى المجاورة ، وتبلغ نسبة الوفيات من الذكور في الحرب ٣٥٪ كما أنهم يمارسون نوعا همجيا ووحشيا من سيادة الرجال على النساء ، ويأخذون بنظام تعدد الزوجات للزوج الواحد Polygyny ، بالاضافة الى سبي واغتصاب نساء العدو ، ويعترض المؤلف على تفسير شانجون Changon ، الذي يذهب الى أن سبب تلك الحروب هو الصراع المستمر على النساء نتيجة لانخفاض نسبة الاناث عن الذكور ، ونتيجة لنظام تعدد الزوجات للزوج الواحد ، ويذهب المؤلف الى أن ذلك التفسير خاطئ، لأنه يتجاهل أثر الضغوط السكانية والايكولوجية ، وندرة الموارد الضرورية للحياة ، ويرى أن مجتمع يانومامو يتميز بثلاثة خصائص تحتاج الى تفسير وهي :

أولا ، القرى الصغيرة ، وكثافة السكان المنخفضة بصفة عامة ، ووفرة الموارد باستثناء الحيوانات اللازمة للبروتين .

ثانيا . كثرة الحروب وشدتها وعقدة سيادة الرجل وقسوته .

ثالثا . قتل البنات بالرغم من الحاجة الشديدة للنساء نتيجة لممارسة نظام تعدد الزوجات . وذلك يؤلف دافعا قويا للصراع والعنف بين الرجال .

وتلك الخصائص الثلاثة لمجتمع يانومامو تتفق مع التفسير العام لأصل ومنشأ الحرب بين المجتمعات السابقة على نظام الدولة . وتفسير ذلك هو أنه في المائة عام الماضية ازدادت كثافة السكان بصورة كبيرة في مجتمع يانومامو . وبالتالي تضخمت القرى الصغيرة وتحولت الى قرى كبيرة . ويرجع ذلك لتبني تكنولوجيا جديدة وهي استخدام الفؤوس الحديدية التي أتى بها الهنود الذين كانوا على اتصال مباشر بالمبشرين البيض والتخلي عن الفؤوس الحجرية القديمة . مع دخول نباتات وثمار جديدة من آسيا وأمريكا بعد اكتشاف كولمبوس لامريكا . وتلك الثمار كان أهمها « الموز » وكل ذلك ساعد على زيادة الانتاج وزيادة الكثافة السكانية ثم نضوب البيئة بالاضافة الى عامل هام جدا - والذي يفسر التوتر والعدوانية التي تميز بها الرجال هناك - وهو أنهم كانوا يفتقرون تماما الى مصادر البروتين الحيواني . ولذلك كان عليهم أن يختاروا بين أمرين . إما أن يعيشوا في القرى ويتنازلوا عن اللحم البروتيني تماما . أو أن ينتشروا سعيا وراء الحيوان خارج قراهم ويقضوا في ذلك عدة أيام وليال . وكانوا يختارون الحل الاخير والذي كان يتطلب منهم الاستعداد الدائم ليس لصيد الحيوان فقط بل للاغارة على القرى المجاورة . وينهي المؤلف هذا الفصل بخلاصة وهي أنه عند زيادة السكان . ونضوب الموارد . وتفشي الامراض . وتوتر الرجال لارضاء أسرهم بالمواد البروتينية . فان النتيجة هي قتل البنات للحد من كثافة السكان أو النمو السكاني . والحرب لتشتيت المساكن ومنع التضخم السكاني في بيئة محدودة الموارد . وذلك يفسر التناقض الذي يعيش فيه مجتمع يانومامو . اذ بالرغم من أنهم يأخذون بنظام تعدد الزوجات الا أنهم لا يترددون في قتل البنات .

(٦) وتحت عنوان « أصل سيادة الرجل وعقدة أوديب » يقدم المؤلف تفسيرا لسيادة الرجل وعقدة أوديب . ويذهب الى أن ذلك يرجع الى الحرب واحتكار الرجال للاسلحة والمعدات الحربية واستخدام الجنس لارضاء الشخصيات المقاتلة . ولا يجب إغفال ان الحرب ذاتها ليست تعبيرا عن الطبيعة البشرية . بل استجابة للضغوط السكانية والايكلوجية . وبالتالي فان سيادة الرجل النابعة من الحرب ليست طبيعية أكثر من الحرب ذاتها . ومع ذلك فان المؤلف يذكر عدة أدلة على سيادة الرجل وهي :

أولا . انتشار وكثرة المجتمعات الأبوية .

ثانيا . في المجتمعات الأموية . بالرغم من ان الانتساب فيها يكون للأم . الا أن السلطة الفعلية تكون في يد الخال « أخ الأم » ومعنى ذلك سيطرة الرجال في المجتمع الأموي . ويتضح ذلك فيما يعرف بنظام الاقامة مع الخال .

ثالثا . ان نظام تعدد الزوجات للزوج الواحد يحدث أكثر من نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة في وقت واحد .

رابعا . ثمن أو « مهر العروس » الذي يدفع كتعويض لأسرتها عن خدماتها الانتاجية والتناسلية في المجتمعات السابقة على الدولة . في حين لا تجد ثمن « أو مهر العريس » .

خامسا . يمسك الرجال في المجتمعات القروية بزمام القيادات والزعامات الدينية والاجتماعية .

سادسا . وهذا الدليل يتعلق بتقسيم العمل . حيث تقوم النساء في المجتمعات القروية بالاعمال الشاقة مثل طحن الحبوب وجلب المياه . وجمع الحطب أو أخشاب التدفئة والوقود وغير ذلك .

وبعد ذلك ينتقد المؤلف آراء فرويد S. Freud وتلامذته في تفسير الحرب وسيادة الرجل بعقدة أوديب . وقولهم بأن الحرب تنبع من عدوانية الرجل بدلا من أن تنبع عدوانية الرجل من الحرب . فالحرب هي عدوان معاقب عليه اجتماعيا وقانونيا . ويذهب المؤلف الى أن نقطة الضعف في نظرية فرويد في التحليل النفسي هي التأكيد على أن الموقف

الاوديبي يكون بسبب الطبيعة البشرية بدلا من التأكيد على أن ذلك بسبب اختلاف الثقافات البشرية ، وتدريب الذكور وليس الاناث على العمليات القتالية ، وعلى القيادة ، كما أن مالينوفسكي B. Malinowski يذهب الى أن عقدة أوديب في مجتمع التروبرياند تكون موجهة نحو « الخال » وليس « الأب » ويذهب المؤلف الى أن عقدة أوديب لم تكن سببا في الحرب ، بل ان الحرب هي السبب في عقدة أوديب ـ واضعين في الاعتبار ان الحرب ذاتها ليست سببا بل حالة ناجمة عن المحاولة للسيطرة على الضغوط الايكولوجية والسكانية ـ ويظهر ضعف عقدة أوديب في أنها لا تفسر التغيرات في شدة ومجال الحرب ، واختلاف المجتمعات في الميل نحو الحرب أو النفور منها ، واختلاف المجتمعات في ممارسة الحرب الداخلية والحرب الخارجية . كما أنه اذا بدأنا بعقدة أوديب فاننا لا نستطيع أن نفسر أصل ونشأة الزراعة ، وأشكال الانتاج ، والنظام المتبع في زيادة وتكثيف الانتاج ، ونضوب البيئة ، او التعرف على أصل الدولة ، ولكن اذا بدأنا بالضغط السكاني (الديموجرافي) وزيادة الانتاج وتكثيفه ، ونضوب البيئة ، فان الفرد يستطيع أن يفهم كل الجوانب الثابتة والمتغيرة للحرب ، ومن معرفة كل الخصائص الثابتة والمتغيرة للحرب ، ومن معرفة متغيرات الحرب نستطيع أن نفهم أسباب التغير في نظام الأسرة ، وأدوار الجنس ، والتفاوت الجنسي ، وبالتالي معرفة كل الخصائص الثابتة والمتغيرة لعقدة أوديب .

(٧) ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك الى الكلام عن « نشأة الدول الاصلية » والثانوية ، وكيف تحولت الحرية التي تمتعت بها الشعوب والمجتمعات السابقة على الدولة الى عبودية واسترقاق تحت حكم الملوك والحكام والوزراء المسيطرين على نظام الدولة .

(٨) وبعد ذلك ينتقل الى الحديث عن « دول أمريكا الوسطى قبل كولمبوس » محاولا تطبيق نظريته عن العلاقة بين العوامل الايكولوجية والديموجرافية في ظهور واختفاء الدول ، ويستعين على ذلك بثلاثة أمثلة من أمريكا الوسطى .

(٩) وفي الفصل التاسع تحت عنوان « مملكة آكلي لحوم البشر » يناقش المؤلف الأسباب الرئيسية وراء ظاهرة أكل لحم البشر والتي ظهرت في أجلى صورة لها في مجتمع أو مملكة الازتك Aztec بأمريكا الوسطى حيث كانت توجد الاهرامات ذات القمم المسطحة والتي كانت تستخدم لتقديم القربان البشري من أسرى وسجناء الحرب . وقبل أن يقدم السجين قربانا للآلهة ثم يؤكل ، كان يعامل أولا بشفقة ورحمة ثم يتعرض بعد ذلك لكثير من أنواع العذاب المادي والمعنوي من ضرب واهانة . وينتقد المؤلف وجهة النظر الفرويدية Freudian في أن معاملة السجين بشفقة ثم تعذيبه ثم ذبحه وأكله كلها تعبيرات عن غرائز الحب والعدوان ، وأن أكل لحم البشر هو الشكل الأساسي من العدوان لأنه يتضمن حلا وسطا بين حب الضحية في صورة أكله ، وقتله لأنه مصدر للاحباط . كما انه يفسر أيضا المعاملة الرحيمة قبل التعذيب . وما يرفضه المؤلف هو تفسير أكل لحم البشر والعدوان بواسطة عوامل سيكولوجية غامضة ومتناقضة دون الاهتمام بعوامل الضغوط الايكولوجية والديموجرافية . وما دام « أكل لحم البشر » مرتبط أساسا بالحرب وسجناء أسرى الحرب فان الحرب ذاتها جزء من عملية الصراع المسلح . وتفسيرها يجب أن يبحث عنه في تكاليف وفوائد الحرب ، وفي التغيرات التي تعكس الحجم والوضع السياسي ، وتكنولوجيا التسليح ، وفي امداد المقاتلين بالمؤونة وايوائهم ، ولقد سبق القول بأن المجتمعات الصغيرة لا تستطيع ان تحصل على عدد كبير من الأسرى الاحياء وهي تكتفي بأخذ أجزاء معينة من أجسام الاعداء كالرأس او اليد أو الاصبع كدليل ورمز على الانتصار . أما في حالة مملكة الازتك فان جيوشها الضخمة كانت قادرة على أن تأسر في معركة واحدة عدة آلاف من الاسرى .

ويذهب البعض في تفسير حروب الازتك بأنها نتيجة دافع ديني وأنها حروب مقدسة . ويعترض المؤلف على ذلك التفسير على أساس أن كثيرا من الحروب المقدسة التي قام بها اليهود والمسيحيون والمسلمون والمصريون والهنود والصينيون واليونان والرومان لم تتضمن ـ بالرغم من فظاعتها ـ تقديم البشر والأسرى قرابين للآلهة ثم أكل

لحومهم . ويعرض المؤلف ايضا على نظرية كوك S. Cook الذاهبة الى أن حروب الازتك جزء من نسق أو نظام ما لتنظيم وخفض النمو السكاني على أساس أن نسبة الوفيات في حروب الازتك تبلغ ٢٥٪ . وهذا التفسير خاطئ، لأن القتلى يكونون من الذكور فقط ، وأن نسبة الوفاة هذه يمكن استعواضها برفع نسبة المواليد . كما ان مجتمع الازتك لو أراد أن يخفض من نسبة النمو السكاني لكان اتجه الى قتل البنات ، وقتل الأسرى في ميدان المعركة بدلا من تحمل مشقة أخذهم الى مجتمعه المكتظ بالسكان .

(١٠) ويعرض المؤلف بعد ذلك لتوضيح وجهة نظره فيذهب الى أن السبب وراء الروتين اليومي المتكرر من تقديم القربان البشري ـ من الاسرى ـ للآلهة وأكل لحمهم ، يمكن البحث عنه في النسق السياسي لمجتمع الأزتك . وفي نضوب البيئة أو النسق الايكلوجي بأمريكا الوسطى ـ وخاصة نضوب الموارد الحيوانية الذي يرجع في القدم الى نهاية عصر الجليد ـ تحت تأثير العوامل الجغرافية ، وتحت تأثير زيادة واستهلاك الانتاج . والنمو السكاني المتزايد ، وفي تكاليف وفوائد استخدام اللحم البشري كمصدر للبروتين الحيواني . ويظهر ذلك بصورة أوضح في نظام تربية الأسير و« تسمينه » حيث يحصل كل قائد عسكري على عدد من الأسرى ، ويقوم بالعناية بهم وتقديم الغذاء الوفير لهم . وفي مناسبات معينة كالزواج او ميلاد طفل جديد يؤخذ الاسير الى الهرم حيث تقام الشعائر ويشق الكاهن صدر الاسير ويستخرج قلبه ويحرقه في نار البخور . وتؤخذ الجثة التي يحملها أتباع وخدم القائد الى منزله حيث تقسم وتوزع وتطهى بالتوابل والطماطم ويأكلونها . ويذهب المؤلف الى ان الطبقة الحاكمة كانت تتمتع بأكل الاطعمة البروتينية ـ قديما ـ من الكلاب والدجاج الرومي والبط والغزال والأرانب والسمك ، بينما عامة الشعب تعتمد على الطحالب وعلى النباتات . ولكن عندما حدث النضوب الشديد حتى في تلك الموارد البسيطة فانهم لجأوا الى أكل لحم البشر بعد أن أضفوا عليه طابعا دينيا مقدسا وشكلا شعائريا معقدا . ويجب أن ندرك أنه عندما يلجأ مجتمع الازتك الى أكل لحم البشر فانه لا يكون بهدف توفير البروتين لكل السكان . بل ان ذلك يخضع لأهداف سياسية حيث ان اللحم كان يوزع بكميات وفيرة ـ في صورة الاسرى ـ على النبلاء والقادة وأتباعهم والذين لا يعملون بالزراعة . ذلك حتى لا ينهار النظام السياسي وخاصة في فترات الكوارث والأزمات والنضوب الشديد في الموارد . ثم يشير المؤلف الى الحيوانات المستأنسة في العالم القديم في ظهور أديان الحب والرحمة وتحريم أكل لحم البشر . وهذا ما يؤكد عليه في **الفصل العاشر** . وهو بعنوان « حمل الرحمة » The Lamb of Mercy حيث يوضح العلاقة القوية بين النسق الايكولوجي والأنساق الاقتصادية والسياسية والمعتقدات الدينية وتطور الاخلاق . حيث كان من المعروف في العالم القديم من أوروبا الى الصين ان لحم الحيوان ـ وليس اللحم البشري ـ هو الذي كان يضحى به ويوزع في الاعياد والاحتفالات الشعائرية . ويرجع ذلك لاستئناس الحيوانات أكلة العشب والمجترة ذات الظلف .

(١١) ويعرض المؤلف بعد ذلك لموضوع « اللحم المحرم » فناقش الأسباب الرئيسية وراء تحريم أكل انواع معينة من الحيوانات في الشرق الاوسط القديم ، وخاصة التي جاءت في سفر اللاويين في العهد القديم . ويذهب المؤلف الى أن ذلك التحريم لا يخضع لمباديء أخلاقية او دينية بل يخضع لمبدأ التكلفة والفوائد . ويخضع أيضا للنسق الايكولوجي . ويؤكد المؤلف على أن تحريم أكل بعض الحيوانات في العهد القديم لا يمكن تفسيره في حدود من القيم والمعتقدات الدينية الاسرائيلية . اذ أن الاسرائيليين القدماء هم أحد شعوب الشرق الاوسط ويشاركون في الثقافة العامة لهم . وليسوا شعبا متميزا مختارا . فالظروف الايكولوجية ومبدأ التكلفة والفوائد كانت السبب في تلك التحريمات . ولو كانت تلك الظروف مواتية ومناسبة لكانت تلك التحريمات في حكم العدم . والا كيف لنا أن نفسر تربية واستئناس الخنازير في الشرق الاوسط قديما ، وتربية الخنازير في الوقت الحاضر في الصين ، وجنوب شرق أسيا ، واندونيسيا ، وماليزيا ونصف الكرة الغربي !!

(١٢) ويتابع المؤلف مناقشة أسباب تحريم بعض الحيوانات او تحريم أكل اللحم نهائيا في **الفصل الثاني عشر**

وهو بعنوان « أصل البقرة المقدسة » وذلك من خلال التفسير القائم على التوازن الايكولوجي والديموجرافي ومبدأ التكلفة والفوائد . حيث يتتبع المؤلف أسباب تحريم أكل لحم البقر ثم تحريم اللحم نهائيا وظهور النزعة النباتية في الهند . فلقد كانت الحياة القروية في الهند مثل الحياة القروية في الشرق الاوسط ، تعيش على استئناس الحيوانات ـ في العصر الحجري الحديث ـ مثل الاغنام والماعز والماشية بجانب الزراعة . وقبل عام ٢٠٠٠ ق.م بمدة وجيزة حدثت نكبة أيكولكجية شديدة غيرت مسار نهر السند وفروعه . وخلال تلك الفترة من الضعف تعرضت الهند للغزوات البربرية من بلاد فارس وأفغانستان ، وعرفوا هؤلاء بالأريين Aryans الـذين استقروا في وادي الجانـج Ganges Valley واستمروا يأكلون اللحم هم والهنود حتى النصف الاول من الالف سنة الاولى قبل الميلاد ، وكانت هناك طائفة من الكهنة ـ تشبه كهنة سفر اللاويين بالعهد القديم ـ كان يطلق على أعضائها اسم « البرهميين » Brahmans الذين تخصصوا في ـ واحتكروا ـ شعائر ذبح الحيوانات كقرابين للآلهة وتوزيع لحمها في أعياد يشرف عليها الزعماء وقادة الحرب الأريون . وبعد عام ٦٠٠ ق.م ازدادت الكثافة السكانية ونقصت الموارد الحيوانية ولم يستطع « البرهميون » أن يواصلوا شعائر توزيع اللحم على الجميع ، ولذلك اقتصر اكل اللحم على البرهميين والطبقة العليا من الأريين ، وحرم الشعب من ذلك ، ثم ظهرت الاديان التي تقاوم ذلك التمييز الطبقي في القرن السادس قبل الميلاد ، فظهرت البوذية Budhism والجاينية Jainism على يد زعماء كارزميين أبطلوا تلك التمييزات الطائفية ، وألغوا نظام الكهنة الوراثي ، وجعلوا الفقر حالة سابقة على الروحانية ، ودافعوا عن الاتصال بالجوهر الروحي للعالم من خلال التأمل بدلا من الأضاحي والقرابين الحيوانية . ففي وادي الجانج وفي أقل من ٧٠٠ سنة تحول وادي الجانج الى أكبر منطقة آهلة بالسكان ، فكان سكان الهند يتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ مليون نسمة عام ٣٠٠ ق.م وكان نصف ذلك العدد يعيش في وادي الجانج الـذي يعتمد على الامطار الموسمية في زراعته ، ولقد حدثت مجاعة وتدهور شديد في الموارد الطبيعية ـ الحيوانية والنباتية ـ بحيث كانت الهند تعيش مهددة تماما كما تذكر ملحمة مهابهاراتا Mahabharata التي ألفت بين عام ٣٠٠ ق.م وعام ٣٠٠ ميلادية ، وبعد أن انقرضت الحيوانات جميعها ما عدا الماشية ـ التي تتميز بمقاومة جيدة ضد الجوع والعطش والتي تعيش فترة طويلة من الزمن دون غذاء ولا ماء ـ ظهرت التحريمات الدينية حول تلك الماشية ، حيث كانت المشكلة التي تواجه الهنود هي كيف يتغلبون على اغراء ذبح الماشية في وقت الازمة والمجاعة . ويذهب المؤلف الى أنه بالرغم من أن تحريم ذبح وأكل الماشية أخذ شكلا دينيا مقدسا الا أنه في جوهره نبع من الحياة العملية للافراد ، ولم يكن نتاج بطل تقاني ما ، ولا نتاجا لعقل جمعي اجتماعي يطيل التفكير في التكاليف والفوائد ، أو مبدأ ديني متسام ، بل ان التحريم كان نتيجة لقرارات فردية لملايين وملايين الفلاحين الفرديين . وكان الهندي الذي يقدس الحياة القروية ويعتمد على الزراعة في معيشته يقدس الماشية ويحافظ على حياتها المرتبطة بحياته هو .

ويذهب المؤلف الى ان السبب الحقيقي وراء تمتع البقرة بقدسية أكثر من الثور ، لا يرجع الى أهمية البقرة وقدسيتها ، بل بالعكس ينبع من الخوف عليها من أن تذبح في أوقات المجاعة ، لأنها ليست بأهمية الثور الذي يقوم بسائر الاعمال الزراعية الشاقة ، والذي يعامل في الواقع معاملة جيدة دون البقرة ، ولذلك نجد أن البقرة تعيش على القمامة وتهيم في الشوارع ضالة ـ وان البعض يعتقد أن ذلك برهانا على قدسيتها ـ وهي مثل الكلاب في الشوارع تأكل المخلفات ، بعكس الثور الذي يعيش في حظائر ويتغذى على الكسب والعلف .

ويشير المؤلف الى أن مصر وبلاد ما بين النهرين كانت تقدس الابقار أو الماشية ، ولكن ذلك لم يمنع ذبحها واكلها ، والسبب في ذلك هو أنها بلاد اعتمدت في الزراعة على الري وليس على الامطار الموسمية غير المنتظمة ، كما أنهم لم يعتمدوا على الماشية في أوقات القحط ، وهذا ما نجده في الصين التي اعتمدت في زراعتها على الجياد والحمير والبغال ، واعتمدت في غذائها الحيواني على الخنازير ، وذلك نتيجة لظروف البيئة والمناخ في حوض النهر الأصفر .

والمختلفة عن البيئة والمناخ في وادي الجانج . ويختتم المؤلف هذا الفصل بالقول ان الهندوسيين وكذلك الغربيون يرون ان تحريم أكل اللحم في الهند هو انتصار للأخلاق على الشهوة الحيوانية ، وبالطبع فان ذلك سوء فهم خطير للعمليات الثقافية ويذهب المؤلف الى ان النزعة النباتية الهندوسية هي انتصار ليس للروح على المادة ، بل انتصار للتكاثر والتناسل على القوى الانتاجية وظروفها ، ولم يحدث ذلك بسبب سمو روحانية الهند وعلوها على روحانية الاديان الأخرى ، بل نجد في الهند ان زيادة الانتاج وتكثيفه ، ونضوب البيئة ، وارتفاع كثافة السكان الى ما وراء حدود النمو في أي بلد آخر في العالم السابق على الصناعة ، كلها أدت الى التحريم الكامل للحم والاتجاه نحو النزعة النباتية .

(١٣) **وفي الفصل الثالث عشر** وهو بعنوان « الشرك أو الفخ الهيدروكيلي » يتابع المؤلف أيضا العلاقة بين العوامل الايكولوجية وأشكال الانتاج ، وبين النظم السياسية المرتبطة بها ، وذلك من خلال التركيز على خاصية او صفة عامة اشتركت فيها الدول الاصلية في العالم القديم مثل مصر وبلاد ما بين النهرين والهند والصين ، وتلك الدول التي أسست امبراطوريات كبيرة ومارس الحكام فيها سيطرة قوية بحيث ظهرت أنواع العبودية وأعمال السخرة ، وظهرت الطبقة العريضة من الكادحين الفلاحين والعمال والطبقة القليلة من الارستقراطيين الحاكمين بحيث أصبحت الدولة أقوى من المجتمع . وتلك الخاصية يطلق عليها كارل وتفوجل Karl Wittfogel اسم « المجتمع الهيدروليكي » Hydraulic Society أي المجتمع الذي يعتمد في حياته على الزراعة في المناطق القاحلة وشبه القاحلة والتي توجد فيها الانهار العظمى ، وما يستتبع ذلك من بناء شبكة ضخمة من القنوات والترع والمصارف والسدود او مشاريع التحكم في الانهار والفيضانات التي تتكفل بها الدولة ، وما يصاحب ذلك من ظهور طبقة من الاداريين الموظفين او البيروقراطيين الذين يشرفون على تلك المشروعات وعليهم مسئولية تحويل المياه من الانهار الى الحقول . والسدود او مشاريع التحكم في الانهار والفيضانات التي تتكفل بها الدولة ، وما يصاحب ذلك من ظهور طبقة من الاداريين الموظفين او البيروقراطيين الذين يشرفون على تلك المشروعات وعليهم مسئولية تحويل المياه من الانهار الى الحقول . ولقد ظهرت العلاقة القوية بين الانتاج الزراعي الهيدروليكي هذا وبين أشكال الاستبداد الاداري الزراعي ، لأن الزراعة التي تعتمد على ذلك الشكل الهيدروليكي من الانتاج قبل ظهور الصناعة أدت الى نمو البيروقراطية الادارية المستبدة ، وتفسير ذلك يرجع الى أن الضغوط السكانية أدت الى التوسع في زيادة الانتاج الزراعي بواسطة ذلك الشكل الهيدروليكي والذي كان بدوره يستلزم بناء المشاريع الضخمة ، والتي بدورها ـ في غياب الآلات ـ كانت تستوعب أعدادا هائلة من العمال المكرهين على العمل ، وكلما كبرت المشروعات ازداد الانتاج ، وبالتالي تزداد سيطرة الدولة بنظمها الادارية البيروقراطية والتي تخضع جميعها لسيطرة شخص واحد يتربع على القمة ، اى تخضع لنظام التحكم الاقتصادى والسياسي المركزى ، ويذهب المؤلف الى ان كل المجتمعات الهيدروليكية تتميز بأنها مجتمعات استاتيكية ثابتة ، أى لا يطرأ على بنائها الاجتماعي والسياسي أى تغير جوهرى .

وينهى المؤلف هذا الفصل بخلاصة فحواها انه عندما تعاني أنماط أو أنواع معينة من أشكال الانتاج على مستوى الدولة من تكثيف .. وزيادة الانتاج ، فان اشكالا استبدادية من الحكومة ـ او النظام السياسي ـ يمكن ان تظهر وتطغى ، والتي يمكن لها ان تجرد ارادة الانسان وذكاءه لعدة آلاف من السنين ، وهذا يتضمن ان اللحظة الايجابية والمؤثرة في الاختيار الواعي يمكن ان توجد خلال التحول من شكل انتاجي الى شكل آخر .

(١٤) **وفي الفصل الرابع عشر** وتحت عنوان « **اصل الرأسمالية** » يتناول المؤلف نشأة الرأسمالية بعد أن نمت في حضن الاقطاع في أوروبا وما صاحب ذلك من ظهور نظام سياسي مختلف تماما عن النظام السياسي السائد في المجتمعات الهيدروليكية الزراعية .

(١٥) وفي الفصل الخامس عشر والاخير يقوم المؤلف بشرح وتحليل طبيعة المجتمع الصناعي مبتدئا بحقيقة أن كل أشكال ونظم الانتاج التي تتميز بالمبالغة في

الانتاج وشدة تكثيفه ـ سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية أو هيدروليكية ، او ظهرت في العصر الحجري الحديث أو العصر الحجري القديم ـ تواجه مشكلة عامة وهي أن الزيادة الكبيرة في استخدام الطاقة المستثمرة في الانتاج لكل وحدة زمنية تؤثر على النسق الايكولوجي ، أي تؤثر على امكانيات تجديد واستعادة قدرة وفاعلية البيئة او النسق الايكولوجي ، وأن الوسيلة الوحيدة لتجنب انخفاض الانتاج ونضوب البيئة هي التحول الى تكنولوجيا اكثر فاعلية وكفاءة ، ويذكر ويلكنسون R. Wilkinson في كتابه « الفقر والتقدم » ان انجلترا شهدت تغيراً تكنولوجيا في الفترة بين عام ١٥٠٠ وعام ١٨٣٠ وتلك الفترة تميزت بزيادة كبيرة في السكان وارتفاع تكاليف المعيشة ، وأكبر قدر من التعاسة والفقر . وكان ذلك دافعا قويا نحو الاهتمام بالتعدين والصناعة اللذين تطورا بصورة كبيرة فنشطت صناعة النحاس ، ودخل الحديد مرحلة الانتاج بالجملة ، بالاضافة الى صناعة الزجاج والطوب والملح المصنوع والقماش المصنوع من الصوف والقطن ، ولكن الظروف الايكولوجية ايضا لعبت دورها في التعجيل باختراع الآلة البخارية عام ١٨٣٠ ، حيث لم تتحمل الغابات الاستهلاك الكبير للخشب والفحم النباتي الضروري لعمليات البناء والوقود ، وفي القرن السابع عشر ظهرت المحاولات الجادة للحصول على الفحم بحفر المناجم العميقة تحت مستوى الماء مما استلزم استخدام المضارف لتصريف المياه ، وعندما اصبح الحفر في المناجم اكثر عمقا استخدمت الجياد في رفع مضخات المياه ، واستمرت المحاولات بعد ذلك حتى اختراع الآلة البخارية .

وما يريد المؤلف ان يقوله هو أن أكثر فترات أو عصور الاختراعات التكنولوجية أهمية كانت تلك التي تميزت بكثافة السكان الشديدة ، ونضوب البيئة ، وما ينتج عنه من فقر وانخفاض مستويات المعيشة التي تدفع الناس لأن يشحذوا الهمم ويخترعوا التكنولوجيات التي تساعدهم على زيادة الانتاج ، ولقد ذهب مالتوس T. Malthus الى أن الفقر والكارثة متلازمان وحتميان اذا لم يتوازن عدد السكان مع الموارد الغذائية ، وان النمو السكاني ان لم يتوقف عن طريق التعفف والزهد في الناحية الجنسية فان النتيجة هي انه سينخفض عن طريق الحروب والمجاعات وقتل الاطفال والنبات والأوبئة والاجهاض وسائر الاشكال الاخرى غير المرغوب فيها في تحديد النسل ، ويذهب المؤلف الى أن نظرية مالتوس تصدق على الماضي ولا تصدق على المستقبل حيث لم يستطع مالتوس ان يتنبأ بأن الانتاج الصناعي المصحوب بوسائل جديدة ومناسبة لتحديد النسل أدى الى زيادة وارتفاع في مستوى المعيشة ، ولقد ذهب علماء الاقتصاد الى أن ظاهرة « التحول الديموجرافي » او السكاني Demographic Transition الناجمة عن انخفاض معدلات المواليد والوفيات هي نتيجة طبيعية لادخال واستخدام تكنولوجيا اكثر كفاءة ، ولكن المؤلف يذهب الى أنه من وجهة النظر الانثروبولوجية فان كل تغير في شكل الانتاج الى الأحسن يكون مصحوبا بزيادة كبيرة في كثافة السكان ـ مثل مجتمع « يانومامو » الذي ازدادت كثافته بعد ان استخدم الفؤوس الحديدية بدلا من الفؤوس الحجرية ـ فكل مرحلة من التغير التكنولوجي السريع كانت أيضا مرحلة من النمو السكاني .

ويعطي المؤلف تفسيرا للتحول الديموجرافي ، ويذهب الى أنه كان نتيجة الوقائع الثقافية التالية :

١ ـ ثورة الوقود Fuel Revolution ، اى الاعتماد كلية على الفحم والبترول ومشتقاته في مجالات الزراعة والصناعة والتعدين والمواصلات .

٢ ـ ثورة منع الحمل ، اى اختراع وسائل أكثر أمنا وفاعلية للتحكم في ضبط وتحديد النسل .

٣ ـ ثورة العمل ، اى الاعتماد على العمل في المؤسسات والشركات والمصانع الضخمة واختفاء الاعمال والمنتجات المنزلية ، وما يستتبع ذلك من زيادة التخصص والتعليم ، وتربية الابناء الى سن دخول الجامعات والتخرج منها ، وبالتالي الحد من زيادة الانجاب ، ثم القوانين الخاصة بالعاملين مثل قوانين المعاشات والتأمينات الصحية التي جعلت الآباء أقل اعتمادا على أبنائهم بعكس الماضي .

وفي نهاية الفصل يقول المؤلف انه بالرغم من النجاح الذي حققه التقدم الصناعي أو التكنولوجيا الحديثة الا انه يكون عارضا ووقتيا ، وذلك يرجع الى أن الطاقة المستخرجة

من الارض ـ الفحم والبترول ـ من النوع الذي لا يمكن استخدامه مرة أخرى . كما ان الخبراء يتضاربون حول تقدير الاحتياطي الموجود من الفحم والبترول ، وعندما تصبح تلك الطاقة نادرة ، فان تكاليف الحصول عليها سوف ترتفع وبالتالي ترتفع أسعار المنتجات والخدمات . وهذا ما نجده في الولايات المتحدة التي تستهلك ٢٧٩٠ سعرا حراريا لانتاج كمية من القمح تعطي ٢٧٠ سعرا حراريا . ويذهب المؤلف الى أن الطبيعة التي تنبه القناعة لشكل الانتاج الصناعي تتضح اكثر عندما تتبنى باقي دول العالم تلك النسبة من الطاقة التي تستخدمها الولايات المتحدة في انتاجها الزراعي ، حيث تكون النتيجة هي ان الاحتياطي المعروف سوف ينتهي في أحد عشر عاما . وبعبارة أخرى فانه كلما أسرعت الدول النامية نحو التصنيع ، فان دول العالم الصناعي يجب وبسرعة ان تجد وتطور شكلا جديدا من الانتاج .

(١٦) ويختتم المؤلف هذا الكتاب بخاتمة يقول فيها ان التطور الثقافي قد تشكل بواسطة قوى لا شعورية ولا شخصية ، فمن دراسة الماضي من منظور الانثروبولوجي نجد ان الناس كانوا غير شاعرين بتأثير اشكال الانتاج والضغوط السكانية على اتجاهاتهم وقيمهم ونظمهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية . وان كان بعض العلماء يرفضون التفسير الحتمي اللاشعوري لتطور الثقافة معتقدين ان الطبيعة المحددة للماضي يمكن ان تنطبق على المستقبل ، فان ذلك يعتبر سوء فهم لطبيعة تطور الثقافة ، اذ أنه بواسطة « علم الثقافة » وعن طريق فهم وادراك الطبيعة المحددة للماضي نستطيع ان نجعل المستقبل اقل اعتمادا على القوى اللاشعورية .

ان هذا الكتاب في مجمله هو محاولة علمية جادة لدراسة أصول وتطور الثقافات ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمعتقدات الدينية ، وأشكال الانتاج ، وذلك بردها الى أبسط عدد من العوامل او المبادىء التي تحكمها وهي : زيادة وتكثيف الانتاج والمبالغة فيه ، وكثافة السكان ، ونضوب البيئة ، والبحث عن أشكال جديدة من الانتاج طبقا لمبدأ التكلفة والفوائد . وتلك العوامل يمكن تلخيصها بصورة أخرى في أثر العوامل الايكولوجية والديموجرافية ، وأشكال الانتاج المحكوم بمبدأ التكلفة والفوائد في التطور الثقافي .

ان المؤلف منطلقا من فكرته الأساسية حول البحث عن أسباب التدهور ـ في دراسته لنشأة الثقافات والدول ، وأشكال الانتاج الزراعي والصناعي كرد فعل لتفادي ذلك التدهور ـ اعتمد على النظريات التي تدعم وتؤكد هذه الفكرة والتي تذهب ـ بصفة خاصة ـ الى ان أكثر فترات الاختراعات العلمية والتكنولوجية اهمية وخطورة هي التي ظهرت في أوقات التدهور الخطير في مستويات المعيشة ـ والذي كان يهدد الحياة تماما ـ والناجم عن نضوب البيئة ، وانخفاض الانتاج ، وهذا يفسر ارتباط العلم والتكنولوجيا بالرأسمالية في أوروبا بعد انهيار النظام الاقطاعي وتدهور مستويات المعيشة . ولكن تلك الفكرة لا تنطبق على كل المجتمعات ولا على الثقافات ، ولا حتى على المجتمع الاوروبي الذي اتخذه المؤلف مثالا لتدعيم تلك الفكرة ، حيث ان العلم والنظريات والاختراعات العلمية ظهرت ايضا وانتعشت في فترات الرفاهية والانتعاش الاقتصادي . ففي العصور الوسطى ـ عاشت اوروبا في ظلام الجهل والفقر والمرض والتدهور الشديد ـ ولم ينتج عن ذلك اكتشاف او اختراع علمي أو تكنولوجي ـ بينما كان العرب والمسلمون يحرزون تقدما علميا وفكريا كبيرا . هذا بالاضافة الى ان العلم ـ وما يصاحبه من نظريات واختراعات علمية ـ يخضع لعامل هام وهو حب الاستطلاع ـ ولا يخضع كلية لمبدأ التكلفة والفوائد ، ونضوب البيئة ـ وذلك وراء معرفة المجهول سواء كانت النتيجة مفيدة عمليا واقتصاديا أم لا . كما ان كثيرا من الاختراعات العلمية الهامة كانت نتيجة الصدفة مثل اكتشاف الراديوم واشعة إكس . هذا بالاضافة الى ان العلم والتكنولوجيا هما حصيلة معارف وتجارب قديمة انتقلت عبر الاجيال وليس وليد أزمة اقتصادية عابرة ، ويتضح ذلك في أن الحضارة الغربية ترد أصولها الى حضارة اليونان القديمة .

ومع ذلك فان الكتاب في النهاية يمثل جهدا علميا دقيقا ، ومحاولة جادة من احد علماء الانثروبولوجيا لوضع أساس علمي دقيق لعلم جديد وهو « علم الثقافة » .

مالتس والسكان

تأليف : باتريشيا جيمس
عرض وتحليل : امل العذبي الصباح

مقدمــة :

يحظى توماس روبرت مالتس بأهمية كبرى فيما يتعلق بالدراسات السكانية . بحيث انه يمكن القول بأن الدراسة العلمية للسكان بدأت بمالتس لأنه كان أول من وجه الى دراستها بطريقة عملية احصائية . كما أن آراءه كما سنرى فيما بعد ، ما زلنا نجدها ممثلة في جهات كثيرة من العالم حتى يومنا هذا .

ولقد نشر الكثير عن حياة مالتس وبلغات متعددة ، الا أنه لم ينشر بمثل تلك الاستفاضة والتوسع حتى صدور كتاب « مالتس والسكان » لباتريشيا جيمس . حيث استغرقت الفترة التي جمعت بها محتويات الكتاب ما يقارب من الثمانية عشر عاما . أي منذ عام ١٩٦٢ حتى تاريخ صدور الكتاب في عام ١٩٧٩ .

ان عائلة مالتس كانت منتشرة في مقاطعة بيركشاير ، واشتهرت باهتماماتها بالتجارة والتجليد وحياكة الملابس وكرجال دين بالكنيسة . ولقد كان والد مالتس ويدعى دانيال يعمل كرجل دين بالكنيسة . وحتى مالتس كان يفكر حينما كان طالبا بتمضية حياته بالكنيسة ، والمعيشة بالريف . ولكن لم تتحقق رغبته تلك ، حيث اتجه الى دراسته للقانون والسياسة والسكان . واشتهرت نظرياته المتعلقة بالخطر الكامن نتيجة للزيادة السكانية . بالاضافة الى أنه برز كأحد المؤسسين لفكرة الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الى جانب اهتماماته الواسعة بتاريخ الفكر الاقتصادي .

لقد اتخذ مالتس في حياته اتجاهين أحدهما اقتصادي ، والآخر كأستاذ بجامعة ايست انديا ، حيث كان له الأثر الفعال في انشاء برنامج خدمة المجتمع فيها ، بالاضافة الى أنه وضع لها أسلوبا جديدا للامتحانات .

ولقد أظهرت المؤلفة مالتس الاقتصادي بخلفية تاريخية مع الاهتمام بالجوانب الشخصية له . وكذلك استعرضت جوانب العصر الذي عاشه مالتس . بالرغم من أنه كان يبحث عن المبادىء الأساسية في عالم متغير . بحيث أنها كانت غير واضحة ومتداخلة . الا أن أفكاره أثارت الطريق

للراغبين بالبحث في مجال السكان والاقتصاد والسياسة والقانون .

ويحتوي كتاب « مالتس والسكان » على اثني عشر فصلا ، تقع في ٥٠٠ صفحة . خصصت المؤلفة الفصل الاول لدراسة خلية مالتس وبينت في هذا الفصل كيف بدأ روبرت مالتس تعليمه في بلدة كليفرتون ، حيث تعد هذه الفترة هامة بحياته ، واستمر بمدرسته حتى بلغ من العمر ستة عشر عاما ، وبعد ذلك وبالتحديد في عام ١٧٨٢ ، أرسله والده الى أكاديمية ومستنح الشهيرة في لانكشير برفقة جيلبرت ويكفيلد ، الذي غادر الى كيمبرج ، ولكنه عند عودته لم يجد مالتس الذي عاد الى منزله بكوكهام في بيركشاير على نهر التيمز .

بدأ مالتس دراسته بكلية جيسس بكيمبرج في شهر نوفمبر من عام ١٧٨٤ ، وفيها تعرف على أربعة أصدقاء ، استمر على علاقته بهم طيلة حياته ، وهم وليم أتر ، الذي نشر في عام ١٨٣٦ كتابا بعنوان « Memoir » ثم ادورد دانيال كلارك ، ثم جون ويشو وأخيرا وليم سميث .

وقد اهتم بدراسة التاريخ والأدب ثم أصبح يميل الى الشعر ، وحاز على جوائز تقديرية في اللغتين اللاتينية والانجليزية ، وفي عام ١٧٨٦ حاز على منحة دراسية من جامعة كيمبرج .

أصبح مالتس قسيسا في عام ١٧٨٨ ، واستمر يعمل كقسيس لمدة عشر سنوات متتالية ، كان مالتس خلالها يحيطه الغموض ، بحيث أنه توارى عن الناس ، وتعد تلك الفترة بمثابة مأساة بالنسبة له ولعائلته ولأصدقائه .

نشأة علم السكان :

وقد عرضت المؤلفة في الفصل الثاني لموضوع نشأة علم السكان ، وتجدر الاشارة هنا الى أن فترة العشر سنوات الغامضة في حياة مالتس والممتدة من عام ١٧٨٨ الى ١٧٩٨ ، تخللها حدثان هامان في حياته ، الاول هو تعيينه معيدا بجامعة كيمبرج عام ١٧٩٣ ، اذ أصبح بعد ذلك يتمتع بدخل بسيط ولكنه ثابت ، والثاني هو تعيينه راعيا للأبرشية في أوك ود .

كانت انجلترا خلال الفترة الزمنية التي عاشها مالتس بعيدة عن النظام الأقطاعي ، الا أن أفكاره كانت متأثرة بطرق ملكية الأراضي ، التي كانت تشكل أهمية كبيرة في حياته ، بحيث أنها فاقت اهتمامه بالتصنيع او التعليم .

وشهد عام ١٧٩٣ ، اعلان الحرب بين فرنسا وانجلترا ، ولقد أطلق على ذلك العصر في انجلترا بعصر الرعب ، اذ اشتد العداء بين الدولتين ، وقد انصب اهتمام مالتوس في ذلك الحين على كتيبات ألفها أحد أساتذته في الجامعة وهو وليم فرند ، ولقد لاقت تلك الكتيبات معارضة شديدة من الجامعة والبلاط ، بعد أسبوع فقط من نشرها ، بحيث أن فرند فصل من الجامعة نتيجة لنشرها .

ولقد ألف مالتس نفسه في عام ١٧٩٦ كتيبا بعنوان « الكارثة » نظرة على الحالة الحاضرة للمملكة المتحدة » ، ولكنه لم ينشره تلبية لرغبة والده ، وكل ما تبقى منه أجزاء صغيرة جدا من بيته .

ويقال ان هدف مالتوس الاول كصديق للحرية كان الاحتجاج على نظام مستر بيت رئيس وزراء انجلترا في ذلك الوقت ، أما هدفه الثاني كصديق للنظام بالاضافة الى ميله للحلول الوسط فهو أن يحد بين الأطراف المتباعدة . ولابد من أن نذكر أن القارئ الحديث سيواجه ثلاث صعوبات في دراسته لحياة وأعمال مالتوس أولها أن الأعمال البريطانية القديمة كان يسودها جو من الجدال ، والثانية هي أن مالتوس لم يعش في عصر التخصص ، ولذلك يجب أن لا ننظر له كاقتصادي حديث بحيث نبعد عن أذهاننا تماما أي اقتصادي نظري ما عدا آدم سميث في تلك الفترة . أما الصعوبة الثالثة والأخيرة فهي عدم وجود احصائيات كالمستخدمة في وقتنا الحاضر ، مثل تعدادات السكان ، وانما هناك أشياء تقديرية فقط ، الا أن التعداد الاول للسكان في بريطانيا أجرى في عام ١٨٠١ ، اما الفترة السابقة للتاريخ

المذكور فقد كان يعم بريطانيا شعور متدفع نحو الزيادة في عدد السكان وذلك لأسباب عسكرية .

ولو عدنا لراعي الابرشية في أوك وود في عام ١٧٩٨ ، وكتابه « الريع العظيم » الذي نشر في عام ١٨٠٣ ، حيث يذكر مالتس فيه أن مصادره التي اشتق منها علم السكان هي من أعمال ديفيد هيوم ، وروبرت والاس ، وآدم سميث ، وريتشرد برايس ، وأخيرا كوندرسيه ، الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي ، والذي تعد كتاباته أهم مرجع لأعمال مالتس عن السكان مع أن كوندرسيه لم يهتم بمشكلة السكان ، وانما كان يدعو لسعادة ورفاهية الجنس البشري .

يفسر مالتس بدايته في المقالة الاولى عن السكان في عام ١٧٩٨ ، نتيجة لمناقشة دارت بينه وبين صديق له حول مقالة جودوين ، التي نشرت بعنوان « الجشع والاسراف » والتي أسفرت عن السؤال التالي ما هو مستقبل تقدم المجتمع ؟ .

ولقد كانت نظرية مالتس التي نشرت ضمن مقالته تتلخص بمنتهى البساطة فيما يلي : « أن سرعة تزايد السكان تفوق سرعة الارض في الانتاج ، اذا لم يحل نمو السكان أي عائق حيث أنهم يتزايدون حسب متوالية هندسية ، في الوقت ذاته يتزايد فيه الموارد حسب متوالية حسابية فقط » .

وأضاف مالتس أن الزيادة في عدد السكان لا تؤدي الى المجاعة فقط ولكن تؤدي أيضا الى ازدحام السكان وبالتالي انتشار الأوبئة بانجلترا .

ان هناك فكرة استحوذت على راعي أبرشية أوك وود « مالتس » في عام ١٧٩٠ ، وتتلخص فيما يلي : ان كثرة الأطفال تعني قلة بالطعام ، وكانت نظرته أيضا لهذه المشكلة بطريقة مبسطة هي السخرة الطبيعية وليس التوزيع الاقتصادي ، حيث يعتقد أنه لا يوجد طعام كاف لكي يدور دورته لجميع سكان العالم ، ويذكر أنه في الوقت الحاضر لا يتوفر ما يكفي لكي يكون لكل شخص نصيبه الكافي من الطعام ، بالاضافة الى أنه يعتقد أن الزيادة في دخل الحكومة أو الدولة ، لا يعد مهما بالدرجة التي توازي أهمية الزيادة في الطعام الذي يمثل الدخل الرئيسي لغالبية الشعب .

ان نظرية مالتس هذه لاقت معارضة من رجال الدين ، لانها لم تضع في الحسبان العامل الديني اثناء علاجه مشكلة الزيادة السكانية .

دافع مالتس عن مبدئه وبنى دفاعه على الجملة التالية : « ان الشر وجد في العالم ، ليس لخلق حالة من حالات اليأس ، ولكن لخلق النشاط ، والنشاط يعد عاملا أساسيا في تكوين المخ ، وبدون دافع الحاجة ، فان غالبية الشعب سيهلكون ، لأنه لن تكون لديهم رغبة للعمل . »

سافر مالتس للخارج للمرة الاولى حين كان يعمل بالجامعة ، وكانت وجهته نحو السويد والنرويج وجزء من روسيا ، وكان الهدف الأساسي من رحلته هذه هو جمع المعلومات ، خاصة وأنه في الوقت ذاته ، كان قد نشر كتابه « مبدأ السكان » .

يدين الناس لهذه الرحلة بكل ما جاء من معلومات احصائية ملأت كتابه المسمى « بالريع العظيم » بحيث أن هذه المعلومات أصبحت وثائق أيدت مبادئه السابقة حول السكان ، بالاضافة الى أن مالتس توصل الى نتيجة تتلخص في أن البحث العلمي يختلف عن البحث النظري .

الفصل الثالث : كتابه الريع العظيم ١٨٠٣ :

عاش مالتس في لندن منذ عام ١٨٠٠ ، وفي عام ١٨٠٣ بدأ في كتابة مقالته الثانية عن السكان ، ولقد كان الفرق بين المقالين الأول والثاني كبيرا جدا ، بحيث أنه لا يصدق أن الفاصل الزمني بينهما هو خمس سنوات فقط ، الا أن هناك صفة مشتركة بين المقالين من حيث المبدأ حيث كان ثابتا فيهما ، وهذا المبدأ يتلخص في أن السكان يميلون الى الزيادة في أعدادهم بدون رقابة وبسرعة كبيرة تفوق الموارد ، بالاضافة الى أن بعض الفقرات نقلت بالنص من النسخة الاولى الى الثانية ، ومع ذلك فان القارىء لن يصدق بأن كاتب المقالين هو شخص واحد .

ان الجزء الثالث من الفصل الثالث من كتاب مالتس والسكان يتعلق بقراءاته وكتاباته ، وقد جاء فيه أن كتاب « الريع العظيم » ، هو الطبعة الثانية من كتابه مقالة عن

الناس ، التي تحتوي على ٦١٠ صفحات ، بحيث أنه انتهى من تأليف هذا الكتاب بتاريخ ٨ من شهر يونية من عام ١٨٠٣ .

ان النسخة المنقحة لمقالته تنقسم الى اربعة أجزاء ، ولقد انتهى من تأليف الجزئين الأول والثاني في ربيع عام ١٨٠٣ . أما الجزئين الثالث والرابع فقد ركز فيهما وبإلحاح على ما يجب اتخاذه من أجل التخلص من الأشرار والمساوىء الناجمة عن الزيادة في عدد السكان .

هناك ثلاثة كتاب ظهروا قبل مالتس هم سير جيمس ستيورت ، وبنجم فرانكلين ، وجوزف تاونسند ، هؤلاء جميعا غير معروفين في وقتنا الحالي . الا كان لهم الأثر الكبير في محاولة مالتس للوصول الى حل لمشكلة تزايد السكان . الا أنه حتى تاريخ صدور مقالته الاولى في عام ١٧٩٨ ، لم يكن مالتس قد قرأ لأي منهم ، ولكنه عندما بدأ يقرأ لهم تغيرت نظرته تغيرا شاملا ، بحيث أن وجود المدينة الفاضلة لم تصبح هي نقطة البداية بالنسبة له . وبصدور كتاب مالتس « الربيع المعظم » في عام ١٨٠٣ ، بدأ مالتس مجادلاته العالمية المتعلقة بالسكان والتي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا .

تناول كتاب مالتس « الربع المعظم » لب موضوع الزيادة السكانية ، بحث أصبح لكتابه علامة مميزة ، حيث أكد فيه أن المشكلة السكانية يجب التحكم فيها من قبل كل فرد في المجتمع . بالاضافة الى أن كتابه هذا أدى الى نقطة تحول في الكتابات السكانية ، عندما أشار الى أن النمو السكاني يجب أن يحد منه بالتعقل ، وليس بالمجاعات والأمراض . بالاضافة الى أن مالتس لم يعتقد بأنه سيحل الوقت الذي يختفي فيه الفقراء تماما ، ولكنه أصر على أن حالة الفقراء من الممكن التخفيف منها بواسطة التعليم واحترام الذات ، وحث مالتس الفقراء على تأجيل زواجهم الى أن يستطيعوا اعالة أسرهم ، وبالطبع كلما تزوجوا في سن أكبر قل عدد أطفالهم . وبذلك يتضح أن مالتس قد طرأ تغير كبير على كتاباته حيث أن مقالته الثانية التي نشرت في عام ١٨٠٣ ، اعتمد في مصادره عند كتابتها على الأبحاث والاحصائيات في علاج المشكلة السكانية ، وحلت بذلك محل روايات الرحالة التي اعتمد عليها في مقالته الاولى .

ان الفترة الزمنية الفاصلة بين الطبعتين الرابعة والخامسة مقدارها عشر سنوات ، حيث نشرت الطبعة الرابعة في عام ١٨٠٦ ، أما الخامسة فقد نشرت في عام ١٨١٧ ، أما الطبعة السادسة والأخيرة فقد نشرت في عام ١٨٢٦ ، ولقد كانت تلك الطبعة تتسم بالمعلومات الصحيحة بحيث أنها ترجمت الى الفرنسية والالمانية أثناء حياته ، بالاضافة الى أنه أعيد طبعها وترجمتها ، ونشرت ملخصات لتوضيح ما جاء فيها بحيث ملأت جميع المكتبات .

الفصل الرابع : نشأة المجادلات السكانية :

أضاف مالتس لطبعته الثالثة التي صدرت في عام ١٨٠٦ مقدمة تحتوي على (٣٥) صفحة بحيث أنها تباع ككتيب منفصل ، وتعد هذه المقدمة كرد على قارئي طبعته الاولى والثانية والناقدين ذكروا بأن أراء مالتس ومبادئه تتعارض مع الأوامر الالهية فيما يتعلق بالزيادة والتكاثر السكاني على وجه الأرض . فرد عليهم مالتس بمقدمته التي جاء فيها : « ان الصحوة الدينية والنفسية الأساسية تكمن بعمق أكثر من فكرة اطاعة الأوامر الالهية » .

وبعد صدور مقدمته تلك اتضح أن مالتس يرجع الفضل له ، لأنه أول من فتح أمام الانسان مجالاً جديداً تماما يمكن أن يستغل ذكاءه فيه ، مع مساعدة القدرة الالهية .

بالاضافة الى أن هناك معارضين لأراء مالتس الخاصة بالدين والجنس ولقد ظهرت أفكار مناقضة لأفكار مالتس من كل من سوني ويسانده كلورج وهازلت . فسوني هاجم أراء مالتس عندما ذكر الأخير أن الشهوة والجوع هما شعوران متشابهان للحاجة العضوية ، اما هازلت فقد عارض مالتس حينما ذكر بأن كل كتاب مالتس يرتكز على افتراض خاطىء وهو أن البشرية كلها مثل الحيوانات في فصول السنة .

ولقد عارض كل من ريكاردو وانجرام رأي مالتس حول الزواج المتأخر ، حيث فسرا رأيه هذا على أنه يفضل

المطيّة عن الأطفال ، وبفضل المجاعة والجدري للحد من أعداد السكان .

رد مالتس على معارضيه الذين أظهروه كعدو للبشرية في مقدمته حين ذكر أن أفكاره وأراءه فسرت بالخطأ وأضاف « أنا عدو للرذيلة والبؤس وبالتالي بالنسبة غير المتوازنة بين السكان والطعام ، وهذه الظاهرة ربما تظهر في بلاد قليلة السكان » .

ان الموضوع الثالث الذي أهتم به مالتس في كتاباته هو موضوع الفقر ، حيث هاجم قانون الفقراء الانجليزي الذي صدر في العام الثالث والاربعين من حكم الملكة اليزابيث الاولى ، حيث جعل هذا القانون كل مقاطعة مسؤولة عن فقرائها .

لقد اهتم مالتس بالعوامل التي تؤثر على سعادة وراحة الفقراء في المجتمع ، واعتقد أن قانون الفقراء سيء لأنه قلل من قدرة انقاذ الفقراء ، ومن ثم أضعف دوافع قيام الصناعة التي تؤدي للراحة والاستقرار ، ولقد كان لب الموضوع بالنسبة لمالتس هو الاستحالة الطبيعية لتوفير الراحة لكل الفقراء على حساب مبدأ السكان الذي ينادي بتخفيض عدد السكان ، ولقد أضاف فصلا خاصا بالفقراء في كتابه الذي صدر في عام ١٨٠٦ ، نادى به بالقضاء التدريجي على قانون الفقراء . خاصة وأن أعداد الفقراء بانجلترا يتضاعف بطريقة مزعجة جدا ، لذلك كان لكتاب مالتس الأثر الكبير على ناحية السياسية بانجلترا .

اهتم مالتس بالتعليم بحث استطاع أن يلقي نظرة مستقبلية حول صعوبة توفير التعليم بجميع مراحله بدولة نامية ، الا أنه وافق موافقة تامة على خطة ويتبرد للتعليم العام ذاكرا له برسالته ما يلي : « اذا أمكنك تنفيذ هذا الجزء من اقتراحك ، ففي رأيي سوف تستطيع أن تقدم لبلدك اكبر وأهم خدمة ممكنة » .

اهتم مالتس أيضا بايرلندا حيث قامت الانتفاضة الايرلندية في عام ١٧٩٨ ، ومما جعل الأمور تسوء فيها هو أن الضريبة التي تدفع للكنيسة كانت تصرف للدعم الديني ، أي من أجل أقلية بسيطة من الناس لا تتعدى نصف مليون نسمة من المسيحيين البروتستنتيين ، استمر هذا الوضع من أواخر القرن الثامن عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

ان الخطوة الاولى التي يجب اتخاذها من أجل تحسين التردي الأخلاقي والسياسي في ايرلندا من وجهة نظر مالتس هي أن تتوفر الحرية الكاملة للكاثوليك ، ونبدأ بالقضاء على القانون الكاثوليكي ، بالاضافة الى تحسين الحكومة . وهذا يتطلب من المشروع بكل ما أوتي من مبادىء العدل والسياسة ، ليزيل ثقل الاسعار وضغطها على كاهل السكان ، ورفع الضرائب التي تدفع للكنيسة من على كاهل الفقراء .

ويعطي المؤلف للفصل الخامس عنوان « البروفسور المتزوج (١٨٠٤ ـ ١٨١٠) » فالمعروف أن مالتوس ظل أعزبا حتى تأليف كتابه بمجادلات عن السكان في عام ١٨٠٣ ، فقد تزوج في شهر ابريل من عام ١٨٠٤ ووقتها كان يبلغ من العمر ٢٤ عاما . ثم رزق مالتس بطفلة الاول هنري في ديسمبر من العام نفسه .

بعد زواجه بفترة قصيرة تأسست كلية ايست انديا في عام ١٨٠٤ ، التي طلبت من مالتوس في ابريل من عام ١٨٠٥ ، العمل بها كأستاذ للتاريخ والسياسة والتجارة والمالية . وحتى التحاقه بجامعة ايست أنديا لم يكن لمالتس أية خبرة في مجال التدريس .

وقد انضم مالتس بعد وصوله للكلية الى لجنة الجامعة التي تضم مدير الجامعة وأربعة من الأساتذة ، قامت هذه اللجنة بارساء قواعد معينة للدراسة ، ولنظام الجامعة عامة .

كتب مالتس أثناء عمله في كلية أيست أنديا وبالتحديد في عام ١٨٠٦ الطبعة الثالثة لمقاله عن السكان ، وفي الوقت ذاته رزق بابنته اميلي في (٥ يوليه ١٨٠٦ ـ ١٨٨٥) ، ثم صدرت طبعته الرابعة عن السكان في عام ١٨٠٧ ، ثم رزق بابنته لوسي (في شهر ديسمبر ١٨١٧ ـ ١٨٢٥) .

وقد بدأ مالتس بنشر مقالاته المتعلقة بالاوضاع في ايرلندا في عامي ١٨٠٨ و ١٨٠٩ ، ثم توارى عن الكتابة لمدة عامين ، وعند عودته للكتابة في عام ١٨١١ ، نشر في

مجلة أدنبرة مقالة عن « مشاكل العملة » ، حيث أنه في هذه الفترة تحول اهتمامه نحو النظريات الاقتصادية . وكانت ثورة الطلبة التي اندلعت بعنف في أكتوبر من عام ١٨٠٩ ، نقطة تحول في حياته .

ويعالج الفصل السادس مشكلة الاوراق النقدية ، فمع أن البنوك الانجليزية كانت تطبع الأوراق النقدية منذ وقت طويل ، وقد أشار مالتس لأول مرة للاوراق النقدية في كتابه عن السكان في عام ١٨٠٣ ، الا أن التقرير النقدي لانجلترا لم يوضع بصفة رسمية أمام مجلس العموم الا في عام ١٨١٠ ، ولم يوقع على هذا التقرير من قبل الحكومة الا في عام ١٨١١ ، وبعد عشر سنوات من التاريخ المذكور أصبح هذا التقرير بمثابة الوثيقة الأساسية لسياسة النقد البريطاني لمدة قرن تقريبا .

ونشر مالتس ست مقالات تتعلق بانخفاض القوة الشرائية للاوراق النقدية ، ولقد بدأ مقاله الأول بمناقشة المبادىء العامة للعرض والطلب التي هي أساس الاقتصاد السياسي . وكان هناك اختلاف أساسي في اتجاهات كل من مالتس وريكاردو نحو الاقتصاد السياسي ، حيث اهتم ريكاردو بالانتاج والعرض ، في حين أن مالتس اهتم بالاستهلاك والطلب .

واستمر مالتس في نشر أفكاره ليثبت دوره ككاتب متطور ، خاصة في طبعته لعام ١٨١٧ المتعلقة بالسكان ، وفي كتابه مبادىء الاقتصاد السياسي الذي صدر في عام ١٨٢٠ ، الذي جاء فيه فصل شهير لآدم سميث ويتعلق بموضوع تراكم رأس المال . بالاضافة الى ورود فصل آخر يتعلق بموضوع النقص في القوة الشرائية للأوراق النقدية ، وكان هدف مالتس الأساسي الوحيد الذي نادى بتحقيقه من خلال نشره لمقالاته المتعلقة بالاقتصاد السياسي هو المحافظة على قيمة الاوراق النقدية بما يقابلها من معادن ثمينة ، بحيث أصبحت هذه الخطوة بالفعل هي أساس السياسة النقدية البريطانية لحوالي مائة عام .

الفصل السابع : بطل هيليري (١٨١١ ـ ١٨١٧) :

شهد عام ١٨١١ الثورة الطلابية الثالثة لجامعة ايست انديا في هيليري ، بحيث أن جريدة التايمز كتبت عن هذا الموضوع بتاريخ ١٨ نوفمبر من العام ذاته ، وكان شغب الطلبة يعطي فرصة لأعداء الجامعة الذين ينتقدون سياستها المالية . وقد ألف مالتس كتيبين صدرا في عامي ١٨١٣ و ١٨١٧ دفاعا عن الكلية ، وكان للكتيب الذي أصدره عام ١٨١٣ الفضل في اعتراف البرلمان البريطاني بكلية هيليري . وقد امتد نشاط مالتوس الى خارج حدود الجامعة وتمثل ذلك في مساهمته بجمعية الانجيل ، ولجنة لانكستر لتعليم أطفال الفقراء ، وفي بنوك الادخار للعاملين . وكانت تلك المجالات الثلاثة تقوم بتزويد الطبقة العاملة بالتسهيلات لاستثمار أموالهم التي يودعونها بفائدة .

وفي الفصل الثامن بعنوان : « المحنة الأدبية » يذكر لنا المؤلف مجالات التأليف المختلفة التي كتب فيها مالتوس مثل المذكرات التي ألفها عن آدم سميث وكتابه القصير عن « ملاحظات حول آثار قانون القمح الاول » ، (١٨١٤) وكتابه عن « قانون القمح الثاني » ، أي أن مالتس اتجه نحو الكتابة في المواضيع التي تتعلق بالاقتصاد السياسي .

وفي فبراير من عام ١٨١٥ ، نشر جون ميوري في مجلة أدنبرة كتيبين جديدين لمالتوس ، أحدهما يتعلق بالايجارات وطبيعتها ، والآخر يتعلق بسياسة استيراد القمح الأجنبي ، بحيث أنه اعتبر كمقدمة لملاحظته الشهيرة على قانون القمح ، وكان رأي مالتس يتلخص في أن استيراد الحبوب يجب أن يحد منه وعلى الأسس التي تقدمها الحكومة ، وقد أعتبرت ملاحظته هذه بمثابة عدم ولاء للدولة .

وفي الفصل التاسع : « مبادىء الاقتصاد السياسي » يعرض المؤلف للمجادلات التي ثارت بين مالتوس وريكاردو حول الأرض والعمالة ورأس المال ، وقد تبدو هذه الافكار غير واقعية بالنسبة للقارىء الحديث ، ولكن كانت لها بالفعل نتائج صلبة وجذرية .

وتعتبر أفكار ريكاردو حول أسس الاقتصاد السياسي ، أكثر أهمية من أفكار مالتس ، ولذا فان الطبعات الثلاث التي ظهرت لكتابه « مبادىء الاقتصاد السياسي » حجبت اهتمام القراء بكتب مالتس ، باستثناء كتابه عن السكان الذي ارتبط به اسمه . الا أن ريكاردو ومالتس اشتركا بصفة واحدة وهي اهتمامهما بالأرض كمصدر لرأس المال القومي في بريطانيا ، وهذا أمر طبيعي ويشترك معهما في ذلك كل الاقتصاديين الكلاسيكيين في بريطانيا .

ويذكر مالتس في كتابه مبادىء الاقتصاد السياسي أن « الأرض وما تنتجه من خامات تتميز بثلاث خصائص بارزة لدارس الاقتصاد السياسي هي : أولا : نوعية الأرض التي من الممكن ان تجعلها أكثر انتاجية لضروريات الحياة ، وليس من أجل تشغيل العاملين فقط . ثانيا : النوعية الخاصة بضروريات الحياة ، بحيث أن تكون قادرة على خلق طلب عليها ، وأن يكون هذا الطلب يتناسب مع كميات الضروريات المنتجة . ثالثا : الندرة النسبية للأرض الخصبة ، وعلاقتها بنظرية الايجارات .

كذلك اهتم كل من مالتس وريكاردو بقانون الغلة المتناقصة ، وشاركهم في ذلك كل من تورنز وادورد ويست ، الا أن مالتس يعد الوحيد بين المفكرين سابقي الذكر الذي اهتم بالايجارات ، بالاضافة الى أنه استخدم نظرية التفاضل بالنسبة للايجارات لمساندة قوانين القمح . في حين أن ريكاردو اعتبر الايجار فائضا وليس جزءا من تكلفة الانتاج الحقيقية ، ومن ثم تكلفة الانتاج تنقسم الى الانتاج والربح .

وقد نشر لمالتس مقالة في يناير من عام ١٨٢٤ تتعلق بموضوع الايجارات ، ذكر فيها أنه من أهم ما قاله ريكاردو هو أن الربح يمكن تعريفه على أنه النسبة التي تعود على العمال من القيمة التي لا تحدد بطلب صاحب العمل على العمالة ، ولكن بارتفاع وانخفاض الطلب على منتجات هذا العامل .

وأضاف مالتس ثلاثة أجزاء جديدة لكتابه « طبيعة وتطور الايجارات » الذي نشر في عام ١٨٢٠ ، عبر فيها عن معارضته لريكاردو . ففي الجزئين الاول والثاني تناول الارتباط الملح والضروري لفوائد مالك الأرض والحكومة ، الا أن نظرية مالتس الرئيسية التي تناولتها أجزاؤه الثلاثة كانت تدور حول أسباب الزيادة الكبيرة في الايجارات خلال القرن الماضي ، والتي من أهمها الانتاجية المتزايدة ، وأخذ ايرلندا مثلا لذلك .

ان ما يشغل مالتس هو ما أطلق عليه بمصدر القيمة التبادلية ، بحيث كتب بحثين يتعلقان بهذا الموضوع ، وألقاهما أمام الجمعية الملكية للأدب . الاول بعنوان : « قياس الاحوال الضرورية للامداد بالسلع » . والثاني بعنوان « المعنى العام والصحيح المتعلق بقيمة السلعة » . ويعد هذان البحثان آخر ما كتب مالتس في حياته ، وذلك بتاريخ ٧ نوفمبر من عام ١٨٢٧ .

عبر مالتس في هذين البحثين عن اعتقاده بأن قيمة السلعة لا تعتمد فقط على كمية العمالة اليدوية المطلوبة لانتاج السلعة ، ولكن على كمية ومعدل الربح الضروري للاستمرار في تطبيق العمل على انتاج هذه السلعة . ان اهتمام مالتس بموضوع الطلب هو ما يميزه عن باقي الاقتصاديين الكلاسيكيين .

نشر لمالتس كتاب في شهر ابريل من عام ١٨٢٣ بعنوان « مقياس القيمة قول وتفسير » وقد جاءت فيه أفكار لمالتس كان قد طرحها في كتابه مبادىء الاقتصاد السياسي عندما حاول الربط بين القمح والعمالة ، ولكنه في كتابه هذا عاد بفكرة جديدة عندما اعتبر العمالة المقياس الوحيد الثابت للقيمة ، بالاضافة الى أنها المقياس الوحيد ضد التذبذب في السعر .

الفصل العاشر : حرارة اليوم (١٨١٧ ـ ١٨٢٥) :

نشرت جريدة التايمز في ٩ مايو من عام ١٨١٧ ، أن الهدوء الذي ساد كلية ايست انديا قد بدأ يتعكر مرة

أخرى . وفي عام ١٨٢٣ أرسل مالتس وستة من زملائه من أعضاء هيئة التدريس خطابا لمدير الجامعة ، يبدون فيه معارضتهم للنظام الذي قد قرره مجلس الجامعة ، الا أنه في عام ١٨٢٤ عبر مالتس عن عدم اطمئنانه نحو مستقبله ومستقبل المعارضين معه من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة ، بحيث أن موضوع أزمة الكلية عرض على البرلمان ببريطانيا .

وكان مالتس في ذلك الوقت قد بلغ السابعة والخمسين من العمر ، أي أنه اقترب من سن التقاعد .

في عام ١٨١٩ يظهر اسم مالتس مرة أخرى كراعي لأبرشية أوك وود ، الى أن يعثر على وظيفة أخرى . بعد أن اشتهر ، بحيث أن كلمة مالتسية انتشرت انتشارا كبيرا في الفترة من عام ١٨٠٣ أي عندما كان يحضر للماجستير الى عام ١٨٣٥ .

لاقى مالتس تقديرا كبيرا ليس في بلده فقط ، بل في الخارج أيضا ، حيث حاز على شهادات تقديرية من عدة ملوك في أوروبا ، بالاضافة الى أنه انتخب عضوا في جمعيات أدبية مرموقة ، خاصة المعهد الفرنسي والأكاديمية الملكية في برلين .

الفصل الحادي عشر : استمرار المجادلات السكانية :

صدرت الطبعة الخامسة « من مقاله عن السكان » لمالتس في عام ١٨١٧ . وقد ألفها مالتس رغبة منه في وضع بعض التغييرات على الفصل المتعلق بالضرائب على المواد المصدرة ، وكذلك اضافة الى بعض المواد الخاصة بالقيود على الاستيراد . وتشير مراسلات مالتس الى اهتمامه الكبير بسعر الحبوب عندما كان يؤلف الطبعة الخامسة . بحيث أن اهتمامه هذا قد بدأ يجد له تبريرات في عام ١٨١٧ .

في مقدمة طبعته الخامسة أبرز مالتس اثنين من المدافعين عن مبدئه الذي يتعلق بقانون الفقراء ، في فترة شعر مالتس فيها أن المالتسية أصبحت أمرا صعب التحكم فيه .

بدأت الدعوة لتحديد النسل بواسطة شخص يدعى فرانسيس بليس الذي ولد في عام ١٧٧١ ، وكان لبليس صديقان هما جيمس ميل وبنيت هام ، حيث كان يتعلم من الاول اللاتيني ، أما الثاني فكان يعتبره بليس كأستاذ وكأب له . وعاش الثلاثة مجتمعين في عام ١٨١٧ ، وكانوا يناقشون الطبعة الخامسة من كتاب مالتس للسكان أثناء نزهتهم اليومية .

كان بليس يحبذ العائلات الصغيرة ، وكتب لأول مرة عن موانع الحمل في كتابه « نظرية السكان » ، ولم يكن هناك علاقة بين بليس ومالتس ، الا أن مالتس أعار كتابه عن السكان لبليس بواسطة ريكاردو .

نشر كتاب بليس في عام ١٨٢٢ ، وكان هدف بليس من تأليف كتابه « نظرية السكان » هو الفصل بين نظرية السكان وبين معاملة الأغنياء للفقراء ، ولذلك هاجم مالتس عندما اقترح الزواج المتأخر كعلاج للحد من النمو السكاني السريع ، واقترح باتخاذ الوسائل المناسبة لمنع انجاب عدد كبير من الأطفال . ويمكن اعتبار هذا الاقتراح كبداية للدعاية لتخطيط الأسرة .

وألف بليس بعد هذا الكتاب ثلاثة كتيبات أخرى ، ولكن باسم مستعار وقد نشرت بعنوان « للأزواج من كلا الجنسين » ، « للأزواج من كلا الجنسين في الحياة الارستقراطية » ، أما الثالث والأخير فهو بعنوان « للازواج من كلا الجنسين من الطبقة العاملة » ، ولقد كان للتوصيات التي وردت بتلك الكتيبات الأثر الفعال بين الطبقة العاملة في لندن .

ومن ناحية أخرى نجد روبرت ويلميت هورتون الذي عاش في الفترة من ١٧٨٤ الى ١٨٤١ ، يهتم بفكرة الهجرة كعلاج للفقر ، ولقد اقترح أفكاره المتعلقة بالهجرة في البداية بمجلس العموم في عام ١٨١٩ ، واستمر في الحديث والكتابة

عن الموضوع بالاضافة الى أنه كان يراسل مالتس حتى سافر الى سيلان وعين كحاكم فيها في عام ١٨٣١ . ولقد كان لمالتس فصل عن موضوع الهجرة في كتابه الثالث لمقالة عن السكان في عام ١٨٠٣ ، أي قبل أن يغادر بريطانيا الى الهند كأستاذ بجامعة ايست أنديا ، وفي وقت كانت الامبراطورية البريطانية تتكون من انجلترا وويلز واسكتلندا وايرلندا وجزر الهند الغربية وموريشس وكندا كلها ورأس الرجاء الصالح ونيوسوث ويلز التي كان يطلق عليها هولندا الجديدة ، كانت جميعها تعد ممتلكات استعمارية .

كان البعض ينظر الى الهجرة كعقاب أبشع من عقوبة الاعدام . ومع ذلك في عام ١٨١٧ ، أضاف مالتس فقرة طويلة لكتابه مقالة عن السكان ، ينادي فيها بالهجرة كحل مؤقت وتحت ظروف معينة ، خاصة عندما انتهت الحرب البريطانية ضد نابليون وأصبح الطلب على العمالة أقل . فأصبح الحل الحقيقي الوحيد لمثل هذه الحالة هو الهجرة . وهذا الموضوع هو ما يشغل الحكومة في الفترة الحالية ، ليس فقط كمسألة انسانية ولكن كسياسة خارجية أيضا .

بعث هورتون لمالتس وريكاردو نسختين من كتابه الذي نشر في يناير من عام ١٨٢٣ ، بعنوان « ملاحظات حول خطة الهجرة لشمال كندا » ، ورد مالتس على كتاب هورتون بقوله : « انني أعتقد أنه ليس من العدل أن تمنع الحكومات الناس من الهجرة ، وأشك فيما اذا كانت الحكومة ستسمح لهم بالهجرة ، وكان لديه اعتراض رئيسي يتمثل في أن الاشخاص الذين يعيشون تحت رحمة الاعانة ، والذين سيرسلون للخارج لن يكونوا مجتمعا عاملا مستقرا بالخارج ، ولذلك من الطبيعي ألا ترسل الكنائس أحسن ما عندها من الرجال ، وأنهى كلامه بالتذكير أن الهجرة المستمرة ستخلق مكانا لاعداد أكبر من الزيجات .

لقد لخصت ملاحظات مالتس حول مزايا الهجرة المنظمة للمستعمرات التي قدمها للجنة بما يلي : ان كان الطلب الحقيقي غير متوفر على العمال الموجودين ، بالاضافة الى أنه لا يوجد سبيل لمعيشتهم ، فهؤلاء العمال ليس هناك أي منفعة منهم بالنسبة للثروة القومية . واذا كانت تكاليف نقلهم الى بلد آخر أي هجرتهم أقل من ابقائهم في البلد ، فمن الطبيعي أن تكون الهجرة هي الأفضل .

وأخيرا وفي الفصل الثاني عشر : « الشمس الآفلة » (١٨٢٥ ـ ١٨٣٤) : يكشف لنا المؤلف عن أن مالتس ماتت بسبب مرض السل في عام ١٨٢٥ ، وكانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاما . وفي عام ١٨٢٧ نشر مالتس عمله الجديد وكان بعنوان « تعريفات الاقتصاد السياسي » ، وقد تعرض كتابه هذا للنقد اللاذع لاحتوائه على أفكار متناقضة . بالاضافة الى أن هناك ما أساء لمالتس من خلال هذا الكتاب وهو مهاجمته المرة والطويلة لكتاب بيلي « أبحاث في القيمة » . لأنه من خلال نقده لبيلي أعطى شعورا للقارىء بأنه يحاول أن يدافع عن هيكل اقتصادي سياسي متكامل لعصر مضى .

ثم بدأ هنري مالتس في عام ١٨٢٧ يعاني من مرض السل الذي قضى على أخته لوسي . فقرر مالتس السفر الى بوردو من أجل تحسين صحة ابنه ، ونجحت الفكرة وظل هنري في برجو في حين ان مالتس وزوجته وابنته عادوا الى هيليبري .

فكر مالتس بالتقاعد في عام ١٨٢٩ عندما كان يعمل بجامعة ايست انديا ، ولقد قال جيمس ماكنتوش قبل موته بفترة قصيرة أنه كان يفضل لو كان قد ولد وعاش في وقت أهدأ من الوقت الحالي ، حيث أن الفترة التي عاشها كل من ماكنتوش ومالتس شهدت كل أنواع التجديد الجذري ، وتعد في التاريخ الانجليزي فترة انقلاب جذري ثم تلتها فترة اصلاح ، أي تغيرت من عصر الفرد الى عصر الجماعة .

كان مالتس وعائلته في الاسبوع الاخير من شهر يونية من عام ١٨٣٣ متواجدين في كيمبرج ، ليحضر الاجتماع

الذي تعقده الجمعية البريطانية للتقدم العلمي ، والتي حضرها أكثر من ٩٠٠ عضو . وعلم مالتس أن هناك عملا يجري لتنظيم تسجيل دقيق للمواليد والوفيات ببريطانيا ، وقد كان مهتما بموضوع تأسيس جمعية احصائية بلندن ، بحيث اتخذت الخطوات الاولى في عام ١٨٣٤ ، كان الهدف منها هو تجميع وتصنيف كل الحقائق التي توضح الحالة الحاضرة بالاضافة الى مستقبل المجتمع . وقد عقد الاجتماع الاول العام لهذه الجمعية بتاريخ ١٥ مارس من عام ١٨٣٤ ، ثم تأسست الجمعية الملكية الاحصائية .

توفي مالتس بتاريخ ٢٩ ديسمبر من عام ١٨٣٤ في مدينة باث اثر نوبة قلبية أصابته عندما كان يقوم بزيارة لوالد زوجته ، ودفن في ٦ يناير من عام ١٨٣٥ في شمال مدينة باث ، بعد أن ترك لنا فرعا واسعا وجديدا من المعرفة ، وكان أثره كبيرا على عادات وسعادة الأمم .

***

سكان امريكا والاتجاه نحو الثبات

عرض وتحليل: محمد الشرنوبي

بين أيدينا اليوم كتاب يقدمه لنا الباحث المتخصص الاستاذ الجامعي تشارلز وستوف **Charles Westoff** لينهل منه الباحثون والمتخصصون في علوم السكان مزيدا من المعرفة . يجدون من خلالها الاجابة على العديد من التساؤلات التي تشغل بالهم ، ليس عن المجتمع السكاني الامريكي الذي اختصه بعناية مركزة في هذا الكتاب فقط ، وانما للسكان عامة بما يتناوله من اسلوب تطبيقي يعالج به هذه القضايا ، الامر الذي ميز هذا الكتاب بالشمولية والموضوعية . ومع كل هذا فان مقدم الكتاب ليس له من نصيب في محتواه اكثر من فصلين من مجموع فصوله البالغة أربعة عشر فصلا . وان كان قد اضاف الى ذلك مقدمة الكتاب . **فمن هو هذا الكاتب ، وما هي موضوعات الكتاب ؟.**

تشارلز وستوف هو استاذ الاجتماع بجامعة برنستون بالولايات المتحدة ، ويشغل الى جانب عمله هذا وظيفة مساعد مدير مكتب بحوث السكان الامريكي ، وكان مديرا سابقا لهيئة لجنة السكان ومستقبل امريكا ، واحد كبار الباحثين في مجالات السكان ، وصاحب مؤلفات شهيرة منها تجدد الاجيال في الولايات المتحدة الامريكية ، ومن الآن وحتى العدم ، ومنها كذلك الخصوبة ووسائل منع الحمل ، والاجهاض في الولايات المتحدة الامريكية .

اما الكتاب فهو عبارة عن مجموعة من الدراسات الدقيقة عن السكان في الولايات المتحدة الامريكية ، وارتباطهم بأنماط السكان في العالم غير الامريكي . والكتاب عبارة عن اعمال لمؤتمر علمي سكاني عقد عام **١٩٧٢** أعطى مجموعة من البحوث لكبار المهتمين بالشئون السكانية الذين اشتركوا في هذا المؤتمر. ولقد ميز مجموعة الباحثين في هذا المؤتمر ، رجوعهم الى اهم الوثائق الحكومية التي يمكن ان تدعم نتائج هذه الدراسات تفاديا للمشاكل التي يصادفها الباحث عادة ، في مثل هذا المجال من مجالات البحث لو أنها اقتصرت على جمهور السكان فحسب .

ولقد قسم تشارلز وستوف الكتاب الى اربعة فصول ، الاول وعنوانه ضبط الخصوبة ويضم اربعة

بحوث ، والثاني مستقبل النمو السكاني ، ويضم ثلاثة بحوث ، والثالث وعنوانه ضوابط لنمو السكان ويضم اربعة بحوث ، والرابع والاخير وعنوانه سياسة النمو السكاني ويضم بحثين . والكتاب بذلك ، إضافة الى المقدمة يتناول اربعة عشر موضوعا اختيرت بعناية من مجموعة البحوث التي ألقيت في السادس من سبتمبر عام ١٩٧٢ على ذلك المؤتمر الذي اقترح اتحاد الصيادلة الامريكي عقده تحت عنوان « سكان الولايات المتحدة وتطور السياسة السكانية » كما تضمن الكتاب أيضا بعض الابحاث التي كانت قد قدمت من قبل الى جامعة برنستون بالولايات المتحدة خلال الفترة من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٧٠ والتي تم اعدادها من قبل مؤلفيها بالتعاون مع مركز البحوث السكانية التابع للمعهد القومي لصحة الطفل والنمو الانساني .

يشير تشارلز ويستوف في مقدمة الكتاب الى انه حتى عهد قريب لم تكن الهيئات العلمية والرسمية قد اعطت موضوع النمو السكاني الاهتمام الذي يستحقه ، الا ان ظهور تقارير رسمية تشير الى ان سكان الولايات المتحدة يتجهون باعدادهم الى رقم ٣٠٠ مليون نسمة في المستقبل القريب قد حرك الباحثين لدراسة هذا النمو واتجاهاته ، وما يمكن ان يترتب عليه والسياسات اللازمة لتنميته ورعايته . ولقد بدأ علماء البيئة قبل غيرهم في دق ناقوس الخطر ، فتكونت على الفور منظمة جديدة لوقف هذا النمو ، وشكل الكونجرس الامريكي عام ١٩٧٠ خلال ولاية الرئيس نيكسون هيئة خاصة اطلق عليها هيئة نمو السكان ومستقبل امريكا . وكان من اهم ما عنيت به هذه اللجنة ان الثلث الاخير من القرن الحالي سوف يشهد اكبر تحد للبشرية عندما يزداد السكان بصورة لم يسبق لها مثيل ، فماذا يمكن ان تقدم الدول لمواجهة هذا النمو . كذلك بدأ قسم الاحصاء السكاني بالولايات المتحدة في ذلك التاريخ في اضافة توقعات السكان (او اسقاطاتهم) في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ الى جداول التعداد العام للسكان .

وتستفيد الولايات المتحدة من تجارب الدول التي مرت بنفس ظروف هذا النمو السكاني ، ففي معظم اجزاء العالم الغربي التي تعرضت لمثل هذه الظاهرة ، ركز السكان اهتماماتهم على وقف هذا النمو السكاني وكبح جماحه ، والعمل على تقليص هذا النمو بشتى الطرق .

وعندما صورت هيئة نمو السكان في الولايات المتحدة تقريرها النهائي وتسلمه الرئيس السابق نيكسون لم يعطه العناية اللازمة ، بل تلقاه بقليل من عدم الاكتراث النابع من التعصب الديني الذي كان يميزه ورفض توصيتين جاءتا بالتقرير وكانتا من اهم ما أوصى به وترتبطان بالعمل على الحد من هذا النمو .

وحتى في ضوء معدلات التغير السريع في السكان والتي هي احد مميزات سكان امريكا في الوقت الراهن ، لم يكترث المسئولون على المستوى الحكومي الى هذه الظاهرة كظاهرة تستلزم استراتيجية خاصة وسياسية محددة لمواجهتها واستيعابها من جهة ، أو اظهار سلبياتها وانعكاساتها على السياسة السكانية التي ينبغي ان تكون في ظل اطار حكومي يرعاها ويعطف على قضاياها . والسؤال الذي يتردد أمام اي حكومي مسئول بعد ان اتضحت له المشكلة الممثلة في هذه الزيادة الضخمة المحتملة قريبا ، هل تعود الولايات المتحدة الى الوراء لتنحدر بسكانها الى مجتمع ثابت نموه يساوي صفرا ؟ أم ان الولايات المتحدة تستطيع ان تقوم بتغيير ما لتحديد هذا النمو عن طريق تقليص اعداد الاسرة بالانجاب المحدد بطفل او اثنين مثلا ؟ وهل تسلم الولايات المتحدة من المشاكل التي استطاعت ان تتجنبها عندما وقعت فيها اوروبا في اعقاب الحرب العالمية الثانية والممثلة في هذا النمو الخطير ؟

والكتاب يبدأ بعد هذا في ترتيب الابحاث المنشورة وفق الموضوعات الاربعة الرئيسية التي سبق الاشارة اليها . فيشترك في البحث الأول كل من زلنك (Melvin zelnic) وكانتنر (J . f . Kantner) ويتناولان موضوعا قد يكون غريبا على قراءاتنا في العالم

العربي ولكنه يناقض قضية تكاد تكون عادية في المجتمع الامريكي ونعني به قضايا المراهقات من الاناث دون سن العشرين . ويركز البحث بصفة خاصة على العلاقات الجنسية وموانع الحمل التي يستخدمها المراهقات من غير المتزوجات ابتداء من سن الخامسة عشرة وحتى التاسعة عشرة من اعمارهن .

يقول الباحثان انهما اعتمدا على الدراسة الميدانية للوصول الى نسبة المراهقات اللاتي يمارسن الجنس في هذه السن دونما ارتباط بحياة زوجية . ولقد دلت عينة هذا البحث على ان هناك ٢٧,٦٪ من اناث هذه المرحلة يمارسن الجنس . وان النسبة ترتفع لتبلغ ٥٣,٦٪ منهن بالنسبة للاناث السود و ٢٣,٤٪ للاناث البيض . ويجتمع الفريقان السود والبيض في الارتفاع الكبير في ممارسة هذا اللون من النشاط في الاعمار الاكبر او المتأخرة من مرحلة المراهقة في حين تتدنى لدى الاعمار الاصغر . فتبلغ النسبة ٨٠,٨٪ لدى الاناث السود في سن التاسعة عشرة مثلا . يقابلها ٤٠,٤٪ لدى البيض في نفس السن . في حين أن هذه النسبة تبلغ لمن هي في سن الخامسة عشرة من السود ٣٢,٣٪ ولدى البيض في نفس هذه السن ١٠,٨٪ وتتدرج هذه النسبة هبوطا من الأعمار الاعلى الى الادنى وتزداد في السود عنها في البيض . والبحث لا ينكر وجود ممارسات جنسية للأناث في أعمار دون الخامسة عشرة . ولكنه لم يشملهن بالدراسة لقلة النسبة التي تدخل في هذا الاطار .

ان هذا يعني ان ١٣,٨٪ من الاناث الامريكيات غير المتزوجات يمارسن الجنس في سن الخامسة عشرة من أعمارهن . وتبلغ النسبة ٢١,٢٪ لمن هن في سن السادسة عشرة ، و٢٦,٦٪ للاناث في سن السابعة عشرة ، و ٣٧,١٪ للأناث في سن الثامنة عشرة . واخيرا تبلغ النسبة اقصاها في سنة التاسعة عشرة حيث تبلغ ٤٦,١٪ .

ويحاول الباحثان اختبار مدى دراسة ووعي هذه الفئة من السكان بأمور منع الحمل والاجهاض ، ويتوصلان في النهاية الى ان الغالبية منهن لسن على دراية كافية بهذه الأمور مما يدعهن الى مخاطر عديدة ذات انعكاسات سلبية عليهن كأفراد وعلى المجتمع الامريكي بالتالي .

لقد عني الباحثان بدراسة موسعة للسلوك الجنسي لدى المراهقات ولمنع الحمل واسلوبه لديهن ، واهتما بالاجابة في هذا البحث على أسئلة عديدة وخطيرة منها سن الدخول للحياة الجنسية وعدد مرات الالتقاء الجنسي ومع كم من الرجال يمارسن نشاطهن ، وان المعلومات يعرفنها عن الظروف البيولوجية للحمل ، ومتى يستخدمن وسائل منع الحمل عادة ، واي هذه الوسائل تستخدم . واكدت الدراسة ان المراهقات الامريكيات يبدأن في ممارسة الجنس من سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . كما اكدت انهن على دراية محدودة بطرق واساليب منع الحمل وبجهلهن الواضح عن بيولوجيا الحمل .

اما البحث الثاني وهو لتشارلز وستوف مقدم الكتاب فيتناول فيه **التغيرات التي طرأت على وسائل منع الحمل ومدى ثبات وجهات نظر المتزوجين حول وسائل واساليب ضبط النسل الحديثة .**

يقول « وستوف » ان هبوط معدل المواليد في الولايات المتحدة اساسه الانتشار الكبير في استخدام وسائل منع الحمل بين الزوجين . وان التغيرات الحالية في نمط استخدام وسائل منع الحمل انما هي تغيرات ليست في الاسلوب وانما في التقدم الكيميائي الضامن لفعالية هذه الوسائل حتى ان نتائج تجاربها تؤكد ارتفاع معدل فعالياتها وهذا راجع اساسا الى التقدم في مجالات الكيمياء والصيدلة .

ولقد دلت الدراسات التي اجريت عام ١٩٧٠ على الخصوبة في الولايات المتحدة الامريكية على هبوط مثير في معدلاتها خلال الفترة من عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٧٠ .

فقد بلغت نسبة هذا الهبوط ٣٥٪ لدى السكان البيض و ٥٦٪ لدى السود . وهي ارقام مثيرة حقا نتفق فيها تماما مع الباحث . فلم يشهد مجتمع من مجتمعات العالم خلال فترة محدودة كهذه (عشر سنوات) هبوطا مثل هذا الهبوط ، بل انه لو استمر لحدثت كارثة ديموجرافية سيعاني منها المجتمع الامريكي فترة طويلة .

وعلى الرغم من ان نسبة ممن لم يستخدموا وسائل منع الحمل من بين المتزوجين خلال سني زواجهم ضئيلة (١٦٪ فقط) الا ان نسبة من لا يستخدمون هذه الوسائل بانتظام قد قدرت عام ١٩٧٠ بحوالي ثلث المتزوجين (٣٦٪) خلال فترة الخصوبة المعروفة (من عمر ١٥ ـ ٤٠ سنة) كما دلت الدراسة التي اجريت على الخصوبة عام ١٩٧٠ على ان هناك اتجاه واضح للاقبال على عملية التعقيم سواء بين الذكور أو بين الاناث ، حتى ان هذه الظاهرة قد اصبحت من اكثر الوسائل انتشارا وممارسة خاصة من قبل الفئات التي قضت فترة طويلة في حياتها الزوجية . ويعد الباحث هذه الفئة بين تبلغ زوجاتهم سنا يتراوح بين ٣٠ ، ٤٤ فهناك ٢٥٪ من هؤلاء من الذكور يقدمون على اجراء جراحات التعقيم . ولا تختلف النساء في نسبتهن كثيرا عما عليه الذكور ولكن المهم والمثير حقيقة ان هذه النسبة لم تكن تتجاوز ١٦٪ عام ١٩٦٥ .

ويناقش الباحث في هذه الدراسة موضوعات ذات ارتباط بالخصوبة وهبوط معدلاتها سواء من حيث وسائل منع الحمل اومدى فعاليتها ، ومقدار انتشارها بين فئات السود او فئات البيض من السكان ، وبين السكان من مختلف المذاهب الدينية ليؤكد في النهاية حقيقة مفادها وهي ان معدلات الخصوبة في الولايات المتحدة قد اصبحت مهددة الى حد ما بظاهرة مؤثرة وستكون بلا شك ذات انعكاسات كبيرة على حجم السكان مستقبلا خاصة وان المجتمع الامريكي لا يزال حتى الآن مجتمعا جاذبا للسكان المهاجرين اليه وهو في حاجة فعلا الى استمرار معدلات الخصوبة على معدلات عالية وليس العكس .

اما البحث الثالث فتقدم به كل من لاري بمباس (L. L. Bumpass) وهاريت بريسر (H. B. Presser) ويتناول دراسة **ظاهرة تزايد الاقبال على التعقيم والاجهاض** ، وما يترتب على ذلك من نتائج ديموجرافية . ان هذه الدراسة تأتي في موقعها تماما حيث يمكن اعتبارها امتدادا للبحث السابق الذي قام به تشارلز وستوف ، وهنا تأتي براعته في ترتيب الكتاب .

ولقد قامت هذه الدراسة على اساس التفرقة في هذا الاتجاه نحو الزيادة حسب الجنس ودرجة التعليم والدين لدى السكان البيض . ولقد أتى الباحثان بأرقام ذات دلالة هامة ، فقد كانت نسبة المحبذين لعمليات العقم في عام ١٩٦٥ هي ٣٤٪ من بين الذكور ، ولكنها ارتفعت الى ٥٢٪ عام ١٩٧٠ . اما الاناث فقد كانت النسبة بينهن ٣٧٪ في عام ١٩٦٥ فأصبحت ٥٤٪ عام ١٩٧٠ . وتؤكد هذه الدراسة ما قام به الباحثان من دراسة ميدانية مباشرة للذكور والاناث في المستشفيات والعيادات الخاصة ذهبوا لاجراء عمليات التعقيم .

ولقد عرض البحث بايجاز الفورق بين الطبقات المختلفة للسكان ، واثبت البحث ان نسبة المحبذين لعمليات التعقيم من بين الذكور البيض بلغت ٣٤٪ عام ١٩٦٥ (يقابلها ٣٠٪ لدى السود من الذكور) واصبحت هذه النسبة ٥٤٪ عام ١٩٧٠ للبيض (يقابلها ٥٤٪ لدى السود من نفس الفئة) . أما بالنسبة للأناث فقد كانت نسبة من يحبذن عملية التعقيم ٣٧٪ عام ١٩٦٥ من بين السكان البيض فأصبحت ٥٥٪ في عام ١٩٧٠ . اما الاناث السود فكانت نسبتهن ٣٩٪ عام ١٩٦٥ فأصبحت ٤٦٪ في عام ١٩٧٠ .

أما عن علاقة التعقيم بدرجة التعليم ، فقد ثبت ان نسبة من يحبذون اجراء هذه العملية من بين الرجال الذين قضوا اقل من ١٢ سنة في التعليم (اي دون المرحلة

الثانوية) في عام ١٩٦٥ هي ٣٢٪ فأصبحت ٤٣٪ في عام ١٩٧٠ . اما من الاناث في نفس المرحلة وفي ذات الفترتين فقد بلغت نسبتهن ٣٧٪ ، ٤٨٪ على الترتيب . اما من يحبذون التعقيم من بين الذكور الذين تجاوزوا ١٢ سنة في التعليم (اي من اتموا المرحلة الثانوية) فقد بلغت نسبتهم ٣٤٪ عام ١٩٦٥ واصبحت ٥٢٪ عام ١٩٧٠ اما الاناث فكانت النسبة اعلى حيث بلغت ٣٦٪ عام ١٩٦٥ فأصبحت ٥٤٪ في عام ١٩٧٠ . اما الذكور ممن اتموا المرحلة الجامعية فترتفع النسبة كثيرا بينهم حيث بلغت النسبة بينهن ٤٣٪ عام ١٩٦٥ فأصبحت ٦١٪ في عام ١٩٧٠ .

ولقد تعرضت الدراسة لنفس الظاهرة في ضوء موقف الدين منها . ويذكر البحث ان نسبة من يحبذون عملية التعقيم من بين غير الكاثوليكيين بلغت ٤٢٪ عام ١٩٦٥ للذكور فأصبحت ٥٩٪ في عام ١٩٧٠ ، و ٤٤٪ عام ١٩٦٠ للأناث فأصبحت ٦٠٪ في عام ١٩٧٠ . اما بين الكاثوليكيين المختلطين بمذاهب أخرى مسيحية فكانت النسبة بين الذكور ٢٤٪ في عام ١٩٦٥ فأصبحت ٤٧٪ (حوالي الضعف) بعد خمس سنوات . اما بالنسبة للاناث فترتفع الارقام كالعادة فبعد ان كانت ٣٢٪ عام ١٩٦٥ فقد اصبحت ٤٩٪ في عام ١٩٧٠ .

ولا شك ان تزايد هذه النسبة على كافة المستويات ووفقا للعرض السابق سوف تساهم ولا شك في هبوط معدلات الخصوبة القومية في الولايات المتحدة بعيدا عن الوسائل الشائعة لمنع الحمل . خاصة وان عملية التعقيم تعتبر واحدة من اخطر واهم الوسائل المانعة للحمل واكثرها تأثيرا .

واذا كانت خطورة التعقيم تأتي من كونها نهاية حاسمة للخصوبة وان كلا من الذكور والاناث يقدم عليها ، الا ان الاجهاض ظاهرة تختص بها الاناث ويكون مردودها سيئا لارتباطها بدورة حياة المرأة التي تتحمل دون الرجل نتائجها . وتشترك ظاهرة الاجهاض مع ظاهرة التعقيم في الاتجاه الكبير نحو الزيادة والانتشار ، حتى ان ذلك انعكس على الدراسات الطبية التي تجري في المعاهد المتخصصة وكليات الطب بالجامعات المختلفة تلك الدراسات التي من اهم اسبابها تعدد اجراء هذه العمليات الجراحية مما يجعل هناك ضرورة قوية لاتجاههـا كأي عملية جراحية تستثير الباحثين في مجالات الطب المختلفة .

يحدث هذا في الوقت الذي تثير كلتا الظاهرتين بعض المناقشات القانونية والدينية لاقرار مدى شرعيتهـا ، بالاضافة الى اهتمامات المتخصصين بها كظاهرة ذات ارتباط بمستقبل اليد العاملة مستقبلا ومتاعب الاسرة والمردود الاقتصادي الذي قد يترتب على استمرار تزايدها على المدى الطويل .

وفي البحث الرابع يركز تشيرير (S. B. Schearer) على دراسة مستقبل ظاهرة تحديد النسل . وهذه الدراسة منصبة اساسا على اسقاطات وتوقعات يقوم بها عالم من علماء القسم الطبي في هيئة السكان التابع لجامعة روكفلر . انه يؤكد على ان كل السكان قد اصبحوا يتطلعون الى مزيد من وسائل منع الحمل بحيث تكون اكثر فعالية ويسرا ، وبغير مؤثرات جانبية سيئة ليقبلوا عليها عوضا عن المألوف . وهو هنا يعرض لبعض العقاقير المبتكرة الجديدة التي تعتبر أقل تأثيرا على الناحية الفسيولوجية والفضل صحيا مما هو شائع الآن . ونفس الامر بالنسبة للوسائط الميكانيكية المستخدمة كالحلقة واللولب والغشاء المطاط وغيرها . ومع كون ما أتى به « تشيرير » لا يعدو بعض العقاقير التي من الممكن انتشارها الا انه يقول لو استمر الامر كذلك ما هو مستقبل وسائل منع الحمل وما هي انعكاسات انتشارها على نمو السكان ؟ ويؤكد الباحث ان جيلا جديدا من السكان اصبح اكثر ممارسة لهذه الوسائل بلا شك قد حل محل الجيل السابق الذي كانت له بعض التحفظات على هذا الاستخدام بل انه يؤكد ان الطب قد توصل الى معلومات مفيدة للوصول الى وسائل ذات

استخدام طويل المدى في تأثيره من مجموعة (IUD) المعروفة بحيث يمكن تناولها على فترات متباعدة بالفم بالنسبة للمرأة او الى وسائل ميكانيكية اكثر فعالية بالنسبة للرجال . واذا كان الكاتب في هذه الدراسة قد ذكر مثل هذه الوسائل ، الا انه اكد انها لا تزال في مرحلة التجارب ومحط الآمال .

اما البحث الخامس فقد عني اساسا بالاتجاهات الحديثة للخصوبة وانماطها المتغيرة . ويعتبر هذا البحث الذي قام به رايدر (Norman B Ryder) بداية القسم الثاني من الكتاب . ذلك القسم الذي عني اساسا بموضوع مستقبل النمو السكاني كما سبق القول .

يقسم رايدر بحثه الى اربعة اجزاء . الاول منها يعنى بأنماط الخصوبة وفقا لمعدلاتها والتي ميزت سكان الولايات المتحدة خلال النصف قرن الاخير (من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٧٠) . ثم اعقب هذا الجزء بدراسة العوامل المؤثرة في هذه الانماط ، ثم تناول في الجزء الثالث من البحث دراسة لبعض المتغيرات الاجتماعية التي اثرت على المعدل القومي العام للخصوبة . واخيرا ختم دراسته بتأكيد الهبوط الشديد في معدلات الخصوبة القومية في الآونة الاخيرة .

واعتمد الباحث هنا على دراسة الأفواج او الاجيال . واعتمد في قياساته على ما يعرف بمعدل الخصوبة الكلي للجيل (CTFR)[1] وهو قياس دقيق يعرفه جيدا الديموجرافيون . ويؤكد في هذه الدراسة على ان انماط الخصوبة تتحدد في ثلاثة انماط تميز سكان الولايات المتحدة . الاول : نمط يتمثل في هبوط مستمر مرت به الولايات المتحدة خلال الثلاثينات من هذا القرن ، ثم النمط الثاني ويميل نحو الارتفاع خلال الخمسينات ، ثم اعقبه نمط ثالث وهو الذي يتميز بهبوط شديد منذ الخمسينات وحتى الان . ولقد عكس هذه الانماط على شكل بياني من واقع الارقام التي جمعها وحللها بدقة .

وهنا يميز الباحث بين عوامل هذه التغيرات وبين ذلك الهبوط الذي تعرضت له الولايات المتحدة الامريكية خلال القرن التاسع عشر والذي كان جزءا من عملية التغير الاجتماعي الضخمة التي واكبت تلك التغيرات التي ميزت الدول ، والتي كانت انعكاسا مباشرا لظاهرة التحضر (Urbanization) وحركة التصنيع التي ميزت تاريخ الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر .

وفي البحث السادس يدرك تيتيلبوم (Muchael S. Teitelbaum) ان من بين العديد من الاسباب المؤثرة في هبوط معدلات الخصوبة هي الجذور او العوامل التاريخية التي أعطت **وتعطي مردودها او انعكاساتها** على هذه الظاهرة في المدى الطويل . ومع هذا فانه لم يبذل جهدا يتناسب مع أهمية هذا الجانب لدراسته ، وتسليط الضوء عليه . ولكن لأنه اكد هذه الحقيقة فقد كان موفقا ليجعل من ذلك مقدمة لبحثه الذي ركز فيه على موقع الولايات المتحدة من العالم في اطار النمو السكاني الشامل لهذا الكوكب .

ويؤكد الباحث على ان هناك من الدلائل القليل جدا الذي يثبت ان الانفجار السكاني في امريكا يعتبر امرا شبه مستحيل اذا قورنت الظروف الديموجرافية في هذه الدولة بمثيلتها من الدول الاخرى التي بلغت هذا الحد . ويدلل على وجهة نظره بسرد امثلة ومقارنات تاريخية لانماط من المجتمعات السكانية التي كانت تمر بذات المرحلة التي تمر بها الان الولايات المتحدة ولكنها تعرضت لهذا الانفجار السكاني خاصة في الدول المتقدمة . ويوضح ان الولايات المتحدة قياسا على هذه المقارنات لن تبلغ ما بلغته هذه الدول .

---

(1) Cohort Total Fertility Rate .

ويمكن اعتبار هذا البحث تكرارا في بعض اجزائه ـ لما ورد في البحوث السابقة نظرا لكونه يعطي دراسة شاملة لمستويات النمو السكاني في هذه الدولة ماضيا وحاضرا ومستقبلا . ولم يعن الكاتب بكل دول العالم بالطبع ، وانما عني اساسا بالدول الصناعية . كما انه اهمل تماما دراسة ظاهرة الوفاة في هذه الدول ويبرر هذا بالتشابه الكبير بين معدلات الوفاة بين هذه الدول والولايات المتحدة . ومن المعروف ان معدلات الوفاة تعتبر من المحاور الرئيسية التي تعتمد عليها دراسة النمو السكاني ، وهي احد المؤشرات لهذا النمو بطبيعة الحال . واعتمد الباحث في مقارناته على معدلات الخصوبة الكلية (TFR) كما اورد توقعاته عن النمط الذي يمكن ان يحل محل نمط الخصوبة الحالي ، وعقد مقارناته في اطار ثلاثة انماط من مجموعات الدول . النمط الاول ويضم كلا من الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزلندا ، والنمط الثاني ويضم كلا من الدانمرك وفنلندا والنرويج وبلجيكا وهولندا وسويسرا والنمسا وانجلترا وايطاليا وفرنسا والسويد . اما النمط الثالث فيضم كلا من بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا ويوغوسلافيا والمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي واليابان ، وهو بهذا يقارن بين مجموعات تضم ستا وعشرين دولة صناعية تختلف في تاريخها الصناعي وتطورها العقائدي .

ويؤكد الباحث أنه بدون تدخل مباشر من هذه الدول الصناعية فلابد ان تتعرض معدلات الخصوبة فيها للهبوط الشديد . لهذا فان السياسات السكانية ينبغي ان تراعي التطور التاريخي والاقتصادي للسكان وتراعي أيضا ضرورة المرونة في برامج هذه السياسات بحيث تصبح قادرة على التأثير في معدلات الخصوبة زيادة او نقصا بطريقة تدريجية هادئة . كما ان عليها ان تضع برامجها بعناية فائقة لمواجهة اية تغيرات يمكن ان تطرأ على معدلات الخصوبة نظرا لان انعكاسات هذا التغير لن يمكن ملاحظتها قبل مدة تتراوح بين عشر او خمس عشرة سنة ، ومن هنا كان لابد من العناية بدراسة اتجاهات الخصوبة واسقاطاتها . والكاتب بهذه النتيجة يعطي نصائح اكثر من الخروج بنتائج محددة ، بل ان يناقض وجهة نظر تشارلز وستوف الذي يؤكد اختلاف الولايات المتحدة عن الدول الصناعية والمتقدمة الاخرى في انها لن تصل الى حد الانفجار السكاني بل ستصل الى مرحلة الثبات في نمو السكان ، وبالرغم تحققه الدول المتقدمة على مطلق القول وعمومه .

اما الفصل السابع فهو لنفس الباحث الذي كتب البحث الخامس ونعني به نورمان رايدر (Norman B. Ryder) وهو دراسة **لمستقبل النمو السكاني في الولايات المتحدة** . ويطرق الكاتب في بحثه هذا في حسابات لتوقعات السكان التي تؤدي في النهاية الى انهيار الحد الاقصى المحتمل لاعداد السكان في ضوء الزيادة الحالية واتجاهاتها ، والتي من اهم خصائصها تزايد هبوط معدلات الخصوبة وارتفاع متوسط سن الانجاب وهبوط اعداد المواليد السنوي ومن ثم توقف السكان في النهاية عند حد أقصى مقداره ٣٠٠ مليون نسمة . الا ان القليل فقط من هذه الفرضيات هو الذي يمكن الوثوق به وقبوله .

ويقول الباحث ان سكان الولايات المتحدة سوف يبلغون ٢٦٢,٥ مليون نسمة في عام ٢٠٠٠ . وسوف يهبط معدل الزيادة من ١٠,٤ في الألف وهو المعدل السائد في السبعينات الى ٥,٥ في الألف خلال الفترة من عام ١٩٩٠ الى عام ٢٠٠٠ . وستنعدم الزيادة تماما وتصبح صفرا في الألف خلال العقد من عام ٢٠٤٠ الى عام ٢٠٥٠ . وفي هذه الفترة سيكون المواليد ١٤,٣ في الألف فيما بين عامي ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠ وسيصبح ١٢,٩ في الألف فيما بين عامي ٢٠٤٠ ـ ٢٠٥٠ بعد ان كانت ١٨ في الألف عام ١٩٧٠ أما معدل الوفيات فسوف يبلغ ١٠ في الألف خلال التسعينات من هذا القرن وسيصبح ١٤,٢ في الألف خلال الاربعينات من القرن الحادي والعشرين ، وبذلك يتفوق هذا المعدل على معدل المواليد ومن ثم يصبح المجتمع في حالة اضمحلال وتناقص يصل به الى الصفر كما قدمنا في تعليقنا على معدلات النمو . الا أن الهجرة كمؤثر ثالث سوف تعوض هذه الخسارة حيث سوف تبلغ في نهاية القرن الحالي

وبالتحديد خلال التسعينيات ١,٦ في الألف ، ثم تتدنى هي الأخرى الى ١,٣ في الألف ما بين عامي ٢٠٤٠ ، ٢٠٥٠ . وفي نهاية بحثه يقول ان الولايات المتحدةان تبلغ ٣٠٠ مليون نسمة بسهولة ، حيث سيظل عددها ثابتا تقريبا عند رقم ٢٩٧,٧ مليون نسمة عام ٢٠٤٠ ولن يزيد زيادة تذكر في عام ٢٠٥٠ حيث سيبلغ ٢٩٧,٨ مليون نسمة ، ثم ٢٩٧,٩ عام ٢٠٦٠ يعني انه سيظل ثابتا تقريبا طوال ثلث قرن تتوسط القرن الحادي والعشرين .

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى جزئه الثالث الذي تدور ابحاثه الأربعة حول ضوابط النمو السكاني في الولايات المتحدة ، ويستهل ستيفين انك **Stepheen Enke** هذه الابحاث بدراسة ولكن ينبغي أن نؤكد أن بحث انك مع الابحاث الأخرى في هذا القسم من الكتاب تهتم أساسا بالتغيرات التي تطرأ على الخصوبة ، بدراسة اتجاهات هذه الخصوبة والنظر في مستقبل السكان ، ان الاجابة عن ما هو الفرق بين ان تنمو الدول بسرعة أو ببطء أو لا تنمو على الاطلاق تأتي في هذا القسم من الكتاب .

ولو عدنا الى ستيفين انك في بحثه الثامن نجده قد عني بدراسة **تأثير النمو السكاني على الاقتصاد القومي ومختلف الانماط الاقتصادية** . ويؤكد الباحث في هذا الفصل على أهمية المؤثرات التي ترتبط بهبوط الخصوبة وانعكاساتها على حجم قوة العمل سواء من حيث الكم او الكيف واثر ذلك في دخل الفرد .

وعلى الرغم من ان الباحث اثبت وجود بعض انماط من الصناعات تفيد اكثر من غيرها من النمو البطيء للسكان ، الا ان الوقت المتاح لاحداث تغيرات جوهرية على البنية الديموجرافية يعتبر كافيا لبحث المشكلات المرتبطة بهذا الأمر . ويخلص الكاتب في هذا الفصل الى ان الاقتصاد الوطني يستفيد أكثر من الوصول المبكر لمرحلة ثبات السكان من الوصل المتأخر لهذا الثبات .

أما البحث التاسع الذي جاء به رونالد ريدكر (**Ronald R idker**) في هذا الكتاب فهو عن **تأثير النمو السكاني على الموارد الطبيعية والبيئة** . ويقول في بحثه لو أن الزيادة الحالية للسكان بقيت بمعدلاتها الراهنة لنصف قرن من الزمان مستقبلا لزاد عدد السكان عند نهاية الربع الأول من القرن الحادي والعشرين بمقدار ٥٠٪ عما هم عليه الآن . أما جملة الانتاج القومي والتي تبلغ الزيادة فيها ٤٪ فيمكن ان تتضاعف بمزيد من الجهد والتخطيط بمقدار سبعة اضعاف كحد أقصى لا يمكن تجاوزه . وهذا يعني عدم تمشي نمو السكان مع نمو الدخل حيث يهبط الأخير عن الأول بمقدار ٢٢٪ .

وعلى الرغم من تعدد الآراء التي يأتي بها علماء البيئة والموارد الطبيعية حول هذه العلاقة وامكانية تجاوزها بالعلم والمعرفة التكنولوجية والبدائل المختلفة ، الا انهم يجمعون على وجود صلة بين السكان ونمو الانتاج الوطني الاجمالي .

ويعدد الكاتب في بحثه عدة حقائق تميز الولايات المتحدة عن غيرها في مجال علاقة السكان بالبيئة والموارد الطبيعية ، منها ان الولايات المتحدة تتميز بمجموعة من الموارد الخاصة وبمزيد من الملوثات المصاحبة لانتاج أو تنمية هذه الموارد كما تتميز بالضغط المتزايد عليها . ذلك الضغط المصحوب بنمو اقتصادي وسكاني واضح في البلاد وسيظل تأثير ذلك حتى نهاية الربع الأول من القرن القادم على الأقل .

ولم ينس الباحث ان يعرض للآثار العديدة للملوثات وانتشارها وحجمها واحتمال تزايدها وعلاج كل هذه الآثار . كما ربط بين متغيرات الانتاج بملوثاته وآثاره السلبية ، والسكان بنموهم المتزايد ، والعديد من الممارسات الاجتماعية والسياسات القائمة والمقترحة لتلافي المشاكل العديدة المترتبة على تزايد التصنيع لمواجهة الزيادة السكانية المحتملة عند أي مستوى من مستويات النمو . والمعروف كما يقول

ريدكارد ـ ان مزيدا من السكان يعني مزيدا من التلوث ، وهذا هو جوهر هذه الدراسة التي ركزها على الوضع القائم عام ١٩٧٠ واحوالاته المستقبلية حتى عام ٢٠٠٠ .

أما البحث العاشر فهو لواحد من كبار علماء الاجتماع وعمل مديرا لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية ، ومساعدا لمدير الهيئة الخاصة بنمو السكان ومستقبل امريكا بالاضافة الى عمله في مكتب الاحصاء الامريكي . ذلك الباحث هو روبرت بارك **Robert Park** ان السؤال الذي يجيب عليه في بحثه يتناول **تأثير أية تغيرات يمكن إحداثها في السكان على ما تقدمه الحكومة الفيدرالية من خدمات كالتعليم والصحة وغيرها** . انه يؤكد ان الرخاء وتحديد الأموال المعقودة على حسن أداء هذه الخدمات انما ينعكس فقط على الخدمات التعليمية عندما تهبط معدلات النمو .

ان هذا البحث الذي يتناول تأثير النمو السكاني ـ بمستوياته المختلفة ـ على الحكم والمجتمع يبحث في كيفية حدوث التغيرات في ظاهرة المواليد والوفيات والهجرة . وهل تكمن هذه التغيرات في هذه العوامل المرتبطة بموضوع حركة السكان ، أم عن طريق تغير التركيب العمري للسكان ، ام ان هنالك عاملا مؤثرا آخر يعو الزحف على الأرض الزراعية والاتجاه نحو الحضرية وانتشار المدن المتروبوليتية ، الامر الذي سوف يحدث انعكاسات هائلة على الظروف الاجتماعية والجنسية والتعليمية وعلى ظروف العمالة وحجم الاسرة ، والطريقة التي تؤثر بها هذه الخصائص كلها على المجتمع .

ويتساءل بارك عن الفرق بين انجاب طفلين أو ثلاثة ، وهل يمكن ان يحدث أثرا ما يختلف باختلاف هذا العدد ؟ انه يوجه سؤاله للديموغرافيين وعلماء الاجتماع والاقتصاد وخبراء الموارد والايكولوجيين وعلماء السياسة ، ولكنه يعود فيؤكد ان طفلين أو ثلاثة لا يعطيا فرقا مؤثرا في عام ٢٠٠٠ على الرفاه الاقتصادي ، ولكن بالتأكيد سوف يقل عبئا على الخدمات التعليمية والصحية اكثر من غيرها ، نظرا لان صغار السن سوف يمثلون أنذاك نحو ٥٠٪ من جملة السكان ، أما كبار السن (اكثر من ٦٥ سنة) ، فسوف تصل نسبتهم الى ١٠٪ لأن معنى هذا ان على كل ٤٠ مواطنا ان يتحملوا عبء اعالة ٦٠ شخصا مما يؤثر على التنمية والدخل والعمالة .

ويقول روبرت بارك ان الزحف الكبير نحو المدن كظاهرة عامة ، وارتباط ذلك بنمو السكان ، سوف ينعكس على الامن العام ومعدلات الجريمة ، وسيكون لذلك تأثيره البالغ على الموقف السياسي في الادارات المحلية ، فهناك ١٦٠٠٠ ادارة للحكم المحلي في عام ١٩٧٠ وكانت هي المعنية بأمور الأمن والادارة داخل المدن الامريكية المختلفة ، ومن المتوقع ان تصل الى ٣٢٠٠٠ ادارة عام ٢٠٠٠ .

وتذكر الباحثة هاريت ب . ريسر (Harriet B. Resser) في البحث الحادي عشر في الكتاب **وهو عن ضبط الخصوبة الامثل** ان امر تحديد خصوبة المرأة اساسه انما يكمن في فكر المرأة ذاتها . ولكن بعد ان تناولت البحوث السابقة تأثير الخصوبة على الدولة والمجتمع فما هو الموقف بالنسبة للأسرة وللأم . ان الباحثة تتساءل ما هو موقف الأم اذا جاء مولودها قبل الموعد الذي تريده ؟ واذا كان حجم الاسرة صغيرا فما هو تأثيرذلك على دورها في المجتمع وما هي الآثار التي ستنعكس على مستقبل مثل هذه الاسرة ؟. ان المرأة صغيرة السن سوف تستفيد من كونها تملك زمام التخطيط لانجابها وتحديد موعد ميلاد الطفل الاول لها . أما المرأة كبيرة السن والتي لم تفعل نفس الشيء فلا بد انها قد كانت لها خطتها من قبل ولأنها لن تستطيع تغيير ما استقرت عليه فانها خارج اللعبة تماما . لكن قياس الخصوبة وتحديد مؤثراتها لا يستثني صغيرة ولا كبيرة ومن هنا تكون صعوبة الاتفاق على خطة معينة يمكن ان نطلق عليها خطة الخصوبة الأمثل . هذا فان هاريت لا تتوقع

تخطيطا رشيدا للطفل الأول بصفة خاصة ولاشك ان اية تغيرات تطرأ على دور المرأة ومن ثم الأسرة سيكون كبيرا اذا تم ترشيد الانجاب منذ البداية (الطفل الأول) . ولكن هذا سوف يرتبط بموانع الحمل واباحة الاجهاض مرة أخرى .

ان الباحثة هاريت الاستاذة المساعدة في معهد الصحة العامة بجامعة كولومبيا كانت في بحثها متقصية بأقصى درجات الدقة التغيرات التي تنشأ تبعا لموعد أول انجاب للأم وهي بحكم عملها في مجال الطب الاجتماعي وكعضو سابق في مجلس السكان كانت صريحة في اظهار العجز الذي سيظل لفترة طويلة أهم ما يميز أي تخطيط رشيد للوصول بخصوبة المرأة الأمريكية الى الحد الأمثل . وهي تختم بحثها مؤكدة ان امام المجتمع الامريكي العديد من المشاكل التي لابد من حلها قبل الوصول الى تحقيق هذا المستوى من الخصوبة . ومن ثم فهناك بعض الوقت الذي لابد أن يمضي قبل أن يتمكنوا هناك من احداث مثل هذه التغيرات على حياة المرأة والأسرة .

ولكن ما هو دور الدولة ازاء تلك التغييرات الديموجرافية ؟ وهل تختلف الولايات المتحدة عن دول العالم المتقدم الأخرى ؟. لقد تناول البحث الثاني عشر في الكتاب والذي قام به بيرنارد بيرلسون(Bernard Berelson) موضوع السياسة الحكومية تجاه نمو السكان في الدول المتقدمة . ولقد اختار بيرلسون عددا من الدول يبلغ مجموع سكانها ٥٧٥ مليون نسمة وتتراوح بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة ، كما تميزت فيما بينها بتفاوتات كبيرة في الكثافة السكانية .

والبحث في اطاره الجغرافي يمثل مساحة عريضة ومتفرقة من العالم وان كانت تتركز في نصف الكرة الشمالي ، ولقد خلص الباحث من بين ارقام هذه الدول واحصاءاتها الى انها تشترك في هبوط معدلات النمو فيها . وان كانت هناك بعض هذه الدول تتميز بأدنى معدل للنمو وأدنى معدل للوفيات . كذلك تشترك هذه المجموعة من الدول في ارتفاع نسبة سكان المدن وارتفاع الدخل والتعليم حتى انه أطلق عليها دول الحظوة تعليميا واقتصاديا وسكانيا .

ويستطرد الباحث في تلخيصه للظروف الديموجرافية لهذه الدول ومواقف حكوماتها وافرادها ازاء بعض المواقف المتعلقة بالمؤشرات الديموجرافية ، ويؤكد الباحث ان نجاحه في الوصول الى هذه التعميات التي تشترك فيها هذه الدول يؤكد مثل هذه الدراسات والبيانات الى هيئات متخصصة ذات كفاءة علمية عالية مما وفر لها في النهاية امكانية وضع سياسات خاصة وناجحة لها في المجال السكاني . ولا يتوقف أمر هذه الهيئات على جمع الحقائق ، بل يمتد الى دراستها ووضع البرامج المختلفة التي تكفل تنميتها ورعايتها سواء ارتبط هذا بخدمات حماية الاسرة أو أمور الاجهاض والتعقيم او ترشيد انجاب الطفل الأول او الهجرة الداخلية والخارجية ، ولقد براجها الى بحث تأثير دخول المرأة الى سوق العمل وأثر ذلك في نمو السكان والخصوبة .

ويختم بيرلسون بحثه بالتأكيد على هذه السياسات وأهميتها ورعايتها وضرورة الاستفادة من مجالاتها ، ويؤكد ان هذه الدول ما كانت لتصل الى مصاف الرقي والتقدم الا لاهتمامها بالسياسة السكانية القومية ، فهذه الدول تشترك في اهتمامها بالدراسات السكانية كظاهرة بل وربما كمشكلة ، ولقد اعطت دراسة هذه السياسات تفاوتا في المدى العريض الذي تشغله هذه المشاكل ، فهي ترجع في جزء منها الى أسس عقائدية او دينية وربما سياسية او اثنوجرافية ، والامر الذي ينعكس على الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والسياسية العامة للدولة ، كما انه يؤكد ان الدول الأقل نموا في معدلاتها كانت أكبر بكثير من الدول الأكثر نموا اهتماما بالقضايا السكانية .

اما البحث الأخير وهو الموقع الثالث لكتابات تشارلز ونستوف مقدم الكتاب فيتناول في هذه الحالة دراسة لتاريخ

الاتجاهات الحكومية نحو السكان ، ويدرس فيه التقرير الذي اعدته هيئة نمو السكان ومستقبل أمريكا المقدم الى الرئيس نيكسون خلال ولايته السابقة ، وانعكاسات محتوى هذا التقرير على الدولة الامريكية المعاصرة .

ويؤكد وستوف في نهاية هذا البحث على ان الولايات المتحدة لم يكن لديها حتى عام ١٩٧٣ خطة لتعديل وتقييم السياسة السكانية وضوحها وحدودها . ومثل هذه الخطة يصعب حقيقة وضعها ولن تكون ذات قيمة الا اذا مهد لها السبيل بأحداث تغييرات على سلوك الافراد حتى يصبح رخاء المجتمع هو الهدف الشامل والاساس قبل أي هدف ترمي اليه سياسة أخرى .

●●●

وأخيرا فإن هذا هو الكتاب الذي يضم ثلاثة عشر بحثا بعضه قدم الى هيئات علمية وبعضها سبق نشره وبعضها الآخر نشر تحت عناوين أخرى كما هو الحال بالنسبة للبحث الأخير . واننا في الحقيقة قد نشيد بجهد مقدم الكتاب في ترتيب هذه المقالات ، ولكنا نود الاشارة الى ان اهم ما يميزه ليس هذا الجانب بقدر اختيار طبيعة هذه الابحاث واسلوب الباحثين .

ولقد تخير تشارلزوستوف لكتابه بحوث عدد من أبرز المهتمين بشئون السكان في الجامعات والهيئات العنية ودعم كتاب بحوث يتنوع فيها الفكر والاسلوب وتعتمد بكاملها على أوثق المصادر والتي ان لم يتوفر بعضها لاستكمال جانب من جوانب البحث لجأ صاحبه مباشرة الى الدراسة الاحصائية بأسلوب العينة في دعم نتائج هذه الدراسة .

ان هذا الكتاب بأقسامه الأربعة وبحوثه الثلاثة عشر غير مقدمته الشاملة قد يفتقر الى بعض الخرائط والرسوم البيانية التي تعتبر احد الأعمدة الرئيسية في دراساتنا السكانية عادة . كما أنه يفتقر الى الاسلوب الموضوعي الواحد فجاء افكارا للعديد من الباحثين وليس فكرا وجهدا لباحث واحد . الأمر الذي يجهد قارىء الكتاب ولكنه يفيده ويقدم له حصيلة جهد كبير لا مجال للعمومية فيها .

لقد بلغ عدد السكان في الولايات المتحدة الاميركية كما يقول رايدر ٢٠٩ مليون نسمة في عام ١٩٧٢ . ويعكس شكل الهرم السكاني للدولة حجم الذكور والاناث الاكبر عند العمر ٣٥ سنة ، حيث يتركزون بشكل واضح وان كان ثمة تركز آخر حول فئة العمر ١٥ سنة ، وان كان أقل شدة ، وتركز ثالث أقل من سابقيه حول فئة العمر (٥ سنوات) . ويضيف رايدر الى خصائص التركيب العمري للسكان ان معدل المواليد في بداية السبعينات كان ١٥ في الألف ، ولقد قدم بهذه الخصائص لبحثه حول مستقبل النمو السكاني بالولايات المتحدة . ويسعى الباحث لاكتشاف أهم الضوابط التي تتحكم في فكر السكان الى الدرجة التي يمكن ان تؤثر في مستقبل نموهم انه يحدد بالاضافة الى سلوك الافراد تجاه الانجاب كمؤثر هام في هذا النمو تفكيرهم ونظرتهم الخاصة الى اتجاهات التغيير الديموجرافي وقدرتهم على تنفيذ المعاني والافكار التي يمكن ان تغير من نظرتهم السلوكية الى انجاب الاطفال .

ويقول رايدر اننا لابد ان نحدد مؤثرات النمو من خلال الاجابة على ثلاثة اسئلة الاول يقول : كم من السكان سيموت في سنوات العمر المختلفة ؟. وكم مولود سيولد كل عام ؟ وكم شخص ممكن أن يضاف أو يخصم بواسطة الهجرة ؟ ولا شك أن أول سؤال يعتبر أبسطها اجابة بسبب ما يطرأ من تغيرات محدودة على معدلات الوفاة . لهذا فليس من الصعب التنبؤ بحجم السكان مستقبلا . كما أن اجابة السؤال الثالث تعتمد على السياسة السكانية للدولة . ولا شك أن أسهل اسلوب هو حساب الزيادة الصافية للهجرة ، ولكن السؤال المثير للقلق بل وعلى حد

تعبير الكاتب يعتبَّر (بحبع) الديموجرافيين هو مستقبل المواليد .

ان اهمية هذا الكتاب تأتي في الدرجة الأولى من امكانية افادة الدول والمهتمين بشئون السكان بالتجارب التي جاءت فيه وتضمنتها صفحاته ، انه يلقي الضوء على اسلوب جيد في ادارة سياسة الحلول السكانية للوصول بها الى ما ترمي اليه الدول من رخاء وتقدم ويوضح كيفية التغلب على العقبات والتمهيد لرسم الخطة الناجحة لتفادي اتجاه السكان نحو الهبوط بمستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولكن اذا كانت هذه الفائدة مباشرة في بعض الدول ، الا انها غير مباشرة في دول اخرى .. فأيها نختار في عالمنا لكي نفيد من أسلوب البحث الجاد المتخصص لرسم سياساتنا السكانية ؟.. ان هذا يتوقف بالضرورة على فهم المعنى الكبير الذي ينبغي أن ندركه من مفهوم السياسة السكانية الذي لا يزال الشوط أمامنا طويلاً لادراكه .

***